

التبصير

في

التبصير

تأليف الإمام

أبي حفص النسفي

نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي

٤٦١-٥٣٧ هـ

نُطبع أول مرة محققاً على ثلاث نسخ خطية

تحقيق وتعليق

جمال عبد الرزيم الفارس

المجلد الثامن

كتاب اللباب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التَّيْسِيَّةُ

فِي

التَّفْسِيرِ

(٨)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

يُمنع طباعة هذا الكتاب أو ترجمته أو تصويره ورقياً أو إلكترونياً
إلا بإذن خطي من الدار الناشرة
تحت المساءلة الدنيوية والأخروية



9 786052 279311

دار اللباب

للدراسات وتحقيق التراث

DAR-ALLOBAB

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

بيروت - لبنان

009615813966

0096170112990

Www.allobab.com

اسطنبول - تركيا

00905454729850

00902125255551

info@allobab.com



İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

سُورَةُ يُوسُفَ

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الذي أنزل آيات الكتاب الحكيم، الرحمن الذي يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، الرحيم الذي لا رادَّ لفضله يصيبُ به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم.

وهذه السورة مكيَّة، وهي مئة وعشر آيات، وقيل: تسع، وقيل: ثمان، والاختلاف في ثلاث آيات: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢]، ﴿وَشِفَاءً لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

وكلماتها ألفٌ وثمان مئة وثلاث وثلاثون، وحروفها سبعة آلاف وثلاث مئة وسبعة وتسعون^(١).

وروى أبي بن كعب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قرأ سورة يونس أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ^(٢) عَشْرَ حَسَنَاتٍ بَعْدَ مَنْ كَذَّبَ بِيونس وَصَدَّقَ^(٣) به، وبعْدَ مَنْ غَرَّقَ مع فرعون»^(٤).

(١) في (أ): «وتسعة وتسعون». وفي «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٦٣): سبعة آلاف وخمس مئة وسبعة وستون حرفاً كحروف هود.

(٢) «من الأجر» من (أ).

(٣) في (ف): «ومن صدق».

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١١٦)، والواحيدي في «الوسيط» (١ / ١٧٤). قال ابن الجوزي في =

وانتظامُ أوَّل هذه السُّورة بآخر تلك السُّورة: أنَّه ختم تلك بثنائه بقوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، وبدأ هذه السُّورة بـ ﴿الرَّ﴾، وهو مُنزل الكتاب الحكيم، ولأنَّه ذكر في ختم تلك السُّورة تولِّي الكفَّار، وفي افتتاح هذه السُّورة في ذكر المنافقين والمُشركين^(١) وحسن عاقبة المخلصين، وفي هذه السُّورة محاجة الكافرين وما نزل بالكفَّار الماضين، وخلاص المخلصين.

(١) - ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الرَّ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنا الله أرى^(٢).

وروى عكرمة عنه: ﴿الرَّ﴾ و﴿حَمَّ﴾ و﴿تَ﴾ إذا اجتمعتُ فهي الرَّحمن^(٣).

وقيل: هي اسم السُّورة.

وقيل: هي اسم القرآن.

وقيل: هي ثلاثة من أسماء الله تعالى الحسنی، وهي الله واللَّطيف والرَّحيم.

وقيل: معناه: الله بعث جبريلَ به إلى رسوله.

وقيل: الألفُ آلاءُ الله، واللامُ لطفه، والرَّاء رحمته.

= «الموضوعات» (٤ / ٣٤٤): مصنوع بلا شك. وقال ابن كثير في «تفسيره»: حديث منكر من سائر

طرقه. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(١) في (ف): «والشياطين». قلت وليس في افتتاح هذه السورة ذكرٌ للمنافقين، ثم إن هذه السورة مكية ولا نفاق في مكة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ١٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٢١).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ١٠٣ - ١٠٤) واللفظ له، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٢١).

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾: قال أبو عبيدة: أي: هذه^(١)، كما مرَّ في أوَّل (سورة البقرة): ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢].

وقال الزَّجَّاج: أي: الآيات التي تقدَّم ذكرُها قبلَ هذه السُّورة^(٢).
وقيل: لَمَّا كانت ﴿الر﴾ اسم السُّورة، فقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إليها، وهو كقولهم: هند هي الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾: أي: الآتي بالحكمة.
وقيل: أي: المحكم عن التَّنَاقُضِ والتَّغْيِيرِ والتَّبْدِيلِ.
وقيل: أي: الحاكم، كالعليم بمعنى العالم؛ أي: فيه بيان الأحكام.
وهذا كلُّه صفةُ القرآن.

وقيل: هو صفةُ اللُّوحِ المحفوظِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَى حَكِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤]. وعلى هذا تكون ﴿تِلْكَ﴾ إشارةً إلى الغائب على ظاهر وصفه؛ أي: هذه السُّورة تلك آياتُ الكتابِ المكتوبةُ في اللُّوحِ المحفوظ، وكُنَّا بحفظِها الثَّقَات، ثمَّ أوحيناها إليك في أوقاتٍ.

وقيل: أي: هذه تلك الآيات الموعودة لك يوم الميثاق.
وقال الإمام القشيري رحمه الله: ذلك الكتاب الذي وعدتكم به، وقد حقَّقنا لكم الميعاد، وأوصلنا لكم أسباب الوداد، وانقضى عنكم زمان البعاد، فاستقيموا على نهج الأحباب، وتمسكوا بوثائق الأسباب^(٣).

(١) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٢٧٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٥).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٧٧).

(٢) - ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُومِيُّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: أي: أتعجب مشركو مكة أن جعلنا لنا رسولاً إليهم، وهو من جنسهم، يفهمون منه، ويسكنون إليه، ويعرفون صدقه وأمانته، أن أنذر المشركين وبشر المؤمنين، وهو كقوله: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ الآية [ص: ٤]، و: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وليس بعجب؛ لأنَّ الخلق خلقه، والمُلك ملكه، وله أن يرسل إليهم رسولاً، ويأمرهم بما يريد، وينهاهم عما يريد.

وإذا صحَّ هذا في العقول فإرسال البشر أولى وأقرب إلى أن يسكنوا إليهم وأن يعقلوا عنهم من إرسال الملائكة الذين لا يُعَايَنُونَ.

ثمَّ ليس في نفس ما أتوا به ما تنكره العقول، إنما هو حثُّ على الشكر والطاعة للمنعِم، ودعاءً إلى شرائع بها صلاح بينهم، وتألف قلوبهم، وارتفاع الظالم عنهم، وإنذار لمن عصاه بالعذاب الأليم، وتبشير لمن أطاعه بالنعيم المقيم.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: قيل: أي: سوابق أعمالٍ صالحةٍ قدَّموها ذخراً لآخرتهم.

والقدم: ما قدَّم من العمل؛ قال حسن رضي الله عنه:

لَنَا الْقَدَمُ الْعُلْيَا إِلَيْكَ وَخَلَقْنَا لِأَوَّلِنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِعٌ^(١)

(١) انظر: «ديوان حسن» (ص: ٣١٠). وفيه: «الأولى» بدل «العليا».

وقال ذو الرُّمَّة:

لَكُمْ قَدَمٌ لَا يُنْكِرُ النَّاسُ أَنَّهَا مع الحَسَبِ العادي طَمَّتْ عَلَى الْبَحْرِ^(١)
وَالصَّدْقُ: الْحَسَنُ، وَيُذَكَّرُ عَلَى الْإِضَافَةِ بِطَرِيقِ الْمَدْحِ، يُقَالُ: رَجُلٌ صِدْقٌ،
وَتَوْبٌ صِدْقٌ، وَفَرَسٌ صِدْقٌ.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ قال: مُحَمَّدٌ ﷺ
شَفِيعٌ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٢).

وقيل: تُذَكَّرُ الْيَدُ مَكَانَ الصَّنْعَةِ^(٣) مجازًا، وَالْقَدَمُ مَكَانَ السَّعْيِ أَيْضًا؛ لِأَنَّ
الْكُسْبَ يَقَعُ بِالْيَدِ، وَالسَّعْيُ بِالْقَدَمِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

وقال ابن عباس والحسن رضي الله عنهما: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾: عَمَلٌ صِدْقٍ يَقْدَمُونَ
عَلَيْهِ^(٤)؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يَعْنِي: الْجَنَّةَ.

وقال عطاء: مَقَامٌ صِدْقٍ لَا زَوَالَ عَنْهُ وَلَا بَوَسَ فِيهِ^(٥).

وقال الرِّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ثَوَابٌ صِدْقٍ^(٦).

وقال قتادة: سَلَفَ صِدْقٍ^(٧).

(١) انظر: «ديوان ذي الرمة» (٢ / ٩٧٢)، وفيه: «الفخر» بدل «البحر».

(٢) رواه ابن مردويه، كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٤ / ٣٤٢).

(٣) في (أ) و(ف): «الصنعة».

(٤) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١١٧) عن الحسن، وروى نحوه الطبري في «تفسيره»

(١٢ / ١٠٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه: «أَجْرًا حَسَنًا بِمَا قَدَّمُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١١٧).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ١٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٢٣).

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ١١١)، وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٢٣).

وقال يمانُ بن رثابٍ: هو إيمانهم^(١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتملُ أن معناه: ثبتت أقدامهم فلا تزلُّ؛ قال تعالى: ﴿فَنَزَلَ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤]^(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية: تسبُّقُ لهم السَّعادة في الذكر الأوَّل^(٣).

وقال عبد العزيز بن يحيى: هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١]^(٤).

وقيل: هو تقديم الله تعالى هذه الأُمَّة يوم القيامة؛ قال النبي ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ»^(٥)، وقال عليه الصَّلَاة والسَّلَام: «إِنَّ الْجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى أَدْخُلَهَا أَنَا، وَمُحَرَّمَةٌ عَلَى الْأُمَمِ مَا لَمْ تَدْخُلْهَا أُمَّتِي»^(٦).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّا هَذَا السَّحَرُ الْمُتَيْنِ﴾: في أوَّلِهِ مضمر؛ أي: لَمَّا جَاءَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ قال الكافرون: إِنَّ هَذَا الْمَدْعَى لَسَاحِرٌ مُبِينٌ، وهو قراءة ابن كثير

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١١٧).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٥).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ١١٠).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١١٧).

(٥) رواه البخاري (٢٣٨)، ومسلم (٨٥٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٨٠٢) من طريق مكحول عن عمر رضي الله عنه، ورواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٩٤٢)، من طريق آخر عمر رضي الله عنه. ورواية ابن أبي شيبة مرسلة، قال أبو زرعة كما في «المراسيل» لابن أبي حاتم (ص: ١٦٦): مكحول عن عمر مرسل، ورواية الطبراني قال عنها أبو زرعة: حديث منكر، لا أدري كيف هو؟ انظر: «علل الحديث» لابن أبي حاتم (٥ / ٥٣٥).

وعاصم وحمزة والكسائي؛ أي: يخدعنا بتخاييله، ويقودنا إلى الانقياد له، ويعرّض أنفسنا وأهالينا وأولادنا للتلف في مجاهدة عدوّه.

وقرأ الباقون: ﴿لَسَحَرٌ مُبِينٌ﴾^(١)؛ أي: إنّ هذا الذي أتى به لِسَحَرٌ ظاهرٌ.

وقال الأستاذ أبو عليّ الدقاق: جَوَزَ الكَفَّارُ أَنْ يَكُونَ المنحوت من الخشب والمعمول من الصُّفَرِ والشَّبه^(٢) إلهاً معبوداً، وتعجّبوا أَنْ يَكُونَ مثْلَ مُحَمَّدٍ في جلاله قَدْرُهُ رسولاً مبعوثاً، هذا هو الضلال البعيد.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمَ صَدَقٍ﴾: هو ما قدّمه لأنفسهم من طاعات أخلصوا فيها، وعبادات صدّقوا في القيام لها. وقيل: هو ما قدّم الحقّ لهم يوم القيامة من عنايته بشأنهم، وما قضى لهم من فنون إحسانه.

وقيل: هو ما رفعوه من أقدامهم في بدايتهم في زمان إرادتهم؛ فإن لأقدام المريدين المرفوعة لأجل الله حُرْمَةً عند الله، ولأَيامهم الخالية في حال تردّدهم، ولياليهم الماضية في طلبه وهم في حرقة تحيرهم = حقاً يريعه الله، قال الشاعر:

مَنْ يَنْسَ حُرْمَةَ دَارٍ قَدْ تَخَوَّنَهَا رَيْبُ الزَّمَانِ فَإِنِّي لَسْتُ أَنْسَاكَ

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٢٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٠).

(٢) الشَّبه، النحاس الأصفر، والصُّفَر: النحاس الجيد، وقيل: هُوَ ضَرْبٌ مِنَ النُّحَاسِ، وقيل: هو ما صَفَرَ منه، ورَجَّحه شيخُ الزبيدي؛ لمناسبة التَّسْمِيَةِ. انظر: «تاج العروس» (مادة: صفر). ولم ترد كلمة «الشبه» في «لطائف الإشارات»، والكلام منقول منه، وقد غير محققه كلمة الصفر إلى: (الصخر) مخطئاً ما جاء في نسخ «اللطائف» من كلمة (الصفر).

وقال آخر:

تلك العهودُ بشدِّها مختومةٌ عندي كما هي عَقْدُها لم يُحْلَلْ^(١)

(٣) - ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ .
وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ :
مرّ تفسيره في سورة الأعراف.

وقوله تعالى: ﴿يُدِيرُ الْأُمْرَ﴾ : قال مجاهد: يقضي الأمر وحده^(٢).
والأمرُ جنسٌ أريد به الجمع؛ أي: يقدِّرُ الأمورَ كلّها، ويُمضيها في الدنيا والآخرة، من خَلْقِ أفعالِ العباد وأقوالهم وأحوالهم، وإظهارِ الحوادث من الموت والحياة، والعزِّ والذلِّ، والصِّحَّةِ والمرض، والسَّعةِ والضِّيق، والخيرِ والشرِّ، وإعطاءِ الذُّكور والإناث من الأولاد، وتصريفِ اللَّيْلِ والنَّهار، والرَّيحِ والسَّحاب، والحرِّ والبرد، وكلِّ شيء؛ قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].
ولمَّا كان الموكِّلون على بعض هذه الحوادث من الملائكة، قال في وصفهم: ﴿فَالْمُدْرِتَاتِ أُمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

وكذلك أمورُ الآخرة كلّها من الثَّواب والعقاب، واللُّطف والعِتَاب، والعفو والحساب، والكشف والحجاب، بتدبيره وتقديره.
وقوله تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ : أي: لا يفعلُ شيئاً من هذه الأمور بشفاعَةِ أحدٍ.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقسري (٢/ ٧٧-٧٨)، والبيتان فيه دون نسبة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١٤-١١٥).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾: أي: هو المستحق للعبادة
فإياه فاعبدوا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: أي: أفلا تتعظون بما يعظكم الله به من الإيمان
به وترك الشرك.

وقال الإمام القشيري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس: ٣]: لا
يحتاج فعله إلى مدة، وكيف وهو خالق المدة، خلق السماوات والأرض في ستة
أيام، وتلك الأيام أيضاً من جملة ما خلق من الأيام.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ معناه: اتّصفه بعز الصّمدية، وجلال الأحدية، وانفراذه
بنعت الجبروت وعلاء الربوبية، تقدّس الجبار عن الأقطار، والمعبود عن الحدود^(١)،
والديان عن المكان.

﴿يَذَرُ الْأَمْرَ﴾: أي: الحادثات صادرة عن تقديره، وحاصلة بتدبيره، فلا شريك
بعضده، ولا معارض يقصده.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ تعريف، وقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ تكليف، فحصول
التعريف بتحقيقه، والوصول إلى ما ورد به التكليف بتوفيقه^(٢).

(٤) - ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
يَكْفُرُونَ﴾.

(١) في (ف): «الحدوث».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ٧٨).

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾: أي: إلى جزاء الله رجوعكم جميعًا يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾: نصبٌ على المصدر على إضمار الفعل؛ أي: وَعَدَ اللَّهُ ذَلِكَ وَعْدًا صَدَقًا.

﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾: أي: ليتعبدهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؛ أي: يميتهم، ثم يعيدهم أحياء^(١) يوم القيامة ليجزيهم.

والخلق أصله مصدرٌ، فلم يُجمع، ومعناه الجمع، فلذلك وحّد الكناية بعده.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾: أي: بالعدل، وهو قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: يجزي المحسنين جزاء الإحسان، والمسيئين جزاء الإساءة، ويفصل بين العدو والولي في الجزاء، وهو العدل. ويحتمل: ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالفضل؛ فقد قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣].

وسمّاه قسطًا وهو العدل؛ لأنّ العدل وضع الشيء في موضعه، وهذا وضع الفضل في^(٢) موضعه، فكان عدلاً من هذا الوجه.

ويحتمل أن يكون القسطُ صفةً للعالمين؛ أي: عملوا الصالحات بقسطهم في الدنيا؛ أي: عدلهم^(٣).

(١) في (ف): «أي يميتهم بعد إحيائهم ثم يعيدهم».

(٢) «في» من (ف).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٨-٩).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾: من ماءٍ حارٍّ مغليٍّ قد انتهى حرُّه، وهو في جهنَّم، ومن صفته أنَّه كالْمُهْل يشوي الوجوه، وأنَّه يقطعُ أمعاءهم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ مَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾: أي: عذابٌ يخلصُ وجعُه إلى قلوبهم بكفرهم.

(٥) - ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِ وَالْحِسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾: أي: خلقَ الشَّمْسَ فجعلها ﴿ضِيَاءً﴾ للخلق بالنَّهار.

﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾؛ أي: وخلق القمر فجعله نورًا لهم بالليل.

والضَّيَاءُ نورٌ معه حرٌّ، والنُّورُ لا حرَّ معه، والضَّيَاءُ أعمُّ وأتمُّ مِنَ النُّورِ، والضَّيَاءُ والنُّورُ مصدران جُعِلَا نعتين.

وقال الكلبيُّ: جعلَ الشَّمْسُ ضياءً بالنَّهارِ، والقمرَ نورًا بالليل، تضيءُ وجوههُما لأهل السَّمَاوَاتِ، وظهورُهُما لأهل الأرض.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: للعقول نجومٌ، وهي للشَّيَاطِينِ رجومٌ، وللعلوم أقمارٌ، هي أنوارٌ واستبصارٌ، وللمعارف شمسٌ، ولها على أسرار العارفين طلوعٌ. وقد قيل:

إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِاللَّيْلِ لِي وَشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَ تَغِيْبُ^(١)

(١) للحلاج، كما في «تاريخ الطبري» (١١ / ٢٣٣)، وهو في «ديوانه» (ص: ٢٣)، وقبله: =

وكما أن في السماء شمسًا وقمرًا، والشمسُ أبدًا بضياؤها، والقمرُ في الزيادة والنقصان أبدًا، وكما استترَ بمحاقه، بدا بعد ذلك حتى يكمل بدرًا بإشراقه، ثم يأخذ في النقص إلى أن لا يبقى منه شيء لتمام انمحاقه، ثم يعودُ جديدًا، وكلُّ ليلة تجدُ مزيدًا، فإذا صار بدرًا تمامًا، لم يجد أكثر من ليلة لكمالِه مقامًا، ثم يأخذ في النقصان إلى أن يخفى شخصُه ويتمَّ نقصُه = كذلك من الناس من هو مردودٌ بين قبضه وبسطه، وصحوه ومحوه، وذهابه وإيابه، لا فناء فيستريح، ولا بقاء له دوامٌ صحيح. قال الشاعر:

كَلَّمَا قُلْتُ قَدْ دَنَا حَلُّ قَيْدِي قَدَّمُونِي فَأَوْثَقُوا الْمِسْمَارَ^(١)
 وقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ قيل: أي: وقدر القمر منازل، فعل يتعدى إلى مفعولين، وهو كقوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]، يجري في كلِّها كلُّ شهرٍ مرةً. وإنما خصَّ القمر به لأنه هو الذي يعرفُ الشُّهور، وباجتماعها تكون السُّنون. وقيل: معناه: وقدرهما منازل؛ أي: الشمس والقمر، وإنما وحد^(٢) اكتفاءً، كما في قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ [النساء: ١١٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تَحِيْرَةً أَوْ هَوًّا انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]، وهذا لأنه يُعرف بالشمس ابتداء النَّهار وانتهاءه، وباجتماع الأيام والليالي تُعرف الشُّهور.

= طلعت شمسٌ من أحبِّ بلبيل فاستنارت فما تلاها غروبٌ

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقسري (٢/ ٨٠). والبيت للشبلي. انظر: «محاضرات الأدباء» (٢/ ٨١٨)،

و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٦٦/ ٧٦).

(٢) في (أ): «وإنما ذكر واحدًا».

وقوله تعالى: ﴿لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾: فعددُ السنين: معرفةُ الشُّهور وتَمَامُ السَّنة، والحساب: هو الآجالُ والمواقيتُ المقدَّرة بالشُّهور والسنين.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: بالشَّمْس تُعرَفُ أوقاتُ الصَّلوات في الشَّتاء والصَّيف والرَّبيع والخريف، ولا يُعرَفُ ذلك بالقمر، وبالقمر تُعرَفُ الشُّهور والسنون، ولا يُعرَفُ ذلك بالشَّمْس.

وفي مصحف حفصة رضي الله عنها: (وقدَّرها منازل^(١)).

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قال أبو بكر الأصم الكيساني^(٢): [أي]: ما خلق الله ذلك إلَّا وقد جعل فيه دلالة معرفته.

وقال الإمام الزاهد أبو منصور رحمه الله: قال قائلون: ما خلق الله ذلك إلَّا وقد جعل فيه الشَّهادة له على الخلق، وهو شهادةُ الوحدانيَّة والألوهيَّة.

وقال بعضهم ما خلق الله ذلك إلَّا للأمر الكائن لا محالة، وهو البعثُ.

ويحتمل: ما خلق الله ذلك إلَّا بالحكمة، لم يخلق ذلك عبثًا باطلاً، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧]^(٣).

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ١١). ووقع في (أ): «وقدرها منازل»، وفي (ف): «وقدرناها منازل»، وكلاهما مخالف للمصدر المذكور.

(٢) قوله: «قال أبو بكر الكيساني» كذا في (أ) و(ر)، وليست في (ف)، وفي مطبوع «التأويلات»: «قال أبو بكر الأصم والكيساني»، ولعل الصواب ما أثبتناه، وقد أكثر الماتريدي من النقل عن أبي بكر الكيساني، وهو خيران بن العلاء، أبو بكر الكلبي الكيساني الأصم من أهل دمشق، روى عن الأوزاعي وزهير بن محمد وحماد بن سلمة روى عنه ابنه عمرو بن خيران وأبو عمرو الأوزاعي وهو شيخه، وغيرهما. انظر: «تاريخ دمشق» (١٧ / ٧٣).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ١١).

وقوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: قرأ أبو عمرو بياء المغايبة، بناءً على قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس: ٥]^(١)، وقرأ الباقر بالنون بناءً على قوله: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾.

ومعنى قوله: ﴿نفصل﴾؛ أي: نبين العلامات التي يُستدلُّ بها على الحق. وخصَّ العالمين بذلك لأنَّهم هم المستفيعون^(٢) بها.

(٦) - ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال أهل مكة: اتتنا بآية حتى نؤمن لك، فنزلت هذه الآية^(٣).

أي: فيما يتعلَّق بما خلقنا من الشمس والقمر - من اختلاف الليل والنهار لأوقات معلومة على نسق واحد - لآيات؛ لأنَّ في ذلك بقاء الدنيا إلى حين، وتدبير معاش أهلها، فمن تدبَّر ذلك علم أنَّ الدنيا مخلوقة لمكث الخلق فيها، وخالقهم لم يهملهم، بل جعلها لهم دار عمل، فلا بُدَّ من أمر ونهي، ثمَّ جزاء يُفَرِّق بين المطيع والعاصي، فمن تدبَّر هذا اتَّقَى العاقبة وما فيها للعاصي من العقوبة، فكان الانتفاع بالآيات للمتقين فلذلك أضيفت إليهم.

(١) وقرأ بالياء أيضاً ابن كثير وحفص. انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

(٢) في (ر): «المتفوهون».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٢٠).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: اختصاصُ النهارِ بضيائِهِ، وانفرادُ اللَّيْلِ بظلمائِهِ، مِنْ غيرِ استيجابٍ لهذا وَمِنْ غيرِ استحقاقِ عِتَابٍ مع هذا = دلالةٌ على أَنَّ الرَّدَّ والقَبُولَ والمنعَ والوصولَ ليس بمعلولٍ بسببٍ، ولا حاصلٍ بأمرٍ مكتسبٍ، كَلَّا إِنَّهَا إرادةٌ ومشِيئةٌ، وحكْمٌ وقضيَّةٌ، والنَّهارُ وقتُ حضورِ الغفلةِ في أوطانِ كسبِهِم، واللَّيْلُ وقتُ أربابِ الوصلةِ لانفرادهم بشهود ربِّهم^(١).

(٧) - ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ قيل: أي: لا يخافون عقابنا.

وقال مقاتل: لا يخافون البعث^(٢). كما قال: ﴿مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]؛ أي: لا تخافون الله عظمةً.

وقيل: أي: لا يطمعون في ثوابنا.

وهذه الكلمة من الأضداد، وقد أوضحنا ذلك في قوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

وإنما سَمِيَ ذلك: لقاءَ اللهِ؛ لأنَّه لا^(٣) يقدر على ذلك إلا اللهُ، فجُعِلَ لِقَاؤُهُ لقاءً تفخيماً لشأنه، كما جُعِلَ إتيانُ جلائلِ آياتِ اللهِ إتيانَ اللهِ لذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾: أي: سكنوا إليها، فلم يفكروا في عاقبةٍ ولا حسابٍ ولا جزاءٍ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾؛ أي: لا يتدبرون فيها.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٨٠).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٢٧).

(٣) في (أ): «المالم».

(٨) - ﴿أُولَئِكَ مَاوَهُمُ النَّارُ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَاوَهُمُ النَّارُ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: أي: من الكفر والمعاصي.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أنكروا جواز الرؤية فلم يرجوها، والمؤمنون آمنوا بجواز الرؤية فأملوها.

وقيل: لا يرجون لقاءه لأنهم لم يشتاقوا إليه، ولم يشتاقوا إليه لأنهم لم يحبوه، ولم يحبوه لأنهم لم يعرفوه، ولم يعرفوه لأنهم لم يطلبوه، ولم يطلبوه لأن الله تعالى أراد أن لا يطلبوه، ولو أراد أن يطلبوه لطلبوا، ولو طلبوا لعرفوا، ولو عرفوا لأحبوا، ولو أحبوا لاشتاقوا، ولو اشتاقوا إليه لرجوا لقاءه، ولو رجوا لقاءه لرأوه؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ﴾ الآية [السجدة: ١٣].

وقال في قوله: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: أصحاب الدنيا رضوا بالحياة الدنيا فحرموا الجنة، والعباد والزهاد ركنوا إلى الجنة ورضوا بها، فبقوا في مراتب الوصلة. وقال: لما كان الذي لا يرجو لقاءه مأواه العذاب والفرقة ثبت أن الذي يرجو لقاءه فعاقبته الاقتراب والوصلة واللقاء والزلفة^(١).

(٩) - ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: وهم الذين يرجون لقاء الله.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٨١).

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾: قيل: يرشدُهم بإيمانهم في الدنيا إلى الخيرات، ويرزقُهم الدَّوامَ عليه والثَّبات.

وعلى هذا القول يكون قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾: أي: وتجري، بإضممار الواو، وبالحذف يصير كلامًا مبتدأً غير الأول أيضًا.

وقيل: يهديهم في الآخرة إلى الجنة، وعلى هذا الإضمار قال مجاهد: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾: لهم نورٌ يمشون به^(١).

وقال الضَّحَّاكُ: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾: إلى الجنة في الآخرة^(٢).

وقال مقاتلٌ: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾ على الصَّراطِ إلى الجنة بالنور^(٣).

وقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: بين أيديهم في البساتين، كما قال: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]، وما كانت قاعدةً عليه، ولكن كان ذلك بين يديها، وكذا قالوا في قوله تعالى: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ﴾ [الزخرف: ٥١].

وقيل: بأمرهم ومشيتهم، كما يُقال: هذا تحت تصرُّفه، وكذا قالوا في قوله: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ﴾ [الزخرف: ٥١].

وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾: يتنعمون فيها من غير مشقة ولا مؤونة.

(١٠) - ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ فِيهَا سَلَامٌ وَأُخْرُ دَعْوَتُهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ١٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٢٩).

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢ / ١٠٥).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢ / ٢٢٧). وهو شبيه بقول مجاهد.

وقوله تعالى: ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا﴾: أي: دعاؤهم، وهو من دعا يدعو، كالشكوى من شكا يشكو.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾؛ أي: كلام أهل الجنة فيها تنزيه الله عما كان في الدنيا يُضاف إليه من الأضداد والشركاء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوا دَعْوَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: وآخر ما يتكلمون فيه من النعيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، يحمّدونه على ما أدرّ عليهم من نعمه، يتدثّرون كلّ نعمة بالتسبيح لله، ويختمونها بالحمد لله، كما كانوا في الدنيا يبتدثّون النعمة بالتسمية ويختمونها بالحمد.

وقيل: هي على حقيقة الدعوى التي تكون من المدّعي.

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال قائلون: أي: يدعون في الآخرة من الإيمان والتّوحيد لله تعالى والتّنزيه ما ادّعوه في الدنيا من ذلك؛ فإنّ التّسبيح هو تنزيه الله تعالى، وتبرّئته عن جميع العيوب التي وصفته بها المشبهة والملحدة^(١).

وقيل: الدّعوى هي التّمني؛ قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [فصلت: ١٣]؛ أي: يتمنّون ويشتهون.

وروى سعيد بن جبیر عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾: كلّما انتهى أهل الجنة شيئاً قالوا: ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾، فجاءهم ما يشتهون^(٢).

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (١٣ / ٦).

(٢) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١ / ١٣١)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤ / ١٠).

وقال الكلبي: ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: قولهم في الجنة: ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾، فإذا سمع الخدّام ذلك أتوهم بما يشتهون^(١).

وقال مقاتل: هذا علم بين أهل الجنة وبين الخدّام في الطّعام، فإذا قالوا ذلك أتوهم الخدّام بالموائد، فوضع بين أيديهم ما أرادوا على مائدة هي ميل في ميل^(٢).
وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ فِيهَا سَلَامٌ﴾: أي: تحية بعضهم لبعض ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢].

وقال الكلبي: يحيي بعضهم بعضًا بالسّلام، وتأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسّلام^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوا دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: قال الكلبي: إذا فرغ أحدهم من كلامه قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤).

وقال مقاتل: إذا فرغوا من الطّعام والشراب حمدوا ربّهم على ما أعطاهم^(٥).
وقال ابن جريج: إذا مرّ بهم الطّير يشتهونه قالوا: ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾، فتأتيهم فتسلّم عليهم، فيردّون عليه، فإذا أكلوا حمدوا^(٦).

وقيل: ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا﴾: هي من دعوى أهل الدُّنيا، وهي من تداعيهم في الحروب بآل فلان، ومعنى الآية: أنهم كانوا في الدُّنيا متضاغنين متقاتلين، فإذا

(١) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١ / ١٣١)

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢ / ٢٢٨).

(٣) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١ / ١٣١) عن ابن عباس رضي الله عنهما والكلبي.

(٤) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١ / ١٣١).

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (٢ / ٢٢٩).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ١٢٦).

صاروا إلى الجنة نَزَعَ ذلك مِنْ قلوبهم، وصاروا إخواناً على سررٍ متقابلين، فيكون تداعيهم بتسبيح الله وتحميده، فلذلك وصله بقوله: ﴿وَحَيَّيْهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: له ثلاثة أوجه:

أحدها: أَنَّهُ بيان أَنَّهُ ليس على أهل الجنة شيءٌ من العبادات سوى التَّوْحِيدِ، وهي كلمة التَّوْحِيدِ.

والثَّاني: أَنَّهُم يقولون ذلك لعظيم ما يرون من النِّعَمِ، وعجيب ما عاينوا.

والثَّالث: شكرًا لِمَا أعطاهم مِنْ ألوان النِّعَمِ^(١).

وقال مُحَمَّد بن عليّ الباقر: كَلَامُ أَهْلِ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: التَّسْبِيحُ والتَّحْمِيدُ وتسليم بعضهم على بعض، ورَزَقَ اللهُ تعالى هذه الثَّلاثَةَ للمؤمنين في الدُّنْيَا في الصَّلَاةِ؛ يفتتحون الصَّلَاةَ بالتَّسْبِيحِ، ويفتتحون القراءة بالحمد، ويختتمون بالسَّلام.

وقال الحسين بن علي: إِذَا أَرَادُوا الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ سَبَّحُوا، وَإِذَا فَرَّغُوا حَمْدُوا، وَإِذَا اشْتَاقُوا هَلَّلُوا، وَإِذَا تَلَاَقَوْا سَلَّمُوا، وَإِذَا تَفَرَّقُوا بَعْدَ التَّزَاوُرِ فَأَخَّرَ دَعْوَاهُمْ - أَي: آخر كلامهم عند التَّفَرُّقِ - الحمد لله ربِّ العالمين^(٢).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾؛ أَي: ثَنَاؤُهُمْ عِنْدَ اللَّقَاءِ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، وَتَحِيَّتُهُمْ مِنْ اللَّهِ عِنْدَ اللَّقَاءِ السَّلام، يَحْمَدُونَهُ بِحَمْدٍ أَبَدِيٍّ سَرْمَدِيٍّ، وَهُوَ يَحْيِيهِمْ بِسَلامٍ أَزَلِيٍّ، وَكَلَامٍ أَبَدِيٍّ، عَزِيزٍ صَمَدِيٍّ، وَحَبِيبٍ أَحَدِيٍّ^(٣).

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ١٤).

(٢) لم أقف عليهما.

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ٨٢). وآخره: (... وهو عزيز صمدي ومجيد أحدي).

(١١) - ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَبَدَّلَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾: وهذه منتظمة بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾، ولغفلتهم إذا أنذروا استعجلوا العذاب جهلاً منهم، ولو عجل الله لهم ذلك إذا استعجلوه بدعائهم كما يستعجلون بالخير لما قاموا لعذابنا، بل ماتوا؛ لأن تركيهم لا يحتمل ذلك في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾؛ أي: فرغ منه وقطع. وقال أبو ذؤيب:

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ بُع^(١)

وقرأ ابن عامر: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ بالنصب على الفعل الظاهر؛ أي: لقضى الله إليهم أجلهم، والباقون بالضم على ما لم يسم فاعله^(٢).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: تقدير الآية على هذا القول: ولو يعجل الله للناس الشر إذا استعجلوه كما يعجل لهم الخير إذا استعجلوه لهلكوا^(٣).

واستعجالهم الشر ذكر في آيات: ﴿فَأَمْطَرْنَا عَلَيْنا حِجَارًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْاثِنًا يَعَذَابُ أَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ

(١) انظر: «ديوان الهذليين» (١٩/١). والمسرودتان: مثني «المسرودة»، والدرع المسرودة: المنسوجة بحيث يدخل بعض الحلق في بعض. وقضاها: صنعها. والصنع بفتحين: الذي يحسن العمل بيديه. والسوابغ: جمع سابغة، وهي الدرع الواسعة الوافية. وتبع: لقب لكل من ملك اليمن. انظر: «شرح الشواهد الشعرية» لمحمد حسن شراب (٩٧/٢).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (١٥/٦).

التَّائِبِينَ فِي التَّائِبِينَ

لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴿[الشورى: ١٨]﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴿إلى قوله: ﴿ءَأَكُنَّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ-
تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥١]﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ ﴿[الرعد: ٦]﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴿[الحج: ٤٧]﴾ أَفَأَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴿[النحل: ١]﴾.

واستعجالهم بالخير في آيات: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]،
﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا﴾ [يونس: ١٢] ونحوهما.

وعلى هذا قيل: إنها نزلت في الضر بن الحارث حين قال: ﴿إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ
الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]^(١).

وقيل: هو في دعاء الإنسان على نفسه أو غيره بالهلاك عند الغضب، ونظيره
قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

قال الكلبي: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾؛ أي: العقوبة إذا دعوا على أنفسهم
أو على أولادهم^(٢): أخزاهم الله تعالى ولعنهم الله، كما يعجل لهم بالخير إذا دعوه
بالرحمة والعافية والفرج فيرزقهم ويدفع عنهم كماتوا وهلكوا^(٣).

وقال مقاتل: لو استجيب لهم في الشر كما يحبون أن يستجاب لهم في الخير
لهلكوا^(٤).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله مع ذكر هذين القولين: ويُسبَّه أن يكون معناه:

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١ / ١٤٤ - ١٤٥) عن سعيد بن جبير ومجاهد والسدي، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥ / ١٦٩٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في (أ): «أموالهم».

(٣) ذكر نحوه الواحدي في «البيسط» (١١ / ١٣٥).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢ / ٢٢٩).

ولو يعجلُ اللهُ للنَّاسِ الشَّرَّ باكتسابِهِمُ الشَّرَّ وارتكابَهُمُ إِيَّاهُ كما يعجلُ لهمُ الخيرَ وقتَ اكتسابِهِمُ الخيرَ لهلكوا^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَذَرِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: وهذا ابتداءٌ كلامٍ معناه: فحنّ نذر؛ أي: نترك الذين لا يخافون البعثَ في تماديهِمُ يمشون متحيّرين. وقيل: فيه مُضمَرٌ: لكنّا لا نفعلُ ذلك ونؤخّرُ عذابَهُمُ إلى الآخرة، ونَدْعُهُمُ في الدُّنيا كذلك.

قال القشيري رحمه الله: معناه: لو أجبناهم إذا دعوا على أنفسهم وأعزّتهم عند غيظِهِمُ وضجّرِهِمُ لعجلنا إهلاكَهُمُ، لكنّا تحمّلنا [أن] لا نجيبَهُمُ، وبرحمتنا عليهم لا نسمعُ بالإجابة دعاءَهُمُ، وربّما يشكو العبدُ بأنّه لا يجيبُ دعاءَهُ، وتركُ إجابته لطفٌ به منه، قال الشاعر:

أَنَاسٌ أَعْرَضُوا عَنَّا	بِلا جُرْمٍ وَلَا مَعْنَى
أَسَاؤُوا ظَنَّهُمُ فِينَا	فَهَلَّا أَحْسَنُوا الظَّنَّ
وَإِنْ كَانُوا لَنَا كُفَّاءً	وَإِنْ عَادُوا لَنَا عُذَاءً
وَإِنْ كَانُوا قَدْ اسْتَغْنَوْا	فَلِإِنَّا عَنْهُمْ أَغْنَى ^(٢)

(١٢) - ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (١٥ / ٦).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١ / ٦٢٤) (٢ / ٨٣)، والشعر لمحمود بن الحسين كشاجم.

انظر: «ديوانه» (ص: ٣٩٤) مكتبة الخانجي، تحقيق النبي عبد الواحد شعلان.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾: أي: وإذا أصاب الواحد من المشركين البلاء والمكروه في بدنه وماله.

﴿دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾: أي: على أي حال كان من اضطجاع أو قعود أو قيام.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ﴾: أي: فإذا أزلنا عنه بلاءه ﴿مَرَّ﴾؛ أي: استمر على شركه لا يرى ذلك منّا، وعاد إلى ما كان عليه ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾؛ أي: كأنه لم يدعنا في بلاء أصابه.

﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: أي: كالذي زُيِّنَ لهذا الإنسان زُيِّنَ لسائر المشركين المجاوزين حدود الشرع بالإشراك بالله وتكذيب الأنبياء ووضع الأموال والأنفس في الموضع الذي لا يتفعون به في عبادة الأصنام وغيرها = ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الدعاء عند البلاء والنسيان عند الرِّخاء، وهذا التزيين من الله تخليقاً، ومن الشيطان وسوسة، ومن الأصحاب دعوة وتلييساً.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت الآية في أبي حذيفة هشام بن المغيرة^(١).

وقال عطاء: في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة^(٢).

وقال الإمام الزاهد أبو منصور رحمه الله: قال بعض أهل التأويل: جميع ما ذكر في القرآن الإنسان فالمراد منه الكافر: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦]، ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]،

(١) هو قول مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٢٣٠).

(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٢/ ٥٤٠).

وعندي مَنْ دخل في هذه الصِّفة من أهل الإيمان - وهي الدُّعاء عند البلاء وتركه عند الرِّخاء - فهو مرادٌ بهذه الآية (١).

وأشدُّ القشيريُّ رحمه الله في معنى قوله: ﴿مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرِّ مَسَّهُ﴾ قولُ الشاعر:

كَأَنَّ الْفَتَى لَمْ يَغْرَ يَوْمًا إِذَا اكْتَسَى وَلَمْ يَكُ صُעْلُوكًا إِذَا مَا تَمَوَّلَا (٢)

(١٣) - ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: بينَ القرنينِ ثمانٍ وعشرون سنة (٣).

﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾: كفروا بالله، وهو وضع الشيء في غير موضعه، وهو ظلمُ نفسه أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: وقد كانت جاءتهم رسلهم بالحُجج الواضحة.

﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾؛ أي: علمنا أنهم لا يؤمنون بدعاء الرُّسل وإظهار الآيات.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: كذلك نفعل بالمجرمين الذين نعلم أنهم لا يؤمنون، فنحن قادرون على معالجة هؤلاء المستعجلين بالشر،

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ١٦).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢ / ٣٠٢). والبيت لجابر بن ثعلب الطائي. كما في «ديوان الحماسة» لأبي تمام (ص: ١١٠).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٢٢).

لَكُنَّا نَمَهِّلُهُمْ لَعَلَّمْنَا أَنَّ فِيهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ، وَهُوَ كَعُكْرَمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ وَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَنَحْوَهُمَا.

(١٤) - ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾: أي: سكانها ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله:

يَحْتَمِلُ: جَعَلَكُمْ مَكَانَ أَوْلَئِكَ لَمْ يَهْلِكْهُمْ^(١)، وَهُوَ تَذَكِيرٌ لِلنِّعْمَةِ.

ويحتمل: جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ أَوْلَئِكَ فِي الْمَحَنَةِ وَالْعِبَادَةِ؛ أي: ابتلاكُم بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ كَمَا فَعَلَ بِأَوْلَئِكَ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ قال: لَمْ يَزَلِ اللَّهُ تَعَالَى عَالِمًا بِمَا كَانَ وَيَكُونُ مِنْهُمْ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَلَكِنْ لِيَعْلَمَهُمْ عَصَاةَ وَمُطِيعِينَ؛ لِأَنَّ الْمَعْصِيَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بَعْدَمَا يَكُونُ النَّهْيُ، وَالطَّاعَةُ إِنَّمَا تَكُونُ بَعْدَمَا يَكُونُ الْأَمْرُ، فَيَعْلَمُكُمْ عَاصِينَ كَمَا عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ مِنْكُمْ مَعْصِيَةً، وَيَعْلَمُكُمْ مُطِيعِينَ كَمَا عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ مِنْكُمْ طَاعَةً^(٢).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: مَنْ لَمْ يَعْتَبِرْ بِمَنْ سَبَقَهُ اعْتَبَرَ بِهِ مَنْ لِحَقِّهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْتَبِرْ بِمَا سَمِعَهُ اعْتَبَرَ بِهِ مَنْ تَبِعَهُ^(٣).

(١) كَذَا وَقَعَتِ الْعِبَارَةُ فِي النِّسْخِ، وَعِبَارَةُ «التَّأْوِيلَاتِ»: (جَعَلَ أَنْفُسَكُمْ خَلْفَ أَنْفُسِ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَهْلِكْهُمْ).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ١٨).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ٨٤).

(١٥) - ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ﴾: وهذا إخبارٌ ببعض جهالات المشركين، معناه: وإذا تُقرأ عليهم آياتنا في القرآن واضحات الإعجاز في النظم والمعنى ليسمعه ويتدبروه، قال الذين لا يؤمنون بالبعث والجزاء للنبي عليه الصلاة والسلام: أنتِ بقرآنٍ غير هذا، ليس فيه شتمٌ لآلهتنا، ولا تسفيهٌ لأحلامنا، ولا وعيدٌ بالعذاب لنا، ولا أمرٌ ولا نهْيٌ مما يشقُّ علينا، أو بدل القرآن فاجعل فيه بدل السبِّ مدحًا، وبدل الوعيد وعدًا. والابتیان بغيره قد يكون مع قيامه، وتبديله لا يكون إلا برفعه ووضع آخر مكانه، أو تغيير أشياء منه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾: أي: من جهة نفسي؛ لأنه ليس قولي ولا كلامي، وإنما هو وحي الله تعالى إليّ، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾؛ أي: ما أتبع إلا الوحي.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: أي: أخشى إن عصيت الله بترك تبليغي إليكم، أو تبديله على مرادكم، عذاب يوم القيامة. وقيل: عذاب يوم هائل في الدنيا ينزل عليّ العذاب فيه. قال قتادة: هم مشركو مكة^(١).

وقال الكلبي: هم المستهزون بالقرآن، وهم خمسة رهط: الوليد بن

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٣٤).

المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث،
والحارث بن غيطة^(١).

وقال مقاتل: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾: عبد الله بن أبي أمية المخزومي،
والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمر بن عبد الله بن أبي قيس العامري،
والعاص بن عامر بن هاشم، قالوا للنبي ﷺ: أثبت بقرآن غير هذا القرآن ليس فيه
ترك عبادة الآلات والعزى ومناة وهبل، وليس فيه عبيها، أو بدله فكلّم به من تلقاء
نفسك^(٢).

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾: فإذا أمرت
بأمر فعلت، ولا أبتدع ما لم أؤمر به، إنني أخاف إن فعلت ما لم أؤمر به عذاب يوم
عظيم، نسخها قوله جلّ جلاله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]^(٣).
وأنزل الله تعالى في شأنهم: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعْضِ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ [هود: ١٢]^(٤).
وقال الإمام القشيري رحمه الله: إذا اقترحوا عليك أن تأتيهم بما لم أمرك به أو

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٠٧) دون ذكر أسمائهم. وقد روي عن ابن عباس أن هؤلاء
الخمسة هم المستهزون المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾. انظر: «تفسير عبد
الرزاق» (١٤٦٥)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ١٥٠)، و«معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٤٦)، و«النكت
والعيون» (٣/ ١٧٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٧٥).

وقوله: الحارث بن غيطة، هو الحارث بن قيس وغيطة أمه. انظر: «تاريخ دمشق» (٩٠/ ٤١).
(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٣١)، ولم يذكر هنا من الأسماء المذكورة سوى الوليد، فقال: «الوليد بن
المغيرة وأصحابه أربعين رجلاً»، لكنه ذكرها في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ
عَلَيْنَا الْمَلَكُ﴾ [الفرقان: ٢١]. انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٢٣٠)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ١٢٣).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٥/ ١٦٨).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٧٣).

تريهم ما لم أظهر عليك فأخبرهم أنك غير مستقل بك، ولا موكل عليك، أنا القائم عليك، المصرف لك، وأنت المتبع لما أجره عليك، غير مبتدع بما يحصل منك^(١).

(١٦) - ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾: أي: قل يا محمد لهؤلاء: لو شاء الله ما قرأته عليكم بألا ينزله عليّ ﴿وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾؛ أي: ولا أعلمكم الله به. دريت الشيء دراية؛ أي: علمته، وأدريته غيري إدراء؛ أي: أعلمته.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾ قال الضحّاك: لقد لبثت فيكم قبل نزول القرآن عمراً طويلاً أربعين سنة ولا أقرأ لكم شيئاً ولا آتيكم به^(٢). ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أنه ليس من قبلي.

وقيل: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنني لو كنت أردت شيئاً غير طاعتي لربي فيما أوحاه إليّ لكان ذلك قبل نزول القرآن - وهو وقت شبابي - أمكن، وأنا على ذلك حينئذ أقدر، وعلى الدفع عن نفسي أقوى، وإذا تلوته عليكم في هذا الوقت فإنما ذلك للوحي ولخوف العذاب بالعصيان.

وقيل: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ قبل نزوله، تعرفون حالي في مولدي ومنشئي وسفري وحضري، لم أشتغل بتعلمه، ولا اختلفت إلى من يعرفه، فإذا

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢ / ٨٤).

(٢) قاله مقاتل. انظر: «تفسيره» (٢ / ٢٣١)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ١٣٨)، وابن أبي

حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٣٥) عن قتادة.

كانت هذه حالي وجئتكم به من غير تعلّم فاعلموا واعقلوا أنّه من عند الله تعالى .
وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل: لبثت فيكم سنين ولم تعرفوني
كذبت قط، فكيف افترى على الله، وأخترع القرآن من عند نفسي^(١)؟!

(١٧) - ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْمُجْرِمُونَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ
لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ اخْتَلَقَ
على الله كَذِبًا أَنْ مَعَهُ شَرِيكًا وَصَاحِبَةً وَوَلَدًا، أَوْ عَبْدَ الْأَوْثَانِ، أَوْ كَذَّبَ بِمُحَمَّدٍ
وَالْقُرْآنِ، إِنَّهُ لَا يَأْمَنُ الْمُشْرِكُونَ^(٢).

ويحتمل هذا ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّه إخبارٌ من الله جلّ جلاله، والصفة المذكورة في الآية من المشركين
الكذب والتكذيب جميعًا.

والثاني: أنّه متصل بقول النبي ﷺ الذي أمره الله تعالى به في الآية الأولى أن
يقول، ومعناه أنّه قال: لا أحد أظلم ممّن افترى على الله كذبًا؛ أضاف إليه ما لم ينزله،
أو بدّل ما أنزله، وممّن نفى ما أنزله عنه فكذّبه فيه؛ أي: لا أظلم من هذين: أحدهما
ما ينفيه عن نفسه، والآخر ما يثبت للمشركين.

والثالث: أنّه نفى الأمرين عن نفسه؛ أي: إذا أتيت بغير هذا القرآن، أو
بدلت هذا القرآن، كنت قد افتريت على الله الكذب وكذّبت فيما أنزله عليّ.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٢١).

(٢) نحوه عن ابن عباس في «البيسط» (١١ / ١٤٨)، ودون نسبة في «تفسير الثعلبي» (٥ / ١٢٤).

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرِمُونَ﴾؛ أي: لا يظفرون بمطلوب، ولا يصلون إلى مأمول، ولا يأمنون من محذور.

(١٨) - ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُوا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: ويعبدون من دون الله الأصنام التي لا تضر من عصاها ولا تنفع من أطاعها في معاش ولا رزق ولا غيره^(١).

﴿وَيَقُولُونَ﴾: يعني أهل مكة: ﴿هَؤُلَاءِ﴾: يعنون الأصنام ﴿شَفَعُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾. وقال الحسن: أي: في إصلاح المعاش؛ لأنهم كانوا لا يقرؤون بالمعاد، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]^(٢).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾: أي: أتخبرون الله بما لا يعلمه موجوداً؛ أي: بما يعلمه غير موجود؛ لأنه لو كان موجوداً لكان معلوماً له وجوده؛ لأنه عالم بكل شيء، وكيف يصح وجود ما لا يعلمه؟

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ﴾: تنزيه الله عن كل سوء ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: قرأ حمزة والكسائي بقاء المخاطبة، كما قال تعالى: ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ﴾، والباقون على المغايبة، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾^(٣).

(١) نحوه دون نسبة في «تفسير الثعلبي» (١٢٤ / ٥).

(٢) ذكره الواحدي في «البيسط» (١٤٩ / ١١).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٤)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢١).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: مَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بِالْمَخْلُوقِينَ فِي اسْتِدْفَاعِ الْمَضَارِّ وَاسْتِجْلَابِ الْمَسَارِّ فَهُوَ كَالسَّالِكِ سَبِيلَ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؛ إِذِ الْمَوْجِدُ وَالْمُنْشِئُ لِلْأَشْيَاءِ مِنَ الْعَدَمِ هُوَ اللَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِالْأَزَلِيَّةِ وَالْقَدَمِ^(١).

(١٩) - ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: قال أبو روق: وما كان الناس إلا أمة واحدة على ملة الإسلام زمن نوح عليه السلام بعد الغرق، فاختلَفُوا وتفرَّقُوا، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بأن جعل للدُّنْيَا مدَّةً وأَجَلًا، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: لَا قِيمَ عَلَيْهِمُ السَّاعَةُ^(٢).

وقال الكلبي: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: كَافِرَةٌ عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾: فَتَفَرَّقُوا مُؤْمِنًا وَكَافِرًا، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾: أَنَّ اللَّهَ أَخَّرَ هَذِهِ الْأُمَّةَ فَلَا يَهْلِكُهُمُ بِالْعَذَابِ كَمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِنَ الدِّينِ^(٣).

وقال الحسن: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾: فِي حُكْمِهِ أَنَّهُ لَا يَقْضِي بَيْنَهُمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ دُونَ الْقِيَامَةِ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا،

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٨٦).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٢٥).

(٣) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٠٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٢٥).

فأدخل المؤمنين الجنة بأعمالهم، والكافرين النار بكفرهم، ولكنه سبق من الله الأجل، فجعل موعدهم يوم القيامة^(١).

وقال مجاهد والسدي: كان الناس أمة واحدة على الإسلام في زمن آدم صلوات الله عليه^(٢).

والآية تتظم بقوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]، وهي تسلية للنبي ﷺ في تأخير العذاب عنهم. وقيل: ﴿لَفَضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: بإهلاك المبطلين وتخليص المحققين.

(٢٠) - ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾: أي: من الآيات المقترحة، كما قال: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] الآيات.

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾: أي: مالك الأشياء الغائبة والعالم بها هو الله تعالى، وهو أعلم بما ينزل عليكم من الآيات وما لم ينزل، وإنما أنا نذير مبليغ، وقد بلغتكم ما نزل علي من القرآن الذي جعله آية لي، فليس بعد هذا إلا العقوبة المنتظرة.

وقوله تعالى: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾: أي: فانتظروا إهلاكهم فإننا منتظرون ذلك.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٢٥)، والواحدي في «البيضا» (١١ / ١٥٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٣ / ٦٢٢ - ٦٢٣) عن مجاهد و(٣ / ٦٢٥) عن السدي.

وقال الحسن: ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ مواعيد الشَّيْطَانِ فيما يغُرُّكم ويمَيِّكم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لمواعيد الله^(١).

(٢١) - ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ﴾: أي: إذا أعطينا المشركين خضبًا بعد جذب، ومطرًا بعد قحط، وسعة بعد ضيق، ندعوهم بذلك إلى الشكر.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾: ﴿إِذَا﴾: كلمة مفاجأة؛ أي: ظهر منهم مكرٌ في آياتنا؛ أي: حملهم الطُّغْيَانُ على إخفاء قصد السُّوء بآياتنا، بأن تصوِّروا أعلام الدُّعاء إلى الشكر منهم بغير صورتها، وتغييرها^(٢) عن وجهها، ويقولون: هذا شيءٌ جاءنا باستحقاقنا، وهو كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وكقوله: ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾: أي: هو استدراجٌ منه لهم من حيث لا يعلمون، وإملاءٌ لهم، وهو أسرعٌ من فعلهم، فلا حاجةَ لله في إمضائه إلى تلبُّث. ويحتملُ أن يكونَ معناه: يستعينون بنعمةِ الله على الاحتيال على المؤمنين، والإنفاق في ابتغاء الغوائل لهم، فيوقفُ الله تعالى نبيَّه على ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى قوله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠].

(١) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٧٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٢٦).

(٢) قوله: «وتغييرها» كذا في (ر) و(ف)، وغير واضحة في (أ).

وقال مقاتل بن حيان: ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ﴾: لا يقولون: هذا رزق الله، وإنما يقولون: سقينا بنوء كذا، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾؛ أي: صنيعة^(١)، فقتلهم الله يوم بدر.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ رُسُلَنَا﴾: أي: الحفظة من الملائكة.

﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾: أي: ما تقولون في الصد عن الإيمان والتكذيب.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾؛ أي: أسرع لجزاء المكر، وأعجل أخذًا لكم من حيث لا تعلمون أنتم^(٢).

(٢٢) - ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: وفي قراءة ابن عامر: ﴿يُنْشُرُكُمْ﴾؛ أي: يهَيئ لكم أسباب الانتشار^(٣)، وقرأ الباقون: ﴿يُسِرُّكُمْ﴾^(٤)؛ أي: يهَيئ لكم أسباب السِّر طلبًا للمعاش، ويهديكم إلى ذلك، وَيُسِرُّ لكم ذلك بالدَّوَابِّ وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾: أي: السُّفُن، واشتقاقها من فَلَكَةٍ الْمَغْزَلِ،

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥ / ١٢٦)، و«البيضاوي» (١١ / ١٥٥).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٢٦).

(٣) في (أ): «أسباب الاتسار»، وفي «ف»: «الأسباب للاستبشار»، وفي (ر): «الانتشار»، والصواب المثبت.

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

وَفَلَكَ السَّمَاءُ، ومعناها: الدَّورَانُ فِي الْمَاءِ، وَهِيَ تَجِيءُ لِلْجَمْعِ وَالْوَاحِدِ، وَيَذَكَّرُ وَيؤنَّثُ، وَهَاهُنَا لِلْجَمْعِ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ يَهُم﴾: وَالنُّونُ لِلْجَمْعِ، ثُمَّ رَجَعَ لِلْمَغَايَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَهُم﴾ بعدَ ذِكْرِ الْمُخَاطَبَةِ: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ﴾، وَهُوَ طَرِيقُ مَسْلُوكٍ لِأَهْلِ اللِّسَانِ، وَمَعْدُودٌ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَيَانِ، مَعَ أَنَّهُ خِطَابٌ لِمَنْ كَانَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ، وَإِخْبَارٌ لغيرِهِ مِنَ النَّاسِ، وَهُوَ كَقَوْلِ لَبِيدٍ:

بَاتَتْ تَشْكِي إِلَى النَّفْسِ مُجْهِشَةً وَقَدْ حَمَلْتُكَ سَبْعًا بَعْدَ سَبْعِينَا^(١)
وقوله تعالى: ﴿بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾: أَي: جَرَتْ السُّفُنُ بِرَاكِيهَا بِرِيحٍ لَيِّنَةٍ يُسْتَطَابُ هُبُوبُهَا، وَيَسْتَقِيمُ مَرُورُ السُّفُنِ بِهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾؛ أَي: سُرُّوا بِهَذِهِ الرِّيحِ، وَأَمِنَ السَّفِينَةُ لِمَحَالِّهَا^(٢).
وقوله تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾: أَي: انْتَقَلَتِ الرِّيحُ فَصَارَتْ عَاصِفًا شَدِيدَةً الْهَبُوبِ.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾: أَي: تَلَاطَمَتِ الْأَمْوَاجُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ السَّفِينَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَظَّنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾: أَي: أَشْرَفُوا عَلَى الْهَلَكَةِ، وَغَلَبَ ظَنُّهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَتَخَلَّصُونَ مِنَ الْغَرَقِ.

وقوله تعالى: ﴿دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: أَي: بِالْإِعْتِقَادِ وَالْعِلْمِ أَنَّهُ لَا يَخْلُصُهُمْ

(١) انظر: «ديوان لبيد بن ربيعة» (ص: ١٣٩)، وبعده:

فإن تزاوي ثلاثاً تبلغني أملاً وفي الثلاث وفاء للثمانينا

(٢) في (ر): «وأمر السفينة لحالها»، وفي (ف): «وأمن السفينة».

منها غيره: ﴿لَيْنَ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ﴾؛ أي: فقالوا: رَبَّنَا لَيْنَ خَلَّصْتَنَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ ﴿لَنَكُونَكَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لَكَ، لَا نُنْكِرُ نِعْمَتَكَ، وَلَا نَعْبُدُ غَيْرَكَ، وَلَا نَشْرِكُ بِكَ شَيْئًا.

(٢٣) - ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْكُمُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ﴾: أي: منها ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ أي: عادوا إلى خلاف الشكر، واستطالوا في الأرض على الناس، بغير أن يكون ذلك مباحاً لهم فيكون حقاً، وقهرؤهم وسلبؤهم وقتلؤهم ونسؤا عهودهم.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْكُمُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾: أي: بغيكم يجلب إلى أنفسكم المكاره، فهو أوقع عليكم، ضارٌّ بكم.

وقوله تعالى: ﴿مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾: قرأ عاصم في رواية حفص بالنصب على الحال أو القطع، والباقون بالرفع على إضمار (هو) أو (ذاك)^(١).

أي: ومدة البغي وصاحبه مدة قليلة في الدنيا، كالشيء يمتنع به ثم ينقضي.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾: في الآخرة ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: فنخبركم بذلك، ونجزيكُم عليها.

وقال محمد بن كعب القرظي: ثلاث من كن فيه كن عليه: البغي والنكث والمكر؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بِغَيْكُمُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠]^(٢).

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠ / ٣١٨٧)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧ / ٣٦) إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: يريدُ أَنَّهُمْ يُصْبِحُونَ فِي النِّعَمِ يَجْرُونَ أَذْيَالَهُمْ، ثُمَّ يَمْسُونَ يَشْكُونَ بِلِبَالِهِمْ^(١)، وقد يبيتون والبهجة ملكتهم، ثمَّ يصبحون وخفايا التَّقدي أهلكتهم، وقد قيل في معناه^(٢):

أَقْمْنَا زَمَانًا وَالْعَيُونَ قَرِيرَةً وَمِنْ بَعْدُ عُدْنَا وَالْعَيُونَ سَوَافِكُ^(٣)
فَإِذَا رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ بِإِخْلَاصِ الدُّعَاءِ جَادَ عَلَيْهِمْ بِكُشْفِ الْبَلَاءِ، فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ
بِإِجَابَةِ دَعَائِهِمْ إِذَا هُمْ فِي بَغْيِهِمْ يَرْجِعُونَ، وَعَلَى مَنَاهِجِهِمْ فِي تَمَرُّدِهِمْ يَسْلُكُونَ^(٤).
وقال: إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ أَي: تَمَتُّعُكُمْ فِي أَيَّامِ قَلَائِلٍ، ثُمَّ تَلْقَوْنَ فِي ذَلِكَ
وَبِيَلًا، وَتَقَاسُونَ بِذَلِكَ عَذَابًا طَوِيلًا.

(٢٤) - ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ
النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطَرَبَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا
أَنَّهُمْ أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾: ثُمَّ بَيَّنَّ مَتَاعَ الْحَيَاةِ

(١) في (أ): «يشكوى بلبالهم»، وفي (ف): «يسكون بلبالهم»، وفي مطبوع «اللطائف»: «يشكون ليالهم»، والبلبال: الهم. انظر: (الصحيح) للجوهري (مادة: بلل).

(٢) «وقد قيل في معناه» من (ف)، وفي (أ): «شعر»، وليست في (ر)، وفي «الطائف الإشارات»: «وأنشدوا».

(٣) البيت نسب للقشيري نفسه صاحب «اللطائف»، كما في: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٣/ ٢٠٧)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٨/ ٢٣٢)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (١٩/ ٦٤).

(٤) انظر: «الطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٨٧-٨٨).

الدُّنْيَا المذكورة في الآية المتقدمة: أن مثال هذه الحياة، أو صفة هذه الحياة القريبة المدة، كمطرٍ أنزلناه من السَّحَابِ ﴿فَلَخْنَلَطَ بِهِنَّ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾؛ أي: فنبَت نباتًا مختلفَ الأنواع، مختلطًا^(١) بعضها ببعض، وهو فيما لم يَنْبُت بعدُ، فَيَنْبُتُ به.

ويجوز أن يكون في النَّبَتِ الحادث: إذا نَزَلَ به المطرُ اختلطَ بالمطرِ؛ أي: اتَّصل كلُّ واحدٍ منهما بالآخر، فاهتزَّ وربَّأ.

﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾: مِنَ اللَّبَابِ ﴿وَالْأَنْعَمُ﴾؛ أي: البهائمُ والمواشي وغيرها من القشور.

وهو فيما يشتملُ على القشر واللَّبِّ، فقد يَنْبُتُ مَا يَأْكُلُ كُلُّهُ النَّاسُ كالحبوب، وما يَأْكُلُ كُلُّهُ الْأَنْعَامُ كالحشيش.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾: أي: زِينَتَهَا، وَالزُّخْرَفُ: الذَّهَبُ. وقال قتادة: بهجتها.

وقال الضَّحَّاكُ: حسنُها.

وقال أبو العالية: جمالُها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَزَيَّنَتْ﴾؛ أي: تَزَيَّنَتْ، أَدْغَمَتِ التَّاءُ فِي الزَّاي، وَزِيدَتِ الْأَلْفُ لِيَكُونَ الْإِبْتِدَاءُ بِالْمُتَحَرِّكِ؛ أي: اِكْتَسَبَتْ رَوْنًا وَجَمَالًا بِاخْتِلَافِ أَلْوَانِ النَّبَاتِ مِنْ صُفْرَةٍ وَحُمْرَةٍ وَخَضْرَاءٍ وَبَيَاضٍ وَنَحْوِهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَوَظَرَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوتٌ عَلَيْهَا﴾: قيل: أي: على استصحابِ تلكِ الحال، وحصلوا على غير شيء منها؛ لأنَّ الْقَادِرَ عَلَيْهِمْ وَعَلَيْهَا أَهْلُكَهَا.

(١) في (أ): «مختلفة الأنواع» بدل: «مختلف الأنواع مختلط».

وقيل: أي: قادرون على أخذ ما فيها من النبات والحب والثمر، وعلى التنزه بزهرتها، والانتفاع بوجوه منافعها.

وقوله تعالى: ﴿أَتَنْهَأُ أَمْرُنَا﴾: وهو ما يرسله عليها من عذاب يستأصل نباتها، من برد أو ريح أو صاعقة أو نحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَيْلًا﴾: أي: بالليل ﴿أَوْ نَهَارًا﴾: أي: بالنهار ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾: أي: مقطوعاً ساقطاً ﴿كَانَ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ﴾: أي: لم تكن على تلك الصفة فيما قبل. وقد غني بالمكان: إذا أقام به، من حد علم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ﴾: أي: فكما بينا هذا المثل نبين سائر الآيات ﴿لِقَوْمٍ يَنْفَكُونَ﴾: أي: هم المنتفعون بها.

وقال الإمام الزاهد أبو منصور رحمه الله: قيل: ضرب مثل الحياة الدنيا بالزرع من وجوه:

أحدها: إنه يخبر عن سرعة زوالها وانقطاعها، كالنبات الذي يتسارع إلى الزوال والانقطاع بالآفة.

والثاني: إنه يخبر عن تغيرها^(١) وانقلاب أمرها، كالنبات الذي يتغير في أدنى مدة.

والثالث: إنه ذكر مسرة صاحب الدنيا وابتهاجه بالحياة الدنيا كما يكون ذلك لصاحب الزرع به، ثم يكون ما ذكر.

والرابع: أن معناه: مثل الحياة الدنيا للحياة الدنيا فيما ينفقون^(٢) فيها، مثل

(١) في (ر) و(ف): «تقلبها».

(٢) في (أ): «يتنفعون».

صاحب الزرع الذي يُنفقُ عليه لِمَا يَأْمُلُ مِنَ المنافع، ثُمَّ يكون ما ذكر، ولو علم ذلك في الابتداء ما فعل، فكذلك صاحبُ الدُّنيا فيما فعل^(١).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: شَبَّهَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا بالماء الذي ينزل من السَّمَاء، يَنْبُتُ به النَّبَات، وتَخْضِرُ به الأَرْض، وتَظْهَرُ الثَّمَار، ويوطِّنُ أربابُها عليها أَنْفُسَهُمْ، فتَصِيْبُهُمْ جَائِحَةٌ سَمَآوِيَّةٌ بَغْتَةً، وتصيرُ كَأَن لَمْ تَكُنْ، كذلك الإنسانُ بعد كَمَالِ سِنِّهِ، وتَمَامِ قُوَّتِهِ، واستِجْمَاعِ الخِصَالِ المحمودة فيه تخترُمُهُ المنيَّة، وكذلك أُمُورُهُ المنتزِمةُ تبطل وتختلُّ بوفاته، كما قيل:

فقدناه لَمَّا تَمَّ واعْتَمَّ بالعُلا كذاكَ كسوفُ البدرِ عندَ تَمَامِهِ^(٢)

وَمِنْ وجوه تشبيهِ الأَمْوَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ بالماءِ المنزَلِ مِنَ السَّمَاء: أَنَّ المَطَرَ لَا يُسْتَنْزَلُ بالحيلة، كذلك الدُّنْيَا لَا تُسَاعَدُ إِلَّا بالقِسْمَةِ^(٣)، ثُمَّ إِنَّ المَطَرَ وَإِنْ كَانَ لَا يَجِيءُ إِلَّا بِالتَّقْدِيرِ فَقَدْ يُسْتَسْقَى، كذلك الرِّزْقُ وَإِنْ كَانَ بالقِسْمَةِ فَقَدْ يُلْتَمَسُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَيُسْتَعطَى.

ومنها: أَنَّ الماءَ فِي مَوْضِعِهِ سَبَبُ حَيَاةِ النَّاسِ، وَفِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ سَبَبُ خَرَابٍ

(١) فِي (أ): «يفعل». وانظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٢٩)، وفيه: (...ولو علم في الابتداء أن أمر زرعهُ يؤول ويصير إلى ما صار لكان لا ينفق؛ فعلى ذلك صاحب الحياة الدنيا لو علم أن عاقبة أمر نفقته تصير حسرة عليه وندامة ما أنفق، كما أن صاحب الزرع الذي ذكر وبلغ المبلغ الذي ذكر لو علم أن عاقبته كما كان ما أنفق عليه، أو لو علم أنه لا ينتفع به ما أنفق تلك النفقة، أي: لو علم أن سروره وابتهاجه به لا يبقى ولا يدوم إلى آخره ما تكلف ذلك، أو لو علم أنها تزول عنه وتنقطع عن تلك السرعة ما أنفق ذلك وما تكلف الذي تكلف).

(٢) البيت لأبي الفتح البستي في الصاحب. انظر: «التمثيل والمحاضرة» للثعالبي (ص: ٢٣٢)، و«زهر الآداب» للقيرواني (٢ / ٤٥١).

(٣) فِي (أ): «لا يساعده إلا بالسمة»، وفي «لطائف الإشارات»: «لا تساعدها إلا القسمة».

الموضع، كذلك المال لمستحقّه سبب سلامته وانتفاع المتصلين به، وعند من لا يستحقّه سبب طغيانه وسبب بلاء من هو متصل به، كما قيل: نِعْمَ اللهُ لَا تُعَاب، ولكن ربّما استُقبِحت على يد أقوام.

ومنها: أنّ الماء إذا كان بمقدار كان سبب الصّلاح، فإذا جاوز الحدّ كان سبب الخراب، كذلك المال إذا كان بقدر الكفاية والكفاف فصاحبه منعّم، فإذا زاد وجاوز الحدّ أوجب الكفران والطغيان.

ومنها: أنّ الماء ما دام جاريًا كان طيبًا، فإذا طال مكثه تغير، كذلك المال إذا أنفقّه صاحبه كان محمودًا، فإذا ادّخره وأمسكه كان معلولًا مذمومًا.

ومنها: أنّ الماء إذا كان طاهرًا كان حلالًا يصلح للشرب ويصلح للطهور ولإزالة الأذى، وإذا كان غير طاهر فبالعكس، وكذلك المال إذا كان حلالًا، وبعبكسه إذا كان حرامًا.

ويقال: كما أنّ الربيع تتورّد أشجاره، وتظهر أزهاره، وتخضر رباعه، وتترين بالنبات وهاده وتلاعه^(١)، ثم لا يؤمن أن تصيبه آفة من غير ارتقاب، وينقلب الحال بما لم يكن في الحساب، كذلك من الناس من يكون له أحوال صافية، وأعمال بشرط الخلوص زاكية، وغصون أنسه متدلّية، ورياض قربه مؤنقة، ثم تصيبه عين، فيذبل عود وصاله، وينسدّ باب عوائد إقباله، كما قيل:

عَيْنٌ أَصَابَتْكَ إِنْ الْعَيْنَ صَائِبَةٌ وَالْعَيْنُ تَسْرِعُ أحيانًا إِلَى الْحَسَنِ^(٢)

(١) في «أ»: «بالنبات من البر وهاده وتلاعه»، وفي (ر): «بالنبات وتأمين من البرودات وتلاعه»، وفي

(ف): «بالنبات ويؤمن من البرودات»، والمثبت من «لطائف الإشارات».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢/ ٨٩)، والبيت بلا نسبة فيه، وأورده بلا نسبة كذلك الإشيلي =

(٢٥) - ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾؛ أي: لا يدعوكم إلى الركون إلى الدنيا التي هي تعرض الآفات، بل إلى الجنة التي فيها السلامة عن كل العاهات.

قال الزجاج: ﴿دَارِ السَّلَامِ﴾: دار السلامة عن كل آفة^(١).

والسلام والسلامة، كاللذاز واللذاعة، والرّضاع والرّضاعة^(٢).

وقال الحسن وقتادة: السلام: الله، وداره: الجنة^(٣).

ومعنى الآية على القول الأول: والله يدعوكم إلى عمل الآخرة التي سلم صاحبها من الحزن والخوف، ونعيمها من التغير والفناء.

وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: أي: من حسنت إجابته أجابه الله إليها؛ أي: هداه إلى الطريق الذي يفضي به إليها.

فالدُّعاء عامٌّ، والهداية خاصة؛ إذ الكل مدعوون، والسعداء منهم مهديون.

وقيل: ﴿دَارِ السَّلَامِ﴾: دار التّحية؛ قال تعالى: ﴿يَحْيِيْنَهُمْ فِيْهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]:

وهي من بعضهم لبعض؛ وقال تعالى: ﴿وَالْمَلٰٓئِكَةُ يَدْخُلُوْنَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٣٢) سَلَامٌ

= في «قانون التأويل» (ص: ٥٨٦)، والمستعصي في «الدر الفريد» (٧ / ٢٧٦). وفي «اللطائف»:

(الحسد) بدل «الحسن».

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣ / ١٥).

(٢) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٦)، و«معاني القرآن» للنحاس (٢ / ٢٨٥).

(٣) رواه عن قتادة عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٥٣)، والطبري في «تفسيره» (١٢ / ١٥٤)، وذكره

الماوردي في «تفسيره» (٢ / ١٦٧)، والواحدي في «البيسط» (٧ / ٣١٢).

وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٤٣) عن الحسن قال: ما من ليلة إلا ينادي مناد: يا

صاحب الخير هلم، يا صاحب الشر أقصر، فقال رجل للحسن: أتجدها في كتاب الله؟ قال: نعم

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾.

عَلَيْكُمْ ﴿[الرعد: ٢٣-٢٤]: وهو سلام الملائكة، وقال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]: وهو سلام الله تعالى.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الدُّعَاءُ تكليفٌ، والهدايةُ تعريفٌ، فالتَّكْلِيفُ على العموم، والتَّعْرِيفُ على الخصوص، التَّكْلِيفُ بحقُّ سلطانه، والتَّعْرِيفُ بحكم إحسانه، الدُّعَاءُ قوله، والهدايةُ طَوُّهُ.

و﴿دَارِ السَّلَامِ﴾: دار السَّلامَة؛ سلم أهلها مِنَ الحُرْقَةِ والفُرْقَةِ؛ سلموا مِنَ الحُرْقَةِ فحصلوا على لَذَّةِ عَطَائِهِ، وسلموا مِنَ الفُرْقَةِ فوصلوا إلى عزيز لقائه.

وقيل: لا يصلُ إلى دار السَّلام إِلَّا مَنْ سَلِمَتْ نَفْسُهُ مِنْ سَجُودِ الصَّنَمِ، وَقَلْبُهُ مِنَ الشُّرْكِ وَالظُّلْمِ.

ودرجاتُ تلك الدَّارِ متفاوتةٌ، فالَّذِي سَلِمَ قَلْبُهُ عَنْ صَحْبَةِ الْأَغْيَارِ أَعْلَى دَرَجَةً مِمَّنْ سَلِمَتْ نَفْسُهُ عَنِ الذُّنُوبِ وَالْأَوْضَارِ.

وَالصَّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ: طريقُ المسلمين، فهذا للعوام بشرط علم اليقين، ثمَّ طريقُ المؤمنين وهو طريق الخواصَّ بشرط عين اليقين، ثمَّ طريقُ المحسنين وهو طريقُ أشراف الخواصَّ بشرط حقِّ اليقين، فهؤلاء بنور العقل أصحاب البرهان، وهؤلاء بكشف العلم أصحاب البيان، وهؤلاء بضياء المعرفة بوصف العيان، وهم الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»^(١)، وَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»^(٢).

وَالْمُحْسِنُ: مَنْ سَلِمَ الْخَلْقُ بِأَجْمَعِهِمْ عَنْ قَلْبِهِ.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٩٠ - ٩١)، والحديث رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)،

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ورواه مسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢٦) - ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: أي: للذين أحسنوا الأعمال الحسنى^(١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الحُسنى: الحسنة^(٢)، والزيادة: عشرة أمثالها. وعن علقمة قال: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: هي التَّضْعِيفُ^(٣).

وقال الحسن: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: عشرة أمثالها إلى سبع مئة ضعف^(٤).

وقال مجاهد: الحُسنى: الجنة، والزيادة: المغفرة والرضوان^(٥).

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: الزيادة: غرفةٌ من لؤلؤةٍ واحدةٍ، لها أربعة أبواب، الغرفة والأبواب من لؤلؤةٍ واحدةٍ^(٦).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: الحُسنى: الجنة لأنها جزاءُ الإحسان، كما سَمَّى النَّارَ السُّوْأَى؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عِقَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا سُوءًا﴾ [الروم: ١٠] لأنها جزاءُ الإساءة.

(١) في (أ): «أي للذين أحسنوا زيادة؛ أي: للذين أحسنوا الأعمال الحسنى».

(٢) تحرفت في النسخ إلى: «الجنة»، والصواب المثبت. انظر: «تفسير الطبري» (١٢ / ١٦٣)، و«تفسير البغوي» (٢ / ٣٤٢)، و«الكشاف» (٢ / ٣٢٧). ومع ذلك فالخبر إسناده ضعيف جداً.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ١٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٤٦).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ١٦٣).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ١٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٤٥).

(٦) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٠٥٨ - تفسير)، والطبري في «تفسيره» (١٢ / ١٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٤٥)، جميعهم من طريق الحكم بن عتيبة عن علي رضي الله عنه. وإسناده ضعيف للانقطاع بين الحكم وعلي رضي الله عنه، وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢٤ / ٤): لا يصح.

قال: وقيل: الزيادة: المحبة في قلوب العباد، يحبه المحسنون ويهابه كلُّ أحدٍ من غير سلطان.

قال: وقيل: التضعيف حتى يكون عشراً وسبع مئة وما شاء الله؛ يدلُّ عليه قوله تعالى في مقابلته: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾.

قال: وقال قائلون: الزيادة هي قبول حسناته مع ما فيها من الخلط بالسيئات. قال: وقال قائلون: الحسنى: ما تقدّرُها العقول وتدرّكها وتصوّرها الأوهام، والزيادة هي التي لا تقدّرُها العقول ولا تدرّكها ولا تصوّرُها الأوهام، كما قال عليه الصلاة والسلام: «وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١). وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية، فقال: «الحسنى الجنة، والزيادة النظرُ إلى وجهِ الله تعالى»^(٢).

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ في قوله جلّ جلاله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] قال: «يتجلى لهم ربهم»^(٣).

وعن صهيب رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٢-٣٤). والحديث رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ١٠٤٤)، والدارقطني في «الرؤية» (١٨٣)، واللالكائي في «الاعتقاد» (٧٨٠). وله شاهد من حديث صهيب رضي الله عنه سيأتي قريباً.

(٣) رواه الدارمي في «الرد على الجهمية» (١٩٨)، والبزار في «مسنده» (٧٥١٨)، واللالكائي في «الاعتقاد» (٨١٣)، كلهم موقوفاً على أنس رضي الله عنه، وقال البزار: وهذا الحديث لا نعلم رواه عن أنس بهذا اللفظ إلا عثمان بن عمير أبو اليقظان، وعثمان صالح.

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١١٢): رواه البزار، وفيه عثمان بن عمير وهو ضعيف.

وَزِيَادَةٌ ﴿١﴾ قَالَ «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نَادَىٰ مَنَادٌ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا، يَرِيدُ أَنْ يُنَجِّزَ كُفْمُوهُ. فَيَقُولُونَ: مَا هُوَ؟ أَلَمْ يَبَيِّضْ وَجُوهَنَا، وَيَثْقُلْ مَوَازِينَنَا، وَيَدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَيَجْزَنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَيَتَجَلَّى لَهُمْ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ وَلَا أَقْرَبُ لَأَعْيُنِهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ»^(١).

وَالْآيَةُ تَنْتَظِمُ هَذِهِ الْأَقَاوِيلَ كُلَّهَا، وَأُولَى التَّفَاسِيرِ تَفْسِيرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ قَالَ بِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمُ وَالتَّابِعِينَ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَحذيفة بن اليمان، وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، وَكَعْبُ بْنُ عَجْرَةَ، وَصَهْبِ بْنِ سَنَانٍ، وَعِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَعَامِرُ بْنُ سَعْدٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَلِيطٍ، وَعُكْرَمَةُ، وَالْحَسَنُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ، وَمِقَاتِلُ، وَعَطَاءٌ^(٢)، وَعَامَّةُ الْمَفْسِّرِينَ: الزِّيَادَةُ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَرَوَى قَيْسُ بْنُ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبِّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَصَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»^(٣).

وَهَذَا تَشْبِيهُ الرُّؤْيَةِ بِالرُّؤْيَةِ، لَا تَشْبِيهُ الْمَرْتِيِّ بِالْمَرْتِيِّ، وَهُوَ الْقَوْلُ الْحَقُّ، وَعَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ^(٤).

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٨١)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٥٥٢)، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (١٨٩٣٥) وَاللَّفْظُ لَهُ.

(٢) انْظُرْ أَقْوَالَهُمْ فِي «تَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ» (١٢ / ١٥٦ - ١٦٤)، وَ«رُؤْيَا اللَّهِ» لِلدَّارِقُطْنِيِّ (ص: ١٥٦ - ٣٠٨)، وَ«الْإِعْتِقَادُ» لِللَّالِكَاثِيِّ (٣ / ٥٠٣ - ٥٦٠).

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٥٤)، وَمُسْلِمٌ (٦٣٣).

(٤) وَقَدْ طَعَنَ الزَّمْخَشَرِيُّ فِي «الْكَشَافِ» (٣ / ٣٤٢) بِهَذَا الْحَدِيثِ وَنَعْتَهُ بِ(الْمَرْقُوعِ) وَنَعْتِ أَهْلِ السُّنَّةِ =

وروى منصور بن عمار، عن يزيد بن شجرة قال: إِنَّ مِنَ الزَّيَادَةِ أَنْ تَمُرَّ السَّحَابَةُ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ، فَتَقُولَ: مَا تَرِيدُونَ أَنْ أُمْطَرَكُمُ؟ فلا يريدون شيئاً إِلَّا مطرتهم^(١)، فتمطرهم منعمات.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَهُقُ وَجُوهُهُمْ قَتْرٌ﴾: أي: لا يغشاهم غبار.

وقيل: القتر: غبرة معها سواد؛ أي: على وجوههم سيما الفرح والسرور، كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وَجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَجُوهُهُمْ نَازِرَةٌ﴾ (٢٢) ﴿إِلَى رِيحَانٍ نَازِرَةٍ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَجُوهُهُمْ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ﴾ (٣٨) ﴿صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩].

وهو خلاف حال وجوه أهل النار: ﴿وَجُوهُهُمْ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ (٤٠) ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠-٤١]، وقال هاهنا: ﴿كَأَنَّمَا أَغْشَيْتَ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧].
وقوله تعالى: ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾: أي: هوان.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: هذا ظاهر.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في الواجبات، ولم ييخلوا بالمندوبات.

= القائلين به بـ (المشبهة والمجبرة) لأنهم يعتقدون بجواز رؤيته تعالى ووقوعها في الآخرة، خلاف المعتزلة القائلين بامتناع ذلك. وقد تعقبه كثير من العلماء، ومنهم الآلوسي حيث قال: (وقول الزمخشري عامله الله تعالى بعدله: (إن الحديث مرقوع) بالقاف؛ أي: مفترى، لا يصدر إلا عن رقيق، فإنه متفق على صحته، وقد أخرجه حفاظ ليس فيهم ما يقال). انظر: «روح المعاني» (١١/١٠٣).

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/١٣٠)، والزمخشري في «الكشاف» (٢/٣٤٢). ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٥/٢١٤) عن كثير بن مرة. ويزيد بن شجرة هو أبو شجرة الرهاوي (نسبة إلى الرها بطن من مذحج) الشامي، يقال له صحبة، وكان أمير الجيش في غزو الروم، توفي سنة (٥٨هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٩/١٠٦).

وقيل: ﴿أَحْسِنُوا﴾: لم يبقَ عليهم حقٌّ إلَّا قاموا به، إن كانَ حقَّ الحقِّ فمن غير تقصير، وإن كان حقَّ الخلقِ فمن غير تأخير.

وقيل: أحسنوا في المال كما أحسنوا في الحال، فاستداموا بما فيه واستقاموا. وقيل: الحسنى في الدنيا: توفيقٌ بدوام وتحقيق في تمام، وفي الآخرة: غفرانٌ معجلٌ، وعِيَانٌ على التأييد محصل.

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ قال أهل المعرفة: الحسنى، الرؤية، والزيادة دوائها. وقيل: الحسنى: اللقاء، والزيادة: البقاء في حال اللقاء. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾؛ أي: لا يُرَدُّونَ مِن غير شهودٍ إلى رؤية غيره.

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: في فنونٍ أفضلهم، في جميع أحوالهم^(١).

(٢٧) - ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنْ أَيْلٍ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا﴾: قال الكلبي: عملوا الشرك والمعاصي^(٢).

﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾: أي: لهم جزاء سيئة يمثِّلها؛ أي: قصاص ذلك بمثلها، وهي النار، هي مثلها؛ أي: هي موافقة لعملهم، اعتقدوا الشرك على الأبد، فعوقبوا فيها على الأبد.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: أي: يغشاهم هوانٌ، وآثار خيبة وحرمان، وهو كقوله تعالى:

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢/ ٩١ - ٩٢).

(٢) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١/ ١٧٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الكلبي.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤]، وكقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَیْرَةٌ ۖ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠ - ٤١].

وقوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾: أي: مانع من عذاب الله تعالى من جهة أصنامهم وأعوانهم.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا أَغْشَيْتَ وُجُوهَهُمْ قِطْعًا﴾: قرأ ابن كثير والكسائي بسكون الطاء. وقال الأخفش: معناه؛ أي: بعضاً من الليل، وقرأ الباقون بفتح الطاء، وهي جمع قِطْعَةٍ^(١).

وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَلِيلٌ مُظْلِمًا﴾: نصبه على الحال من قوله: ﴿مَنْ أَلِيلٌ﴾ حال إظلامه، وهو كقوله: ﴿وَسَوْدُ وُجُوهٍ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وقال القشيري رحمه الله: وُسِّمُوا بِذَلِّ الْحِجَابِ، وَعُوقِبُوا بِتَأْيِيدِ الْعَذَابِ^(٢).
وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: وهذا ظاهر.

(٢٨) - ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَاهُمْ﴾
وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا عِبْدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾: أي: نجتمع الذين كسبوا السيئات وما عبدوهم من دون الله تعالى في الموقف ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾؛ أي: للمشركين: ﴿مَكَانَكُمْ﴾: نصب على الملازمة^(٣)، معناه: الزموا مكانكم واثبتوا مكانكم^(٤).

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢١).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ٩٢).

(٣) في (ر) و(ف): «الإغراء».

(٤) «واثبتوا مكانكم» ليس في (ف).

وقوله تعالى: ﴿أَنَّمْ وَشْرَكَؤُكُمْ﴾: ﴿أَنَّمْ﴾ توكيدٌ لأسماء المخاطبين بالأمر بلزومهم مكانهم و﴿وَشْرَكَؤُكُمْ﴾ عطفٌ عليهم. وأضاف الشركاء إليهم لأنهم القائلون بذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾: أي: فرّقنا بينهم، وقد زلّته أزيله؛ أي: فرّقته، وزيّلته للتكثير والتكرير، وليس من الزوال، وذاك واويٌّ وهذا يائيٌّ.

وقال تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ [الفتح: ٢٥]، وجاء في الحديث: «خَالِطُوا النَّاسَ وَزَايِلُوهُمْ»^(١)؛ أي: خالطوهم بالأبدان، وفارقوهم في الأعمال.

يقول: إِنَّا نقولُ للمشركين: الزموا مكانكم وآلهتكم للحساب، لا تفرّقوا. وقيل: أي: اثبتوا مكانكم مع شركائكم ليعينوكم، ويشفعوا لكم، ويعصموكم من عذاب الله، وهي كلمة توبيخ.

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٩٨٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥ / ٢٣٦): رواه الطبراني في «الأوسط» عن شيخه محمد بن علي المروزي، وهو ضعيف.

وجاء موقوفاً عن عدد من الصحابة:

فرواه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠١٥٢) عن عمر رضي الله عنه قال: (خالطوا الناس بما يحبون، وزايلوهم بأعمالكم، وجدوا مع العامة).

ورواه وكيع في «الزهد» (٥٣١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٢٢١)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (خالطوا الناس وزايلوهم وصافحوهم، ودينكم لا تكلمونه)، ورواه أيضاً الطبراني في «المعجم الكبير» (٩٧٥٦، ٩٧٥٧)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧ / ٢٨٠): رواه الطبراني بإسنادين، رجال أحدهما ثقات.

ورواه الدارمي في «سننه» (٣١٢) عن علي قال: (خالطوا الناس بألستكم وأجسادكم وزايلوهم بأعمالكم وقلوبكم فإن للمرء ما اكتسب وهو يوم القيامة مع مَنْ أَحَبَّ).

وروي مرسلًا؛ رواه هناد بن السري في «الزهد» (٢ / ٥٨٨) عن عبد الله بن باباه مرسلًا.

التَّيْسِيخُ فِي التَّبَسُّيخِ

وقوله تعالى: ﴿فَرِيقًا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ﴾؛ أي: مَيَّزْنَا بَيْنَ الْعَابِدِينَ وَالْمَعْبُودِينَ؛ لِأَنَّ الْمَعْبُودِينَ إِنْ كَانُوا مَلَائِكَةً فَهُمْ مُمَيَّزُونَ عَنْ أَهْلِ النَّارِ إِلَى الْمَوَاضِعِ الَّتِي هِيَ مَقَامَاتُهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ﴾: قِيلَ: هُمُ الْمَلَائِكَةُ: ﴿مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَاعِبُونَ﴾: وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْوَلَاءِ إِنْ أَكُرُّ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ قَالُوا: سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴿٤١﴾﴾ أَي: قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: إِنَّ الْجِنَّ - وَهُمْ الشَّيَاطِينُ - دَعَتْهُمْ إِلَى عِبَادَتِنَا، وَنَحْنُ مِنْهُمْ بَرَاءٌ، فَإِنَّمَا عَبَدُوا الشَّيَاطِينُ؛ لِأَنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ فِيمَا أَمَرُوهُمْ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠].

وَقَالَ الْكَلْبِيُّ وَمِقَاتِلٌ وَمَجَاهِدٌ: ﴿شُرَكَائُهُمْ﴾: الْأَصْنَامُ، يُنْطَقُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَيَقُولُونَ: ﴿مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَاعِبُونَ﴾: مَا عَلَّمْنَا بِعِبَادَتِكُمْ إِلَّا نَا، وَلَا أَمَرْنَا بِهَا، وَلَا عِبَادَةً إِلَّا بِأَمْرِ الْمَعْبُودِ^(١).

وَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَرِيقًا بَيْنَهُمْ﴾؛ أَي: فَرَّقْنَا بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَبَيْنَ أَصْنَامِهِمْ وَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ التَّوَاصُلِ.

وَقِيلَ: أَي: جَعَلْنَا الْأَصْنَامَ تَرَابًا، وَجَعَلْنَا الْمُشْرِكِينَ فِي النَّارِ.

وَقِيلَ: ﴿شُرَكَائُهُمْ﴾: أَعْوَانُهُمْ وَقَرْنَاؤُهُمْ فِي الشَّرْكِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَرِيقًا بَيْنَهُمْ﴾ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ الْآيَةَ [البقرة: ١٦٦]، قَالَهُ مَجَاهِدٌ^(٢).

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٣٦)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٨) عن مجاهد.

(٢) انظر: «الوسيط» للواحدي (٢/ ٥٤٦)، و«تفسير ابن كثير» عند هذه الآية.

وقيل: فرّقنا بينهم فلم يتناصروا، وقال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصفات: ٢٤]، ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصفات: ٢٥].

وقيل: هو تفريقهم في الدَرَكَاتِ في النَّارِ؛ لأنَّ بعضهم أسفل من بعضٍ.

(٢٩) - ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾؛ أي: ما كنّا عنها إلاً غافلين.

و﴿شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أعمُّ وأحسنُ من قوله: شهيداً لنا ولكم، أو: علينا وعليكم؛ لأنّه يتضمّهما.

قال الكلبيُّ: لَمَّا قَالَتِ الْأَصْنَامُ: لِمَ نَعْلَمُ بِعِبَادَتِكُمْ إِيَّانَا، قالوا: بل عبدناكم، فيقولون هذا.

وعلى قول مَنْ قال: هم الملائكة، فهم يقولون هذا؛ أي: الله يشهد ويعلم أنّا لم نعلم بها، ولم نرض، ولم نأمر.

(٣٠) - ﴿هُنَالِكَ تَبْلَوْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلَوْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾: قرأ حمزة والكسائيُّ: ﴿تتلو﴾ بتاءين، من التّلاوة؛ أي: يقرأ في كتابه، وهو قول الفراء^(١).

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٦٣).

وقيل: تَبَّعٌ.

وقال ابن زيد: تُعَاين^(١).

وقيل: هو معنى ما روي: (يُمَثَّلُ لِكُلِّ عَابِدٍ مَعْبُودُهُ، فيُقَالُ لَهُ: اتَّبَعُهُ، فَيَتَّبَعُهُ، فيورِدُهُ النَّارَ)^(٢).

وقرأ الباقون: ﴿تَبَلَّوْا﴾ بالباء المعجمة من تحتها بواحدة^(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: تَخْتَبِرُ^(٤)؛ معناه: في هذا الموقف تَخْتَبِرُ كُلُّ نَفْسٍ مَا قَدَّمَتْ مِنْ عَمَلٍ، حَتَّى تَرَى تَنْتَفِعُ بِهِ أَوْ لَا تَنْتَفِعُ.

والمعنى: ظهور الأعمال؛ أي: هنالك تظهر للعاملين أعمالهم التي قَدَّموها، وقوله: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] أنه يرجع إلى ظهور أعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ﴾: أي: وَرَدَّ العابدون والمعبودون

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ١٧٤).

(٢) روى نحوه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظهما: (يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت...).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢١).

(٤) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١ / ١٨٤).

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ١٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٤٩)، عن مجاهد. وقد ورد هذا المعنى في كثير من كتب التفسير، وضبطت الكلمة في المطبوعات بالمبني للمجهول: (تُخْتَبَرُ)، لكن كلام الزمخشري في «الكشاف» (٢ / ٣٤٤) يدل على أنها بالمبني للمعلوم، حيث قال: ﴿تَبَلَّوْا﴾: تختبر وتذوق ما أسلفت من العمل فتعرف كيف هو، أقيح أم حسن، أنافع أم ضار، أم مقبول أم مردود؟ كما يختبر الرجل الشيء ويتعرفه ليكنه حاله.

إلى حكم الله الذي هو مولاهم في الحقيقة، لا مولى لهم غيره، فيحكم بينهم، ويتبين الصادق من الكاذب.

وقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: يضل ما كانوا يقولون: نعبدهم ليشفعوا لنا.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إنَّما يقفون على خسرانهم إذا ذاقوا طعم هوانهم، فإذا رُدُّوا إلى الله لم يجدوا إلاَّ البعد من الله، والطرد عن الله، وذلك جزاء من أثر غير الله على الله^(١).

(٣١) - ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

وهذه محاجة لهم بما يبطل اعتقادهم وقولهم بالشرك، يقول: قل يا محمد للمشركين: مَنْ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَنْ يَخْرِجُ مِنَ الْأَرْضِ رِزْقَكُمْ، وَمَنْ يُدَبِّرُ أَمْرَ ذَلِكَ؟ أَمَّنْ يَمْلِكُ أَسْمَاعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ يَصْرِفُهَا كَيْفَ يَشَاءُ، وَلَوْ أَرَادَ أَنْ يَسْلِبَهَا لَفَعَلَ؟

وَمَنْ يُخْرِجُ الْوَلَدَ الْحَيَّ مِنَ النُّطْفَةِ الْمَيِّتَةِ - وعلى القلب - وَيُخْرِجُ الشَّجَرَةَ مِنَ النَّبَاتِ - وعلى القلب - وَالزَّرْعَ مِنَ الْحَبَّةِ - وعلى القلب - وَالْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ - وعلى القلب - وَمَنْ يَقْدُرُ أُمُورَ الْخَلَائِقِ؟

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٩٣).

﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾؛ لَأَنَّ ذَلِكَ اعتقادهم ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَنْقُونُ﴾ مِنْ تعجيزكم إِيَّاهُ عَنْ إعادة الموتى أحياءَ فِي الآخرة كما كانوا فِي الدُّنْيَا.

وقال الإمام الزَّاهِد أبو منصور رحمه الله: ﴿أَفَلَا تَنْقُونُ﴾ عقوبته ونقمة بالإشراك؟

ويحتمل: ﴿أَفَلَا تَنْقُونُ﴾ عِبَادَةً غَيْرَهُ دُونَهُ، وإشراك غيره فِي الألوهية به؟
ويحتمل: ﴿أَفَلَا تَنْقُونُ﴾ صَرْفَ شكره إِلَى غيره، وقد أقرَّرتُمْ أَنَّهُ هو المنعم عليكم بهذه النِّعم؟

ويحتمل: ﴿أَفَلَا تَنْقُونُ﴾ عصيانه ومخالفته وقد عرفتموه^(١)؟
وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ ولكن ظَنًّا لَا عَنْ بصيرة، ونُطْقًا لَا عَنْ تصديق سريرة^(٢).

(٣٢) - ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾.
وقوله تعالى: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾: أي: فاعل ذلك كله هو الله الحقُّ، يحقُّ له الرُّبُوبِيَّةُ والألوهية.

وقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾: أي: فليس بعدَ عبادته إذا عبدْتُمْ غَيْرَهُ إِلَّا الضَّلَالُ عَنْ الْحَقِّ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾: أي: مِنْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ عَنْ هَذَا الأمر بعد المعرفة.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٣٨).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ٩٤).

وقال عطاء: فكيف تُصَرِّفون عقولكم إلى عبادة مَنْ لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يَخْلُقُ ولا يَرْزُقُ^(١).

(٣٣) - ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ لِمَنِ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ لِمَنِ رَبِّكَ﴾: قرأ نافع وابن عامر: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هاهنا وفي آخر هذه السورة على الجمع، والباقون على التوحيد^(٢)؛ أي: حَقَّ كَلَامُ رَبِّكَ؛ أي: خبره.

﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾: وهم قومٌ بأعيانهم، خرجوا عن طاعة الله تعالى، وعلم الله منهم اختيار البقاء على الضلالة.

﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: وهو كقولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧].

(٣٤ - ٣٥) - ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾^(٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

(١) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١ / ١٨٨)، و«الوسيط» (٢ / ٥٤٧)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤ / ٢٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما. ولفظه عندهم: (كيف تُصَرِّف عقولكم...)، وهذا أحسن من لفظ المؤلف؛ لأنه موافق للفظ القرآن ﴿تُصَرِّفُونَ﴾ بالمبني للمجهول، فتفسيرها بالمبني للمعلوم فيه بعد.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٢٦)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٢).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُ اللَّهَ يَسْبُدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُ﴾^(١)
 فَأَيُّ تَوَفُّكُونَ؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: قل يا محمد لأهل مكة: هل
 من أصنامكم من يبدأ الخلق في بطن أمه نطفة وعلقة ومضغة، ثم يعبد ببعثه بعد
 الموت؟ فإن أجابوك فقالوا: الله، وإلا فقل لهم: الله يبدأ الخلق ثم يعبد بعد الموت،
 فمن أين تُصرفون عن الحق؟ استفهام بمعنى التوبيخ.^(١)
 والخلق: اسم جنس يصلح للجمع، وهو في الأصل مصدر أيضاً، فلا يُثنى ولا
 يُجمع.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ﴾: قال مقاتل: قُلْ: هل من
 شركائكم اللات والعزى ومناة والأصنام التي تعبدونها أحد يهدي إلى دين الإسلام؛
 أي: فلا بد لهم من أن يقولوا: لا، إنها لا تعقل ولا تميز، ولا تضر ولا تنفع، فقل لهم
 أنت - وذلك قوله تعالى -: ﴿قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾؛ أي: إلى الحق.^(٢)

والهداية تتعدى على ثلاثة أوجه، يُقال: هديته كذا، ولكذا، وإلى كذا.
 قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾: قرأ ابن
 كثير وابن عامر وورش عن نافع: ﴿يَهْدِي﴾ بفتح الهاء وتشديد الدال، وأصله:
 يهتدي، فادغم التاء في الدال، ونقلت فتحها إلى الهاء لئلا يجتمع ساكنان.
 وقرأ أبو عمرو ونافع في رواية غير ورش: ﴿يَهْدِي﴾ باختلاس فتحة الهاء
 وتشديد الدال.^(٣)

(١) ذكر نحوه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ١٧٧ - ١٧٨) دون عزو.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢ / ٢٣٧ - ٢٣٨).

(٣) هي قراءة أبي عمرو، وقالون عن نافع، وهي أنهما يخفیان حركة الهاء، والنص عن قالون بالإسكان،
 وقال اليزيدي عن أبي عمرو: كَانَ يُشَمُّ الهاء شيئاً من الفتح. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٢).

وقرأ عاصم^(١): ﴿يَهْدَى﴾ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال إتباعاً لكسرة الدال بعد الهاء.

وعن عاصم في رواية أبي بكر بكسر الياء لانكسار الهاء؛ لتتفق الحركات.
وقرأ حمزة والكسائي: ﴿يَهْدِي﴾ بإسكان الهاء وتخفيف الدال على الأصل
الثلاثي^(٢).

وأما معناه: فقد قال عطاء: إِنَّ مُحَمَّدًا دعا قَوْمَهُ إِلَى الْحَقِّ وَالرَّشَادِ، وَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ مِمَّنْ لَا يَدْعُو إِلَى الْحَقِّ وَلَا يَهْتَدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى^(٣).

وقال الحسن: ﴿أَفَنَ يَهْدَى إِلَى الْحَقِّ﴾ وذلك هو الله تعالى ﴿أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾؛ أي: يُعْمَلُ بِأَمْرِهِ ﴿أَمَّنْ لَا يَهْدَى﴾ إلى خير؛ أي: هو جمادٌ لا يعرف هدىً من ضلالٍ، ولا خيراً من شرٍّ، ولا نفعاً من ضرٍّ^(٤).

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ قيل: هو استثناء منقطع، ومعناه: لكنه يُهْدَى؛ أي: يُحْمَلُ وَيُنْقَلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَالْهَدْيَةُ: مَا تُنْقَلُ وَتُحْمَلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَالْهَدْيُ: مَا يُنْقَلُ إِلَى الْحَرَمِ، وَهَدَى الْعُرُوسَ: نَقَلَهَا إِلَى بَيْتِ زَوْجِهَا.

أي: هو لا يستطيع أن ينتقل بنفسه، فكيف يهدي غيره؟

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل: إِلَّا أَنْ يُنْطَقَ اللَّهُ فِي الْقِيَامَةِ، وَيَهْدِيهِ إِلَى الْقَوْلِ بِالْحَقِّ، كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨]، ﴿إِنْ

(١) في رواية حفص.

(٢) انظر جميع ما ذكر من قراءات في «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٦)، و«التيسير» (ص: ١٢٢).

(٣) ذكر نحوه ابن زنجلة في «حجة القراءات» (ص: ٣٣٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١ / ١٩٣).

كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿[يونس: ٢٩]، فإذا فعل الله تعالى بهم ذلك صاروا كذلك، ويكون معناه: ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾؛ أي: يجعلهم الله بحيث يهتدون إذا هُذُوا، ويجيبون إذا دُعُوا^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾: استفهامٌ بمعنى التوبيخ ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾: كذلك. وقيل: معناه: كيف تقضون بالجور، وصرف العبادة والشكر إلى من لا يملك شيئاً.

(٣٦) - ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾: أخبر بالسبب الذي صاروا به إلى الضلال، فقال: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾؛ أي: بغير دليل، نحو اقتدائهم بأسلافهم ظناً منهم أنهم مصيبون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾: لا ينفع في معرفة الحق نفعاً ما؛ أي: لا يدل عليه، ولا يوجهه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾: من الشرك، واتباع الظن، وترك الحق، فهو يجازيهم على ذلك، وهو وعيدٌ لهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال بعضهم: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾: هم كبارهم، يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وقولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُمْ بِنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٤١).

وقال بعضهم: هم أتباعهم، فإنَّ الكُبراء عرفوا البراهين وعاندوا، والعوام قلدوا ظناً منهم أنَّ الكبراء على الحقِّ^(١).

(٣٧) - ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله: هذا يخرج على وجهين:

أحدهما: ما كان هذا القرآن بالذي يحتمل الافتراء من دون الله؛ لخروجه عن طوق البشر ووسعهم، كذلك الذي يُحِيلُ لكونه مفترى في نفسه^(٢).

والثاني: لما أُودِعَ فيه من الحكمة والصدق، يدلُّ على كونه من عند الله؛ إذ كلام غيره يحتمل السَّفه والكذب والاختلاف^(٣).

وهذه الآية تتصل بقوله: ﴿أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ - الآية - ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: نصبه بـ(كان)؛ أي: يصدقُّ هذا القرآنُ الكتابَ المتقدم، ولو كان محمدٌ هو الذي افتراه من عند نفسه لم يخرج موافقاً لها؛ لأنَّ محمدًا لم يعرف سائر الكتب، ولمَّا خرج موافقاً لها دلَّ أنَّه من عند الله جاء؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا﴾ الآية [العنكبوت: ٤٨].

(١) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٢) قوله: «كذلك الذي يُحِيلُ لكونه مفترى في نفسه» كذا في النسخ، وعبارة «التأويلات»: «فذلك بالذي يحيل كونه مفترى بجوهره». انظر: «تأويلات أهل السنة» (ط: الرسالة ناشرون) (٢/ ٤٨٠).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٤٣).

وقوله تعالى: ﴿وَنَقْصِلَ الْكِتَابَ﴾: أي: ما كُتِبَ لهم وعليهم.
 وقال الحسن: ﴿وَنَقْصِلَ الْكِتَابَ﴾: الوعد لِمَنْ أطاعه بالنَّعيم المقيم، والوعيد لِمَنْ عصاه بالعذاب الأليم^(١).
 وقوله تعالى: ﴿لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أي: لا شك فيه أنه كلامُ ربِّ الخلائق أجمعين.

(٣٨) - ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَاتَّبِعُوا سُورَةَ مَثَلِهِ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ﴾: أم ينسبونه^(٢)، على استفهام فعله^(٣)، فيتصل بقوله: ﴿أَكَا لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ [يونس: ٢]، أو يُضمَر هاهنا استفهام، وهو: أفيُعتَرَفون بهذا أم يقولون افتراه.

وقيل: بل معناه كما في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقْلَهُ﴾ [الطور: ٣٣].
 وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَاتَّبِعُوا سُورَةَ مَثَلِهِ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾:
 وهذا أمرٌ إعجاز؛ أي: أنتم أصحابُ لسانٍ وبيانٍ، وإنما أنا رجل منكم، فتكلّفوا أنتم أن تأتوا بسورةٍ مثل هذا القرآن في نظمِهِ وصحّة معانيهِ وزوال الاختلاف عنه، فاستعينوا بمن استطعتم من خلق الله تعالى إن كنتم صادقين أنه مفترى، وأن محمداً يقدر على الإتيان بقرآن غيره وتبديله.

(١) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١ / ٢٠١).

(٢) في (أ): «أم بينوه» وليست منقطة، وفي (ف): «أم ينسقبه».

(٣) في (أ): «قوله».

وقال القشيري رحمه الله: انسدت بصائرهم، فلم يزدادوا بكثرة السَّماع إِلَّا عَمَى عَلَى عَمَى، كما أَنَّ أَهْلَ الْحَقِيقَةِ ما اَزْدَادُوا إِلَّا هَدَى عَلَى هَدَى، فسبحان مَنْ جَعَلَ سَماعَ خُطابِهِ لِقَوْمٍ سَبَبَ تَحْيِرِهِمْ، وَلآخِرِينَ مُوجِبَ تَبْصُرِهِمْ^(١).

(٣٩) - ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾؛ أي: ليس تكذيبهم القرآن لكونه مفترى عندهم بيقين، من غير إحاطة علمهم به أَنَّهُ كذلك، ولم تأتِهم حقيقة ما تُؤول إليه عاقبة مَنْ كَذَّبَ به من نزول النِّقمة بهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿تَأْوِيلُهُ﴾: ما يكون منه في الدنيا وما يكون منه في القيامة من العذاب^(٢).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: بل كذبوا بالبدية ما لم يحفظوا نظمَه ولا لفظَه، ولا نظروا فيه، ولا تدبروا ليعلموا معناه وتأويله وتفسيره^(٣).

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من الأمم رسَلهم تسرعاً لا تثبُّتاً.

وقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: الذين ظلموا نفوسهم وعقولهم كيف نزل بهم العذاب، فليتق هؤلاء أن تكون عاقبتهم كذلك. وهو تسلية للنبي عليه الصَّلاة والسَّلام، وتخويف للمكذِّبين.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ٩٦).

(٢) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦ / ٤٤).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٤٣).

(٤٠) - ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ قال الكلبي ومقاتل: ومن أهل مكة من سيؤمن بالقرآن ويصدق به^(١).

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾: أي: لا يصدق أنه من عند الله.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بالمعاصي، وقيل: من يدوم منهم على فساد الكفر ممن يتوب منهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: على علم بما يكون منهم، خلقهم لا عن غفلة وجهل، لا يضره فساد مفسد، ولا ينفعه صلاح مصلح. ويحتمل أنه على الوعيد والتهديد^(٢).

(٤١) - ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾: أي: فإن كذبوك قبل أن يكون إيمان من علم الله أنه يؤمن فقل لهم: لي عملي في التبليغ والتنبية، ولكم عملكم الذي تؤثرونه لأنفسكم، وأنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون، كلُّ يُحاسبُ على عمله دون عمل غيره. وقال الكلبي ومقاتل: نسختها آية القتال^(٣).

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٣٩). وذكره عن الكلبي الواحدي في «البيسط» (١١/ ٢٠٤).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٤٥).

(٣) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٣٣)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٥٤٨). ورواه الطبري =

وقال الإمام القشيري رحمه الله: بَرَحَ ^(١) الخفاء، وكُشِفَ الغطاء، فلا المحسنُ
بجرمِ المسيءِ مُعاقَب، ولا المسيءُ بحُكمِ المحسنِ مخاطَب، بل كلُّ بما يعملُه
مُحاسب ^(٢).

(٤٢) - ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: للردِّ، لا للفهم، و(من): اسمُ
جنس، فصلح للجمع بمعناه.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾: استفهام بمعنى الجحد؛
أي: لستَ بقادرٍ على إفهامٍ من يتصامَم عن سماعِ الحقِّ، فلا يعقله ولا يفهمه.

(٤٣) - ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾: وَحَدَّ الفعل لأنَّه واحد في اللفظ، وإن
كان جمعاً في المعنى للجنس.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾: أي: كما ليس لك
أن تُسْمِع الصُّمَّ، فتجعل لهم أسماعاً يعقلون بها عنك ما تقول، فليس لك أن تهدي
الْعُميَ إلى طريقٍ يسلكونه وهم لا يبصرون، وهو كقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾
الآية [القصص: ٥٦].

= في «تفسيره» (١٢ / ١٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٥٤)، عن ابن زيد.

(١) أي: زال.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ٩٧).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: نفى في الأوّل العقل، وفي الثاني البصر؛ لأنّه بالبصر يُتَوَصَّلُ إلى اهتداء الطُّرُق والسُّلوك فيها، ألا ترى أنّ البهائم قد تُبْصِرُ الطُّرُق وتَسْلُكُ فيها، وتتقي بها المهالك، ولا تَعْقِلُ لِمَا ليس لها سماع العقل مع سماعها الصَّوت، فبظاهر البصر تبصر الأشياء، وبظاهر السَّمع بدون العقل لا تعرف الأشياء^(١).

(٤٤) - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: أخبر أن ما حلَّ بأولئك من عذاب الاستئصال فإنّما حلَّ بهم بظلمهم أنفسهم، والله تعالى مُنْزَهُ عن أن يظلم أحداً من خلقه.

وقيل: إنّ الله تعالى لا ينقص من ثواب العباد شيئاً، ولكنهم ينقصون ذلك بفعلهم.

(٤٥) - ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾: أي: اذكر يوم نحشرهم إلى الموقف ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾: وهي مقدار من الزّمان يُقَسَم به اليوم واللّيلة على أربعة وعشرين منها، ذكرهم القيامة وما فيها من الجزاء ليخافوا ويتهيّؤوا لها.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٦ / ٤٦)، والعبارة الأخيرة فيه بلفظ: (ولا تعقل لما ليس لها سمع العقل، فلا تعقل لما يسمع القلب بعقل، وبظاهر البصر تبصر الأشياء).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿كَأَن لَّيْلَتُهُمْ فِي قُبُورِهِمْ﴾ [الْأَسَاعَةُ مِنَ النَّهَارِ] ^(١).
وقال الضَّحَّاكُ: قَصُرَتِ الدُّنْيَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ هَوْلٍ مَا اسْتَقْبَلُوا، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ
يَلْبَثُوا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَاعَةً ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾: يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَاعَةً، ثُمَّ تَنْقَطِعُ الْمَعْرِفَةُ؛
قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا أَفْسَابَ بَيْنَهُمْ
يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿فَدَخِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾: قِيلَ: هُوَ حَالُهُمْ حِينَ خَسَرُوا.
وقيل: هُوَ ابْتِدَاءٌ، وَمَعْنَاهُ: قَدْ هَلَكَ وَغُبِنَ الْمَكْذِبُونَ بِالْقِيَامَةِ اغْتِرَارًا بِالْحَيَاةِ
الدُّنْيَا، وَهَذِهِ حَالُهَا.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: حَيْثُ اعْتَقَدُوا التَّكْذِيبَ بِالْقِيَامَةِ.
ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَمَا كَانُوا﴾ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿كَذَبُوا﴾، وَيَحْتَمِلُ أَنْ
يَكُونَ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَدَخِرَ﴾.

قال الإمام القشيري رحمه الله: الْإَيَّامُ بَعْدَ مَضِيِّهَا فِي حَكْمِ اللَّحْظَةِ لِمَنْ أَمَكْنَ
فِيهَا، وَمَتَى يَكُونُ لَهَا أَثَرٌ بَعْدَ تَقْضِيَّتِهَا؟ وَالْآتِي مِنَ الْوَقْتِ قَرِيبٌ كَأَنْ قَدْ، وَالْمَاضِي
مِنَ الدَّهْرِ بَعِيدٌ كَأَنْ ^(٣) لَمْ يُعْهَدْ ^(٤).

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٣٤)، والواحدي في «البيسط» (١١ / ٢١٠).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٣٤).

(٣) في (ر): «وَالْآتِي مِنَ الْوَقْتِ قَرِيبٌ، وَكَانَ الْمَاضِي مِنَ الدَّهْرِ بَعِيدٌ كَأَنْ»، وَفِي «تَأْوِيلَاتِ أَهْلِ السَّنَةِ»: «وَالْآتِي مِنَ الْوَقْتِ قَرِيبٌ، وَكَأَنَّ قَدَرَ الْمَاضِي مِنَ الدَّهْرِ».

(٤) انظر: «لَطَائِفُ الْإِشَارَاتِ» (٢ / ٩٨). وَوَقَعَ فِي (ر): «وَالْآتِي مِنَ الْوَقْتِ قَرِيبٌ، وَكَأَنَّ الْمَاضِي مِنَ الدَّهْرِ
بَعِيدٌ كَأَنْ لَمْ يُعْهَدْ»، وَفِي «الْطَائِفِ»: «وَالْآتِي مِنَ الْوَقْتِ قَرِيبٌ، وَكَأَنَّ قَدَرَ الْمَاضِي مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يُعْهَدْ».

(٤٦) - ﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَاِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصله: وإن ما؛ (إن): للشرط، و(ما): صلة، والنون للتوكيد، ومعناه: وإن أريناك.

وقال مقاتل: ﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ في حياتك ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب؛ يعني: القتل ببدر ﴿أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ﴾ قبل عذابهم^(١).

فكان البعض هو القتل ببدر، وسائر العذاب نزل بهم بعد الموت.

﴿فَاِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾: بعد الموت، فنجزهم بأعمالهم.

﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾: ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الإخبار؛ أي: ثم ليخبركم أن الله شهيد ﴿عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي، فيجزئهم عليها.

(٤٧) - ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: قال مقاتل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ فيما خلا ﴿رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بالعدل، كما يقضى بينك وبين أمتك ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في أعمالهم، فلا يُنقصون من محاسنهم، ولا يزدون على مساوئهم^(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: فإذا جاء رسولهم فكذبوه قضى بينهم وبين

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٤٠).

(٢) المصدر السابق، الموضع نفسه.

رسولهم يوم القيامة، فيقول الله تعالى: ألم يأتكم رسلٌ بكتبي؟ فيقولون: ما أتانا منك رسولٌ ولا كتابٌ، ثم يُؤتى بالرسول فيقول: قد أبلغتكم كتابك ورسالاتك، فيقول الله تعالى: مَنْ يشهدُ لك؟ فيقول: الملائكة، فتُدعى الملائكة، فيقولون: نشهدُ أنه قد بلغ^(١).

وقال عطية العوفي: فإذا جاء رسولهم وبلغهم الرسالة، فكذبوه، قضى بينهم وبين رسولهم في الدنيا بالعدل، فعُذِّبَ المكذبون، ونجا الرسل والمؤمنون، ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ لا يُعَذَّبُ أحدٌ بغير ذنبٍ، ولا على غير حجة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]^(٢).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: لم يخلُ زمانٌ من شرعٍ، ولم يخلُ شرعٌ من حكمٍ، ولم يخلُ حكمٌ عمّا يتعقبه من ثواب أو عقاب^(٣).

(٤٨) - ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: قال مقاتل: لَمَّا قَالَ: ﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ يعني: من العذاب، قالوا: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن العذاب نازلٌ بنا، فنزل هذا^(٤).

(١) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١ / ٢١٨) دون قوله: «فيقول الله تعالى: مَنْ يشهدُ لك... إلخ».

(٢) ذكره الواحدي في «البيسط» مفرقاً (١١ / ٢١٧ و ٢١٩).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ٩٩).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢ / ٢٤٠).

(٤٩) - ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِيرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾: أن يملكنيه، وهكذا لا أملك أنزال العذاب بكم الآن.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِيرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾: قال مقاتل: قل يا محمد لكفار مكة: لا أملك لنفسي دفع سوء عنها، ولا سوق خير إليها، إلا ما شاء الله فيصيني، فكيف أملك أنزال العذاب بكم، ولكل أمة وقت معلوم للعذاب، مكتوب في اللوح المحفوظ، فإذا جاء وقت عذابهم لا يتقدمون ساعة حتى يُعذبوا ولا يتأخرون، فكذلك هذه الأمة^(١).
والعذاب: القتل ببدر.

(٥٠) - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾: قيل: فيه تقديم وتأخير وإضمار، وتقديره: ما ترون وما تقولون ماذا يستعجل منه المشركون إن أتاكم عذابه الذي تستعجلونه أخذًا بالنهار وبالليل، كيف تصنعون؟ وقال القشيري رحمه الله: مَنْ عَرَفَ كَمَالَ الْقُدْرَةِ لَمْ يَأْمَنْ مِنْ أَخْذِ الْفَجَاءَةِ، وَمَنْ خَافَ الْبَيِّنَاتِ لَمْ يَسْتَلْذِ السُّبُاطِ، وَمَنْ تَوَسَّدَ الْغَفْلَةَ أَيْقَظَتْهُ فَجَاءَةُ الْعُقُوبَةِ، وَمَنْ اسْتَوْطَأَ مَرْكَبَ الزَّلَّةِ عَثَرَ بِهِ فِي وَهْدَةِ الْمَحْنَةِ^(٢).

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٤١).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠٠).

وَقَالَتْ بِنْتُ الرَّيِّعِ بْنِ حُثَيْمٍ لِأَبِيهَا: مَا لَكَ لَا تَنَامُ؟ فَقَالَ: إِنَّ أَبَاكَ يَخَافُ
الْبَيَاتَ^(١).

(٥١) - ﴿أَتُمَرُّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِهِ ءَا لَكُنَّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَتُمَرُّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِهِ﴾: استفهامٌ بمعنى التوبيخ؛ أي: بعدما
استعجلتُم العذابَ إذا وقعَ آمَنُتم بالله، وهو غيرُ نافعٍ لكم؛ لأنَّه إيمانٌ يأسٍ.
وقيل: ﴿ءَامَنُكُمْ﴾؛ أي: صدَّقْتُم بالعذاب، وكنتم تستعجلون به استهزاءً وتكذيباً،
وحين رأيتم صدَّقتم به.

وقوله تعالى: ﴿ءَا لَكُنَّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾: أي: ويقال لهم ذلك، والألف
المقطوعةُ في أوَّلِهِ استفهامٌ بمعنى التوبيخ.

و﴿ءَا لَكُنَّ﴾ أصله من قولك: أَنْ لَكَ أَنْ تَفْعَلَ كذا، أُدْخِلْتُ عَلَيْهِ الألفَ والألامَ
للتعريف وجعل كالاسم، وترك على الفتحة لأنَّه فعلٌ في الأصل، وهو كما روي:
نهى النَّبِيُّ ﷺ عن قِيلٍ وَقَالَ^(٢): جُعِلَا كَالْأَسْمَيْنِ، وَتُرِكَا عَلَى مَا كَانَا فِعْلَيْنِ.
يعني: يُقالَ لَهُم: آلاَنَ تَوْمِنُونَ وَتَرْجُونَ الْإِنْتِفَاعَ بِهِ.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ﴾ في مَهَلٍ لو أَرَدْتُمْ فِيهِ الْإِيمَانَ لَأَمْكَنْكُمْ، وَلَمْ تَفْعَلُوا،
وَالْآنَ حِينَ ارْتَفَعَ الْإِبْتِلَاءُ تَرْجُونَ الْإِنْتِفَاعَ بِالْإِيمَانِ الَّذِي لَا اخْتِيَارَ لَكُمْ فِيهِ عَلَى
الْغَيْبِ، بَلْ أَنْتُمْ إِلَيْهِ مُضْطَرُونَ.

(١) رواه الإمام أحمد في «الورع» (٢٥٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥٤، ٩٥٥).

(٢) رواه البخاري (٦٤٧٣)، ومسلم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. وهذا الكلام

في ﴿ءَا لَكُنَّ﴾ منقول من «معاني القرآن» للفراء (٤٦٨/١).

أي: إِنَّ هذا ممَّا لا يكون.

وهذه أشياء لم تكن بعد، وأخبر عنها بفعلٍ ماضٍ تنبيهاً على أنَّها كائنةٌ لا محالة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦].

(٥٢) - ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالشرك والتكذيب: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾: ذوقوا هذا العذاب، فإنَّه خالدٌ لكم لا يزول، تصيرون إلى القبر فتعذبون فيه، ثمَّ تُبعثون فتحشرون إلى جهنم، فتعذبون فيها خالدين، وهو جزاءٌ وفاقٌ لكسبكم.

(٥٣) - ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلٌّ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ﴾: أي: ويستخبرونك يا محمَّد بعد هذا الاقتصاص منك عليهم: أحقُّ ما تقول، وأنت فيه جادٌ متيقنٌ للصِّدق فيه؛ أي: إِنَّ هذا عجيبٌ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾: أي: قل: نعم، أقسم بالله ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾، و(إي) لا يُقال إلا مع الأيمان، ولا يُذكر على الأفراد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾: أي: بفائتين.

وقال الكلبي: ويستخبرونك - أي: أهل مكة -: أحقُّ ما جئتنا به من نزول العذاب بنا، والبعث بعد الموت؟ قل: نعم، إي وربِّي إِنَّ العذاب نازلٌ بكم، وما أنتم عليه بفائتين^(١).

(١) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١ / ٢٢٣).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل: أحمق ما تدعوننا إليه من التَّوْحِيدِ، وهو كقولهم لإبراهيم عليه السلام: ﴿اجْتِنَا بِالْحَقِّ أَمْرَاتِ مِنَ اللَّعِينِ﴾ [الأنبياء: ٥٥]، وقولهم لموسى عليه السلام: ﴿اَنْخِذْنَا هُزُؤًا﴾ [البقرة: ٦٧]^(١).

(٥٤) - ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أخبر أنه لو كان لكل نفسٍ أشركت جميع ما في الدنيا ملكاً لها لافتدت به عند نزول العذاب به لشدة العذاب طلباً للخلاص، وإن كان الذي منع الكفار عن الإيمان هو حبُّهم الدنيا وحرصهم عليها وبخلهم بها، وقال الله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية [يونس: ٧]^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾: هذا ابتداءً غير معلقٍ بـ(لو)، ومعناه: أخفوها؛ أي: عن أتباعهم.

وقيل: أي: أضمروها على ما كان منهم من التكذيب.

وقيل: أي: أظهروها، والإسراؤ لغةٌ في الإظهار والإخفاء جميعاً، وهو من الأضداد، وهو قولهم: ﴿يَلَيِّنَانَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ﴾ [الأنعام: ٢٧] ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾: أي: بالعدل؛ أي: يُجزى المحسنُ

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٥١).

(٢) المصدر السابق (٦/ ٥٢).

على إحسانه، والمسيء على إساءته، فلا يُنْقَصُ مِنْ ثَوَابٍ وَلَا يُزَادُ عَلَى عِقَابٍ ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾.

ثمَّ قوله: ﴿وَأَسْرُوا﴾ ﴿وَفُضِيَ﴾ ماضٍ ومعناه المستقبل؛ لأنَّه من أمور الآخرة، لكنَّها كائنَةٌ لا محالة، فلذلك ذكره بصيغة التَّحْقِيقِ.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أي: لا يُقْبَلُ مِنْهُمْ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ، ولا يَقَعُ فيما سبق من الوعيدِ خُلْفٌ، ولا تَنْفَعُهُمْ نَدَامَةٌ وَإِنْ صَدَّقُوا، ولا يَنَالُهُمْ كَرَامَةٌ وَإِنْ طَلَبُوهَا، ولا يَجْرِي عَلَيْهِمْ ظَلَمٌ فِي الْجَزَاءِ، كَلَّا، بل هو الله العَدْلُ فِي الْقَضَاءِ، وَالْفَرْدُ فِي الْعِلَاءِ، بَنَعَتِ الْكِبْرِيَاءُ^(١).

(٥٥) - ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: ليس للظَّالِمِ مُلْكٌ مَا فِي الْأَرْضِ لِيَفْتَدِيَ بِهِ، بل لله.

ووجه آخر: أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تَحْقِيقِ مَا أَوْعَدَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ مَالِكٌ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: أي: كائنٌ، بِالرَّحْمَةِ كَانَ أَوْ بِالْعَذَابِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله:

أي: لا يَتَنَفَعُونَ بِعِلْمِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ: لَا يَكْتَسِبُونَ سَبَبَ الْعِلْمِ بِالتَّأَمُّلِ وَالنَّظَرِ فِي الْأَدَلَّةِ.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠١).

وقال في أوّل الآية: فيه^(١) دلالة البعث من وجهين:

أحدهما: أن من قدر على إيجاد السماوات والأرض لا عن شيء قدر على إحياء الخلق بعد إفنائهم.

والثاني: أن خلق السماوات والأرض وتعليق منافع بعضها ببعض والإفضال على الخلق بأنواع النعم من كمال الحكمة، وقد أخبر أنه ما خلقهما باطلاً، فلو كانتا للفناء ولا حياة بعده كان يكون خارجاً عن الحكمة، ولا وجه له^(٢).

(٥٦) - ﴿هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: تحقيق الأول.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: يحيي القلوب بأنوار المشاهدات، ويميت النفوس بأنواع المجاهدات.

قال: ويقال: يحيي من أقبل عليه، ويميت من أعرض عنه، يحيي بالرجاء ويميت بالقنوط^(٣).

(٥٧) - ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ

لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) في (أ): «إليه»، وفي (ر) و(ف): «إنه»، والمثبت من «التأويلات».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٥٣ - ٥٤).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠١).

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ يعني: قريشاً ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: في القرآن، وهي ما دعا إلى النُّسك والخشوع، وصرف عن الإثم والفسوق^(١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: هي النهي، قال الله تعالى: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ [النور: ١٧]؛ أي: ينهاكم.

قال: وقيل: هي التي تدعو إلى كل مرغوب، وتزجر عن كل مرهوب.

قال: وقيل: هي التي تُلينُ كل قلب قاسٍ، وتُجَلِّي كل قلبٍ مظلم^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾: الشِّفَاءُ: كالِدَّوَاءِ لإزالة الدَّاءِ، وداءُ الجهل أضْرَمَ داءَ البدن، وعلاجه أعسرُ، وأطباؤه أقلُّ، والشِّفَاءُ منه أجْلُ:

لكلِّ داءٍ دواءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ إِلَّا الْحِمَاةَ^(٣) أُعِيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا^(٤)

وقال الإمام القشيري رحمه الله: شفاء كلِّ أحدٍ على حسب حاله، فشفاء المذنبين بوجود الرَّحمة، وشفاء المطيعين بوجود النِّعمة، وشفاء العارفين بوجود القُرْبَةِ، وشفاء الواجدين بوجود الحقيقة.

و[يقال]: شفاء العاصين بوجود النَّجاة، وشفاء المطيعين بوجود الدَّرَجَاتِ، وشفاء العارفين بالقُرْبِ والمناجاة^(٥).

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٢/ ٥٥٠)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤٠).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٥٤).

(٣) في (ر): «الجهالة».

(٤) البيت مشهور ولا يعرف قائله، انظر: «العقد» لابن عبد ربه (٢/ ٢٢٦)، و«محاضرات الأدباء»

للراغب الأصبهاني (١/ ٢٨)، و«أساس البلاغة» للزمخشري (مادة: طب).

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠٢)، وما بين معكوفتين منه.

وقوله تعالى: ﴿وَهْدَى﴾: أي: إرشاد إلى الصَّواب ﴿وَرَحْمَةً﴾ منه؛ أي: من الله تعالى على عباده، ببيان شرائع الدِّين والأُمُور التي توصلهم إلى جنته ونعمته.

وقوله تعالى: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: هم الَّذِينَ يَتَنَفَعُونَ بها.

وقيل: ﴿وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: تَخْلِيصٌ مِنَ الْعَذَابِ لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ؛ أي: يَصَدِّقُونَ بَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الموعظة لأرباب الغيبة ليتوبوا، والشفاء لأصحاب الحضور ليطيعوا.

قال: وقيل: الموعظة للعوام، والشفاء للخواص، والهدى لخاص الخاص، والرحمة لجميعهم، وبرحمته وصلوا إلى ذلك^(١).

(٥٨) - ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾: الفضل: الزيادة في النعمة، وفضل الله: إفضاله، كالنبات يجيء بمعنى الإنبات؛ قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧].

أي: قل يا محمد لهؤلاء الَّذِينَ هَمَّتْهُمْ جَمْعُ الْأَمْوَالِ وَأَسْبَابِ الرَّفْعَةِ فِي الدُّنْيَا، لا الإيمان: بفضل الله وبرحمته افرحوا، لا بالمال وأسباب الجلال والجمال، وهو قوله تعالى:

﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾: قرأ الحسنُ بقاء المخاطبة^(٢)، وكان الكسائي يعيب هذه

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠٢).

(٢) ذكرها عنه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٩٨)، وهي رواية رويس عن يعقوب. انظر: «حجة =

القراءة، والقرءاء يجيزها؛ لأنَّه رَدُّ إلى الأصل، وهو قوله عليه الصَّلَاة والسَّلَام: «لتأخذوا مصافكم»^(١).

وقراءة العامة بياء المغيبة.

واللام في أمر المغيبة لازمة، وفي المخاطبة جائزة.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: هو يرجع إلى قوله: ﴿فَإِنَّكَ لَفَيَّرْحُوهَا﴾، وذلك يرجع إلى ما سبق ذكره، وهو فضل الله ورحمته.

= القراءات لابن زنجلة (ص: ٣٣٣)، و«النشر» لابن الجزري (٢/ ٢٨٥).

ورويت عن أبي بن كعب رضي الله عنه رفعاً ووقفاً، والصواب الوقف، فقد رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٠٦٢ - تفسير) عن أبي بن كعب، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أَمَرْتُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ»، قال: قُلْتُ: سَمَانِي لَكَ رَبِّي؟ قال: «نَعَمْ»، فتلا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ قال: بكتاب الله وبالإسلام خير مما يجمعون. والصواب أن المرفوع من هذا الحديث ينتهي عند قوله: «نعم»، أما الآية فقد جاء في كثير من الروايات أن الذي قرأها هو أبي رضي الله عنه، وأنه قرأ فيها: ﴿فلتفرحوا﴾ بالتاء، انظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٠٩٣٧) تحقيق محمد عوامة، و«مسند أحمد» (٢١٢٣٧)، و«خلق أفعال العباد» (٥٣٤)، و«سنن أبي داود» (٣٩٧٩)، و«شرح معاني الآثار» (٥٥٨٧). ويشهد لذلك أن الحديث رواه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩)، عن أنس رضي الله عنه، وينتهي عند قوله: «نعم».

(١) انظر: «معاني القرآن» للفرء (١/ ٤٦٩ - ٤٧٠). وقد رد الطبري كلام الفرء في «تفسيره» (١٢/ ١٩٨).

وحديث: «لتأخذوا مصافكم» كذا تناقلته كتب النحو والتفسير. انظر: «الجمال في النحو» للخليل (ص: ٢٦٧)، و«اللغات» للزجاجي (ص: ٩٣)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ١٣٦)، و«الكشاف» للزمخشري (٢/ ٣٥٣)، و«الإنصاف في مسائل الخلاف» (٢/ ٤٢٧).

ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢١٠٩)، والترمذي (٣٢٣٥) وصححه، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه بلفظ: «على مصافكم كما أنتم»، ولا شاهد فيه.

وقيل: هما يرجعان إلى القرآن؛ لأنها تتصل بالآية الأولى وهي في ذكر القرآن، وفيه الفضل والرحمة: أَمَّا الرَّحْمَةُ فَقَدْ قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى: ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً﴾، وَأَمَّا الْفَضْلُ فَقَدْ قَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ إلى أن قال: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٢-٤].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وقتادة وجماعة: فضلُ الله: الإسلام، ورحمته: القرآن^(١).

وقال الضَّحَّاكُ على عكسه^(٢).

وقال أبو سعيد الخدريُّ: فضلُ الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله^(٣).

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: فضلُ الله: الإسلام، ورحمته: تزيينه في قلوبكم؛ قال تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]^(٤).

وقال خالد بن معدان: فضلُ الله: الإسلام، ورحمته: ستره^(٥).

وقال عبد العزيز بن يحيى^(٦): فضلُ الله: النِّعَمُ الظَّاهِرَةُ، ورحمته: النِّعَمُ الْبَاطِنَةُ.

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٢ / ١٩٦ - ١٩٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ١٩٧).

(٣) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٠٦٤ - تفسير)، والطبري في «تفسيره» (١٢ / ١٩٤)، وابن أبي

حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٥٨).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٣٥).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٣٥). وفيه: «السنة» بدل «ستره».

(٦) في المطبوع من «تفسير الثعلبي»: (الكسائي) بدل «عبد العزيز بن يحيى»، وفي مطبوع دار التفسير:

«الكتاني»، وكلاهما محرف عن: (الكتاني)، وهو كما أثبت المصنف هنا: عبد العزيز بن يحيى

الكتاني المكي المتكلم، كان من أهل الفضل والعلم، وله مصنفات عدة، وينسب له «كتاب الحيدة» =

وقال أبو بكر الورّاق: فضلُ الله: النِّعماء، وهو ما أعطى وحبّأ، ورحمته: الآلاء، وهو ما صرفَ وزوى.

وقال سفيان بن عيينة: فضلُ الله: التَّوفيقُ، ورحمته: العصمة.

وقال سهل بن عبد الله: فضلُ الله: الإسلامُ، ورحمته: السُّنة.

وقال الحسين بن الفضل: فضلُ الله: الإيمانُ، ورحمته: الجنة.

وقال ذو النُّون المصري: فضلُ الله: دخول الجنان، ورحمته: النِّجاة من النِّيران^(١).

وروى أبي بن كعبٍ رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ: ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ﴾ قال: «بكتاب الله والإسلام»^(٢).

وقيل: فضلُ الله: الإسلامُ، ورحمته: الثَّباتُ على الإسلام.

وقيل: فضلُ الله تعالى: الإسلامُ، ورحمته: أن جعلنا من أمةٍ محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: فضلُ الله: ما أباحَ لهم من الخيرات، ورحمته: ما أراحَ عنهم من الآفات.

وفضلُ الله: ما أكرمهم به من إجزاء الطَّاعات، ورحمته: ما عصمهم [به] من ارتكاب الزَّلَّات.

= وأنكر الذهبي نسبته إليه، وكان ممَّن تفقَّه بالشَّافعي واشتهر بصحبته، وهو الذي ناظر بشراً المريسي عند المأمون في نفي خلق القرآن، وتوفي في حدود (٢٤٠هـ). انظر: «تاريخ بغداد» (١٢ / ٢١٢)، و«طبقات الفقهاء» للشيرازي (ص: ١٠٣)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٥ / ٨٧٣)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (١٨ / ٣٤٨).

(١) ذكر هذه الآثار الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٣٥).

(٢) رواه سعيد بن منصور في «سننه - التفسير» (١٠٦٢)، والصواب وقفه على أبي كما تقدم قريباً.

وفضلُ الله: دوامُ التَّوفيق، ورحمته: تمام التَّحقيق.

فضلُ الله: ما اختصَّ به أهل الطَّاعات من صنوف إحسانه، ورحمته: ما يختصُّ به أهل الزَّلات من وجوه غفرانه.

فضلُ الله: المعرفة في البداية، ورحمته: المغفرة في النِّهاية.

فضلُ الله: أن أقامَكَ لشهود الطَّلَب، ورحمته: أن رزقَكَ الوجود بعد الطَّلَب.

فضلُ الله: أن عرَّفَكَ بشرط البرهان، ورحمته: أن أشهدَكَ بحكم البيان إلى أن تراه غداً بكشف العيان.

فضلُ الله: الرُّؤية، ورحمته: إبقاؤهم في حالة الرُّؤية.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَكَ فُلْيَحْرُوءٌ﴾؛ أي: بما أهلكم له، لا بما تتكلفون من حركاتكم وسكناتكم، وتصلون إليه بنوعٍ من تصنعكم وتعمُّلكم. ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الأموال الوافية، ويتصفون به من الأحوال الزَّاكية^(١).

قال: ويُقال: الذي لك منه في سابق القسمة خيرٌ لك ممَّا تكلفته من صنوف الطَّاعة والخدمة^(٢).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وفي الآية: أن الله تعالى بإنزال القرآن تفضَّل؛ إذْ له ألا ينزل، وفيه: أن أهل الفترة يؤاخذون في حال فترتهم^(٣).

(١) العبارة في «اللطائف»: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ أي: ما تتحفون به من الأحوال الزَّاكية خير مما تجمعون من الأموال الوافية.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢/ ١٠٢ - ١٠٣).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٥٥).

(٥٩) - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أضاف إنزاله إلى السماء وإن كانت الأرزاق إنما تخرج من الأرض؛ لِمَا أَنَّ أسبابها متعلقة بالسماء من المطر والشمس والقمر، في الإنبات والإنضاج والتلوين، وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وهو على هذا.

ويحتمل قوله: ﴿أَنْزَلَ﴾؛ أي: خلق، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَرْوَاحٍ﴾ [الزمر: ٦].

وقوله: ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ [يونس: ٥٩]: من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي.

وقيل: ما جعلوا لله ممًا ذرأ من الحرث والأنعام^(١). وقد مر بيان الأمرين. وفيه دليل على أن الحرام من رزق الله كالحلال.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾: استفهام بمعنى الإنكار ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾؛ أي: بل على الله تكذبون.

وقال الكلبي: قل يا محمد لأهل مكة: رأيتم ما أنزل الله لكم في الكتاب من رزقٍ حلالاً، فجعلتم ممًا رزقكم الله حرامًا على النساء وحلالاً على الرجال، وهذا في شأن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، قل: الله أمركم به أم على الله تخلقون الكذب ما لم يأمر به^(٢).

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٥٥ / ٦).

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (١٢٢ / ٢) دون نسبة.

وقال مقاتل: قل لكفار مكة قريش وخزاعة وثقيف وعامر بن صعصعة وبني
مُذَلِّج وعامر والحارث ابني عبد مناة: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ؟﴾؛ يعني:
الحرث والأنعام، ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾؛ يعني: ما حرّموا للآلهة من الأنعام،
﴿قُلْ أَلَا لِلَّهِ آدَبٌ لَكُمْ؟﴾ بتحريمه، بل على الله تقولون الكذب^(١).

(٦٠) - ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: استفهام بمعنى
التوبيخ والتفريع، وأضمر في آخره: (بالله)؛ أي: وما ظنهم بالله في يوم القيامة، ماذا
يفعل بهم جزاء على افتراءهم عليه؟

وقال الإمام الزاهد أبو منصور رحمه الله: فإن قيل: كيف أوعدوا بيوم القيامة
وهم لا يؤمنون بالبعث؟

قيل له: قد ألزمهم الحجة على كون^(٢) البعث بما أقام من الدلائل، وبما جعل
في عقولهم من الإيمان به؛ إذ ليس من الحكمة خلق الخلق للفناء خاصة.

وبعد فإنه قد يوعد المرء بما لا يتيقن به، ويخوف عليه وإن لم يحط علمه به.

ومعنى آخر: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لو خرج الأمر
حقاً، وظهر ما قاله رسول الله ﷺ من البعث صدقاً^(٣).

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٤٢). وزاد في هامش (ر): «كقوله: ﴿أَمَّا أَخِيرُ﴾ يقول: بل أنا خير»
وعليها إشارة التصحيح.

(٢) أي: على حصول. وكلمة «كون» ليست في (أ). وفي «التأويلات»: (بكون).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٥٧).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: على كلِّ النَّاسِ بما ساقَ إلى الكلِّ مِنَ الرِّزْقِ، كافرهم ومؤمنهم، وبما أخر عنهم العذابَ، وبما بعثَ إليهم الرُّسل والكتب من غير أن كانت منهم سابقةٌ صنع يستوجبون به ذلك، ومنه خصوص فضلِ الله على المؤمنين^(١).

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضله وإنعامه عليهم؛ لجهلهم بمواقع النعم التي ساقها إليهم.

(٦١) - ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾: واتَّصله بما قبله: إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ فِي الإِمهَالِ، وليس إِمهاله لخفاء أحوالهم عليه؛ لأنَّك يا محمَّد ما تكون في شأن؛ أي: أمر ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ﴾؛ أي: وما تقرأ ممَّا أنزلَ عليك ﴿مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ولا تعمل أنت شيئاً وسائر النَّاسِ ﴿مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: عالمين به شاهدين عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ أي: تسرعون فيه وتنبسطون وتنتشرون.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يغيب^(٢).

وقرأ الكسائي بكسر الزَّاي وغيره بالضم^(٣)، وهما لغتان.

(١) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٢٠٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٦٣).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٢٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٣).

ومعنى الغروب: البعد والغيبة.

﴿مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾: أي: وزن نملة صغيرة.

وقيل: الدُّرُّ: ما يترأى في الهواء عند وقوع الشمس في الكوّة ونحوها.

﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾: قرأ^(١) حمزة بالضم^(٢)، ردًا على موضع قوله: ﴿مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾؛ لَأَنَّ ﴿مِنْ﴾ زائدة لتأكيد النفي، وتقديره: وما يعزبُ عن ربك مثقال ذرة.

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾: قال أبو روق: هو اللوح المحفوظ^(٣).

وقيل: أي: هو مثبت عند الله، كتبه ملائكة الله، وأحصاه الله.

ويقال: ردّهم إلى كتابة ذلك عليهم لعدم اكتفائهم في الامتناع عما نُهوا عنه برؤيته وعلمه.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: خوّفهم بما عرّفهم من اطلاعه عليهم في جميع أحوالهم، ورؤيته لِمَا يُسلفونه من فنون أعمالهم، والعلمُ بأنّه يراهم يوجبُ استحياءهم منه، وهذه حالة المراقبة، فالعبد إذا علم أنّه يراه مولاه استحيى منه، وترك متابعة هواه، ولا يحوم حول ما نهاه، وأنشدوا في معناه:

كَأَنَّ رَقِيًّا مِنْكَ حَلَّ بِمُهِجَتِي إِذَا رُمْتُ تَسْهِيلًا عَلَيْهِ تَصَعَّبًا^(٤)

(١) في (أ): «قرأهما».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٢٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٣).

(٣) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١ / ٢٤٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) البيت بلا نسبة في «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (١٦ / ٢٨٥)، و«مسالك الأبصار» لابن

فضل الله العمري (٨ / ٣٦٥)، و«طريق الهجرتين» لابن القيم (ص: ٣٠٩).

وقال آخر:

أَعَاتِبُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي كُلِّ خَصْلَةٍ تَعَاتِبُنِي فِيهَا وَأَنْتَ مَقِيمٌ
وقال في قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾: فكيف يخفى عليه ذلك،
أو يتقاصر عنه علمه، وهو مُنْشِئُهُ وَمُوجِدُهُ؟ ولبعض أحكامه الجائزة عليه^(١)
مخصَّصه^(٢).

(٦٢) - ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: ولَمَّا
خَوَّفَ بيوم القيامة أعداءه ذَكَرَ ما يعطي فيه أوليائه.
قال ابنُ كيسان: أوليائُ الله هم الَّذِينَ تَوَلَّى الله هداهم بالبرهان الَّذي أتاهم،
وتولَّوا القيام له بحقه، والدُّعَاءُ إليه عامَّةً خلقه^(٣).
وقيل: هم الَّذي يُؤْلِيهِم الله ثوابه وكرامته.

وقال القشيريُّ رحمه الله: الوليُّ على وزن فعيل، مبالغةٌ مِنَ الفاعل، وهو مَنْ
تَوَالَتْ طاعته مِنْ غير أن يتخلَّلها عصيان.

ويجوزُ أن يكونَ الفَعِيلُ بمعنى المفعول هاهنا، كالجريح والقتيل، فيكون
الوليُّ مَنْ يتوالى عليه إحسانُ الله وإفضاله، ويكون في معنى كونه محفوظاً في عامَّة

(١) «عليه» ليست في (أ) ولا في مطبوع «اللطائف».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠٤).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٣٨).

أحواله من المحن، وأشدُّ المحن ارتكابُ المعاصي، فيعصمه الله تعالى دوام أوقاته عن الزلات^(١).

وروي عن النبي ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ قَالَ: «هُمْ الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ»^(٢). وقال عمر رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ أَنَسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى»، فقال رجلٌ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وما أعمالُهُمْ؟ نجبُهُمْ بذلك. قال: «رجالٌ يتحاثُّونَ بِرُوحِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ، وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا بَيْنَهُمْ، فَوَاللَّهِ إِنَّ وَجوهَهُمْ لَتُورُّ وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣).

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢/ ١٠٤ - ١٠٥).

(٢) حديث حسن بشواهده، رواه ابن صاعد في زيادته على «الزهد» لابن المبارك (٢١٨)، والبخاري في «مسنده» (٥٠٣٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٤)، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما. وروي عن سعيد مرسلاً بإسناد أصح من إسناد الموصول، رواه ابن المبارك في «الزهد» (٢١٧)، وابن أبي الدنيا في «الأولياء» (١٥)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢١٠). وله شاهد رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٧٥٩٩)، والبخاري في «الأدب» (٣٢٣)، وابن ماجه (٤١١٩)، من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها، بلفظ: «خياركم الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل».

(٣) رواه أبو داود (٣٥٢٧). قال ابن كثير في «تفسيره»: (إسناد جيد، إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر رضي الله عنه).

قلت: وله شاهد رواه النسائي في «الكبرى» (١١١٧٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦١١٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٧٣)، عن أبي هريرة بإسناد صحيح.

وقال ابن زيد: أولياء الله: هم الَّذِينَ وصفهم الله في الآية الثانية: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣] ^(١).

وقوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِنَ النَّارِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بِفَوْتِ الْجَنَّةِ.

وقال مقاتل: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَنْ يَدْخُلُوا النَّارَ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ الْجَنَّةِ ^(٢).

وقال ابن كيسان: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مِنْ فَوَاتِ ثَوَابِ اللَّهِ ^(٣).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فِي الْحَالِ وَلَا فِي الْمَالِ؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْخَوْفِ: تَوَقُّعُ مُحْذُورٍ يَصِيبُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، أَوْ تَرْقُبُ مُحْبُوبٍ يَزُولُ فِي الْمُسْتَأْنَفِ، وَهُمْ بِحُكْمِ الْوَقْتِ لَيْسَ لَهُمْ تَطَلُّعٌ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَالْحُزْنُ مِنَ الْحُزُونَةِ، وَهُمْ فِي الْحَالِ فِي رُوحِ الرِّضَا بِكُلِّ مَا جَرَى ^(٤).

(٦٣) - ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾: قِيلَ: هُوَ نَصَبٌ نَعْتًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا

إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٢١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٦٥).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢ / ٢٤٣).

(٣) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (١ / ٥١٣) بلا نسبة.

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ١٠٥). وفيه: (...وهم في روح الرضا بكل ما يجري فلا

تكون لهم حزونة الوقت).

وقيل: هو مبتدأ، وخبره: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾.

وقال الكلبي: يتقون الشرك والمعاصي.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿ءَامَنُوا﴾: أقاموا بقلوبهم موجب المعارف، و﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾: استقاموا بنفوسهم بأداء الوظائف^(١).

(٦٤) - ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِكَلِمَتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: من الملائكة عند قبض الأرواح ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾: تتلقاهم لإدخال الجنة.

وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له»^(٢).

وقال الضحّاك: يعلم أين هو من قبل أن يموت^(٣).

وقال الزهري: هي البشارة قبل الموت^(٤).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي قوله لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]^(٥).

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠٦). وفيه: (قاموا بقلوبهم من حيث المعارف...).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٧٥١٠)، والترمذي (٢٢٧٣)، وقال: حديث حسن.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٢٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٥).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٦٣)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٦).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٢٣).

وقال الحسن: هي ما بَشَّرَ اللهُ به المؤمنين في كتابه^(١)، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [التوبة: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾: أي: لمواعيده في كتبه، وعلى ألسنة رسله.

وقيل: لهذه البشارة.

وقيل: لِمَا مَضَى مِنْ سُنتِهِ فِي الْأَوَّلِينَ مِنَ الْإِهْلَاكِ وَالِاسْتِصْصَالِ لِلْمُكَذِّبِينَ.

وقيل: لِحُجَجِ اللَّهِ وَبِرَاهِينِهِ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾؛ أي: ذلك التبشير.

وقيل: أي: ذلك الموعود هو الفلاح العظيم، لَأَنَّهُ يُنَلِّجُ جَمِيعَ مَا يُرْجَى، وَالْأَمْنُ مِنْ كُلِّ مَا يُخْشَى.

وقال القشيري رحمه الله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ إذا قاموا بما به أمروا، واستقاموا في ترك ما عنه زُجروا، وبشّرتهم الشريعة بالخروج عن عهدة الإلزام، وبشّرتهم الحقيقة باستيجاب الإكرام بما كوشفوا به من أعلام هذه البُشْرَى في عاجلهم، وأما في آجلهم فالحق يتولّى ذلك، قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ [التوبة: ٢١].

قال: ويُقال: البشارة العظمى: ما يجدونه في قلوبهم من ظفرهم بنفوسهم، وسقوط مآربهم، والرّضا بالكائن بتقدير ربهم، هذه هي النعمة العظمى، ووجدان هذه الحالة هي البشارة الكبرى^(٢).

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٢/ ٥٥٣).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠٦).

(٦٥) - ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ﴾: أضاف النهي إلى قولهم؛ لأنه هو السبب لحزنه، ومعناه: لا تحزن بقولهم، وهو كقولك: لا أراك هاهنا، تضيف النهي عن الرؤية إلى نفسك، ومعناه: لا تكن هاهنا فأراك، ومعنى الآية: لا تحزن بقولهم: متى هذا الوعد؟

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ﴾ تكذيبهم^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: هو ابتداءً بمعنى: فَإِنَّ الْعِزَّةَ كُلَّهَا لِلَّهِ، له المنعة والسلطان.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾: أي: لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾؛ أي: بضمايرهم وأفعالهم، وهو مُنَزَّلٌ بهم عذابه، فلا يمتنعون عنه.

وقال ابن المسيب: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾: يعزُّ مَنْ يَشَاءُ، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وعِزَّةُ الرَّسُولِ والمؤمنين بالله جميعًا، فهي كُلُّهَا لِلَّهِ^(٢).

وقال مقاتل: ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ﴾: إِنَّكَ مُفْتَرٍ كَذَّابٌ^(٣).

وقيل: في القرآن: إِنَّهُ سِحْرٌ وَإِنَّهُ مُفْتَرَى.

وقيل: في الله بما لا يليق به مِنَ الصَّاحِبَةِ والولد.

(١) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١ / ٢٥١)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤ / ٤٥).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٣٩).

(٣) لم أجده هكذا، وانظر: «تفسير مقاتل» (٢ / ٢٤٣)، وفيه: (يعني: أذاهم).

(٦٦) - ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.
 وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾: أي: كلهم عبيده، يفعل بهم ما يشاء، ولا يمتنع من تعذيبه من شاء تعذيبه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾: له وجوه:
 أحدها: أنه استفهام، ومعناه: أي شيء يتبع الذين يدعون الأصنام شركاء لله؟
 ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾: أي: ما يتبعون إلا الظنَّ، وهو توهمهم شفاعَةَ الأصنام لهم، حتى قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ أَمْرًا تَأْخُذُ وَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ [الزمر: ٤٣] ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾: أي: وما هم إلا يكذبون، وقيل: يقولون بالظنَّ.

والثاني: أن ﴿مَا﴾ بمعنى: الذي، ومعناه: والذين يتبعون الذين يدعونهم شركاء ما يتبعون فيهم إلا الظنَّ.

والثالث: أن ﴿مَا﴾ للنفي، ومعناه: ولا يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، وهو مفعول ﴿يَتَّبِعُ﴾ لا ﴿يَدْعُونَ﴾: أي: الذين يتبعونهم ليسوا بشركاء، وإنما يتبعونهم ظناً أنها تنفعهم، وهو ظنٌّ كاذبٌ.

والرابع: أن ﴿مَا﴾ للنفي، و﴿إِنْ﴾ نفي، وهو تكرارٌ لنفي شيء واحدٍ للتأكيد، وهو تكرار (قبل) في قوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٩].

(٦٧) - ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: وهو إخبارٌ عن قدرته على ما تعجزُ عنه أصنامُهم.

يقول: هو الذي جعل لكم الليل تسكنون فيه إذا أويتم إلى منازلكم منصرفين من الحركة والاضطراب في طلب المعاش، وجعل النهار ذا إِبْصَارٍ؛ أي: يقع فيه الإِبْصَارُ على المبصرات، ويكون فيه بروزُ الأشياء للعيون بعد الاستتار بظلمة الليل، وهو كقوله تعالى: ﴿فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]؛ أي: ذاتِ رِضَا، و﴿مَلَأَ دَافِقِي﴾ [الطارق: ٦]؛ أي: ذي دَفْقٍ، وليلٍ نائمٍ؛ أي: ذي نومٍ؛ أي: يُنام فيه.

وقال جريرٌ:

لَقَدْ لُمْتُنَا يَا أُمَّ غِيلَانَ فِي السُّرَى وَنَمْتٍ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمٍ^(١)
وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: أي: لَعَلَامَاتٍ على قُدْرَةِ اللَّهِ تعالى ووحدانيته لِمَنْ يَسْمَعُ الْوَعْظَ فَيَتَذَكَّرُهُ بِقَلْبٍ حَاضِرٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الليل لأهل الْعَقْلَةِ بعدُ وَغِيْبَةٍ، ولأهل النَّدَمِ تَوْبَةٍ وَأَوْبَةٍ، وللمحِبِّينَ زَلْفَةً وَقُرْبَةً^(٢).

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السَّلام: كَذَبَ مَنْ ادَّعَى مُحِبَّتِي فَإِذَا جَنَّ اللَّيْلُ نَامَ عَنِّي^(٣).

(١) انظر: «ديوان جرير» (٢/ ٩٩٣).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠٧).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٧١)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٣٣)، و«المنثور» =

(٦٨) - ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أْتَقُولُوكَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.
 وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أْتَقُولُوكَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: وهذا تعجيبٌ من الله تعالى من جرأة المشركين على الافتراء على الله تعالى بإضافة الأولاد إليه.
 وحاجّهم في ذلك فقال: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾: وهو ما كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله.

ثم نزه نفسه فقال: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنبيهاً للعباد على تنزيهه.
 ثم قال: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: فلا حاجة به إلى الولد الذي إنما يتكثّر به ويُتعرّز به في الحياة وبعد الوفاة، فمن كان مالكاً للسمّوات والأرض لم يوصف بالحاجة إلى التّكثّر والتّعرّز.
 ثم أخبر أنّه لا سلطان لهم بهذا؛ أي: لا حاجة.
 وقوله تعالى: ﴿أْتَقُولُوكَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: استفهامٌ بمعنى الإنكار.
 وقال القشيري رحمه الله: لا يجوز في صفة الله تعالى الولادة لتوحّده، وأنّه لا قسيم له، ولا يجوز منه التّبني أيضاً لتفرّده، وأنّه لا شبيه له^(١).

= لابن الجوزي (ص: ٣).

وروي هذا القول عن الفضيل بن عياض. رواه الدينوري في «المجالسة» (١ / ٤٤٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨ / ٩٩).

وروي أيضاً عن أبي سليمان الديрани. رواه أبو طاهر السلفي في «الطيوريات» (٣ / ١٠٣٤).

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ١٠٨).

وقال الإمام الزاهد أبو منصور رحمه الله: إِنَّ فِي الشَّاهِدِ مَنْ اتَّخَذَ وَلَدًا إِنَّمَا يَتَّخِذُ لِأَحَدٍ أَوْجِهٍ ثَلَاثَةً: إِمَّا لِحَاجَةِ تَمَسُّهِ، أَوْ لَشَهْوَةِ تَغْلِبِهِ، أَوْ لِمَا يَسْتَنْصِرُ بِهِ عَلَى آخِرِ مَمَّنْ يَخَافُهُ، فَإِذَا كَانَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمُلْكُ مَا فِيهِمَا، وَكُلُّهُمْ عَبِيدُهُ وَإِمَاؤُهُ، فَلَا حَاجَةَ تَقَعُ لَهُ إِلَى الْوَلَدِ؛ إِذْ هُوَ الْغَنِيُّ وَالْمَالِكُ^(١).

(٦٩) - ﴿قُلْ إِنَّا الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّا الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾: أي: الذين يقولون: لله ولدٌ، لا ينجون في الآخرة من العقوبة، ولا يصلون إلى ما رَجَّوْا مِنَ الأصنام مِنَ الشِّفَاعَةِ.

(٧٠) - ﴿مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

وقوله: ﴿مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا﴾: أي: هو متاعٌ لهم؛ أي^(٢): تمتَّعْ وانتفع بالدُّنْيَا الفانية القليلة مدَّةً قصيرة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾: وهذا ظاهر.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٦٦).

(٢) «أي» ليست في (أ).

(٧١) - ﴿وَآتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِن كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَآتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ﴾: هذه تسليّة للنبي ﷺ فيما ناله من إيذاء قومه بالكذب، وإعلامٌ للمشرّكين خبر المستعجلين بالعذاب: أن الأمم الماضية استعجلوا فأُمهلوا إلى أن حَقَّ القولُ ثم أخذوا، فليس إمهالي هؤلاء للعجز، بل لما كان للأولين حين وقع اليأس من إيمانهم.

ومعنى قوله: ﴿وَآتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ﴾؛ أي: واقرأ يا محمّد على قومك المشرّكين خبر نوح عليه السّلام.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِن كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ﴾: أي: شقّ عليكم وثقل ﴿مَقَامِي﴾؛ أي: قيامي فيكم بحقوق الله تعالى ﴿وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾؛ أي: التي أوحاها إليّ، وجعلها علاماتٍ لحقيّة^(١) هذا الدّين.

﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾: أي: اعتمدت.

﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾: قرأ نافع بالوصل، من الجَمْع، وقرأ الباقون بالقطع، من الإجماع^(٢)، وهو العزم؛ أي: اعزموا على أمركم.

وقوله تعالى: ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾: قال الفراء: أي: وادعوا شركاءكم، أضمر فعلاً آخر سوى الأوّل^(٣). وهو كقول القائل:

(١) في (ر) و(ف): «الحقيقة».

(٢) لنافع روايتان في ذلك، واحدة مثل بقية القراء، والثانية بفتح الميم، وقرأ بها أيضاً رويس بخلف عنه.

انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٣٢٨)، و«شرح طيبة النشر» لابن الجزري (ص: ٢٤٩).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧٣).

عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا^(١)

أي: وسقيتها ماء باردًا.

وقال آخر:

وَرَأَيْتُ زَوْجَكَ فِي الْوُغَى مَتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرَمَحًا^(٢)
أي: ومعتقلًا رمحًا.

وقال الزَّجَّاج: هو مفعول معه؛ أي: مع شركائكم^(٣).

وقال بعضهم: (أَجْمِعُوا)؛ أي: أَعِدُّوا، فيقع على الاسمين جميعًا^(٤): ﴿أَمْرُكُمْ
وَشُرَكَاءُكُمْ﴾؛ أي: آلهتكم، وقيل: أي: الَّذِينَ يشاركونكم في التَّكْذِيبِ.
وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾: هو نهْيٌ مَغَايِبَةٌ للأمر، ومعناه: لا
تجعلوا أمركم عليكم غمة^(٥).

(١) صدر بيت أنشدته الفراء لبعض بني دُبَيْر - قبيلة من أسد - يصف فرسه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١ / ١٤)، و«تفسير الطبري» (١ / ٢٦٤)، و«الكشاف» (٢ / ١٠٨)، و«خزانة الأدب» للبغدادى (١ / ٤٩٩). وعجزه:

حَتَّى شَتَّتْ هَمَالَةً عَيْنَاهَا

(٢) البيت لعبد الله بن الزَّيْعَرَى، وهو في ديوانه (ص: ٣٢)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢ / ٦٨)، و«معاني القرآن» للفراء (١ / ٤٧٣)، و«الخصائص» لابن جني (٢ / ٤٣١) و«تفسير الطبري» (١ / ١٣٧). ويروى:

يَا لَيْتَ بَعْلَكَ قَدْ غَدَا

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣ / ٢٨).

(٤) بعدها في (ر): «وقوله تعالى».

(٥) قوله: «هو نهْيٌ مَغَايِبَةٌ للأمر ومعناه لا تجعلوا أمركم عليكم غمة» من (ر).

قال المبرّد: أي: فرّجوا عن^(١) أنفسكم ولا تغمّوها.

وقيل: أي: ضيقاً وغمّاً.

وقيل: أي: مغطّى ملبّساً. قاله الأخفش^(٢)، وأنشدوا لطرفة:

لَعَمْرُكَ مَا أَمْرِي عَلَيَّ بُعْمَةٌ نهاري ولا ليلي عَلَيَّ بِسَرْمَدٍ^(٣)

وهو من قولهم: غمّ الهلال، وأصله: أَنْ مَنْ أَضْمَرَ شَيْئًا فَكَرَّ فِي إِمضَائِهِ، وانتَهَزَ الفرصة فيه، فهو في غمّ منه والتباس، لا يدري أيتها له إمضاؤه أم لا؟

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفْضَوْا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾: أي: افرغوا إليّ ممّا تريدون بي، ومعناه: أتمّوه، وهو كقوله تعالى: ﴿فَافْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢].

وإدخال (إلى) على معنى: ألقوا إليّ ما استقرّ رأيكم عليه مفروغاً منه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾: أي: ولا تمهلون.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ﴾: قولكم وعملكم ﴿وَشُرَّكَاءُكُمْ﴾: واستعينوا بالهتكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ يعني: أظهروا أمركم ولا تكتموا ﴿ثُمَّ أَفْضَوْا﴾ امضوا ﴿إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾؛ أي: لا ترقبوا فيّ أحداً^(٤).

وقال الضّحّاك: أي: انهضوا إليّ ولا تؤخّرون^(٥).

(١) في (ف): «فرحوا».

(٢) ذكر نحوه الزجاج في «معاني القرآن» (٣ / ٢٨)، ونقله الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦ / ٦٩) عن الكسائي.

(٣) انظر: «ديوان طرفة» (ص: ٢٩).

(٤) انظر: «تنوير المقباس» للفيروزآبادي (ص: ١٧٧).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٦٩).

(٧٢) - ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَامِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: فإن أعرضتم ﴿سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتحتجوا به عليّ لإعراضكم.

وقيل: أي: فلا ضرر عليّ لأنني لم أدعكم إلى الإيمان لأجرٍ آخذه منكم يفوتني إذا لم تؤمنوا، فإنما الضرر في ذلك عليكم بما يفوتكم من ثواب الله.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يقول: كيف أعرضتُم عن قبوله ولم أسألكم أجرًا على ذلك فيكون لكم عذرٌ في الإعراض، وهو كقوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠].

وفيه دلالة على منع أخذ الأجر على تعليم العلم؛ لأنه لو جاز ذلك لكان لهم عذرٌ ألا يبذلوا ذلك، ولا يتعلموا شيئاً من ذلك، وفيه هدمٌ شرائع الله تعالى وإسقاطها^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَامِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾: أي: المنقادين. وقيل: أي: من المخلصين.

(٧٣) - ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: أي: أسكناهم في الأرض بعد إهلاك الذين قبلهم، وأعرفنا المكذبين.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٧٠).

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾: أي: الَّذِينَ أُنْذِرَهُمْ نوحٌ صلوات الله عليه.
وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: كان أُنْذِرَ نوحٌ جميعَ قومه من آمن ومن لم
يؤمن، فيَحْتَمِلُ أن يكون معناه: فانظر كيف كان عاقبة من أجاب ومن لم يجب.
ويحتمل أن يكون معناه: عاقبة الذين لم يقبلوا الإنذار ولم يجيبوا، وكانت
بالهلاك والاستئصال^(١).

(٧٤) - ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَكَاذِبُوا يَمَّا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾: أي: أقوامهم؛ كصالح إلى
ثمود، وهود إلى عاد، وغيرهما.

﴿فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾: أي: بالمعجزات ﴿فَمَا كَانُوا لِلْيُؤْمِنُوا يَمَّا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي:
أَصْرُوا على التكذيب، وكان في علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون، وكذلك أراد منهم.
﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: نختم على قلوب الظالمين؛ أي: المجاوزين
الحد؛ أي: من علمنا منه اختيار الإصرار على الكفر خذلناه، وأوجدنا منه ذلك.

وقيل: أي: فما كان المتأخرون ليؤمنوا بما كذب به من قبلهم من الأمم كقوم
عاد وثمود.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: فلم يكونوا ليصدقوا بالرَّسُول والكتاب بما
كذبوا به في أخذ الميثاق عليه^(٢).

(١) المصدر السابق (٦ / ٧١).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤ / ٢٦٥)، والواحدي في «السيط» (٩ / ٢٥٧)، عند تفسير قوله =

وقال الفرّاء: لم يكونوا ليؤمنوا لك يا محمّد بما كذبوا به في الكتاب الأوّل.
يعني: اللّوح المحفوظ^(١).

وقال الإمام الزّاهد أبو منصور رحمه الله: ويحتمل: بما كذبوا به من قبل بعث الرّسول، ويكون دليلاً على أنّ أهل الفترة يؤخذون بالتّكذيب في حال الفترة.

ويحتمل: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾^(٢) بعد إتيان البيّنات ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ﴾ من قبل إتيان البيّنات^(٣).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: قصّ الله تعالى عليه نبأ الأوّلين، وشرح له أحوال جميع الغابرين، ثمّ فضّله على كافّتهم أجمعين، فكانوا نجومًا وهو البدر، وكانوا أنهارًا وهو البحر، به انتظم عقدّهم، وبنوره أشرق نهارهم، وبظهوره ختم عدّهم، فكان كما قيل:

يَوْمُكَ وَجْهُ الدَّهْرِ مِنْ أَجْلِهِ حَنَّ غَدٌ وَالتَّفَتَ الْأَمْسُ^(٤)

= تعالى: ﴿وَلَكَ الْفَرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١] بلفظ: (فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا من قبل يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم فأمنوا كرهاً وأقروا باللسان وأضمروا التّكذيب). وانظر: «تنوير المقباس» للفيروزآبادي (ص: ١٣٤).

(١) انظر: «معاني القرآن» للفرّاء (١/ ٤٧٤).

(٢) بعدها في (ر) و(ف): «به».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٧١).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١١٠)، والبيت عنده بلفظ:

يوم وحسب الدهر من أجله حيّا غد والتفت الأمس

والبيت لابن الرومي كما في «ديوانه» (٢/ ١٩٩)، و«التذكرة الحمدونية» (٤/ ١٧٠)، و«الدر

الفريد» للمستعصمي (٨/ ٢٦٥)، وصدره عندهم:

(٧٥) - ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾: أي: ثم أرسلنا من بعد الرسل موسى وأخاه هارون إلى فرعون - لعنه الله - وأشراف قومه ووزرائه وأهل مشورته ﴿بِآيَاتِنَا﴾: بالعصا واليد وغيرهما، فتعظّموا عن الانقياد لموسى وأخيه، وكانوا عتاةً ومردةً، لا يبالون من اكتساب الآثام.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾: مشركين^(١).

(٧٦) - ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مُّؤْتَيْنِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مُّؤْتَيْنِ﴾: أي: فلما جاءتهم العصا - التي التقمّت حبال السحرة وعصيهم - وسائر المعجزات، قالوا: هذا سحرٌ ظاهرٌ وتخييلٌ بينٌ.

(٧٧) - ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾: استفهامٌ بمعنى التّقرير^(٢).

ذلك عرس الدهر من أجله

=

(١) انظر: «تنوير المقياس» للفيروزآبادي (ص: ١٧٧).

(٢) في (ف): «التقرير».

وقوله تعالى: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾: وهو بلفظ الاستفهام، وقد ذَكَرَ عنهم أَنَّهُمْ قَطَعُوا القول به حيث قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا السِّحْرُ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦].

فيجوز أن يكونوا قَطَعُوا القول به مرّة، وكذلك بلفظ الاستفهام على وجه الإنكار مرّة، يعني: أتأتينا بهذا على مقابلة سحرنا مع كثرته وتقدُّمنا في صنعته؟! فذكر الله تعالى ما ذكروا في الحالتين جميعاً.

ويجوز أن يكون معناه: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ وتَمَّ الكلام؛ أي: أتقولون هذا للحقِّ لَمَّا جاءكم، ثم قال: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾، وهو استفهامٌ بمعنى التوبيخ، وتعجيبٌ من قولهم، وليس بحكاية لقولهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾: أي: لا يفوزون في الدنيا ولا في الآخرة. وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: الفلاحُ: الظَّفَرُ بالحاجة والغلبة، والسَّحَرُ باطلٌ، فيكون مغلوباً والحقُّ غالبٌ.

ويحتمل: والسَّاحِرُونَ في الدنيا لا يفلحون في الآخرة.

ويحتمل أن يكون معناه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ بسحرهم في حال سحرهم، وكذا: ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، و﴿لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فإذا تَرَكُوا ذلك أَفْلَحُوا^(١).

(٧٨) - ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبَرِيَّةُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٧٣).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِنَا﴾: أي: لتُضَرِّفَنَا، وقد لَفَّتَهُ فَالْتَفَتَ؛ أي: صَرَفَهُ فأنْصَرَفَ.

وقوله تعالى: ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾: لا نَعْرِفُ نَبُوَّةَ وَلَا مَلِكًا وَلَا إِلَهًا غَيْرَ فِرْعَوْنَ.
وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ أَلِكِرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾: أي: المُلْكُ في أرضنا، فتعظّموا علينا.
وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾: أي: بمصدّقين في دعوة النُّبُوَّةِ ووَعْدِ العذاب، أرادوا قطعَ أطْمَاعِهِمَا في إيمانِهِم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾؛ أي: عمّا كان يعبدُ آبَاؤُنَا، وكانت لفرعون أصنامٌ صغارٌ صنعها لهم، وأمرهم بعبادتها، ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ أَلِكِرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: السُّلْطَانُ والمُلْكُ والشَّرَفُ في الأرض؛ أي: في أرض مصر^(١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل: وتكون لكم الألوهية التي كان يدّعي فرعون لنفسه؛ لأنّ عندهم أنّ مَنْ أَطِيعَ وَاتَّبَعَ فَقَدْ عُبِدَ وَنُصِّبَ إِلَهًا^(٢).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: رَكَنُوا إِلَى التَّقْلِيدِ فيما دانوا، فاستحبُّوا استدامة ما عليه كانوا، فلحقهم سوء العقيدة وسوء الطريقة حتّى توهّموا أنّ الأنبياء إنّما دعوهم إلى الله لتكون لهم الكبرياء على خلق الله، ولم يعلموا أنّهم إنّما دعوهم إلى الله بالله بأمر الله^(٣).

(١) ذكر بعضه الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٧١)، وانظر: «تنوير المقباس» للفيروزآبادي (ص: ١٧٨).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٧٤).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١١٠).

(٧٩) - ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾: وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ بِالعَصَا وَالْيَدِ الْبَيْضَاءِ وَصَارَتِ الْعَصَا ثَعْبَانًا قَالُوا لِفِرْعَوْنَ: إِنَّهُ سِحْرٌ، فَاسْتَشَارَهُمْ، فَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِجَمْعِ السَّحَرَةِ، فَأَمَرَ بِذَلِكَ.

وَأِنَّمَا قَالَ: ﴿بِكُلِّ سِحْرِ﴾ لِلتَّعَاوُنِ، وَلِنَلَّا يَفُوتَهُ شَيْءٌ مِنَ السَّحَرِ بِتَخَلُّفِ الْبَعْضِ.

(٨٠) - ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ﴾: أَي: فَسْتَرُونَ إِبْطَالَ اللَّهِ تَعَالَىٰ ذَلِكَ.

وَلَمْ يَكُنْ هَذَا أَمْرًا بِالسَّحَرِ وَلَا رَضَىٰ بِهِ، لَكِنَّهُ تَهْدِيدٌ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي قُلْنَا، وَالْوَاتِقُ بِالْحُجَّةِ يُمْكِنُ الْخِصْمَ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ بِالشُّبْهَةِ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ الْغَايَةَ جَاءَ الْحَقُّ فَدَمَغَ الْبَاطِلَ، وَلَيْسَ لِمَنْ أَعَانَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ غَالِبٌ.

(٨١) - ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ

الْمُفْسِدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السَّحَرُ﴾: قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو بِالْمَدِّ عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ، وَعَلَى قِرَاءَتِهِ: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ﴾ اسْتِفْهَامٌ؛ أَي: أَيُّ شَيْءٍ جِئْتُمْ بِهِ؟ ثُمَّ قَالَ: ﴿السَّحَرُ﴾؛ أَي: أَهْوِ السَّحَرُ؟

وقرأ الباقر بن غير مد^(١)، وعلى هذا: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ﴾ بمعنى: الذي جئتم به، وهو مبتدأ، و﴿السَّحَرُ﴾ خبره، ومعناه: هذا هو السحر الذي أضفتموه إليَّ. ومعنى قراءة المد: تجيئون بالسحر تقصدون به معارضة المعجزة، وهو إنكار عليهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾: أي: يجعله مغلوباً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾:

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: لا يجعلهم بأعمالهم الفاسدة صالحين، أو: لا يجعل أعمالهم الفاسدة صالحة^(٢).

(٨٢) - ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: الحقُّ حقٌّ وإن لم يحقَّ، والباطل باطلٌ وإن لم يبطل، وقد قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ [الأنفال: ٨]، ولكن معناه: ليجعل الحقَّ في الابتداء حقًّا، فيصير حقًّا، ويجعل الباطل في الابتداء باطلاً، فيكون باطلاً؛ أي: بإبطاله الباطل يكون باطلاً، وبتحقيقه الحقَّ يكون حقًّا.

وقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾: أي: برسالات رسله؛ إذ بهم يظهر الحقُّ من الباطل، وهم حُجَجُ الله في الأرض، وبالحُجَجِ يظهر الحقُّ من الباطل. ويحتمل: بآياته التي أنزلَ عليه بها ظهور الحقِّ وبُطْلان السحر.

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (١ / ٣٢٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٣).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٧٤).

ويحتمل: ﴿يَكَلِّمَنِيهِ﴾: بمواعيده بظفر موسى وقومه وهلاك أعدائه^(١).
وقيل: إحقاق الحق: إظهاره وتمكينه بالدلائل الواضحة والآيات اللاتحة حتى
يرجع الطاعن عليه حسيراً والمُنَاصِب له كسيراً.

وقيل في قوله: ﴿يَكَلِّمَنِيهِ﴾: هي مواعيده بقوله: ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ

أَسْخَضُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [القصص: ٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّنًا﴾
الآية [القصص: ٣٥]، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١]،
ثم بَيَّن الكلمة: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ الْمُنْصُورُونَ﴾ (٧٥) ﴿وَلِنْ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾: قال مقاتل: يعني القبط^(٢).
وقال القفال: أي: فرعون وقومه؛ لأنه سمّاهم مجرمين في قوله تعالى:
﴿فَأَسْتَكَبرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥].
والمجرم: مَنْ اعتَادَ اكتِسَابَ المعاصي، يُقال: فلان جريمٌ أهله؛ أي: دائمٌ على
الاكتساب لهم.

(٨٣) - ﴿فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى إِذْ ذُرِّيَّتُهُ مِن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ
وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِي فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى إِذْ ذُرِّيَّتُهُ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن
يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِي فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما:

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٧٤-٧٥).

(٢) في «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٤٥) أن الذين آمنوا بموسى عليه السلام أهل بيت أمهاتهم من بني إسرائيل
وأباؤهم من القبط.

يعني: لم يصدق موسى إلَّا قليلٌ من قوم فرعون، وهم سبعون أهل^(١) بيت من القبط من آل فرعون، والأمّهات من بني إسرائيل، فجعل الرجلُ يتبع أمّه وأخواله^(٢).

﴿عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾^(٣) يعني: أشراف قومه وجنده^(٤) أن يقتلهم.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِي الْأَرْضِ﴾: لمخالف في أرض مصر ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ يعني: مع المشركين في النار، وهذا تسليّة للنبي عليه الصلاة والسلام في قلّة من آمن به.

وقيل: معنى الآية: فما صدّق موسى إلَّا أعقاب قوم من قوم موسى، وهم بنو

(١) في (ر) و(ف): «ألف».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٤٣)، والواحد في «السيط» (١١ / ٢٨٤). وروى الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٢٤٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الذرية: القليل».

(٣) في النسخ: «وملئه» بدل ﴿وَمَلَئِهِمْ﴾، والمثبت هو الصواب، وانظر التعليق الآتي.

(٤) كذا شرح المؤلف قوله: ﴿وَمَلَئِهِمْ﴾، وهذا التفسير على ما جاء في النسخ ظاهر، لكنه على لفظ الآية يحتاج إلى بيان؛ لأنه فسر ضمير الجمع بضمير مفرد، فكان لا بد من بيان ذلك، قال الزمخشري في «الكشاف» (٢ / ٣٦٣): فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: ﴿وَمَلَئِهِمْ﴾؟ قلت: إلى فرعون، بمعنى آل فرعون، كما يقال: ربيعة ومضر، أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون له. ويجوز أن يرجع إلى الذرية، أي: على خوف من فرعون وخوف من أشراف بني إسرائيل، لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم، ويدل عليه قوله: ﴿أَن يَفْنَيْهُمْ﴾ يريد: أن يعذبهم.

قلت: وهذا كله على عود الضمير في ﴿قَوْمِهِ﴾ إلى موسى، أما على عوده إلى فرعون فالمعنى ظاهر، وعود الضمير على فرعون رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٢٤٦) عن ابن عباس، وهو الذي صححه المؤلف كما سيأتي، ورجحه ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣ / ١٣٧) بأن المعروف في القصص أن بني إسرائيل كانوا في قهر فرعون، وكانوا قد بشرُوا بأن خلاصهم على يد مولود يكون نبياً صفته كذا كذا، فلما ظهر موسى عليه السلام اتبعوه ولم يعرف أن أحدا منهم خالفه.

إسرائيل، كان الزَّمان بعدَ مجيء موسى امتدَّ على موسى حتَّى ماتَ كثيرٌ من الآباء وبقي أولادُهم فآمنوا به. وهو قول مجاهد^(١).

والصَّحيح: ﴿فَمَاءَ أَمْنٍ لِّمُوسَى﴾ من قوم فرعون ﴿الَّذِينَ مِنْ قَوْمِهِ﴾ حَقَّقُوا أقوالهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨] إِلَّا يَسِيرُ مِمَّنْ قُلْنَا: إِنَّ أُمَّهَاتِهِمْ كُنَّ إِسْرَائِيلِيَّاتٍ آمَنُوا مِيلًا إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ قَرَابَاتِ الْأُمَّهَاتِ، ومع هذا كانوا خائفين مِنْ فرعون وأعوانه أَنْ يفتنَّوهم عن دينهم؛ أي: يصرفوهم؛ إذ كان فرعون - إلى أَنْ أَهْلَكَهُ اللهُ - غالبًا في ملك مصر لأهلها^(٢) بِالْغَلْبَةِ وَالْقَهْرِ، مسرفًا مجاوز القَدْرَ في الكفر بادِّعاء الألوهيَّة، وقتل النَّفُوس.

وقيل: هؤلاء النَّفَرُ اليسير: امرأةُ فرعون، وخربيل مؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه^(٣).

ثم قوله: ﴿وَمَلَأْنَاهُمْ﴾ على الجمع له ثلاثة أوجه:
أحدها: أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى الذَّرِيَّةِ.

والثَّاني: أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى فرعونَ، وكان ملكًا، وذكره مع أتباعه، يُقال: قدَّمَ الخليفةُ مع أتباعه وأنا أخافُ السُّلطانَ؛ أي: أخافُه وأتباعه.

والثَّالث: أَنَّهُ ذَكَرَ فرعونَ، ومعناه: آل فرعونَ، أضمر الآلَ، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَأَلَ الْقَرْيَةَ﴾؛ أي: أهل القرية، وقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١]؛ أي: يا أُمَّة النَّبِيِّ.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٢٤٥).

(٢) كلمة «لأهلها» غير واضحة في (أ)، ووقع في (ف): «ملك الأرض لأهلها»، وفي (ر): «تلك الأرض لأهلها».

(٣) روى الطبري هذا القول في «تفسيره» (١٢ / ٢٤٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مَنَآمَنُ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾: أخبر أن موسى لم يضعف قلبه لقلة من آمن من قوم فرعون، بل قال لمن آمن به منهم: على الله توكلوا، ولا تخافوا فرعون وملاه.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فيه دلالة أن الإيمان والإسلام واحد؛ لأنه بدأ بالإيمان وختَمَ بالإسلام، وإنما جمع بينهما لأنه يشير إلى زيادة فائدة مع أن الأصل واحد، فإن الإيمان هو اعتقاد ترك تضييع كل حق، والإسلام اعتقاد تسليم كل حق، ولأن الإيمان هو التصديق بكلية الأشياء فيما فيها الشهادة لله تعالى بالربوبية والألوهية، والإسلام هو جعل كل الأشياء لله تعالى سالمة^(١).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: بين أنه لا يكتفى بالأقوال، بل لا بد من صدق الأحوال.

وحقيقة التوكل: توسل يتقدمه تنصل، ثم يعلم أن نجاته بفضل الله تعالى تحصل، لا بما يأتي به من التكلف والتعمل^(٢).

(٨٥) - ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾: أجابوه إلى ما أمرهم به.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: قال مجاهد: له معنيان:

أحدهما: لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون، وهو كقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ

وَمَلَأْنَاهُمْ أَن يَقْنَهُهُمْ﴾ [يونس: ٨٣].

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٧٦).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ١١٢).

والثاني: لا تعدُّبنا بعذابٍ مِن عندك، فيقول قومُ فرعون: لو كانوا على حقٍّ ما عُدُّبوا، وما سُلِّطنا عليهم، فيُفْتَنُوا فتنةَ كفرٍ وضلالٍ^(١).

(٨٦) - ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾: أي: أخرجنا من بين أظهرهم، فنأمنهم ونعبدك آمين.

وقيل: أي: خلصنا من استعبادهم، وأخذهم^(٢) بالأعمال الشاقة والمهن الخسيسة.

(٨٧) - ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾: أي: هارون ﴿أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾؛ أي: اتَّخذوا، وقيل: أي: تَمَكَّنَّا.

و(مصر) لا تُصَرَف؛ لأنَّه مؤنَّث معرفة؛ لأنَّها بلدة أو كورة أو أرض.

﴿لِقَوْمِكُمَا﴾؛ أي: لأجلهم.

﴿وَاجْعَلُوا﴾: أي: أنتما وهم ﴿بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾: قال مجاهدٌ: أي: نحو الكعبة^(٣).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٢٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٧٦).

(٢) كذا في النسخ، ولعل الأولى أن يقول: (وأخذهم إيانا).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٢٥٨).

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٢٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٧٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: فيه إضمار؛ أي: اجعلوا بيوتكم قبله إلى الكعبة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ فرعونَ لَمَّا أتاه موسى عليه السلام بالرسالة أمرَ بمساجد بني إسرائيل فكَسَّرَتْ كُلُّهَا، وكانت المساجد ظاهرةً، فأمرهما الله تعالى أن يجعلا لقومهما مساجدَ في جوف البيوت، ولا يظهرها^(١).

﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ﴾: أي: حافظوا عليها بشروطها.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: يا موسى، بشرهم بقرب الخلاص.

وخصَّ به موسى لأنَّ هارون كان تابعاً له، وذلك أنَّ موسى صلوات الله عليه كان يأمرُ فرعونَ بأن يُرْسِلَ معه بني إسرائيل، فيُخْرِجُوا مِنْ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ بوعد الله تعالى أن يُورِثَهُمْ إِيَّاهَا ويجعلهم سكانها، وكان فرعونُ يأبى عليه، وكان لذلك وقتٌ معلومٌ، فأمرهما الله تعالى أن يُقِيمَا بِمِصْرَ مطمئنين متمكِّنين، لا يستعجلان، وأن يأْمُرَا بني إسرائيل بذلك، ويتَّخِذُوا مساجدَ في بيوتهم، ويصلُّوا فيها سرّاً، منتظرين للفرج، وهكذا عادة المسلمين إذا حَزَبَهُمْ أمرٌ فَرَعَوْا إِلَى الصَّلَاةِ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويَحْتَمِلُ هذا الأمرُ بالانفصالِ مِنْ فرعون وقومه باتِّخَاذِ البيوت لهم في طرفٍ مِنَ المِصْرِ، حتَّى إذا أرادوا الخروجَ من عندهم قدروا على ذلك، ولا يكون المروء عليهم، وكان ذلك الانفصالِ مِنْ جهة القِبْلَةِ^(٢).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: مَهَّدْنَا لَهُمْ لِعِبَادَتِنَا مَحَالً وهي نفوسُهم، ولمعارفنا منازل وهي قلوبُهم، ولمحبَّتِنَا مواضع وهي أرواحُهم، ولمشاهدتنا معاهد

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٤٤)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٢٥٥).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٧٨).

وهي أسرارهم، فنفسُ العابدين بيوتُ الخدمة، وقلوبُ العارفين أوطان المعرفة، وأرواحُ المهيمين مشاهد الحِشمة، وأسرار الموحّدين منازل الهمة^(١).

(٨٨) - ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: ضاق صدرُ موسى من معاملة فرعون وقومه، فدعا عليهم فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ في هياتهم في المحافل، وإذا ركبوا وبرزوا للناس، ﴿وَأَمْوَالًا﴾ من ذهب وفضة.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ﴾: أي: يا ربنا أعطيتهم ذلك ليُضِلُّوا النَّاسَ عن طاعتك^(٢).

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾: أي: أهلكها وأذهب آثارها؛ لأنهم

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢/ ١١٢).

(٢) كذا شرح المؤلف هذه الجملة ولم يصنع شيئاً، فهو لم يبين ما في اللام التي في ﴿لِيُضِلُّوهُ﴾ من الوجوه، ولا توجيه ذلك على كل وجه من الوجوه، وقد استوعب ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ١٣٩) ذلك فقال: (وقوله: ﴿لِيُضِلُّوهُ﴾ يحتمل أن تكون لامٌ «كي» على بابها على معنى: آتيتهم الأموال إملاء لهم واستدراجاً فكان الإيتاء كي يضلوا، ويحتمل أن تكون لام الصيرورة والعاقبة، كما قال: ﴿فَالْقَظَةُ﴾ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴿[القصص: ٨] والمعنى: آتيتهم ذلك فصار أمرهم إلى كذا، وروي عن الحسن أنه قال: هو دعاء. ويحتمل أن يكون المعنى على جهة الاستفهام؛ أي: ربنا ليضلوا فعلت ذلك، وفي هذا تقرير الشنعة عليهم).

يستعينون بنعمتك على معاصيك، وإنما أمرتهم بأن يستعينوا بها على طاعتك وسلوك سبيلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارةً منقوشة كهيئة الدراهم والدنانير^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمل هذا وجهين:

واجعل على قلوبهم قساوةً وغلظةً تنفّر الأتباع منهم ومن يقلّدهم عن أتباعهم وتقليدهم، فيكون ذلك أهون علينا في استنقاذ الأتباع، وأدعى للاتباع إلى الإيمان. الثاني: اطبع على قلوبهم^(٢).

﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾: أي: ليروا ذلك، ويحتمل الغاية؛ أي: إلى أن يروا العذاب الأليم، وكان كذلك فإنهم لم يؤمنوا إلى الغرق، وكان ذلك إيماناً يأس، فلم يقبل.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ يحتمل النصب جواباً للأمر بالفاء، ويحتمل عطفاً على قوله تعالى: ﴿لِيُضِلُّوا﴾، ويحتمل الجزم بالنهي على معنى الدعاء، وهو كقول الشاعر:

فلا يَنْبَسِطُ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْكَ مَا انْزَوَى
ولا تَلْقَنِي إِلَّا وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ^(٣)

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٤٥).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٧٨).

(٣) البيت للأعشى. انظر: «ديونه» (ص: ١٧٨).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَأَشَدُّ دَعْلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا﴾؛ أي: أهلكتهم كفاراً^(١).

وقال مجاهد: ﴿وَأَشَدُّ دَعْلَى قُلُوبِهِمْ﴾: بالضلالة، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾: بالله تعالى بما يرون من الآيات ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٢).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: هذا محمولٌ على أن الله تعالى أخبر موسى عليه السلام أنهم لا يؤمنون، فيسعه^(٣) هذا الدعاء، كما أخبر الله تعالى نوحاً أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، فأما قبل أن يخبره بذلك فلا يسعه أن يدعو بهذا الدعاء، وهو إنما أرسله إليهم ليدعوهم إلى الإيمان^(٤).

وهذه الآية دليلٌ على أن الدعاء على الغير بالموت على الكفر لا يكون كفراً، ولا يكون رضا بالكفر، ولا استحساناً له، بل هو غاية استقباح له، فإنه لا يدعو به على أحدٍ إلا وعنده أنه أفحش جناية، وعليه أعظم عقوبة.

(٨٩) - ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾: والدعاء كان من موسى عليه السلام وحده في الظاهر؛ فإنه قال: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا﴾، وإنما قال: ﴿دَعْوَتُكُمَا﴾ لوجوه:

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٢٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٧٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٢٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٧٩).

(٣) قوله: «يسعه» هنا معناه والله أعلم: فيسوغ له ويحق له.

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٧٩).

أحدها: أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنَّ هَارُونَ دَعَا أَيضًا، وَإِنَّمَا ذُكِرَ عَنْ مُوسَى لِأَنَّهُ كَانَ أَصْلًا.
والثاني: يَحْتَمِلُ أَنَّ هَارُونَ اقْتَدَى بِهِ فِيمَا دَعَا، وَاتَّبَعَ أَلْفَاظَهُ فِيهِ، فَكَانَ الْأَصْلُ
مُوسَى فَأُضِيفَ إِلَيْهِ، ثُمَّ كَانَتْ الْإِجَابَةُ لَهُمَا.

والثالث: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُو وَهَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُؤْمِنُ، وَالتَّأْمِينُ
دَعَاءٌ، فَإِنَّ مَعْنَاهُ: كَذَلِكَ فَلْيَكُنْ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِيمَا﴾: عَلَى مَا أَنْتَمَا عَلَيْهِ مِنَ الْإِبْلَاجِ وَالْوَعْظِ إِلَى حُلُولِ
الْوَقْتِ، وَلَا تَسْتَعْجَلَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ.

قرأ ابنُ عامرٍ: ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ﴾ بِتَخْفِيفِ النُّونِ^(١)، وَهُوَ إِخْبَارٌ لَا نَهْيٌ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ
بِالتَّشْدِيدِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ﴾ نَهْيٌ، وَالنُّونُ لِلتَّأْكِيدِ، كَمَا فِي الْوَاحِدِ: لَا تَقُولَنَّ وَلَا تَفْعَلَنَّ.
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ جَرِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَكَثَ فِرْعَوْنُ بَعْدَ الدَّعْوَةِ أَرْبَعِينَ
سَنَةً^(٢).

وَقَالَ الْإِمَامُ الْقَشِيرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: مِنْ شَرَطِ الدَّعَاءِ صِدْقُ الْاِفْتِقَارِ فِي الْاِبْتِدَاءِ،
ثُمَّ حُسْنُ الْاِنتِظَارِ فِي الْاِنْتِهَاءِ، وَكَمَالُهُ بِالرِّضَا بِجُرْيَانِ الْأَقْدَارِ، بِمَا يَبْدُو مِنَ الْمَسَارِّ
وَالْمُضَارِّ.

وَالِاسْتِقَامَةُ فِي الدَّعَاءِ: سَقُوطُ التَّقَاضِي عَلَى الْغَيْبِ، وَالْخَمُودُ عَنِ الْاِسْتَعْجَالِ
بُحْسَنِ الثِّقَةِ وَجَمِيلِ الظَّنِّ^(٣).

(١) هِيَ رِوَايَةُ ابْنِ ذَكْوَانَ عَنْ ابْنِ عَامِرٍ. انْظُرْ: «السَّبْعَةُ» (ص: ٣٢٩)، وَ«التَّيْسِيرُ» (ص: ١٢٣).

(٢) رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كَمَا فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» لِلْسَّيُوطِيِّ (٦ / ٤١٥).
وَرَوَاهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٢ / ٢٧٣) عَنْ ابْنِ جَرِيرٍ.

(٣) انْظُرْ: «لَطَائِفُ الْإِشَارَاتِ» لِلْقَشِيرِيِّ (٢ / ١١٣).

(٩٠) - ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ، بَنُوا إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾: أي: أجبنا دعاءهما، وأمرنا بني إسرائيل بالخروج للوقت المعلوم، ويسرنا لهم أسبابه، فلم يعلم فرعون وملؤه بهم، ولا بخبر استعدادهم للخروج؛ لإخفائنا ذلك عنهم، وصرفنا إياهم عنهم باشتغالهم بدفن أبكارهم، إذ متن تلك الليلة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾: أي: طلبوا الحاقهم، وكذا قوله: ﴿فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠].

﴿بَغْيًا﴾: أي: استطالة عليهم ﴿وَعَدُوًّا﴾: أي: ظلماً واعتداءً.

قال قيس^(١): كان مع موسى عليه السلام من بني إسرائيل ست مئة ألف، وكان مقدمة فرعون سبع مئة ألف، كل رجل منهم على حصان، على رأسه بيضة، وبيده حربّة، وهو خلفهم في جمع كثير، فلما انتهى بنو إسرائيل إلى البحر قالوا: يا موسى، أين ما وعدتنا؟ هذا البحر بين أيدينا، وهذا فرعون على أثرنا وجنوده، فقال موسى للبحر: انفلق أبا خالد، قال: لن انفلق لك، أنا أقدم منك وأشدّ خلقاً، فنودي موسى: أن اضرب بعصاك البحر، فضرب، فانفلق البحر، وكانوا اثني عشر سبطاً، حتى كان لكل سبط طريق^(٢).

قال وهب: وارتفع بين كل طريقين الماء كالجبل، وكانوا بني عم، لا يرى

(١) هو قيس بن عباد، أبو عبد الله البصري، مخضرم مات بعد الثمانين، ووه من عده في الصحابة. قاله في «التقريب».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧ / ٥٧٤).

حالة اليأس، ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ أمر الله بالإيمان ﴿قَبْلُ﴾ هذه الحالة، ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ في أرض مصر بالدُّعاء إلى عبادة غير الله.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أي: أبعد طول الإمهال، والإصرار على ذميم الأفعال، والركض في ميدان الاغترار، وفوت وقت الاعتذار، هيهات هيهات، لقد استوجبْتَ أَنْ يُرَدَّ عَذْرُكَ فِي وَجْهِكَ، فلا لِعُذْرِكَ قَبُولٌ، ولا لك إلى ما ترومه وصولٌ^(١).

وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَتَاهُ جَبْرِيلُ فَحَشَا فَاةً بِالتُّرَابِ؛ خَشْيَةً أَنْ تَدْرِكَهُ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى^(٢).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لم يُقْبَلْ إيمانُ فرعونَ في ذلك الوقت لوجهين:

أحدهما: أَنَّ إِيْمَانَهُ عِنْدَ خَوْفِ الْهَلَاكِ إِيْمَانٌ دَفَعَ الْبَأْسَ، لَا إِيْمَانٌ حَقِيقَةٌ، وَهُوَ كإِيْمَانِ الْكُفْرَةِ فِي الْآخِرَةِ.

والثاني: أَنَّ الْإِسْلَامَ تَسْلِيمُ النَّفْسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَإِذَا آمَنَ فِي وَقْتٍ خَرَجَتْ نَفْسُهُ مِنْ يَدِهِ لَمْ يَصِرْ مُسْلِمًا نَفْسَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ إِذْ لَيْسَ نَفْسُهُ فِي يَدِهِ فَيُسْلِمَهَا^(٣).

وعن كعبِ الأحبار قال: أَمْسَكَ فَيُضُّ^(٤) مَصْرَ عَنِ الْجَرِيِّ، فَقَالَتْ الْقَبْطُ لِفِرْعَوْنَ: إِنَّ كُنْتَ رَبًّا فَأَجْرِ الْمَاءَ، فَرَكِبَ وَأَمَرَ جُنُودَهُ بِالرُّكُوبِ، وَكَانَ مُنَادِيَهُ يَنَادِي كُلَّ سَاعَةٍ: لِيَقِفْ فَلَانٌ بِجُنُودِهِ قَائِدًا لَهُمْ، فَجَعَلُوا يَقِفُونَ عَلَى دَرَجَاتٍ، حَتَّى بَقِيَ

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١١٤).

(٢) روى نحوه الترمذي (٣١٠٧) وقال: حديث حسن، و(٣١٠٨) وقال: حسن صحيح من هذا الوجه.

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٨٠ - ٨١).

(٤) في (ف): «نيل».

هو وحجَّابُه ووزرائُه، فأمرهم بالوقوف، فتقدَّمهم وحده بحيث لا يروْنَه، ونزلَ عن دابَّته، ولبس ثيابًا، فأتاه جبريل وهو وحده يستفتي: ما قولُ الأميرِ في عبدٍ لرجلٍ، نشأ في مالِه ونعمته، ولا سيّد له غيره، فكفرَ نعمته، وجحدَ حقّه، وأدّعى السّيادة دونَه، فكتبَ فرعون فيه: يقول أبو العباس الوليدُ بنُ مصعب بن رِيّان: جزاءُ العبد الخارج على سيّده الكافر نعماءه أن يغرقَ في البحر، فأخذَه جبريل ومَرًّا، فلمّا ألجمَه الغرق وأيقنَ بالهلاك ناولَه جبريلُ خطّه وغرّقه.

قال كعب: ورماه الماء كأنّه ثور إلى السّاحل^(١).

(٩٢) - ﴿فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ يَدُكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾.

وقوله^(٢) تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ﴾: أي: نلقينك على نجوةٍ من الأرض؛ أي: ارتفاعٍ ﴿يَدُكَ﴾؛ أي: جسدًا لا روح فيه. وقيل: أي: مع درعك، والبدنة والبدن: الدرْع. وقيل: ﴿تُنْجِيكَ﴾ من النّجاة، وهي الخلاص؛ أي: تخلص من دوابّ البحر، فنخرجك ولم تأكلك.

وروي أن بني إسرائيل قالوا: ما مات فرعون، ولا يموت أبدًا، فألقاه البحرُ بأمر الله تعالى إلى السّاحل، فعاینوه وأيقنوا بموته^(٣).

(١) الخبر من الإسرائيليات، وذكره عن كعب الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٤٧)، ودون عزو الزمخشري في «الكشاف» (٢ / ٣٦٨)، وفيه (فعرفه) بدل «غرقه».

(٢) في (ف): «فذلك قوله».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٢٨٠) عن قيس بن عباد، وسيأتي قريباً عن السدي.

وقوله تعالى: ﴿لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾: أي: لتكونَ لِمَنْ بَقِيَ مِنْ بَعْدِكَ علامةً، فتزولَ وساوسُ الشَّيْطَانِ وخُدَعُهُ عَنِ الضَّعْفَةِ بِتَوْهُمِهِمْ حَيَاتَهُ أَوْ خِلَاصَهُ عَنِ الْهَلَاكِ؛ إِذْ كَانَ عِنْدَهُمْ إِلَهًا مَعْبُودًا، وَتَكُونُ آيَةً يَسْتَدْلُونَ بِكَ عَلَى مَا يُلْزِمُهُمْ مِنَ الْإِنْقِيَادِ لِلْأَنْبِيَاءِ، وَالْإِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِمْ، وَإِلَّا حَلَّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلِإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنَّا يَخِفُّونَ﴾: أي: فعلنا ذلك بفرعونَ مع تكبرِهِ وإسرافِهِ ودَعَاوِهِ الْإِلَهِيَّةَ، فَحَنُّ عَلَى إِهْلَاكِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ هُمْ دُونَهُ لِقَادَرُونَ، وَلَوْ فَكَّرُوا الْعِلْمَ ذَلِكَ، لَكَنَّهُمْ غَافِلُونَ.

وقال السُّدِّيُّ: قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: إِنَّ فِرْعَوْنَ لَمْ يَغْرُقْ، وَإِنَّهُ يَدْرِكُنَا الْآنَ وَيَقْتُلُنَا، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْبَحْرِ فَقَذَفَهُ، فَأَخَذَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَسْلِحَتَهُمْ^(١).

وقال ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: لَمْ يَكُنِ الْمَاءُ يَنْبِذُ الْغَرِيقَ قَبْلَ فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا أَغْرَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِرْعَوْنَ أَمَرَ الْمَاءَ بِنَبْذِ الْغَرِيقِ^(٢).

وَذَكَرَ أَنَّ فِي قِرَاءَةِ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فَالْيَوْمَ نُنَحِّيكَ) بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ مِنْ تَحْتِهَا^(٣)، مِنَ التَّنْحِيَةِ، وَهِيَ التَّبْعِيدُ، (بِيَدَيْكَ): تَثْنِيَةُ الْيَدِ^(٤)، (لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ)

(١) لَمْ أَجِدْهُ هَكَذَا، وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٦ / ١٩٨٤) عَنِ السُّدِّيِّ: قَوْلُهُ: ﴿لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾: لِبَنِي إِسْرَائِيلَ آيَةً.

(٢) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٦ / ١٩٨٤)، وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ.

(٣) نَسَبَتْ لِأَبِي بَنٍ كَعْبٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ السَّمِيعِ وَيزِيدِ الْبَرْبَرِيِّ. انْظُرْ: «الْمَحْتَسِبُ فِي شَوَازِ الْقِرَاءَاتِ» لِابْنِ جَنِّي (١ / ٣١٦). وَذَكَرَهُ ابْنُ الْجَزَرِيِّ فِي «النَّشْرِ» (١ / ١٦) عَنْ ابْنِ السَّمِيعِ وَأَبِي السَّمَالِ مَثَلًا عَلَى مَا نَقَلَهُ غَيْرُ الثَّقَةِ، مِمَّا غَالِبَ إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ.

(٤) ذَكَرَهَا ابْنُ كَمَالٍ بِأَشَا فِي «تَفْسِيرِهِ» وَلَعَلَّهُ أَخَذَهَا مِنَ الْمُؤَلَّفِ.

بالقاف^(١) (آية)؛ أي: نبعذك عن الرَّحمة بما كسبت يداك من الجفوة، لتكون من خالقك لخلق آية.

(٩٣) - ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صَدَقَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صَدَقَ﴾: أي: مكناهم بعد إغراق فرعون وقومه مكانًا حسنًا محمودًا، وأنزلناهم منازل فرعون وقومه، وأورثناهم أرض الشام وهي منازل الصّدق. قاله قتادة^(٢).

وقال الحسن: أي: مصر، وهو منزل صالح آمن خصب^(٣).

وقال الضّحّاك: مصر والشّام^(٤).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل قوله عز وجل: ﴿مَبُوءًا صَدَقَ﴾؛ أي: صدّقنا لهم بها ما وعدنا بقولنا: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [القصص: ٥].

ويحتمل: مَبُوءًا أهل صدق، كما قال: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ﴾ الآية [الإسراء: ٨٠]^(٥).

(١) نسبت لعلي رضي الله عنه، انظر: «تفسير الثعلبي» (٣/ ٣٠١)، و«البحر المحيط» (١٢/ ١٧٣).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٧٢)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٥).

(٣) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١/ ٣١١).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٥).

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٨٢-٨٣).

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: أي: الأقوات والأطعمة المستطابة.

ويحتمل: المَنِّ والسَّلوَى.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾: قيل: فما اختلفوا في نبوة محمد ﷺ إلى أن جاءهم هو، فحيثُ كَفَرَ بعضهم به وآمنَ بعضهم.

و﴿الْعِلْمُ﴾: معرفتهم به قبل خروجه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩].

وقيل: بل كانوا مختلفين في كثير من أمور دينهم قبل المبعث، طلباً للرئاسة، وبغياً من بعضهم على بعض، حتى ألجأهم ذلك إلى القتال، تعسفاً في التأويل، وتعصباً للمذاهب، وقوله: ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾؛ أي: الكتاب والأحكام، فاختلفوا بعد فراقهم موسى عليه السلام، على الوجه الذي قلنا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: فيميزُ المحقَّ من المُبْطِلِ، فيجزِي كلَّ منهم على استحقاقه، ويُنزله منزلةً استجابة^(١)، على حكم وعده ووعيده.

وقيل: أراد به اليهود الذين كانوا في عصر النبي ﷺ، أنزلهم الله تعالى منزلةً كرامةً وفضلٍ، فما اختلفوا في محمدٍ حتى جاءهم العلمُ عياناً؛ أي: المعلوم، وهو محمدٌ عليه الصَّلاة والسلام.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: يقول: أدلنا لهم الأيام، وأكثرنا عليهم الإنعام،

(١) في (أ): «وينزل منزله استجابة» ولم تنقط الأخيرة، وفي (ف): «وينزل منزله الاستجابة»، وفي

(ر): «وينزل منزلة استجابة». وكلها غير ظاهرة، والمثبت من «تفسير ابن كمال باشا» وقد نقل

كلام المؤلف بحرفه.

وَأَكْرَمْنَا لَهُمُ الْمَقَامَ، وَأَتَحْنَا لَهُمُ فَنُونَ الْحَسَنَاتِ، وَأَدْرَرْنَا عَلَيْهِمْ جَمِيعَ الْخَيْرَاتِ، فَلَمَّا قَابَلُوا النِّعْمَةَ بِالْكَفْرَانِ، وَأَصْرُوا عَلَى الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ، أَذَقْنَاهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَسَدَدْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ مَا فَتَحْنَا لَهُمْ مِنَ التَّكْرِيمِ وَالْإِيجَابِ، ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ حَادَّ عَنْ طَرِيقَةِ الْوِفَاقِ، وَجَنَحَ إِلَى جَانِبِ الشَّقَاقِ^(١).

(٩٤) - ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾: يقول: إِنَّ قِصَّةَ فِرْعَوْنَ وَمُوسَى عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ عَلَيْكَ، فَإِنْ كُنْتَ شَاكًّا فِيهِ ﴿فَسَلِ﴾ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَنْ ذَلِكَ ﴿الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾: أَي: مِنَ الشَّاكِّينَ.

وَتَكَلَّمَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَكْثَرُوا؛ لِأَنَّ ظَاهِرَهَا مُشْكِلٌ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَكُنْ يَشْكُ فِيمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ.

قَالَ أَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ: الْخُطَابُ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالْمُرَادُ غَيْرُهُ مِمَّنْ شَكَّ فِيهِ، وَالْعَرَبُ تَفْعَلُ كَذَلِكَ، وَفِيهِ الْمَثَلُ السَّائِرُ: إِيَّاكَ أَعْنِي وَاسْمِعِي يَا جَارَةَ^(٢). وَمِثْلُهُ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الْأَحْزَابُ: ١]، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آخِرِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النِّسَاءُ: ٩٤] عَلَى الْجَمْعِ.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقرشي (٢/ ١١٥).

(٢) انظر: «مجمع الأمثال» للميداني (١/ ٢٩).

وقال القتيبي: الخطابُ لغيره، وهو مَنْ شكَّ فيه.

قال: كان النَّاسُ على عهد النَّبِيِّ ﷺ أصنافًا:

منهم كافرٌ مكذِّبٌ لا يرى إلَّا أنَّ ما جاء به باطل.

ومؤمنٌ مصدِّقٌ يعلم أنَّ ما جاء به حقٌّ.

وشاكٌّ في الأمرِ لا يدري كيف هو؟ يقدِّم رجلاً، ويؤخِّر أخرى.

فخاطَبَ اللهُ تعالى هذا الصَّنْفَ مِنَ النَّاسِ، فقال: إِنْ كُنْتَ أَيُّهَا الشَّاكُّ فِي شَكِّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْهُدَى عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ، فَسَلِّ الْأَكْبَارَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ، مثل عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الدَّارِي وَأَشْبَاهَهُمْ، شهدوا على صدِّقِهِ، وَلَمْ يُرِدِ الْمَعَانِدِينَ مِنْهُمْ^(١).

وقيل: خرجَ هذا الكلامُ مخرجَ المبالغةِ في شُبْهِهِ^(٢)، وهو كقولكَ لعبدِكَ: إِنْ كُنْتُ عَبْدِي - وَتَعْلَمُ أَنَّهُ كَذَلِكَ - فَانْتِهِ إِلَى أَمْرِي، وَإِلَّا فَأَسْأَلِ النَّاسَ يَخْبِرُوكَ أَنَّكَ عَبْدِي، وهو لا يشكُّ في عبودِيَّتِهِ لِسَيِّدِهِ^(٣).

(١) انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ١٦٨)، وفي آخره تقديم وتأخير: (ولم يرد المعاندين منهم فيشهدون على صدِّقِهِ).

(٢) في (أ): «في تنزيهه»، وفي (ر): «في شبهه»، وفي (ف): «تَبَيَّنُهُ». ولعلَّ المَثْبُوت هو الصواب؛ أي: فيما يشابهه من الكلام وأسلوب الخطاب، وعلى عادة العرب في مثله. انظر: «معاني القرآن» للقراء (١/٤٧٩) ولعله أول القائلين بهذا الوجه من التأويل، و«تفسير الثعلبي» (٥/١٤٩)، و«تفسير السمعاني» (٢/٤٠٤)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» لتاج القراء الكرمانی (١/٤٩٤) وضعفه، و«تفسير البغوي» (٤/١٥٠).

(٣) ولم يرتض هذا بعض العلماء، فقد ضعفه تاج القراء الكرمانی كما ذكرنا، ووجه تضعيفه ما قاله أبو العباس الرازي في «مباحث التفسير» (ص: ١٦٠) بقوله: لا وجه له؛ لأن قول القائل لعبده: إِنْ كُنْتُ =

وتقدير هذه الآية على هذا: قد أخبرناك بما تعلم أنك لا تشك فيه، فإن كنت في شك فيه فاسأل العلماء به، ثم يعود حقيقة الأمر إلى أن ما أخبرناك به صدق، ينبغي للكفار أن يصدقوك، فإن لم يصدقوك فليسألوا غيرك من أهل الكتاب.

والأمور إذا وقعت فيها المبالغة خرج الخطاب فيها إلى ما لا يكون، قال تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، قال تعالى: ﴿وَلِنْ كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠]؛ أي: لو جاز كون هذه الأشياء لكانت في هذه الحالة.

فكذا هذا معناه: لو كنت ممن يلحقك شك فيما أخبرناك به، فسألت أهل الكتاب، لأزالوا عنك الشك بتصديقهم إيانا فيما أخبرناك به، وهو كقوله تعالى: ﴿لِنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]؛ أي: لئن كنت ممن يجوز ذلك عليك لبطل عملك.

وقيل: علم الله تعالى أن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يشك، فإنما خاطبه بهذا ليقول: أنا لا أشك؛ ليثاب على ذلك، كما قال لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ليقول: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ [المائدة: ١١٦]؛ ليثاب على ذلك.

وقد روي أن النبي ﷺ قال لجبريل: «أنا لا أشك، ولا أسأل»^(١).

وقال الزهري: نزلت الآية في السماء، ومعنى قوله: ﴿فَسْئَلِ الَّذِينَ يَفْرَوْنَ أَلْكَتَبَ مِنْ قَبْلِكَ﴾: الملائكة.

= عهدي فأطعني، يقوله وهو متيقن أنه عبده، فيلزم أن الله تعالى يعلم أن نبيه ﷺ شك؛ لأنه قال: ﴿إِنْ كُنْتُ فِي شَكٍّ﴾ كقولنا: إن كنت غلامي.

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠٢١١)، والطبري في «تفسيره» (١٢ / ٢٨٨)، عن قتادة مرسلاً.

وقال عبد العزيز بن يحيى: أي: فَإِنْ كُنْتَ فِي ضَيْقٍ صَدْرٍ مِنْ تَعَنَّتِ الْكُفَّارَ لِمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ، فاسأَلْ أَهْلَ الْكِتَابِ: كَيْفَ صَبَرَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَى أَذَى قَوْمِهِمْ، وكيف كانت عاقبة أمرهم^(١).

(٩٥) - ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: هي خطابُ رسولِ الله ﷺ ظاهراً، والمراد به غيره، أو هي خطابٌ غيره، وهو على ما مرَّ في الأولى.

وإن حُمِلَتْ على خطابه وإرادته فقد مرَّ مرَّات أنَّ الْعِصْمَةَ لا تزيلُ النَّهْيَ، بل قيام النَّهْيِ شرطٌ لتحقيقِ الْعِصْمَةِ.

(٩٦ - ٩٧) - ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾: وهي تسليَةٌ رسولِ الله ﷺ وإزالةٌ ضَيْقِ صَدْرِهِ بتأخير إسلام قومه.

وقال الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٥٠).

ويحتملُ قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأنعام: ١١١].

وحاصله: أن من علم الله منه اختيار الكفر وإصراره عليه شاء له الكفر فلا يؤمن أبداً^(١).

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ عند البأس فيؤمنون به، ولا ينفعهم، أو في القيامة فلا يقبل منهم.

(٩٨) - ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَاءَ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ﴾ الآية: أي: فهلاً، وهو تحريض، و﴿قَرْيَةٌ﴾؛ أي: أهل قرية؛ أي: فهلاً آمن أهل قرية من الذين عوجلوا بالعذاب، فكان ينفعهم إيمانهم ويقبل منهم، وها هنا مضمّر: ولم يؤمنوا فضرهم كفرهم ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ﴾.

﴿لَمَاءَ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: والخزي: الهوان الذي يفضح صاحبه.

وقال الحسن: لم يكن ذلك فيما خلا - أن يؤمن أهل قرية بأسرها حتى لا يشد أحد منهم - إلا قوم يونس؛ أي: فهلاً كانت القرى كلها هكذا. وقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾: أي: إلى حضور آجالهم.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٦ / ٨٥).

وأكثر المفسرين على أن إيمان قوم يونس لم يكن حين عاينوا هذا العذاب، لكنَّ يونس صلوات الله عليه أخبرهم بدنو نزول العذاب بهم، وفارقهم، وتلك حالة لم يزل التكليف فيها عنهم، فراجعوا عقولهم، فأبصروا رشدهم، فأمنوا، فانصرف العذاب الذي كان أشرف عليهم عنهم.

وكان ذلك مخالفاً لحالة فرعون حين أدركه الغرق؛ لأنه آمن في حال معاناة العذاب، وهي حالة زوال التكليف عنه، فلم ينفعه الإيمان، كقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا﴾ [غافر: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾ لا يدلُّ على حصولهم في العذاب، بل يقع ذلك على إشراف العذاب عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] كان الإنقاذ منها حالة الإشراف عليها، لا الحصول فيها.

وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أن قوم يونس عليه السلام كانوا بيننوى من أرض الموصل، فلما فقدوا نبيهم قذف الله في قلوبهم التوبة، فلبسوا المسوح، وخرجوا فزلوا على تلٍّ، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، وعجوا أربعين ليلة، فلما علم الله تعالى الصدق من قلوبهم، كشف عنهم العذاب، وتاب عليهم، ومتَّعهم إلى حين الموت^(١).

وقال وهب: قال يونس لقومه: إِنَّ أَجْلَكُمْ أَرْبَعُونَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، فَإِنْ لَمْ تَسْتَجِيبُوا لَهُ عَذَّبَكُمْ عَذَابًا يُفْنِكُمْ وَيَسْتَأْصِلُكُمْ. قالوا: فَإِنَّ آيَةَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ الْأَجْلُ، فَإِنْ رَأَيْنَا أَسْبَابَ الْعَذَابِ صَدَّقْنَاكَ، فدخلوا مدينتهم يأتمرون ويتتظرون في أمره، فلما مضى من الأجل خمسة وثلاثون يومًا غامت عليهم السماء غيماً أسوداً هائلاً، يدخن دخاناً شديداً، ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم، حتى اسودَّت سطوحهم منه، فلما رأوا ذلك

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٢٩٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٨٨).

قد تتابع عليهم أيقنوا بالهلاك، فنقلوا يونس إليهم^(١)، فنزل بين أظهرهم، وبرزوا إلى الصَّعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، فعجوا إلى ربهم، وفرقوا بين دوابهم وأولادها، فحنَّ بعضها إلى بعض، وعلت أصواتها، وفعلوا ذلك عمداً لتختلط أصواتها بأصواتهم، وحينئذ بحنينهم؛ ليرحمهم ربهم، فرحمهم، واستجاب لهم، وقبل توبتهم، وكشف العذاب عنهم، فذلك قوله تعالى: ﴿لَا قَوْمَ يُؤَسُّ لَمَاءَ آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرَى﴾ [يونس: ٩٨]^(٢).

وقال مقاتل: كان العذاب فوق رؤوسهم قدر ميل^(٣).

فكشف الله عنهم يوم عاشوراء يوم الجمعة، فحذر الله تعالى أهل مكة أنهم إن آمنوا عند نزول العذاب لم ينفعهم، كما لم ينفع الأمم الخالية إلا قوم يونس. وقال الإمام القشيري رحمه الله: تداركتهم الرحمة الأزلية فيما أجرى عليهم [من] توفيق التضرع، فكشف عنهم العذاب، وبرحمته وصلوا إلى تضرعهم، لا بتضرعهم وصلوا إلى رحمته^(٤).

(٩٩ - ١٠٠) - ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (١١) وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾

(١) في (ف): «فلقوا ما قال يونس إليهم»، وفي (ر): «فلقوا يونس إليهم».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٥٢)، والبغوي في «تفسيره» (٤ / ١٥١).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢ / ٢٥٠).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ١١٦)، وما بين معكوفتين منه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾: أخبر عن كمالِ قُدْرَتِهِ ونفوذِ مشيئَتِهِ: أَنَّهُ لو شاءَ لَأَمَنَّ مَن في الأرض كُلَّهُم فلا يبقى فيها إِلَّا مؤمنٌ موحدٌ، ولكنَّه شاءَ أَن يؤمِّنَ به مَن عَلِمَ منه اختيارَ الإيمانِ به، وشاءَ مَمَّنْ عَلِمَ منه أَنَّهُ يختارُ الكُفْرَ ولا يؤمِّنُ به إِلَّا يؤمِّنُ به.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾: استفهام بمعنى النَّفي؛ أي: لا تملكُ أنت يا محمدُ أَن تكْرِهَهُم على الإيمان؛ لأنَّ الإيمانَ يكونُ بالاعتقادِ والإقرار، ولا يمكن الإكراه على الاعتقاد.

وقيل: كان هذا بمكَّة حين لم يُؤمروا بالقتال، ثمَّ أُمروا بالمدينة بالقتال، وهو إكراهٌ على الإيمان.

وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: كان رسولُ الله ﷺ حريصًا على إسلام أبي طالب وقومه، فأبى الله ذلك عليه إِلَّا مَن علم في سابقِ علمه أَنَّهُ يؤمِّنُ، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لِتُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠] ^(١).

قال عطاء: أي: بمشيئةِ الله تعالى، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] ^(٢).

وقال عطيةُ العوفيُّ: أي: بقضاءِ الله وقَدْرِهِ ^(٣).

وقال عبد العزيز بن يحيى: أي: بعلمِ الله وتوفيقيه ^(٤).

(١) ذكره الواحدي في «السيط» (١١ / ٣٢٤)، وانظر: «تنوير المقباس» للفيروزآبادي (ص: ١٨٠).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٥٣).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤ / ٢٩٨) (ط: دار التفسير)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣٠٠).

عن سفيان.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٥٣)، وفيه بدل «عبد العزيز بن يحيى»: (الداني)، وفي الطبعة =

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لا تحتمل الآية إلا هذا^(١)، ولا تحتمل الأمر والإطلاق؛ لأنه كم من مأمورٍ بإيمانٍ لم يؤمن به، فلم تحتمل الأمر، ولا تحتمل الإباحة، لأنه لا يُباح ترك الإيمان في حال^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْمَلُ الرَّجْسُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾: هذا مبتدأ، ومعناه: ونجعل الإثم، وقيل: العذاب.

وقيل: أي: جزاء الرجس؛ أي: الكفر.

وقيل: الرجس: الشيطان؛ قال عليه الصلاة والسلام في دعاء الخلاء: «اللهم إني أعوذ بك من الرجس النجس، الخبيث المخبث، الشيطان الرجيم»^(٣).
أي: ويسلط الشيطان على الذين لا يستعملون عقولهم، ولا يعملون بما تدعوهم إليه.

(١٠١) - ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

= الأخرى (١٤ / ٢٩٨): (الكتاني)، وكلاهما تحريف عن الكتاني، وهو عبد العزيز بن يحيى المذكور، وقد سبق مثل هذا التحريف مراراً. انظر ما تقدم عند تفسير قوله تعالى في هذه السورة: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾

(١) أي: لا يحتمل قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ سوى المشيئة والإرادة، كما هي العبارة في «تأويلات أهل السنة».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٨٨).

(٣) رواه ابن ماجه (٢٩٩) من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً. قال البوصيري في «مصابيح الزجاجة» (١ / ٤٤): هذا إسناد ضعيف، قال ابن حبان: إذا اجتمع في إسناد خير عبيد الله بن زحر وعلي بن يزيد والقاسم فذاك مما عملته أيديهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: قل يا محمد للمشركين: انظروا أي شيء في السماوات والأرض من العبر؟ من مجيء الليل والنهار، ومجرى النجوم والأفلاك، ونتاج الحيوان، وخروج الزروع والثمار، ووقوف السماوات والأرض بغير عماد، وكل ذلك تدير يقضي مدبراً لا يشبه الأشياء، ولا يشبهه شيء.

وقيل: أي: فيها عجائب الصنع الذي أنتم مقرنون بأن الله تعالى خلقها، فإنكم إذا نظرتم علمتم أنه من صنع من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْنِي الْآيَاتُ﴾: يجوز أن تكون (ما) نفيًا، ويجوز أن تكون استفهامًا ﴿وَالنُّذُرُ﴾: الرسل ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: وما ينفع ذلك إذا لم يستدلوا به فيؤمنوا.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الأدلة وإن كانت ظاهرة فما تغني إذا كانت البصائر مسدودة، كما أن الشمس وإن كانت طالعة فما تغني إذا كانت الأبصار عن الإدراك بالعمى مردودة، كما قيل:

وما انتفاع أخي الدنيا بمقلته
إذا استوت عند الأنوار والظلم^(١)

(١٠٢) - ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: أي: فليتنظر

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١١٧). والبيت للممتني. انظر: «ديوانه» (ص: ٣٦٣)

هؤلاء المتَّبِعُونَ للهوى والظَّنَّ، التَّارِكُونَ لِلنَّظَرِ والاستدلال في الشُّرْكَ والتَّكْذِيبِ،
أَنْ^(١) يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَا نَزَلَ عَلَى الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ الْمَكْذُوبَةِ أَنْبِيََاءَهَا.

وقال قتادة: إِلَّا مَثَلٌ وَقَائِعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْأَوَّلِينَ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ^(٢).

وقال يمان بن رثاب: ﴿مَثَلُ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا﴾؛ أي: مثل عذابهم، والعربُ
تسمي العذاب: أَيَّامًا، والنَّعِيم: أَيَّامًا؛ قال تعالى: ﴿وَذَكَّرْهُمْ بِأَيْسَمِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]؛
أي: بنعم الله، وكلُّ ما مضى عليك من خير أو شرٍّ فهو أَيَّامٌ؛ لوقوعه في الأيام^(٣).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾؛ أي: إنجاز وعدّه لي
في إنزال العذاب بكم إن أقمتم على تكذبي.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمل: هل ينتظرون بي يومًا من الهلاك إِلَّا
مثل ما انتظر الذين خلّوا من قبلهم برسليهم من الهلاك.

ويحتمل: هل ينتظرون نزول العذاب بهم إِلَّا مثل ما انتظر أولئك من نزول
العذاب بهم.

ويحتمل: هل ينتظرون من تأخيرهم الإيمان إلى وقت نزول العذاب بهم إِلَّا
مثل ما أخر أولئك، وهو يخرج على الإياس من إيمانهم.

(١٠٣) - ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ أي: ثم نخبركم أن من سئتنا إذا
أنزلنا العذاب بقوم أن نُخْرِجَ مِنْ بَيْنِهِمْ رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ.

(١) في (أ) و(ر): «إلا أن».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩١).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٥٣) دون نسبة.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: ننجي المؤمنين من العذاب في كل زمان.

﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾: ظاهره: واجباً علينا، وحقيقته: وعداً منا مؤكّداً لا خُلفَ فيه؛ لأنّ العباد لا يجبُ لهم على الله تعالى شيءٌ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾؛ أي: أنجيناً؛ لأنّه لا رسولَ بعدَ رسولنا محمّد ﷺ^(١).

فهذا مستقبلٌ بمعنى الماضي، وفي بعض الآيات ماضٍ بمعنى المستقبل.

(١٠٤) - ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾: وهم المذكورون في أوّل السّورة: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾.

﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾: ما هو؟^(٢) أو في دين الإسلام الذي علمتُم ما هو، لكن شككتُم أحقُّ هو أم لا؟ فهذا أنا أكشفُ لكم ماهيته وحقيقته.

أمّا الأوّل: فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: الأصنام والجنّ والملائكة ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ﴾؛ أي: يميّتكم، وهو الذي يحييكم، فهو القادر على كلّ شيءٍ على الكمال، فله استحقاقُ العبادة دون غيره، وهو إشارةٌ إلى بيان حقيقة دينه.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٩٠).

(٢) في (أ): «ما هو ديني ما هو».

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل: إن كنتم في شك من دين الإسلام أحق هو؟ شككنم في دينكم أيضاً، فإن لم تجيبوني إلى هذا الدين الذي لا شك فيه، ودعوتوني إلى دينكم مع الشك فيه، فهو سفة.

ويحتمل: إن كنتم في شك من ديني الذي أدين به وأدعوكم إليه، فأنا لا أشك فيه، فلا أعبد الذين تدعون من دون الله، هذا مضمر.

ويحتمل: إن كنتم في شك من ديني وما أعبد، فلا تعبدون ذلك ولا تدينون به، فأنا لا أعبد ما تعبدون ولا أدين ما تدينون، وهو كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أمرني الله تعالى به، فقال: كن من المؤمنين، ولذلك عطف عليه ما هو بصيغة الأمر.

(١٠٥) - ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: أخلص عملك ^(٢).

وقيل: أي: قوم إقبالك وتوجهك على ما أمرت به.

وقيل: أي: أقم نفسك لله خالصة سالمة، لا نصيب فيها لغير الله. وهذا قول الإمام أبي منصور رحمه الله ^(٣).

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٩٠ - ٩١).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٥٤).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٩١).

وقيل: أي: أقم وجهك في الصلاة نحو الكعبة.

وقال أيضًا: أقم نفسك على ما عليها شهادة^(١) خلقتها، إذ خلقت كل نفسٍ تشهدُ على وحدانيّة الله تعالى وألوهيته.

وقال أيضًا: أقم وجه أمرِك لِمَا تَدِينُ به وتقيمُ عليه^(٢).

﴿حَنِيفًا﴾: أي: مستقيمًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: قيل لي ذلك، عطفًا على الأول، وكذلك قوله تعالى:

(١٠٦) - ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾: أي: لا تدع غير الله إلهاً.

وقيل: أي: لا تعبد.

وقيل: أي: لا تدعُه بحوائجك.

وقوله: ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾؛ أي: لا يقدر على نفع ولا ضرر، وهو صفة الأصنام.

فإن قيل: ولم قال: ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾، وهو لو نفع وضرر لم تجز عبادته؛ لأنها لا تحقق إلا الله وحده؟

(١) في (أ) و(ر): «بشهادة»، والمثبت من (ف) و«التأويلات».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٩١).

قلنا: معناه: ما لا ينفعك ولا يضرُّك نفع الإله وضرُّه؛ ولأنَّ عبادة ما لا ينفع ولا يضرُّ أخسرُّ للصفقة، وأبعدُ عن الشُّبهة^(١).

(١٠٧) - ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾: أي: وقيل لي ذلك أيضًا، وهو عطفٌ على الأوَّل.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾؛ أي: يُصِيبُكَ اللهُ بفاقةٍ في معيشتك، أو آفةٍ في جسدك، فلا كاشفَ لذلك الضَّرِّ إِلَّا هُوَ^(٢).

﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾: يُصِيبُكَ بِسَعَةٍ وَغَنًى وَصَحَّةٍ جَسْمٍ ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾: فلا مانعَ لِرِزْقِهِ ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾: يخصُّ به مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: غفورٌ لِمَنْ تَابَ مِنْ شَرِكِهِ، رحيمٌ بِإِنْعَامِهِ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ.

أمره أن لا يخافَ شيئاً مِنَ الأصنام أو أحدًا مِنَ أولئك الأقوام في مجاهرتهم^(٣) بخلاف دينهم، بل يخافُ اللهُ إِنْ دَعَا مِنْ دُونِهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى إِنْ أَصَابَهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ غَيْرُهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ بِخَيْرٍ فَلَيْسَ إِلَى أَحَدٍ سِوَى اللهِ رُدُّهُ، وَهُوَ الْغَفُورُ الَّذِي يَسْتُرُ الذُّنُوبَ، وَالرَّحِيمُ بِمَنْ يَتُوبُ.

(١) في (ف): «وأبعد للشبهة»، وكلمة: «وأبعد» كذا في (ر) و(ف)، وغير واضحة في (أ).

(٢) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١ / ٣٣٥)، وانظر: «تنوير المقياس» للفيروزآبادي (ص: ١٠٧).

(٣) في (أ) و(ف): «مجاهدتهم».

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وفي الآيات نقض على المعتزلة، فإنه قال: ﴿وَإِنْ يُرَدَّكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ وهم يقولون: أراد الله من الكافر الإيمان، وهو رده فلم يؤمن، وتسميته فضلاً يدل على أنه ليس على الله شيء، فإن الفضل هو فعل ما ليس عليه^(١).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾؛ أي: إن كنتم في غطاء من الذنب، فأنا في ضياء من الغيب، أنتم في ظلمة الجهل، وأنا في شمس الفضل، أنتم في سُدْفَةٍ^(٢) الضلالة، وأنا في خلعة الرسالة وعلى نور الدلالة، أنتم في وهدة العوج، وأنا ثابت على سواء النهج.

وقال في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقْرَبَ وَجْهَكَ﴾: أي: وقيل لي: أخلص قصدك للدين، وجرّد قلبك عن إثبات كل ما لحقه قهر التكوين.

وقال في قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضُرَّ﴾ الآية: كما تفرّد بإبداع الضر واختراعه فلا شريك يعضده، كذلك توحد بكشف الضر وصرفه فلا نصير ينجده.

وقال: عذب الضر حيث كان بفعله، فما أوجب عين الضر من الحزن والحرب^(٣)، أبدل مكانه إضافته إلى فعله السرور والطرب^(٤).

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٩٢ / ٦).

(٢) في (ر): «شُدْفَة». والشُدْفَة: الظلمة، والشُدْفَة بمعناها. انظر: «القاموس المحيط» (مادة: سدف وشدف).

(٣) الحرب: الغضب. انظر: «التاج» (مادة: حرب).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١١٨ - ١١٩).

(١٠٨) - ﴿قُلْ يَتَّابِعُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفُّ الْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّابِعُهَا النَّاسُ﴾: أي: المذكورون في أوّل هذه السّورة، وهم مشركو قريش ﴿قَدْ جَاءَ كُفُّ الْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: يعني جاءكم محمّد ﷺ بالقرآن^(١).

وقيل: أي: بيان ما يحقّ عليكم أن تعتقدوه، وتقولوا به، وتعملوا عليه. وقال الإمام أبو منصور رحمه الله - بعدما ذكر أن الحقّ هو محمّد ﷺ -: وقيل: هو القرآن، ويُسبّه أن يكون هو الدّين الذي شكّوا فيه؛ أي: قد جاءكم ما يزيل عنكم ذلك الشكّ إن لم تكابروا في الحجج والبراهين^(٢).

﴿فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ﴾: أي: فمن سلك سبيل الرّشاد المؤدّي إلى الحقّ الذي جنّت به فإنّما يهتدي لنفسه بما يفوز من رضا خالقه ومن ثوابه، بالنّعيم المقيم الذي لا يشوبه كدر ولا يلحقه غير.

﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾: عن هذا السبيل فوق في غيره ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾: على نفسه؛ أي: ضرّه على نفسه باعوجاجه عن طريق الحقّ، لا يضرّ خالقه بضلاله، كما لا ينفعه باهتدائه.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾: قال الحسن: أي: بحفيظ يحفظ أعمالكم، إنّما أنا نذير، والله الحافظ عليكم أعمالكم^(٣).

وقيل: أي: لست مسلّطاً على إدخال الإيمان في قلوبكم، وإنّما أنا مبلغ مرشد.

(١) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١ / ٣٣٦)، وانظر: «تنوير المقباس» للفيروزابادي (ص: ١٨٠).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٩٢ - ٩٣).

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٢ / ١٢٨)، والواحدي في «البيسط» (٨ / ٢٠٥).

(١٠٩) - ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾: أي: لست عليهم بوكيلٍ مسلطٍ على قلوبهم فتصرف فيها، ولكنك مبلغٌ فاتَّبِعْ وحيَّنا.

وقال الحسن: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾: مِنْ دِينِهِ الَّذِي بَيَّنَّهُ فِي كِتَابِهِ^(١).

ثم عزَّاه فقال: ﴿وَأَصْبِرْ﴾: على ما تسمعُ منهم مِنَ الأذى والتَّكْذِيبِ لك ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ تعالى، فيَأْتِيكَ أَمْرُهُ ونَهْيُهُ وحُكْمُهُ، وما وعدَكَ مِنْ إظهارِ دينِهِ^(٢) ونصْرِكَ. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ في عدلِ حُكْمِهِ، وإنْ جازِ وعدِهِ، وصدقِ كَلِمَاتِهِ.

وقيل: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لَأَنَّهُ لَا يَلْحَقُهُ فِي حُكْمِهِ زَلٌّ وَلَا خَلَلٌ، وَلَا يَمْنَعُهُ عَنْ إِمْضَائِهِ مَانِعٌ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان مِنْ حُكْمِهِ أَمْرُهُ بالقتال، ونَسَخَ بِهِ: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾^(٣).

وقال الضَّحَّاكُ: حَكَمَ بالقتل يومَ بدرٍ وأُحُدٍ والأحزاب.

وقال أنس رضي الله عنه: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْأَنْصَارِ، فَجَمَعَهُمْ وَلَمْ يَجْمَعْ مَعَهُمْ غَيْرَهُمْ، وَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ

(١) نحوه بلا نسبة في «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٣٦).

(٢) في (ر) و(ف): «دينه الذي بينه».

(٣) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١/ ٣٣٧). وقال ابن الجوزي في «نواسخ القرآن» (ص: ١٦١):

روى أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هذه الآية منسوخة بآية القتال، وهذا لا يصح عن ابن عباس، وقد بينا أنه لا يتوجه النسخ في مثل هذه الأشياء، لأن معنى الآية: ما أنا بوكيل في منعكم من اعتقاد الباطل وحافظ لكم من الهلاك إذا لم تعملوا أنتم لأنفسكم ما يخلصها.

تَلَقَّوْنِي عَلَى الْحَوْضِ»، قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَلَمْ يَصْبِرُوا^(١).
 وَقَالَ الْإِمَامُ الْقَشِيرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَأَصْبِرْ﴾؛ أَي: وَقَفَ عِنْدَ جَرِيَانِ أَحْكَامِنَا،
 وَانْسَلَخَ عَنْ مَرَادِكَ بِالْكَلِيَّةِ، لِيَجْرِيَ عَلَيْكَ مَا نَرِيدُ مِنَ الْقَضِيَّةِ^(٢).
 وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سُورَةُ يُونُسَ كُلُّهَا مَكِّيَّةٌ إِلَّا قَوْلُهُ: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ
 يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ فَإِنَّهَا مَدَنِيَّةٌ نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ^(٣).
 وَبِاللَّهِ الْعَوْنُ وَالتَّوْفِيقُ^(٤).

-
- (١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٠٣/١٤) عن أنس دون سند. ورواه البخاري (٣١٤٧)، ومسلم (١٠٥٩) دون ذكر الآية. وقال الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف» (ص: ٨٦): ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند، والقصة المذكورة متفق عليها من حديث عبد الله بن زيد في أثناء حديث، ومن حديث أسيد بن حضير، ليس فيه كون الآية سبب ذلك، بل سببه قسمة غنائم حنين.
- (٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٢٠).
- (٣) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٣).
- (٤) في (أ): «تم الجدل الأول من تفسير التيسير بعون الله تعالى وحسن توفيقه، في تاريخ سنة ٩٦٩»، وفي (ر): «نجز النصف الأول من تفسير القرآن العظيم للإمام أبي حفص عمر النسفي الحنفي رحمه الله تعالى وغفر له ولكاتبه، وحسبنا الله ونعم الوكيل، آمين».

سُورَةُ هُودٍ

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الْمُحْكَمَ الْمُنْفَصِلَ الْمُبِينِ، الرَّحْمَنِ الَّذِي جَعَلَ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ، الرَّحِيمِ الَّذِي لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ.

وروى أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ قرأ سورة هود أعطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بَعْدَ مَنْ صَدَّقَ بَنُوْحَ وَكَذَّبَ بِهِ وَبَهُودَ وَصَالِحَ وَشَعِيبَ وَلُوطَ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ السُّعْدَاءِ»^(١).

وهذه السُّورة مَكِّيَّةٌ، وهي مئة وثلاثٌ وعشرون آيةً، وقيل: اثنتان وعشرون، وقيل: إحدى وعشرون.

والاختلاف في سبع آيات: ﴿بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤]، ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]، ﴿مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُودٍ﴾ [هود: ٨٢]، ﴿إِنَّا عَمِلُنَا﴾ [هود: ١٢١]، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦]، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].

(١) رواه الواحدي في «الوسيط» (٢/ ٥٦٣). وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقال ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٤): «موضوع بلا شك». وانظر: «الفتح السماوي» (٢/ ٧٢٤)، و«الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

وكلماتها ألف وتسع مئة وسبع عشرة، وحروفها سبعة آلاف وسبع^(١) مئة وسبعة وثلاثون^(٢).

وانتظام هذه السورة بسورة يونس: أن هذه السورة تشتمل على ما اشتملت عليه تلك السورة من محاجات المشركين وشبههم وإنكارهم، وأقاصيص الأمم الخالية، وغير ذلك من المعاني.

وانتظام أول هذه السورة بآخر تلك السورة: أنه ذكر هناك أتباع ما يوحي إليه، وذكر هاهنا صفة الكتاب الذي أوحى إليه، ولأن اختتام تلك ببيان أن له الفصل والأحكام، وافتتاح هذه ببيان أن منه التفصيل والإحكام.

(١) - ﴿الرَّكَتَبُ أَحْكَمْتُ أَيْنَهُ، ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الر﴾ مرّت الأفاويل فيه في تلك السورة.

قال الإمام القشيري رحمه الله: الحروف الثلاثة قَسَمَ بثلاثة من صفات الله تعالى؛ أي: بانفرادي بالربوبية، ولطفي بمن عرفني بالأحذية، ورحمتي على كافة البرية: أن هذا ﴿كَتَبْتُ أَحْكَمْتُ أَيْنَهُ﴾؛ أي: حَفِظْتُ عن التَّغْيِيرِ والتَّبْدِيلِ ﴿ثُمَّ فَصَّلْتُ﴾ بيان نُعُوتِ الْحَقِّ مِمَّا يَتَّصِفُ بِهِ مِنْ جَلَالِ^(٣) الصَّمْدِيَّةِ، وما تَعَبَّدُ بِهِ الْخَلْقُ مِنْ أَحْكَامِ الْعِبُودِيَّةِ، ثُمَّ مَا أَلَا^(٤) لِقُلُوبِ الْمُحِبِّينَ فِيهِ مِنْ لَطَائِفِ الْقُرْبَةِ فِي عَاجِلِهِمْ،

(١) في (أ) و(ف): «وست»، وانظر التعليق الآتي.

(٢) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٦٣)، وفيه: وكلماتها ألف وتسع مئة وخمس عشرة كلمة، وحروفها سبعة آلاف وخمس مئة وسبعة وستون حرفاً كحروف يونس.

(٣) في (ف): «النُعُوت».

(٤) في (أ): «لاح».

والبُشرى بما وعدَهم به من عزيز لقائه في آجلِهِم، وخصائصهم التي امتازوا بها
عَمَّن سواهم^(١).

وقوله تعالى: ﴿كَتَبُ﴾: أي: هذا كتاب.

وقيل: أي: هذه السُورة المسمّاة ﴿الر﴾ كِتَابٌ ﴿أُحْكِمْتَ آيَتُهُ﴾؛ أي: نُظِمَتْ
نَظْمًا مُحْكَمًا، لا يلحقه خللٌ ولا تناقضٌ في النظم والمعنى.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾؛ أي: جُعِلَتْ فُصُولًا؛ حلالًا وحرامًا، وأمرًا ونهيًا،
وترغيبًا وترهيبًا، ومواعظ وأمثالًا، لكل معنى منها فصلٌ غير مختلطٍ بغيره، حتّى
يُتِمَّكَنَ مِنْ تَدْبِيرِهَا كُلِّهَا.

وقال الحسن: ﴿أُحْكِمْتَ آيَتُهُ﴾ بالأمر والنهي، و﴿فُصِّلَتْ﴾ بالثواب والعقاب^(٢).

وقال قتادة: ﴿أُحْكِمْتَ آيَتُهُ﴾ من الباطل، و﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالحلال والحرام^(٣).

وقال مجاهد: ﴿أُحْكِمْتَ آيَتُهُ﴾ بالجملة، و﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾: بَيَّنَّتْ بِذِكْرِ آيَةِ آيَةٍ^(٤).

وقيل: ﴿فُصِّلَتْ﴾؛ أي: بَيَّنَّ فيها ما بالناس إليه حاجةٌ في أمور دينهم.

وقيل: ﴿فُصِّلَتْ﴾: أُنْزِلَتْ متفرقة شيئًا بعد شيء.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾: أي: أنزله ربُّ حَكِيمٍ مُحْكِمٍ لِلْأُمُورِ، واضعٌ

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢/ ١٢٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٠٩).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٧٩)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣١٠)، وابن أبي حاتم في

«تفسيره» (٦/ ١٩٩٥).

(٤) ذكره بهذا اللفظ القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٦٦)، وبنحوه الماوردي في «النكت والعيون»

(٢/ ٤٥٦). ورواه مختصر الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره»

(٦/ ١٩٩٥) ولفظه: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ قال: فُسِّرَتْ.

كُلُّ شَيْءٍ مَوْضِعُهُ، خَيْرٌ عَالَمٌ بِحَقِيقَةِ الْأَشْيَاءِ، وَأَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى، لَمْ يَفْتَرِهِ مُحَمَّدٌ وَلَا تَقْوَلُهُ، وَلَا قَالَتْهُ الشَّيَاطِينُ، وَلَا الْكُهَنَةُ، وَلَا الشُّعْرَاءُ.

وقيل: ﴿خَيْرٌ﴾ بوجوه المصالح فيها، لم يُنزلها جملةً، بل مفصلاً لما قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أُحْكِمْتَ آيَتُهُ﴾؛ أي: لم تُنسخ بكتاب كما نُسخَتِ الْكُتُبُ وَالشَّرَائِعُ بِهَا^(١).

وقيل: ﴿فُصِّلَتْ﴾: فَسَّرَتْ^(٢).

ثم في قوله: ﴿مِنْ لَدُنْ﴾ أنه صلة قوله تعالى: ﴿أُحْكِمْتَ آيَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾؛ أي: الإحكام والتفصيل من الله تعالى.

وقيل: هي صلة قوله: ﴿يَكْتُبُ﴾؛ أي: هو منزل من عند الله.

وقال الإمام الزاهد أبو منصور رحمه الله تعالى: ﴿أُحْكِمْتَ﴾ فلا يأتيها الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾: ثم بينت ما يؤتى وما يتقى، وما لهم وما عليهم^(٣). وفيه بيان جواز تأخر البيان لأنَّ (ثم) للتراخي^(٤).

(١) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١ / ٣٤٢)، وانظر: «تنوير المقباس» للفيروزآبادي (ص: ١٨١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٩٥)، عن مجاهد، وقد أشرنا إليه قريباً.

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٩٤).

(٤) المرجع السابق (٦ / ٩٦).

(٢) - ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ﴾: أي: ومِمَّا فَضَّلَ فِيهِ أَلَّا تَعْبُدُوا.

ويجوز أن يكون نصباً بـ (أَنْ)، و (أَنْ) مع الفعل مصدرٌ، ومعناه: تركُ عبادتكم غير الله ممَّا فَضَّلَ فِيهِ.

ويجوز جزماً بالنهي، وتقديره: قل يا محمد: ﴿الرَّكَتَبُ أَحْكَمْتُ أَيْنَهُ، ثُمَّ فَضَّلْتُ﴾، ومن تفصيله أَنِّي أقول لكم: لا تَعْبُدُوا غير الله.

﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾: فَإِنِّي لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مَخَوِّفٌ بِالْعَذَابِ إِنْ عَصَيْتُمُوهُ، وَمُبَشِّرٌ بِالثَّوَابِ إِنْ أَطَعْتُمُوهُ.

(٣) - ﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ، وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾: عطف على الأول، وهو دليل أن الأولَ جزمٌ على النهي، وهذا عطف الأمر على النهي، وهو أولى من تأويل من أوله على إعراب النصب.

ومعناه: سَلُوا رَبَّكُمْ أَنْ يَغْفِرَ^(١) ما أسلفتم من الذُّنُوبِ بالشُّرْكِ.

﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾: أي: ارجعوا إليه بالإخلاص له.

والاستغفارُ ينتظم الندم على ما سلف، وإحسان العمل في المؤتلف، حتَّى يكون الإنسان راجعاً بعمله إلى ربِّه، ولهذا قدَّم ذِكْرَ الاستغفارِ على ذِكْرِ التَّوْبَةِ،

(١) في (أ) و(ف): «يستر».

وتقديره: اطلبوا مغفرة ربكم بالإسلام، والندم على سالف الإجمام، والثبات على الطاعة في باقي الأيام، وارجعوا إلى الله تعالى بالإخلاص والاستسلام، على الثبات والدوام.

وقيل: أي: اطلبوا المغفرة بأن تجعلوها عوضكم، ثم توصّلوا إلى مطلوبكم بالتوبة واجعلوها سببكم، فالمغفرة أوّل في الطلب وآخر في السبب.

وقيل: معناه: استغفروا ربكم من ذنوبكم السالفة، ثم توبوا إليه في المستأنف متى وقعت منكم المعصية.

وقوله تعالى: ﴿يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾: هو جواب الأمر، وتقديره: إن تفعلوا ذلك يعمّرکم الله تعالى في الدنيا، فتتمتعون بالأرزاق المباحة والملاذ المحللة متاعاً حسناً، لا تدّمون عاقبته كمتاع المشركين.

﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: وهو مدة العمر لكل إنسان.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿مَتَاعًا حَسَنًا﴾؛ أي: تستحسنون في الآخرة ذلك التمتع، وأمّا الكفار فإنهم لا يستحسنون في الآخرة ما متّعوا به في الدنيا؛ لأنّ تمتّعهم في الدنيا كان للدنيا، وتمدّع المسلمين كان للتزود للآخرة^(١).

وأصل التمتع: إطالة الشيء والمد فيه، يُقال: حبل ممتع؛ أي: طويل، ومتّع النهار؛ أي: ارتفع، وقال الله تعالى خبراً عن نوح عليه السلام: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۖ ٢٠ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ﴾ [نوح: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۖ ١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۖ ١١ وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۖ﴾ [نوح: ١٠-١٢]، فهذا كله من المتاع الحسن.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٩٥).

وقال الفراء: ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾؛ أي: وتوبوا إليه؛ لأنَّ الاستغفارَ هو التَّوبَةُ، والتَّوبَةُ هي الاستغفار^(١).

وقال الكلبي: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾؛ أي: صلُّوا ربَّكم^(٢).

وقال مقاتل: فدعا رسول الله ﷺ أهل مَكَّةَ إلى التَّوبَةِ والاستغفار وعبادة الله تعالى، فأبوا فابتلاهم الله تعالى بِالْفَحْطِ سَبْعَ سنين، ثُمَّ أَكَلُوا الْعِظَامَ الْمَحْرَقَةَ وَالْجِيْفَ وَالْكَلابَ^(٣).

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾: قال أبو العالية: أي: مَنْ كَثُرَتْ طَاعَاتُهُ فِي الدُّنْيَا زَادَتْ دَرَجَاتُهُ فِي الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّ الدَّرَجَاتَ تَكُونُ بِالْأَعْمَالِ^(٤).

وقيل: أي: يُؤْتِ كُلَّ ذِي إِفْضَالٍ عَلَى النَّاسِ جِزَاءَ إِفْضَالِهِ، سُمِّيَ جِزَاءُ الْفَضْلِ فَضْلاً كَمَا يُسَمَّى جِزَاءُ السَّيِّئَةِ سَيِّئَةً.

وقيل: أي: وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضِيلَةً فِي الدِّينِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ جِزَاءَ فَضِيلَتِهِ وَعَمَلِهِ.

وقال ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أي: مَنْ زَادَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ زَادَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ دَخَلَ النَّارَ، وَمَنْ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْأَعْرَافِ، ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ^(٥).

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٧٤)، والواحدي في «البيضا» (١١ / ٣٤٥).

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢ / ١٥٥).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢ / ٢٧١).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٥٧).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٥٧).

وقال مجاهد: هو ما يحتسبه الإنسان من كلامٍ يقوله بلسانه، أو عملٍ يعملُه بيده ورجله، أو ما يجتهد فيه من طاعة^(١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتملُ: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ ما آتاه بفضله. ويحتملُ: [وَيُؤْتِ] كلُّ ذي فضلٍ في الدنيا فضله في الآخرة^(٢).

وهو كما روي: «أهلُ المعروفِ في الدنيا هم أهلُ المعروفِ في الآخرة»^(٣)؛ أي: يُجعلون أهلُ الشَّفاعَةِ، فيصطنعون المعروف إليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: أصلُه: تتولَّوا، حذفَت إحدى التَّائِثِينِ تخفيفاً؛ أي: وَإِنْ تُعْرَضُوا عَمَّا فَضَّلَ لَكُمْ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي وَتَصَرُّوا عَلَى الشَّرِّ.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣١٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٩٧).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٩٦)، وما بين معكوفتين منه.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٥٤٢٩)، والإمام أحمد في «الزهد» (٢٣٦٨) عن أبي عثمان النهدي مرسلًا.

ورواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٢١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨ / ٣٧٥) من حديث قبيصة بن برمة الأسدي رضي الله عنه.

ورواه البزار في «مسنده» (٥٩٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ورواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٥٦، ٤٩٣١)، و«المعجم الصغير» (٧٤٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ورواه الطبراني في «المعجم الصغير» (١٩٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ورواه الحاكم في «المستدرک» (٤٢٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ورواه ابن الجوزي في «العلل» (٨٣٤-٨٤١) من حديث عمر وابن عمر وأبي موسى وسلمان وأبي الدرداء وابن عباس، ثم قال: (هذا حديث لا يصح)، ثم ذكر عللها.

﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾؛ أي: عظيمٍ شديد، وهو يوم القيامة، لِمَا فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ.

وقيل: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾: قتلهم يوم بدر.

(٤) - ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: هذا وعيد يوم القيامة.

وقوله: ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: على مجازاتكم على أعمالكم وغير ذلك.

وقال القشيري رحمه الله: ابتدئوا باستغفاركم، ثم توبوا بترك أوزاركم، والتَّانِّي عن إصراركم.

قال: ويقال: استغفروا من الذُّنُوبِ، ثُمَّ توبوا عن تَوْهُمِ نَجَاتِكُمْ باستغفاركم؛ لعلمكم بأنَّ نجاتكم تَكْرَمَةٌ لَا بِأَعْمَالِكُمْ.

وقال أيضًا: استغفروا لطلب حظوظكم من عفونا، فإذا فعلتم ذلك فتوبوا عن طلب كُلِّ حَظٍّ وَنَصِيبٍ، وارجعوا إلينا، واكتفوا بنا راضين بما نختاره مِنَ التَّجَاوُزِ عَنْكُمْ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا نَخْتَارُهُ لَكُمْ.

وقال في قوله تعالى: ﴿مُنْعَا حَسَنًا﴾: هو إعطاء الكفاية مع زوالِ الْحِرْصِ.

وقيل: هو القناعة بالموجود.

وقيل: هو أن لا يحوجه ولا يجعل لأحد عليه مَنَّةً، لَا سِيَّمَا لِلَّيْمِ.

وقيل: هو أن يوفقه لاصطناع المعروف إلى المستحقين.

وقيل: هو أن تُقْضَى على يَدَيْهِ حَوَائِجُ النَّاسِ.

وقيل: هو أن لا يُلَمَّ في حال شبابه بزلّة، ولا يتَّصف في حال مشيبه عن الله بغفلة.
وقيل: هو أن يكون راضياً بما يجري عليه في حالتي العسر واليسر.
وقال في قوله تعالى: ﴿وَوُتِّبَ كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ﴾: هو أن يَسْتَرَّ عليه فضله حتّى لا يلاحظ حاله ومقامه، بل ينظر إلى نفسه وإلى ما هو منه وله بعين الاستحقار والاستصغار.

وقيل: هو أن يرقّيه عن التعرّيج في أوطان البشريّة إلى مناجاة شهود الأحديّة، فيُنْقَى^(١) عن سُحِّ البشريّة، والتَّكْدُّر بما يبدو من مفاجآت التّقدير.
وقال في قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾: تنقطع الدّعاوى عند الرّجوع إلى الله تعالى، وتنتفي الطُّنون، ويحصل اليأس من غير الله تعالى، ويبقى العبد بنعت الاضطرار في وصف الانتظار^(٢).

(٥) - ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ﴾: أخبر عن معاداة المشركين للنبي ﷺ وجهلهم بالله في ظنهم أنهم يستخفون منه، فقال: ﴿أَلَا﴾؛ أي: تنبّهوا على أحوال المشركين، وقفوا على جهلهم، فإنّهم يُسْرُونَ العداوة في قلوبهم، وهو كقولهم: طَوَى كَشْحَهُ.

وجه ذلك: أن مَنْ ثَنَى الشّيء - أي: عطفه وطواه - خفي في أثناؤه ما يقع فيه، وخفي باطن الشّيء المطوي، فجعله مثلاً لإضممار العداوة في الصّدر.

(١) في (أ): «فيتنقى».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢/ ١٢٣).

﴿لَيْسَتْخَفُوا مِنْهُ﴾: أي: يقصدون بذلك إخفاء ذلك على الله تعالى جهلاً منهم.
 ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾: أي: اعلّموا أنّهم حين يتغطّون بثيابهم ويدخلون
 رؤوسهم فيها ﴿يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ أي: يعلم الله ما يضمرون، فكيف وهم
 بارزون؟! ولكنّهم أهل جهل، ومن كان هذا حاله لم يستبعد منه أن يشرك بالله غيره.
 وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: أي: سرائرها وضمائرها.

ووجه آخر: أنّهم كانوا إذا احتاجوا في أمرٍ من الأمور أن يَمُرُوا بالنبي ﷺ
 طأطؤوا رؤوسهم وتغشّوا ثيابهم فيها؛ لئلا يراهم النبي ﷺ فيحتاجوا إلى الدخول
 عليه أو التسليم عليه، فأخبر الله عن ذلك وقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَمْتَنُونُ صُدُورَهُمْ﴾، وهو عبارة
 عن شدّة خفض الرأس، حتّى يحتاج صاحبها إلى أن ينحني فيثني صدره.

فيقول: أَلَا حين يفعلون هذا ويضمّون إليه في بعض الأحوال أن يغطّوا
 رؤوسهم بثيابهم ليخفوا أشخاصهم من النبي ﷺ يعلمه الله، ويعلم ما يسرون في
 منازلهم عليه وما يعلنون فيه.

ووجه آخر: ﴿يَمْتَنُونَ صُدُورَهُمْ﴾؛ أي: يحنون صدورهم لتخفّص رؤوسهم
 وتتطامن أذانهم، فلا يصل إليها ما يقرأ عليها رسول الله ﷺ من القرآن، وهو كقوله
 تعالى في قصّة نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ مُدْبِرِينَ
 وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَمْتَنُونَ صُدُورَهُمْ﴾؛ أي: يخفون ما في
 صدورهم من الشّحناء والعداوة^(١).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٩٨).

نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، كان رجلاً حلو الكلام، حلو المنطق، يلقي رسول الله ﷺ بما يحب، وينطوي بقلبه على ما يكرهه^(١).

وقال قتادة: أي: يحنون صدورهم، وأخفى ما يكون الإنسان إذا حنى صدره وتغطى بثوبه، وأضرهمه في نفسه^(٢).

وقال مجاهد وعكرمة: ﴿يَتَنَوَّنَ صُدُورُهُمْ﴾ بشك^(٣) في الله عز وجل وفي رسوله^(٤).

وقال السدي: ﴿يَتَنَوَّنَ صُدُورُهُمْ﴾؛ أي: يعرضون بقلوبهم عنك، من قولهم: ثنيت عناني^(٥).

وقال مجاهد: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ﴾ من العداوة، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الوفاق، ﴿إِنَّهُ عَلَيْهِمْ بَذَاتُ الصُّدُورِ﴾؛ أي: بما في القلوب من الخير والشر.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ليستخفوا منه إن كانت الآية في المنافقين

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٥٧)، والبغوي في «تفسيره» (٤ / ١٦٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وصرح ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤ / ٧٦) أنه من طريق أبي صالح عن ابن عباس. وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢ / ١٣٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٦٥)، عن الكلبي، وعلى هذا فعله من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٨١)، والطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣١٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٩٩).

(٣) في (ر): «أي يعرضون بقلوبهم شك»، وليست هذه العبارة في خبر مجاهد وعكرمة بل هي عن السدي كما سيرد.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٩٩) عن مجاهد، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣٢١) عن عكرمة عن ابن عباس.

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٥٧)، والبغوي في «تفسيره» (٤ / ١٦٠).

فهو الاستسار والاستتار من رسول الله ﷺ؛ لأنهم كانوا يُظهرون موافقته ويضمرون مخالفتَه، وإن كانت الآية في المشركين فهو على الاستسار والاستتار من الله عز وجل؛ لأنهم كانوا لا يبالون بمخالفة رسول الله ﷺ، وعندهم أن الله لا يطلع على ما يسرون.

وفيه دلالة على نبوة محمد ﷺ؛ حيث أخبر عن ضمائرهم، فثبت أنه علم ذلك بالله^(١).

(٦) - ﴿وَمِمَّنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾: أي: وما من شيء من الحيوانات التي تدب على الأرض إلا والله تعالى متكفل برزقها؛ أي: بما يقيمها؛ إذ الحي من الخلق لا بد له مما يقيم حياته، ولا قيام للحيوانات إلا بكفالتها^(٢)، وهي رزقها.

قال مجاهد: ما جاءها من رزق فمن الله، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعاً، ولكن ما كان من رزق فمن الله، و﴿عَلَى﴾ بمعنى (من)^(٣)، كقوله تعالى: ﴿أَكَاؤُلُوعَلَى النَّاسِ﴾ [المطففين: ٢].

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: أي: ويعلم مستقرها من الأرض

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٩٧).

(٢) في (ر): «بكلفتها»، وفي (ف): «بتكلفتها».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠١).

حيثُ تأوي إليه، وموضعها الذي تموت فيه، أو تُدفن فيه فتُستودع فيه إليه إلى حين تُنبعث.

وقال مجاهد: ﴿مُسْنَقَرَهَا﴾ في الأرحام، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الأصلاب^(١).

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾: أي: في اللوح المحفوظ مكتوب.

وقيل: يُكتب الآن موجوداً، كما كُتب في اللوح المحفوظ معلوماً؛ يعني: من كانت هذه قدرته، وهذه صفته في الإحاطة في الأشياء، كيف يخفى عليه ما يفعله هؤلاء المشركون من ثني صدورهم ظانين أن يخفى عليه ذلك؟

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: ﴿مُسْنَقَرَهَا﴾ بالليل، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ بالنهار في معاشيها، ويُشبه أن يكون هذا إخباراً عن العلم بها في كل حال من سكونها وحركتها، يخبر الله إذا لم يخف عليه كون كل دابة في بطن الأرض، وما كان في الأرحام، وما استودع في الأصلاب، كيف تخفى عليه أعمالكم التي عليها العقاب ولكم بها الثواب^(٢).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أراح القلوب عن تعب التقسيم، والأفكار عن نصب التفكير^(٣) في باب الرزق، حيث قال: ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾، فسكنت القلوب لما تحققت أن الرزق على الله تعالى.

قال النبي ﷺ: «إِذَا أُحِيلَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيٍّ فَلْيَحْتَلْ»^(٤).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣٢٦).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٩٩).

(٣) في جميع النسخ: «الترحم»، والمثبت من «لطائف الإشارات».

(٤) رواه البخاري (٢٢٨٧)، ومسلم (١٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظهما: «إِذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيٍّ فَلْيَتَّبِعْ».

ويقال: إذا كان الرِّزْقُ على الله فَمِنْ المحالِ طلبُهُ مِنْ غيرِ الله.
قال: ولم يقل: (ما يشتهيه ومقدار ما يكفيه)، بل هو موكولٌ إلى مشيئته، فَمِنْ
موسّعٍ وَمِنْ مُقتَرٍ^(١).

(٧) - ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ
لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّا لَنُكْفِيَنَّكُم مِّنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْمِنٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: فسّرناه عند قوله
تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤] في
(سورة الأعراف).

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: بَيَّنَّ أَنَّ خَلْقَ الْعَرْشِ وَالْمَاءِ كَانَ
قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

والعرش: شِبْهُ سُرِيرِ الْمَلِكِ، لتطوف الملائكةُ به، ويحفون حوله، ويمجدون الله
تعالى ويعظمون مِنْ حوله، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾
الآية [الزمر: ٧٥].

وفي وقوف العرشِ على الماءِ، والماءِ على غيرِ قرارٍ، أعظمُ اعتبارٍ على كمالِ
قُدْرَةِ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ، ولو شاءَ لجعلَ العرشَ على غيرِ قرارٍ، كما جعلَ الماءَ - الَّذِي
هو أدعى للقرار وأحوجُ إليه - على غيرِ قرارٍ.

وعن كعب الأحبار أَنَّهُ قال: لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى خَلْقَ الْمَاءِ خَلَقَ يَاقوتَةَ خَضِرَاءَ،

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٢٤ - ١٢٥).

ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهَا بِالْهَيْبَةِ فَصَارَتْ مَاءً، ثُمَّ خَلَقَ الرِّيحَ فَجَعَلَ الْمَاءَ عَلَى مَتْنِهَا، ثُمَّ وَضَعَ الْعَرْشَ عَلَى الْمَاءِ^(١).

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ أي: خلق جميع ذلك ليعامِلَ عباده معاملَةً المختبرِ لهم، مظهرَةً في الاحتجاج عليهم؛ ليمثلوا أمره، ويؤدّوا على نعمه شكره، ويستدلوا بآياته على وحدانيّته وقدرته على ما يشاء، وفي ذلك إثباتُ البعثِ لِيُجَازِيَ المحسنَ على إحسانه، والمسيءَ على إساءته.

ومعنى الابتلاء: فعلٌ ما يظهرُ به الشيء وإن كان معلوماً، ألا ترى أنَّ الرَّجُلَ قد يخالفُ الرَّجُلَ في جودة فضّته ورداءتها، وهو عالمٌ بحقيقة ما يقول، فيقول لصاحبه: تعال ندخلها النَّارَ، فننظر أجيدة هي أم رديئة.

وقوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: أيكم أعملُ بالطّاعة.

وقال مقاتل: أيكم أتقى لله.

وقال الحسن: أيكم أزهّد في الدُّنيا وأترك لها^(٢).

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: أحسنُ الأعمال ما غاب عن ملاحظة عامله.

وقال: هو ما ينظرُ إليه صاحبه بعين الاستصغار والاستقلال.

وقيل: أحسنُ الأعمال ما لا يطلبُ صاحبه عليه عوضاً.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٥٨)، والبغوي في «تفسيره» (٤ / ١٦٢). وظاهر أنها من الإسرائيليات.

(٢) ذكر هذه الآثار الثلاثة الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٥٩).

وقيل: ما غاب عنه صاحبه لاستغراقه في شهود المعبود^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وصل هذا بما ذكر من خلق السماوات والأرض؛ لأن ذلك ذكر أساساً لهذا؛ أي: خلقناها على الاتساق والانتظام دلالة على الخالق القادر، وكان خلقها للمُمتحنين، وما خلقت لأنفسها، لأنها للفناء، ولو كان لذلك - لا للابتلاء - كان عبثاً، وبالابتلاء ظهر المحسن والمسيء، وجزاء ذلك بعد البعث.

ولو قلت يا محمد للمشركين: إنكم مبعوثون للجزاء على ما انكشف بالابتلاء، أنكروا وتعجبوا، وقالوا: ما هذا القول إلا سحر ظاهر؛ أي: خديعة منكم لنا، ومنع عن لذات الدنيا وزينتها، واجترأ إلى الانقياد لكم والدخول في طاعتكم.

وقال الإمام الزاهد أبو منصور رحمه الله: قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ نفس هذا الكلام لا يحتمل أنه يُسمى سحراً، لكن معناه: أنه إذا أخبرهم به، وأقام الحجج والبراهين عليه، قالوا للحجج والبراهين عليه: هذا سحر.

ويحتمل وجهاً آخر: وهو أنه بيان سفههم، أنهم اعتادوا نسبة كل شيء إلى السحر حتى الأشياء التي لا تحتمل السحر، وهي الأخبار، لأن السحر إنما يكون في قلب الأشياء، فأما فيما يُخبر عن شيء يكون فلا^(٢).

(٨) - ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ الْآلِ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢/ ١٢٥).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٠١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ آخَرًا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾: أي: حين معلوم ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ﴾؛ أي: استعجلوه على سبيل الاستهزاء، يعنون أن هذا الوعيد بالتعذيب على التكذيب ليس بحق.

ثم أخبر أنه لا معنى لاستعجالهم، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾؛ أي: بكثرة أعوان، ولا بحيلة محتال، ولا بقوة من قبلهم، ولا من قبل آلهتهم. وقوله تعالى: ﴿وَحَافٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: أي: يحيق بهم، يعني: ينزل بهم، ماضٍ بمعنى المستقبل؛ لأنه كائن لا محالة، فالحق بالحاصل الموجود.

(٩) - ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُفُّورٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾: أي: إذا أعطينا المشرك المكذب بالله عز وجل منّا سعة في الدنيا، وصحة في الجسم، ووفورا في الولد؛ ليشكر بها لنا، ويستعين بها على طاعتنا.

﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾: لكفرانه، فأذقناه ضيقا وسقما ونقصا في المال والولد. ﴿إِنَّهُ لَيَكُفُّورٌ﴾: لأنه يئس وكفر نعمتنا^(١)، وقال: أهانني ربي فلا أعبد ربّا يهينني، كأنه يئس من زوال ما حلّ به، فهو لذلك معرض عن ربه، لا يتوقع خيرا، ولا يأمل فرجا.

وجاء في التفسير: أن ﴿الْإِنْسَانَ﴾ هو عبد الله بن أبي أمية المخزومي، أذقناه رحمة منّا: رخاء ونعمة، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾؛ أي: سلبناها منه، ﴿إِنَّهُ لَيَكُفُّورٌ﴾ في الشدة، ﴿كَفُّورٌ﴾ في النعمة^(٢).

(١) في (ر): «بنعمتنا»، وفي (ف): «نعمتنا»، بدل: «لأنه يئس وكفر نعمتنا».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ١٥٩).

(١٠) - ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾: أي: ولئن أزلنا^(١) البأساء بالنعماء لم يرَ أنَّ ذلك استدعاءٌ للشكر، ولكنه يقول: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾؛ أي: الأحوال السيئة التي كانت تُسوؤني؛ أي: كان ذلك سوءاً أصابني وذهب، كما يكون هذا بأكثر الأحوال، ويصيب أكثر الناس تتلون عليهم الأمور، فلا يعتبر بما يُمتَحَنُ به وبما يُنعمُ عليه، فلا يقابل البأس بالصبر، ولا النعمة بالشكر، إعطاءً للعبودية حقها، ولكنه في حال البؤس يحيل ذلك على أن الله تعالى أهانه، وفي حالة النعمة يعدّها اتِّفاقاً حسناً، يحمّد عليه زمانه.

﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾: أي: من عادته الفرح والبطر بالنعمة، والفخر بها على الكافة، حتّى يخرج بذلك إلى تكذيب الأنبياء، وجحود البعث والجزاء.

(١١) - ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: هو استثناء منقطع، معناه: لكن الذين صبروا على المكاره، وصبروا عن المعاصي، وعملوا الطاعات.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾: أي: مغفرة الذنوب ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ أي: ثوابٌ عظيم.

ويجوز أن يكون على حقيقة الاستثناء، ويكون الإنسان المذكور في الآية الأولى بمعنى: النَّاسُ؛ لأنّه اسمُ جنسٍ فيصلح للجمع، فيكون معناه: أكثر النَّاسِ على كذا، وقومٌ مستثنى منهم.

(١) في (أ): «أبدلنا».

وعلى القولين جميعاً يخرج قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الْمُصْلِينَ﴾ [المعارج: ٢٢]، إلى قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ الآية [العصر: ٢].

(١٢) - ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَضَآئِقُ بِهِءٍ صَدْرِكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَضَآئِقُ بِهِءٍ صَدْرِكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾: قال مقاتل: إن أهل مكة قالوا: اتينا بكتاب ليس فيه سب آلهتنا، ولا مخالفة آبائنا، فهم رسول الله ﷺ أن يدع سب آلهتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية^(١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وهذا على النهي؛ أي: لا تترك بعض ما يوحى إليك، وهو كما يقول الرجل لآخر: لعلك تريد أن تفعل كذا، وهو ينهاه عنه. ويتضمن له البشارة بالأمن مما يخاف أن يلحقه من جهتهم، ولزوم التبليغ، وذلك أن الأخيار إذا ابتلوا بالأشرار فقد يؤذن لهم بمفارقتهم، وترك الأمر فيهم، فبين أنه ليس له ذلك، وعليه التبليغ مع ذلك^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَضَآئِقُ بِهِءٍ صَدْرِكَ﴾ الضائق يُذكر للضيق العارض، والضيق يُذكر للضيق اللازم، وكان ما يلحقه من كلامهم أمراً عارضاً، فلذلك قال: ﴿وَضَآئِقُ بِهِءٍ صَدْرِكَ﴾.

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٧٣).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٠٥).

﴿أَنْ يَقُولُوا﴾؛ أي: بأن يقولوا.

قال مقاتل: قال هذا عبد الله بن أبي أمية: ﴿لَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾^(١)، وكان للمال عندهم خطرٌ ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]؛ أي: ليصدقَه بما يقول، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ﴾ يا محمد ﴿نَذِيرٌ﴾: مخوف مبليغ، ليس بيدك الإتيان بالأموال وإنزال الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾؛ أي: حافظ لكل ما يقولون فيك؛ إذ هو الحفيظ عليهم لا أنت، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٤]، ونظير هذه الآية: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

(١٣) - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾: (أم) كلمة عطف على استفهامٍ بآلفٍ، وتقديره: أيكذبونك أم يقولون: افتراه.

وقيل: أيكثفون بما أوحينا إليك أم يقولون: افتراه.

والمفسرون يقولون: معناه: بل يقولون افتراه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾: أي: مثل القرآن ﴿مُفْتَرِيَاتٍ﴾؛ أي: على زعمكم أن القرآن مفتري.

وهذا أمرٌ إعجازٍ كما مرَّ في (سورة البقرة)، وهذه الآية نزلت قبل قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، ونزل أولاً قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٥٩) دون نسبة.

[الطور: ٣٤]، وهو كُلُّ القرآن، فلمَّا ظهرَ عجزُهم عنه تحدَّاهم بعشر سورٍ، ثُمَّ لَمَّا ظهرَ عجزُهم عنها تحدَّاهم بسورةٍ، فلمَّا ظهرَ عجزُهم لزمتهم الحُجَّةُ بالكليةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لِيُعِينَكُمْ عَلَى الْإِتْيَانِ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ، فِي نَظْمِهِ وَمَعَانِيهِ، وَالْأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ عَنِ الْأُمُورِ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ، وَالْإِطْلَاعِ عَلَى مَا فِي ضَمَائِرِكُمْ، فَأَتُوا بِمَا فِيهِ هَذِهِ الْمَعَانِي، وَالْإِطْلَاعِ عَلَى مَا فِي ضَمِيرِ مُحَمَّدٍ ^(١).

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: أَنَّهُ افْتَرَاهُ مِنْ عِنْدِهِ، وَلِسَانُكُمْ مِثْلُ لِسَانِهِ.

(١٤) - ﴿فَإِنَّهُ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: لَهُ وَجْهَانِ:

أحدهما: فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لَكُمْ أَيُّهَا الْمَشْرُكُونَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ اسْتَعْتَمْتُمْ بِهِ، عِلْمًا مِنْهُ بِالْعَجْزِ، وَأَنْتُمْ عَاجِزُونَ أَيْضًا، فَأَعْلَمُوا حِينَئِذٍ أَنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أُنْزِلَهُ بِعِلْمِهِ؛ أَي: وَهُوَ عَالِمٌ بِإِنْزَالِهِ عَلَى مَا يَكُونُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ.

ويحتمل: أَنَّهُ أُنْزِلَ بِالْأَنْبَاءِ ^(٢) الَّتِي هُوَ عَالِمٌ بِهَا، يُعَلِّمُهَا مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، فَاسْتَدِلُّوا بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

(١) فِي (أ): «عَلَى مَا فِي ضَمِيرِهِمْ».

(٢) فِي (أ): «بِالْأَشْيَاءِ».

ويحتمل: وإذا عجزتم عن معارضته فاعلموا أَنَّ مُحَمَّدًا مُحَقٌّ في دعوى الرسالة، فلا يجوز أن يكون كاذبًا فيما يخبرُكم به: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وحده، دون أصنامكم، فهل أنتم مسلمون؟ أَمْ لَكُمْ أَنْ تَوْمِنُوا بِاللَّهِ وَتَصَدَّقُوهُ.

ووجه آخر: فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبْ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ لَكُمْ يَا مُحَمَّدُ يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ إِلَى مَا دَعَوْتُمُوهُمْ إِلَيْهِ مِنْ مَعَارِضَةِ الْقُرْآنِ عَلَى نَظْمِهِ، فَتَيَقَّنُوا أَنْتُمْ بِلِجَاجِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ، وَدُومُوا عَلَى عِلْمِكُمْ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: منقادون لله، مخلصون له، دائمون على الإيمان والإحسان؟

(١٥) - ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾: أي: الدَّاعِي لهؤلاء المشركين إِلَى الدَّوَامِ عَلَى الشَّرِكِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا. وقال الفراء: تقديره: مَنْ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فَلِذَلِكَ قَالَ فِي جَزَائِهِ: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ بحذف الياء للجزم^(١).

وقال الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: اختلف فيها:

فقال بعضهم: الآية في الكفار، يعملون أعمالاً هي في الظاهر صالحة؛ مِنْ التَّصَدُّقِ عَلَى الْفُقَرَاءِ، وَعِمَارَاتِ الطُّرُقِ، وَاتِّخَاذِ الْقَنَاطِرِ وَالرَّبَاطَاتِ، يَقُولُ: نُوَفِّ إِلَيْهِمْ جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْقَصُونَ، وَهُوَ مَا وَسَّعَ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا.

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٦).

وجائز أن يكون: ﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: نردُّ عليهم أعمالهم التي عملوها في الدنيا فلا نقبلها^(١).

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ﴾؛ أي: لا يُنْقِصُونَ ما قُدِّرَ لهم من الرِّزْقِ إلى انقضاء مدَّتِهِمْ بشركهم بالله جلَّ جلاله^(٢).

(١٦) - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾: خالدين فيها بشركهم. ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: ما هو طاعة عندهم.

وقال بعضهم: هي في المؤمنين الذين عملوا الصَّالِحَاتِ مراءاةً لِلخَلْقِ، نُوفٌ إليهم جزاء أعمالهم فيها من الذِّكْرِ وَالشَّرَفِ، وما طلبوا بأعمالهم في الدنيا من المباحة وغيرها، وبطل ما كانوا يعملون في الآخرة؛ لأنَّهم عملوها لغير الله تعالى، فلا يُجْزَوْنَ بأعمالهم تلك، وإلى هذا ذهب ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما^(٣).

قال^(٤): وروي عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ: مَا بَالُ الْعَبْدِ الْمَعْرُوفِ بِالْخَيْرِ يُشَدَّدُ عَلَيْهِ الْمَوْتُ، وَالرَّجُلُ الْمَعْرُوفُ بِالشَّرِّ يُهَوَّنُ عَلَيْهِ الْمَوْتُ؟ فَقَالَ: «الْمُؤْمِنُ تَكُونُ لَهُ الذُّنُوبُ فَيُجَازَى بِهَا عِنْدَ مَوْتِهِ، فَيُفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ وَلَا ذَنْبَ عَلَيْهِ، وَالْكَافِرُ يَكُونُ لَهُ

(١) في (ر): «رياء»، وهي سقط من (ف).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ١٠٨).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣٤٧).

(٤) أي: الماتريدي.

حَسَنَاتٌ، فَيُجَازَى بِهَا عِنْدَ الْمَوْتِ، يَخَفَّفُ عَنْهُ كَرْبُ الْمَوْتِ، ثُمَّ يَفْضِي إِلَى الْآخِرَةِ، وَلَيْسَتْ لَهُ حَسَنَةٌ. أو كلام هذا معناه.

وعلى هذا معنى الآية: أَنَّهُمْ لَا يَسْتَوْجِبُونَ بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ إِلَّا النَّارَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا رَأَى بِهَا لَمْ يَخْلُصْهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَضِيعَ أَمْرِهِ، وَمَنْ ضِيعَ فَرَائِضُ اللَّهِ تَعَالَى اسْتَوْجَبَ التَّعْذِيبَ عَلَيْهِ، وَلَهُ الْعَفْوُ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ أَنَّهُ لَا مُحَالَةَ يَعْذِّبُهُمْ بِعَمَلِ الْمَرَاءَةِ^(١).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: يَقُولُ: مَنْ قَنَعَ هُنَا بِالدُّنْيَا الَّتِي الدَّنَاءَةُ صِفَتُهَا، مَنَّا عَلَيْهِ بِإِمْتَاعِ أَيَّامٍ ثَقُلَ مَدَّتُهَا، لَكِنْ يَعْقِبُ أَرْيَ كَمَالِهَا شَرِي زَوَالِهَا، وَيَتَّبِعُ طَعْمَ عَسَلِهَا سَمَّ حَنْظَلِهَا^(٢).

(١٧) - ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾: استفهامٌ بمعنى النفي، والآية في بيان عدم التسوية بين المؤمنين وهم المذكورون في هذه الآية، وبين المشركين وهم المذكورون في الآية الأولى.

معناه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾؛ أي: حجة وبيان، وهم المؤمنون بمحمد والقرآن، فهم على حجة بمجيء محمد عليه السلام ﴿وَيَتْلُوهُ﴾؛ أي: ويتبع محمدًا^(٣).

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٠٧ - ١٠٨).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٢٨). والأري: العسل، والشري: الحنظل.

(٣) في (أ): «ويتلو محمد»، وفي (ر) و(ف): «ويتبع محمد»، والصواب المثبت.

الذي هو البيّنة ﴿شَاهِدٌ مِنْهُ﴾^(١)؛ أي: مَنْ يشهدُ بصدقِهِ، هو جاءَ به^(٢)، وهو القرآنُ. ﴿قَبْلَهُ كُنْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾؛ أي: ولهذا المؤمن مع هذا الشَّاهد شاهدٌ قبله، وهو كتابُ موسى التَّوراةُ الَّذي أنزله الله تعالى إمامًا لبني إسرائيل يقتدون به، ورحمة لهم أنقذهم الله تعالى به من النَّار في الآخرة، ومن استعباد فرعون وقومه في الدُّنيا، وفي التَّوراة الشَّهادةُ بمحمَّدٍ، والبشارة به، والإخبار بصفته وصفة أمته. يقول: أفمن اجتمعَتْ له هذه الحجج - وهي النَّبيُّ والقرآنُ والتَّوراةُ - الشَّاهدةُ المبشرة فآمنَ بها^(٣)، كمنَ أعرَضَ عن النَّذير^(٤)، ومالَ إلى الحياة الدُّنيا وزينتها، فهذا هو الجوابُ المحذوفُ، وبه النَّظمُ بينَ الآيتينِ.

وقال الحسنُ بن عليٍّ وعبدُ الرَّحمن بن زيدٍ: الشَّاهد هو النَّبيُّ ﷺ، وقوله: ﴿مِنْهُ﴾: مِنْ الله تعالى^(٥).

وقال ابن عباس ومجاهد وإبراهيم والفراء والزَّجاجُ: هو جبريلُ يتلو القرآنَ على محمَّد عليهما السلام^(٦).

(١) في (أ) و(ف): «شاهد به».

(٢) في (ر): «وهو ما جاء به».

(٣) في (ر) و(ف): «الشَّاهدة بمحمد والبشارة به والإخبار بصفته وصفة أمته فآمن بذلك».

(٤) في (ف): «التدبير».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠١٤ - ٢٠١٥) عن الحسين بن علي رضي الله عنه، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣٥٩) عن ابن عباس ومجاهد وإبراهيم، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠١٤) عن ابن عباس ومجاهد، وقال عقب خبر ابن عباس: وروي عن أبي العالية وأبي صالح ومجاهد وإبراهيم وعكرمة والضحاك وعطاء الخرساني وخصيف نحو ذلك. وانظر: «معاني القرآن» للفراء (٢ / ٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣ / ٤٣).

وقال الحسنُ وقتادة: شاهدٌ مِنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، هو لسانُهُ^(١).

وقال مجاهدٌ: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ قال: مَلَكٌ يَحْفَظُهُ وَيَسَدُّهُ^(٢).

وقال ابنُ حبيبٍ: ورأيتُ في بعضِ التَّفاسيرِ: الشَّاهدُ صورةُ النَّبِيِّ ﷺ وُجْهَهُ وَمَخَايِلُهُ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ لَهُ حِسٌّ صَحِيحٌ وَنَظَرٌ إِلَيْهِ عِلْمٌ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ مُتَخَرِّصٍ، وَلَا سَاحِرٍ، وَلَا كَاهِنٍ، وَلَا مَجْنُونٍ^(٣). وَيُؤَيِّدُ هَذَا التَّفْسِيرُ قَوْلُهُ: ﴿مِّنْهُ﴾.

وقال مقاتلٌ: ليس الَّذِي هُوَ عَلَى بَيَانٍ مِنْ رَبِّهِ كَالَّذِي موعِدُهُ النَّارُ^(٤).

فَجَعَلَ جَوَابَهُ فِيمَا بَعْدَهُ، وَالْأَوَّلُ جَوَابُهُ فِيمَا قَبْلَهُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَنِيتٌ﴾ [الزمر: ٩]، قِيلَ: جَوَابُهُ فِيمَا قَبْلَهُ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وَقِيلَ: فِيمَا بَعْدَهُ: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وقوله تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: قِيلَ: هُم أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقيل: هُم أَصْحَابُ مُوسَى أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقوله: ﴿بِهِ﴾: أَي: بِالْقُرْآنِ، وَقِيلَ: أَي: بِمُحَمَّدٍ.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾: فِيهِ الْهَاءُ قَوْلَانِ أَيْضًا كَالْأَوَّلِ.

(١) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣٥٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠١٤).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٦٢)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤ / ٨٦)، والرازي في

«تفسيره» (١٧ / ١٦١) دون نسبة.

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢ / ٢٧٦).

﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾: أي: الفرق والأصناف، وهم اليهود والنصارى والمجوس والمشركون.

﴿فَالْتَأَمُّ مَوْعِدُهُ﴾: أي: إن لم يُسلم.

﴿فَلَا تَكُ فِي مَرْيَمَ مَتْنٌ﴾: أي: شك ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: لا يقصدون التماس الحق، فيكون همُّهم التصديق بما قامت به دلائله.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ البيِّنَةُ لأقوام برهان العلم، ولأقوام بيان الحقيقة على القطع والجزم، يُشهدهم الحق ما لم يُطَّلِع عليه غيرهم، فهو كما قيل:

لَيْلِي مِنْ وَجْهِكَ شَمْسُ الضُّحَى وَإِنَّمَا السُّدْفَةُ فِي الْجَوِّ
وَالنَّاسُ فِي الظُّلْمَةِ مِنْ لَيْلِهِمْ وَنَحْنُ مِنْ وَجْهِكَ فِي الضُّوِّ^(١)

(١٨) - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: أي: لا أظلم على نفسه وعقله ممن كَذَبَ على الله، فنفوا عنه كلامه، وأضافوه إلى غيره.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٢٩)، والبيتان ورد نحوهما في «لطائف الإشارات»

(١/ ٥٦) برواية:

لَيْلِي مِنْ وَجْهِكَ شَمْسُ الضُّحَى وظلامه في الناس ساري
وَالنَّاسُ فِي الظُّلْمَةِ مِنْ لَيْلِهِمْ م ونحن في ضوء النهار

﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: في موقف القيامة ﴿وَيَقُولُ لَا شَهِيدُ﴾؛ أي: الملائكة الذين كتبوا أعمالهم، وقيل: الأنبياء، وقيل: أهل الجمع: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: قالوا: إن له أضدادًا وأندادًا.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾: هذا إخبارٌ من الله تعالى، وتعليمٌ للخلق أن يلعنوهم، وهم المشركون الواضعون العبادة في غير موضعها، والضَّارُّون أنفسهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: تُعْرَضُ أعمالهم على أنفسهم عند ربِّهم، كقوله تعالى: ﴿إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]؛ أي: عند ربِّهم؛ إذ الأمر والنهي كان لأنفسهم، فكان عرضهم لهم^(١).

(١٩) - ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي: يمنعون النَّاسَ عن دين الله وطريق طاعته بالتحريف وإدخال الشَّبه.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: أي: يطلبونها^(٢) - أي: للسَّبيل، وهي مؤنثة سماعًا - تعويجًا؛ أي: يطلبون أن يعدلوا بالنَّاسَ عنها.

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾: أي: جاحدون.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١١١ - ١١٢).

(٢) في (ر) و(ف): «يطلبون بها».

(٢٠) - ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾: هو جواب قوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

﴿لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾: أي: فائتين هرباً؛ أي: لا يتخلَّصون من عذابه ولو ساروا حيث ساروا في الأرض.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾: يتولَّون نصرهم، وردَّ العذاب عنهم في الدنيا والآخرة، بل ﴿يُضْعِفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ أي: يواصل ولا يقطع^(١)، ويزادون عذاباً على عذاب، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وقال الكلبي: يضاعف على الرؤساء ضعف ما على غيرهم من الأتباع^(٢).

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾: أي: كانوا يستثقلون أن يسمعوا القرآن، وأن ينظروا إلى عجائب خلق الله تعالى بالاعتبار.

وفي متعارف الكلام: ما أستطيع أن أسمع كلام فلان، أو أنظر إلى فلان، إذا كان مستثقلاً.

ودلَّت الآية أنَّ الاستطاعة التي هي علَّة الفعل - وهي قدرة الفعل حقيقة - تكون مع الفعل؛ فإنَّ الله تعالى نفى ذلك عنهم حيث انتفى عنهم الفعل، فأما الاستطاعة التي هي سلامة الأسباب والآلات فقد كانت ثابتة لهم، فإنَّهم كانوا ذوي أذانٍ وعيونٍ.

(١) في (ر): «مواصل لا ينقطع».

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٤٤) بلا نسبة.

(٢١) - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: أي: أوردوا أنفسهم الهلاك والعذاب، حذرًا من غير أن اعتاضوا من أنفسهم من أعراض الدنيا بدلًا، بل تعبوا في الدنيا بعبادة الأصنام، ووردوا الآخرة وقد فقدوها^(١) ولم يحصلوا منها ومن عبادتها على نفع، وكانوا مفترين في أنها آلهة وشفعاء وشهداء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: بطل افتراؤهم فلم يجلب ثوابًا^(٢).

(٢٢) - ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾: (لا جرم) كلمة تقولها العرب بمعنى: لا بُدَّ، ولا محالة، وكثرت في الكلام حتى صارت بمعنى: حقًا. وقيل: (لا) نفي، و(جرم)؛ أي: كَسَبَ، يعني: كَسَبَ كفرهم خسرائهم^(٣). وقيل: (جرم)؛ أي: قطع؛ أي: لا قطع لهم عن الخسران. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَا جَرَمَ﴾ نعم^(٤).

(١) في (أ): «فقدروها» بدل من «وقد فقدوها».

(٢) لم أجده عن ابن عباس، وقاله الواحدي في «البيسط» (١١ / ٣٨٤) ولفظه: (بطل افتراؤهم في الدنيا فلم ينفعهم في الآخرة شيئًا).

(٣) هذا قول الزجاج، لكنه يحتاج لتفصيل أكثر، فالمعنى عليه: أن ﴿لَا﴾ ردُّ لقولهم؛ أي: ليس ذلك كما وصفوا ﴿جَرَمَ أَنْ لَّهُمُ النَّارُ﴾ أي: جَرَمَ فعلهم هذا أن لَّهُمُ النار؛ أي: كسب فعلهم أن لهم النار. فتكون ﴿أَنَّ﴾ في موضع نصب، و﴿جَرَمَ﴾ بمعنى كَسَبَ. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢٠٧/٣ و ٢٢٠).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤ / ٢٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠١٩).

وقال الضَّحَّاكُ: لا شكَّ^(١).

وقال النَّضْرُ بن شميل: ذلك^(٢).

وقال مجاهد: حقًّا أي: إنَّهم في الآخرة هم الأعظمون خسرانًا، والأشدُّون عذابًا وهوَّانًا.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أولئك الذين خسرت صفقتهم، وبارت بضاعتهم، لقوا الهوان، وذاقوا البأس والحرمان^(٣).

(٢٣) - ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: ذكر الأولياء بعد ذكر الأعداء. ﴿وَأَخْبَتُوا﴾ اختلفت ألفاظ المفسرين فيه:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: أنابوا إلى ربهم^(٤).

وقال مجاهد: أي: اطمأنوا إلى ذكر ربهم^(٥).

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٤٥) بلا نسبة. وذكر ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٠)

عن الضحَّاك: ﴿لَا جَرَمَ﴾ قال: لا كذب.

(٢) في (أ): «لكن»، وفي (ر): «لك».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٣٠).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٧٤).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٩).

وقال قتادة: أي: خضعوا وخشعوا^(١).

وقال الحسن: الإخبات: الخشوعُ للمخافةِ الثابتة في القلب^(٢).

وقيل: الإخبات: سكونُ الجوارحِ خضوعاً لله تعالى، والخَبْتُ: الأرضُ المستوية الواسعة^(٣).

(٢٤) - ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾: والفريقان هما المذكوران في هذه الآية، وهما المشركون والمؤمنون، فالأعمى والأصم هو المشرك، عمي قلبه فلم ينظر نظر اعتبار، وصم بسمع قلبه فلم يسمع إلى الوعظ للادِّكار، والبصيرُ والسَّميع هو المؤمن، أبصروا الحقَّ بعيون قلوبهم، وسمعوا بأذان القلوب مواعظ ربِّهم.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾: استفهامٌ بمعنى النفي.

وإنَّما ثنى - وإن ذكر أربعة أسماءٍ وهي جمعٌ - لأنَّ الأعمى والأصم من صفة إنسانٍ واحدٍ، وكذا السَّميع والبصير لواحدٍ، فكانا اثنين.

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢ / ١٨٦)، والطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٢٠).

(٢) في (أ): «الإخباتُ والخشوعُ المخافة»، وفي (ر): «الإخباتُ والخشوعُ للمخافة»، وفي (ف): «الإخباتُ والخشوعُ للمخافة»، والمثبت من «تفسير القرطبي» (١١ / ٩٦).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣ / ٤٢٧)، وفيه: واشتقاقه من الخَبْتُ من الأرض، وهي المكان المنخفض منها، فكلُّ مُخْبِتٍ متواضع.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا نَذْكُرُونَ﴾: أي: تتعظون، استفهام بمعنى الأمر؛ أي: اتعظوا.

(٢٥) - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾: وذكر قصص الأنبياء تنبيهاً على ما يلزم^(١) رسول الله ﷺ من الصبر على أذى قومه المشركين، وتحذيراً للمشركين أن ينزل بهم في تكذيب رسول الله ﷺ ما نزل بالأولين في تكذيب المرسلين، وتبشيراً للمؤمنين بالنصر والنجاة والتّمكن.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سُمِّيَ نوحاً لكثرة نياحه على نفسه^(٢).

وذكر^(٣) أنه مرّ بكلبٍ فقال: ما أقبحه! فأوحى الله تعالى إليه: أن اخلق أنت أحسن منه، فأخذ يكي وينوح على نفسه حتّى أوحى الله إليه: يا نوح، كم تنوح^(٤)؟

فإذا كان في طول عمره فعل فعلة واحدة أو قال كلمة واحدة لم يؤذّن له فيها، فناح على نفسه إلى أن سُمِّيَ بالنّياحة، فكيف حال من لا يذكر يوماً مضى من عمره في مدّة تكليفه إلّا على ذنوب كثيرة؟

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي:

(١) في (أ): «تنبيها في تكذيب رسول» بدل: «تنبيها على ما يلزم».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧ / ٤٤).

(٣) في (ر) و(ف): «وذلك».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧ / ٤٤)، والقشيري في «لطائف الإشارات» (٢ / ١٣١)، دون نسبة، والظاهر أنه من أباطيل أهل الكتاب.

﴿أَنِّي لَكُمْ﴾ بالفتح؛ لوقوع فعل الإرسال عليه، وقرأ الباقون بالكسر على الابتداء^(١)، وتقديره: فقلنا له: قل لهم: إني لكم ﴿نَذِيرٌ﴾؛ أي: مخوف لكم، ﴿مُثَبِّتٌ﴾؛ أي: مظهرٌ ذلك.

(٢٦) - ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ قيل: لنَّلا تعبدوا، وقيل: بأن لا تعبدوا، ثم هو يحتمل النهي، ويحتمل النَّصب؛ لوقوع فعل الإرسال أو الإنذار على المصدر.

وقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ الأليم في الظاهر صفةُ العذاب، وإنما خُفِضَ ولم يُنصب للمجاورة.

وقيل: هو صفةُ اليوم، وتقديره: عذاب يومٍ أليمٍ عذابه، كما يُقال: أخشى عذاب يومٍ شديدٍ عذابه، وهو كقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]؛ أي: عاصف الريح.

وهذا اليوم يجوز أن يكون في الدنيا، ويجوز أن يكون في الآخرة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الغرق والطوفان^(٢).

(٢٧) - ﴿فَقَالَ أَلَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ

إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بِأَدَى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾.

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٤).

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٤٦) دون عزو.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾؛ أي: قال أشراف قومه الذين يتكلمون عنّ دونهم: ما نراك إلا إنساناً مثلاً، والذي^(١) تدّعيه من النبوة يوجب فضلاً لك علينا يلزمنا أن نكون أتباعاً لك، وإنما أنت آدمي مثلاً، ولم يتبعك من قومك خيار قومنا وعقلاؤنا فيلزمنا أتباعهم، بل سفلتنا وسقاطنا.

والرّذّل: الحقيّر، وجمعه: الرّذال، وجمع الجمع: الرّاذل.

﴿بَادِىَ الرَّأْيِ﴾: قرأ أبو عمرو: ﴿بادئ﴾ مهموزاً، ومعناه: أوّل الرّأي؛ أي: اتّبعوك بأوّل رأيهم من غير أن يستشيروا أو يتأمّلوا^(٢).

وقرأ غيره: ﴿بَادِىَ الرَّأْيِ﴾ بغير همزة^(٣)؛ أي: ظاهر الرّأي؛ أي: بما بدا لهم من غير تأمّل.

وقيل: ﴿هُم أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ﴾؛ أي: بأوّل الرؤية وبظاهر الرّأي يعرفهم أنّهم أراذل، وما نرى لك يا نوح ولا لمن اتّبعك علينا فضلاً نلتّموه لمخالفتنا في ديننا فتتبعكم طلباً لذلك الفضل، بل نظنّكم كاذبين في دعوى الرّسالة.

والأظهر أن الرّاذل جمع الرّاذل^(٤)، فقد قال تعالى في سورة الشعراء خبراً عنهم: ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

(١) قوله «الذي» معطوف على الكاف في «نراك»؛ أي: (وما نرى الذي...) .

(٢) في (ف): «يعتبروا» .

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٤) .

(٤) في (ف): «الرّاذل جمع الرّاذل» بدل من «الرّاذل جمع الرّاذل» .

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وهكذا كان الكفار يردُّون على الرُّسل بهذا: أنتم بشرٌ مثلنا، وجوابُ ذلك ما قال خبراً عنهم: ﴿إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، وجواب قولهم: ﴿وَمَا نَزَّلَكَ اتِّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنَّا كَذِبٌ﴾: أنَّ هؤلاء لَمَّا لم يتبعوا الرُّسَاء الذين هم أرباب الأموال والنِّعم، واتَّبَعوا الرُّسل الذين لم يروا في أيديهم ذلك، دلَّ أنَّهم إنما اتَّبَعُوهم بالحُجَج والبراهين^(١).

وقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقُذِّرُكُمْ كَذِبِينَ﴾ دلَّ أنَّهم كانوا يردُّون الدَّلالات الباهرة بالظُّنون الكاذبة.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أنكروا نبوتَه لمشاكلتِه إيَّاهم في الصُّورة، ولم يعلموا أنَّ المِبانِيَّة بالسَّريَّة والسَّيرة لا بالصُّورة.

ونظروا إلى مَنْ آمَنَ به بعين الاستحقار، وشاهدوهم بالاستصغار، وما استصغَرَ أحدٌ أحدًا بروية الفضل عليه إِلَّا سَلَطَهُ اللهُ عليه، والمرءُ بأصغَرِه، وبالمعاني الامتياز لا بالمباني، قال الشَّاعرُ:

تَرى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ وفي أَثَوَابِهِ رَجُلٌ يَزِيرُ^(٢)
فإنَّ أَكْ في شَرَارِكُمْ قَلِيلاً فإنِّي في خِيَارِكُمْ كَثِيرُ^(٣)

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٢١).

(٢) في (ف): «مزير».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٣٢)، ونسب البيت الأول للعباس بن مرداس السلمي

رضي الله عنه. انظر: «الحماسة - شرح المرزوقي» (٣/ ١١٥٣)، ونسب لكثير عزة، انظر: «أُمالي

القالبي» (١/ ٤٧)، و«زهر الآداب» للقيرواني (٢/ ٤١٠)، ونقل التبريزي في «شرح الحماسة» =

(٢٨) - ﴿قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَانْتَنِ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْتُكُمْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَانْتَنِ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْتُكُمْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ﴾: أي: قال نوح: يا قوم أخبروني إن كنت على بيانٍ وحجةٍ ووضوحٍ من ديني، وكان الله آتاني رحمةً من عنده، بأن جعلني رسولاً إليكم، ووعدني النصر عليكم، واشتبهت عليكم تلك الرحمة، وخفيت حتى صرتم كالعمى عنها، أيتها لي أن ألزمكم إياها؛ أي: أفهركم وأكرهكم على فهمها ورؤيتها بأبصار قلوبكم، وأنتم لها كارهون؟!!

ويحتمل أن يكون المراد من الرحمة: ما أنعم الله عليه من الهدى، يقول: إن كان الله تعالى هداني فأردت أن أشرككم فيها، وخفي عليكم هذا فظننتم بي غير الحق، أيتها لي أن ألزمكم هذه النعمة، فأوصلها إليكم على كره منكم؟!!

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿عَلَى يَمْنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾؛ أي: على دين.

وقال الضحاك: أي: على بصيرة.

وقال عطاء: على أمرٍ ظاهرٍ مكشوفٍ^(١).

= (٣ / ٨٩) عن أبي رياش عزوه لمعاوية بن مالك الكلابي معود الحكماء.

وفي «سمط اللآلي» لأبي عبيدة البكري (١ / ١٩٠) ذكر الخلاف في نسبة البيت إلى من ذكرنا، وزاد

نسبته إلى ربيعة الرقي، وصح أنه لمعاوية بن مالك.

والبيت الثاني ذكرته بعض المصادر السابقة، وأهملته أخرى.

(١) لم أقف على هذه الأخبار، والأول ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٤ / ٩٧)،

والسمرقندي في «تفسيره» (٢ / ١٤٦) بلا نسبة.

وقال مقاتل: على معرفة^(١).

﴿وَأَنْتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: الرسالة والعاقبة^(٢).

وقال مقاتل: هدى^(٣).

وقوله تعالى ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بضم العين وتشديد الميم؛ أي: عمّاها الله تعالى عليكم؛ أي: أخفاها، والباقون بتخفيف الميم وفتح العين^(٤)؛ أي: خفيت، يقال: عمي عليّ خبر فلان؛ أي: التبس.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْتَوٍ مِنْ رَبِّي﴾ الصُّبْحُ لا خَلَلَ فِي ضِيَائِهِ لَكُنِ الْحَاضِرِينَ عُمَيَّانَا، فَالسَّيْفُ لا خَلَلَ فِي إِمْضَائِهِ لَكُنِ ضَارِبَهُ صَبِيحَانَا^(٥).

(٢٩) - ﴿وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُؤَارِبِهِمْ وَلَكِنِّي أَرْدُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُؤَارِبِهِمْ وَلَكِنِّي أَرْدُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾: أي: لا أطلب منكم على

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٧٩)، وفيه: ﴿يَنْتَوٍ مِنْ رَبِّي﴾ يعني: بيان.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٢/ ٤٦٦)، والواحد في «السيط» (١١/ ٣٩٨)، بلفظ: (النبوة).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٧٩).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٤).

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٣٢).

تبليغ الرِّسالة مالا، فلا تهمة عليَّ فيما أدعوكم إليه، ولا صورتِي صورةً من يطمعُ في أموالكم، والرِّياسة في أمور الدنيا عليكم، فتظنُّوا بي الكذب، وما أجري إلَّا من الله بوعده الله، فلله أعملُ، ومنه أرجو، وما أنا بطارد الذين آمنوا بي وأتبعوني - والطَّردُ: الإبعادُ على وجه الهوان - إنِّي إذا كنتُ لا أسألكم شيئاً من أموالكم، فأراذلكم وأفاضلكم عندي سواء؛ لأنِّي داعٍ للجميع، فمن أجباني قبلته .

وقولهم: أتبعوك بادي الرأى، فعليَّ العمل بظاهر ما أرى، فأكتفي بظاهر إيمانهم، وأكل باطنهم إلى الله، فإنَّهم ملاقوه، وصاترون إليه، فيسألهم عن أعمالهم، ويجزيهم على وفق صنيعهم، ويطردهم عن رحمته إن استحقوه بمخالفة باطنهم ظاهرهم.

وقيل: سألوهم طردهم ليؤمنوا به؛ أنفةً من أن يكونوا معهم. وهذا عن ابن جريج^(١).

ثم قال: ﴿وَلَيْكُمُ أَرْكَامٌ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾: فتظنُّون أنَّ الناس يتفاضلون بالأحساب والأنساب، لا بالأعمال والأحوال.

وقيل: تجهلون أنَّهم خير منكم.

(٣٠) - ﴿وَيَقَوْمٌ مِّنْ يَّضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَفْتُمْ فَلَا تَذْكُرُونَ﴾.

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣٨٥)، وذكره الواحدي في «تفسيره» (١١ / ٤٠٣).

وقوله تعالى : ﴿ وَيَقَوْمٍ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ طَرَدْتَهُمْ أَفْلَاحًا لَّذَكَرُونَ ﴾ ؛ أي : مَنْ يَمْنَعُنِي مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴿ إِنَّ طَرَدْتَهُمْ أَفْلَاحًا لَّذَكَرُونَ ﴾ ؛ أي : فَتُخْطَرُونَ ^(١) بِيَا لَكُمْ فَتَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِي طَرْدُهُمْ وَالْحَالُ هَذَا .

وقال الإمام القشيري رحمه الله : طَرَدُ مَنْ قَرَّبَهُ اللَّهُ وَأَدْنَاهُ يَوْجِبُ لِصَاحِبِهِ الْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا، وَالصَّغَارَ فِي عُقْبَاهُ ^(٢) .

(٣١) - ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ؛ أي : وَلَا ادَّعِي أَنَّ عِنْدِي خَزَائِنَ الْأَمْوَالِ فَأَبْذَلَهَا لَكُمْ لِتَتَّبِعُونِي، وَأَسْتَمِيلَكُمْ بِهَا لِتَطِيعُونِي .

وقيل : ما عندي خزانة الهداية لأهديكم أنا إلى الحقِّ دون الأراذل، ولا أعلم الغيب فأخبركم بما تسألونني عن الأمور الكائنة من بعدُ مِنَ النِّعَمِ والمَحَنِ لتطلبوها وتَحَرَّزُوا عَنِ الْمَخَافِ، وَلَا أَقُولُ : إِنِّي مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ أَخْبِرْكُمْ بِأَخْبَارِ السَّمَاءِ، وَلَا أَقُولُ لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ تَحْتَقِرُهُمْ أَعْيُنُكُمْ - وَقَدْ زَرَيْتُ عَلَيْهِ زُرَايَةً ؛ أي : عِبْتُهُ، وَأَزْرَيْتُ عَلَيْهِ ؛ أي : قَصَرْتُ بِهِ، وَازْدَرَيْتُهُ ؛ أي : احْتَقَرْتُهُ - ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ﴾ ؛ أي : إِيْمَانًا ﴿ اللَّهُ

(١) فِي (أ) : «فَتُخْطَرُونَ» .

(٢) انظر : «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ١٣٣) .

أَعْلَمُ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الصِّدْقِ وَغَيْرِهِ، وَعَلَيْهِ أَحَدُ تَأْوِيلَاتِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾؛ أَي: مَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَوْ طَرَدْتَهُمْ فَأَنَا إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ أَنْفُسَهُمْ بِطَرْدِ مَنْ أُمِرْتُ بِقَبُولِهِ.

(٣٢) - ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَنَّا يَمَّا تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾؛ أَي: خَاصَمْتَنَا فَبَاغَتْ فِيهَا - وَقَدْ جَادَلَهُ يَجَادِلُهُ؛ أَي: خَاصَمَهُ لِيُرْجِعَهُ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ، وَأَصْلُهُ الْجَدْلُ، وَهُوَ الْقِتْلُ^(١) - وَلَيْسَ ذَلِكَ مِمَّا يُثَبِّتُ عِنْدَنَا صِدْقَكَ فِي دَعْوَى رَسُولِكَ فَيُخَافُ إِنْ ذَارَكَ. ﴿فَأَنَّا يَمَّا تَعَدُّنَا﴾: مِنَ الْعَذَابِ عَلَى مَخَالَفَتِنَا إِيَّاكَ ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ أَي: صَادِقًا فِي ذَلِكَ.

(٣٣) - ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾: (إِنَّمَا) كَلِمَةُ تَحْقِيقٍ، وَمِنْ تَحْقِيقِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ دُونَ غَيْرِهِ؛ أَي: لَيْسَ الْإِتْيَانُ بِالْعَذَابِ إِلَيَّ، وَإِنَّمَا يَأْتِي اللَّهُ بِهِ إِنْ شَاءَ، وَإِنْ شَاءَ صَرَفَهُ عَنْكُمْ، وَمَا أَنْتُمْ بِفَاعِلِينَ^(٢) عَنْهُ إِنْ تَأَخَّرَ عَنْكُمْ حَتَّى يُلْحَقَكُمْ، بَلْ يُلْحَقُكُمْ مَتَى شَاءَ.

(١) تحرفت في النسخ إلى: «القتل»، والصواب المثبت. انظر: «القاموس» (مادة: جدل).

(٢) في (أ): «بغائين».

(٣٤) - ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: النصح نقيض الغش، وهو إحاض إرادة الخير في الدلالة.

وقيل: هو إعلام موضع الغي لِيَتَّقَى، والرشد لِيُقْتَفَى^(١).

يقول: نصحتكم، ولكن لا ينفعكم نصحي إذا لم تقبلوه وأراد الله إغواءكم، هو الله ربكم؛ أي: مدبركم ومقيمكم في الدنيا إلى وقت إهلاككم، ثم إليه ترجعون فيحاسبكم ويجازيكم.

(٣٥) - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْنَاهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْحَرُمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْنَاهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْحَرُمُونَ﴾: قال مقاتل: هذا كلام اعترض في قصة نوح سلام الله عليه، والمعنى: أم يقول أهل مكة: افترى محمد القرآن؛ أي: اختلقه من تلقاء نفسه، قل يا محمد: إن اختلقته فعليّ جزاء جرمي، وأنا بريء مما تجرمون أنتم. ثم رجع إلى قصة نوح عليه السلام^(٢).

وقيل: تقديره وتلفيقه: أفئؤ من أهل مكة بما أخبرتهم يا محمد من قصة

(١) في (ر): «ليتبع»، وسقطت من (ف).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٨١).

نوحٍ تقريراً لحالك، أم يقولون: اختلقه؟ فإن قالوا ذلك فقل: إن افتريته فعليَّ عقابُ ذنبي، وأنتم بريئون من جُرْمي لا تُؤاخذون به، وأنا أيضاً بريء من جُرْمكم لا أؤاخذ به.

وقال الإمام أبو منصور رحمة الله عليه: قال بعضهم: هو قول قومٍ نوحٍ: إن نوحاً افتري على الله أنه أرسله إليهم، فأجابهم بما أجاب^(١). فعلى هذا القصة منتظمة.

(٣٦) - ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا نَبْتَئِسُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا نَبْتَئِسُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: أوحينا إليه فقلنا له: لن يصدقك بعد هذا منهم إلا من قد آمن^(٢)، فلا تحزن ولا تبأس، هو حزنٌ في استكانة، وهو افتعال من البؤس؛ أي: فلا تتصور بصورة من أصابه البؤس بما فعلوا، ولما أخبر بذلك وأيس من إيمانهم دعا عليهم فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: دلَّت الآيةُ أنَّ للإيمانِ حكمَ التَّجَدُّدِ؛ فإنَّ قوله: ﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ استثناءٌ ممَّن لا يؤمن في المستقبل، فكان إثباتاً لإيمانهم في حادث الوقت.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يحتمل الكفر؛ لأنَّ الأنبياء كانوا يحزنون

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٢٧).

(٢) في (أ): «أسلم».

بكفر المشركين؛ قال الله تعالى لنبينا عليه السلام: ﴿لَعَلَّكَ بَنِعُ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

ويحتمل أنهم كانوا همُّوا بقتله والمكر به، فقال: لا تحزن بما كانوا يسعون في هلاكك؛ فإنني أكفيهم^(١).

(٣٧) - ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: أي: بحفظنا إياك حفظ من يراك ويملك دفع السوء عنك.

وقيل: بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بك. ﴿وَوَحِّينَا﴾؛ أي: أمرنا وتعريفنا صفتها وقدرها وهيئاتها. ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: في الكافرين بسؤال النجاة، وقيل: بسؤال الإيمان، وقيل: في سؤال بعض أهلِكَ من جملتهم.

﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾: أي: كلُّهم حقَّ القول عليهم بأنهم لا يؤمنون، وبإغراقنا يُغرقون، وهو تعريف للمشركين في عهد النبي ﷺ المستعجلين العذاب أن الله تعالى لا يعذبهم عذاب الاستئصال إلا إذا كان في معلوم الله أنهم لا يؤمنون، ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أي: قم بشرط العبودية في صنع السفينة بأمرنا

(١) في (ر): «مكافئكم»، وفي (ف): «كافهم».

وتحقّق شهودنا، وأنّك بمرأى منّا، ومن عليم اطلاع الحقّ عليه لم يلاحظ نفسه ولا غيره، ولا سيّما وقد تحقّق بأن المجري هو الله سبحانه وتعالى.

ثمّ قال له: راع حقّ الأدب فيما لم يكن لك إذن منّا في الشّفاعَة لأحد، فلا تخاطبنا فيه^(١).

(٣٨) - ﴿وَصَنَعَ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَصَنَعَ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾: أي: وكان يصنع السفينة؛ أي: يعملها، وكلّما مرّ عليه أشراف قومه ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾؛ أي: من نوح. وقيل: من صنعه^(٢).

وقيل: كانوا يقولون: صرّت نجاراً بعد النبوّة، على طريق الاستهزاء.

وقيل: السّخرية: إظهار خلاف الإبطان على جهة يفهم منها استضعاف^(٣) عقل من يُسخر منه^(٤)، ومنه^(٥) التّسخير، وهو التّذليل والاستضعاف.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢/ ١٣٥).

(٢) في (ر): «صنعه».

(٣) في (ر): «استصغار».

(٤) في (أ): «به».

(٥) في (ف): «وهو من».

وقيل: لَمَّا كانت هائلةً طويلةً عريضةً واسعةً، ولا ماء هناك يحمل مثلها، كانوا يتضاحكون ويتعجبون من عملها، فقال نوحٌ: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾.

قال الزَّجَّاج: أي: إِنْ تستجهلونا فَإِنَّا نستجهلكم^(١).

وقيل: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ في الدُّنْيَا ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ في الآخرة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إذا نزل بكم العذاب.

وقيل: فَإِنَّا نُظْهِرُ^(٢) عاقبة هذا العمل بما تعملون إذا نزل بكم العذاب.

وقيل: إِنَّا كُنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ إِذْ نَكْتُمُكُمْ حَقِيقَةَ عَمَلِنَا، ولا نَكْشِفُ لَكُمْ عَمَّا يُرَادُ بكم منه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أَعَدَّ^(٣) نوحٌ عليه السَّلام السَّفينة في سَتَيْنِ، وكانت مِنَ السَّاج، فجعل لها ثلاثة أبواب، بعضها أسفل من بعض، وجعل لها ثلاثة بطون، فجعل في البطن الأسفل الوحوش والسَّباع، وجعل في البطن الأوسط الأنعام والدَّواب، وركب هو وَمَنْ معه البطن الأعلى مع ما يحتاجُ إليه مِنَ الزَّاد^(٤).

وقال مقاتلٌ: وحمل معه جسدَ آدمَ، وجعله معترضاً بينَ الرِّجال والنِّساء^(٥).

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٥٠).

(٢) في (أ): «نظهر منكم».

(٣) في (ر) و(ف): «اتخذ».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٦٦)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٧٤).

(٥) قطعة من خبر رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٤٢)، ومن طريقه الطبري في

«تاريخه» (١/ ١١٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٤٦)، من طريق الكلبي عن أبي

صالح عن ابن عباس.

وفي تفسير مالك بن سليمان الهروي: أَنَّ الحَيَّةَ والعقرب أَتَيَا نوحًا عليه السلام، فَقَالَتَا: احمَلْنَا، فَقَالَ نوحٌ صلوات الله عليه: إِنَّكُمَا سَبَبُ الضَّرِّ والبَلَاءِ^(١)، فَأَنَا لَا أَحمَلُكُمَا، قَالَتَا: احمَلْنَا فَإِنَّا نضمِّنُ لَكَ أَنَّا لَا نضرُّ أَحَدًا ذَكَرَكَ، فَمَنْ قرَأَ حينَ خَافَ مضرَّتَهُمَا: ﴿سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿[الصافات: ٧٩] مَا ضَرَّتَاهُ^(٢)﴾.

(٣٩) - ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾: يتَّصلُ هذا بقوله:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ﴾، ولقوله: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ﴾ وجهان:

الرَّفْعُ إذا جعل معناه: فسوف تعلمون أيُّنا يَأْتِيهِ عَذَابٌ يَخْزِيهِ.

والنَّصْبُ إذا جعل تقديره: فسوف تعلمون الذي يَأْتِيهِ عَذَابٌ يَخْزِيهِ؛ أي:

يفضحه، وهو الغرْقُ، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾؛ أي: يجب عليه عَذَابٌ دائم؛ أي:

عَذَابُ الآخِرَةِ، وهو قوله تعالى: ﴿أَغْرِقُوا فَاذْخُلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

(٤٠) - ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ

إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

(١) في (ر): «الضر في البلاد».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٧٠).

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: أي: فعمل السفينة وفرغ ومضى زمان، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾؛ أي: حضر وقت مجيء أمرنا بإهلاكهم ﴿وَفَارَ﴾؛ أي: ارتفع الماء من الأرض لشدة الاندفاع^(١) ﴿التَّنُّورُ﴾.

قال الحسن: كان تنورًا لحوَّاء، حتَّى صار إلى نوح، فقليل له: إذا رأيت الماء يَفُورُ مِنَ التَّنُّورِ فاركب أنت وأصحابك السفينة^(٢).

وقال مقاتل ومجاهد: تنور الخابزة في منزل نوح^(٣).

وقال الشعبي: اتَّخَذَ نُوحٌ السَّفِينَةَ فِي جَوْفِ مَسْجِدٍ بِالْكُوفَةِ، وَكَانَ التَّنُّورُ عَلَى يَمِينِ الدَّاخل فِيهِ، مِمَّا يَلِي بَابَ كِنْدَةَ^(٤).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: التَّنُّورُ وَجْهُ الْأَرْضِ^(٥).

وبه قال الزُّهْرِيُّ وسفيان بن عيينة^(٦).

(١) في (ر): «شدة ارتفاع»، وفي (ف): «شدة اندفاع»، وفي (أ): «بشدة اندفاع»، والمثبت من «تفسير ابن كمال باشا» عند هذه الآية.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٠٤).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢ / ٢٨٢)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٠٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٢٨) عن مجاهد.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٦٨)، وروى بعضه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٠٥)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٢٨) عن محمد بن علي، وقال: وروي عن حذيفة والشعبي ومجاهد نحو ذلك.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٢٩).

(٦) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٦٨)، والواحد في «السيط» (١١ / ٤١٤).

وقال قتادة: التَّنُورُ أشرفُ موضعٍ في الأرض^(١).

وقال الضَّحَّاكُ: ﴿وَفَارَ التَّنُورُ﴾؛ أي: انبجسَ من وجه الأرض^(٢).

وقال عليُّ رضي الله عنه: ﴿وَفَارَ التَّنُورُ﴾؛ أي: طلع الفجر^(٣).

وقال عطاء: ﴿وَفَارَ التَّنُورُ﴾؛ أي: طلعت الشمس^(٤).

وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾: في رواية حفصٍ عن عاصم: ﴿مِنْ كُلِّ﴾ بالتَّوِينِ؛ أي: من كلِّ صنفٍ من البهائم والسباع ودوابِّ البر والبحر والهوامِّ والطُيور ﴿زَوْجَيْنِ﴾ وهو مفعولٌ ﴿اثْنَيْنِ﴾ وهو تأكيد له. وقرأ الباقون: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ على الإضافة^(٥)؛ أي: مِنْ كُلِّ صنفٍ له ذكر وأنثى، والزَّوج واحدٌ له شَكْلٌ، والزَّوْجَانِ ذكرٌ وأنثى.

وقال الحسن في قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]: السَّمَاءُ زَوْجٌ والأَرْضُ زَوْجٌ، والشتاءُ زَوْجٌ والصَّيفُ زَوْجٌ، اللَّيْلُ زَوْجٌ والنَّهَارُ زَوْجٌ، حتَّى يصير الأمرُ إلى الله الفردِ الَّذي لا يشبههُ شيءٌ^(٦).

وكان الله أراد أن يكون عنده في السَّفِينَةِ أصلٌ لكلِّ حيوانٍ لتتناسلَ إذا زال الطُّوفانُ، لأنَّ الباقي كان يهلك بالغرق.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٢٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٠١).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٠٢ - ٤٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٢٨).

(٤) رواه سعيد بن منصور في «تفسيره» (١٠٨٨) عن علي رضي الله عنه.

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٣)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٤).

(٦) ذكره الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٠٩)، وروى عنه (٢١ / ٥٤٧) قال: الشمس والقمر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطفٌ على الأوَّل، يعني: واحملْ أهلك، وهم أولادُه ونساؤُه.

﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ﴾؛ أي: الوعيد.

وقيل: أي: الحكمُ بالهلاك، وهذا المستثنى ابنُه كنعان وامرأته.

﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾؛ أي: واحملْ مَنْ آمَنَ، عطفٌ على الأوَّل، وهو للجمع؛ أي: والَّذين آمنوا.

﴿وَمَاءَ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: قال الأعمش: هم سبعة^(١). وقال ابن جريح: ثمانية^(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثمانون نفساً^(٣).

ولما خرجوا من السفينة بالجودي سكنوا قرية وهناك موضعٌ يُقال له: سوق الثَّمانين^(٤).

وقيل: كانوا عشرة، وهم نوحٌ وبنوه الثلاثة ونساؤهم ونفَرٌ آمنوا به.

وقال الكلبيُّ: كان في السَّفينة ثمانون نفساً^(٥)؛ نوحٌ وامرأته سوى الَّتِي غرَقَتْ، وثلاثة بنين له: سامٌ وحامٌ ويافثٌ، وثلاث نسوة لهم، واثنان وسبعون إنساناً سواهم.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤١١).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٦٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤١٢).

(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١ / ٤٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢ / ٢٤٦) عن

ابن عباس رضي الله عنهما من طريق الكلبي.

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤ / ٢٤٥).

وروى أبو أمامة عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَمْ يَكُنْ فِي السَّفِينَةِ مَعَ نُوحٍ غَيْرُ ثَمَانِيَةِ نُوحٍ وَأَمْرَأَتِهِ وَبَنُوهُ وَكَنَائِهِمْ»^(١).

وقال سعيد بن المسيَّب: وَلِدُ نُوحٍ ثَلَاثَةٌ؛ سَامٌ وَحَامٌ وَيَافِثٌ، وَوُلِدَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ، فَوُلِدَ سَامَ الْعَرَبُ وَفَارِسُ وَالرُّومُ، وَوُلِدَ يَافِثَ يَأْجُوجَ وَمَآجُوجَ وَالتُّرْكَ وَالصَّقَالِبَ، وَوُلِدَ حَامَ السُّودَانَ وَالْقُبُطَ^(٢) وَالْبَرْبَرِ^(٣).

(٤١) - ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَمَعَ اللَّهُ مَجْرَدَهَا وَامْرَأَتَهَا إِنِّي سَعَفُورٌ رَجِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَمَعَ اللَّهُ مَجْرَدَهَا وَامْرَأَتَهَا﴾؛ أي: وقال نوح: اركبوا في السفينة، وهو الأظهر.

ويحتمل: وقال الله تعالى: اركبوا فيها وقولوا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ جَمَعَ اللَّهُ مَجْرَدَهَا وَامْرَأَتَهَا﴾.

ويحتمل ألا يكون هذا على معنى التَّكْلُمِ به، ولكن على معنى مَا يُقَالُ لِلرَّجُلِ: سِرَّ عَلَى اسْمِ اللَّهِ، وافعل كذا بسم الله، دعاء له؛ أي: افعله مباركاً لك فيه.

وقوله تعالى: ﴿جَمَعَ اللَّهُ مَجْرَدَهَا وَامْرَأَتَهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿جَمَعَ اللَّهُ مَجْرَدَهَا﴾ بفتح الميم ومعناه: جريانها.

(١) قال الزيلعي في «تخريج الأحاديث والآثار» (٢/ ١٤٦): (غريب، ورواه الطبري في «تفسيره» موقوفاً على قتادة). وكذا قال ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف» (ص: ٨٦) وقال: (لم أره مرفوعاً). وهو من قول قتادة في «تفسير الطبري» (١٢/ ٤١٠).

(٢) في (أ): «والنبط».

(٣) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٥١) عن سعيد عن قتادة.

وقرأ الباقون بضم الميم^(١)، ومعناه: إجراؤها.

وقيل: ﴿مَجْرِبَهَا﴾: موضع جريانها، ووقت جريانها، وبالضَمِّ: موضعُ إجرائها ووقتُ إجرائها.

وفي إعرابه وجهان: الرَّفْعُ لِأَنَّهُ خبر الباء^(٢)، والنَّصْبُ بنزع الخافض: عند مجربها^(٣)، أو: في مجربها^(٤).

﴿وَمُرْسَهَا﴾ بالضم بالإجماع، وهو من الإرساء، وهو الثبات، وله ثلاثة معانٍ أيضًا: الإثبات، وموضع الإثبات، ووقت الإثبات.

وإعرابه أيضًا النَّصْبُ والرفْعُ على ما مرَّ، فالرَّفْعُ على الإخبار، والنَّصْبُ على التبرُّك^(٥) والتَّكَلُّمُ بالتَّسْمِيَةِ.

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٣)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٤).

(٢) كذا قال، والمعروف في مثله العكس، أي: الجار والمجرور هو الخبر، والاسم الظاهر المتأخر مبتدأ، ويجوز أيضًا الرفع على أنهما فاعلان لـ ﴿يَسْرَأُ اللَّهُ﴾ كونه حالاً. انظر: «الكشاف» (٢/ ٣٩٤-٣٩٥)، و«البحر المحيط» (١٢/ ٢٥٩)، و«روح المعاني» (١١/ ٤٥٥).

(٣) وليس المراد بنزع الخافض هنا ما هو معروف من كونه حرف الجر، بل المراد به حذف المضاف الذي هو كلمة: عند، وقد ذكر غيره من الأئمة هنا في الحذف كلمة: وقت، وتفصيل المسألة: أن ﴿مَجْرِبَهَا وَمُرْسَهَا﴾ إذا اعتبرا مصدرين ميمين بمعنى الإجراء والإرساء، فيقدر مضاف محذوف هو كلمة (عند) أو (وقت)؛ كما في قولك: أتيتك خفوقَ النجم، و: جئتكَ مقدّمَ الحاج، فإن التقدير: وقت خفوقه، ووقت قدوم الحاج، إلا أنه لما حذف المضاف سد المضاف إليه مسده وانتصب انتصابه، وهو كثير في المصادر، ويكون انتصابهما بما في ﴿يَسْرَأُ اللَّهُ﴾ من معنى الفعل، والتقدير: متبركين بسم الله وقت الإجراء والإرساء، أو عندهما. وفي إعرابهما وجوه أخرى، انظر المصادر السابقة.

(٤) أي: أنهما منصوبان على الظرفية الزمانية أو المكانية، وهي التي تكون بتقدير حرف الجر (في). انظر المصادر السابقة.

(٥) في (ر) و(ف): «الترك».

وقال الضحَّاك: كان نوحٌ صلوات الله عليه إذا أراد أن تجري قال: بسم الله، فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله، فرست، والإرساء: إمساك السفينة بما تقفُ به^(١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل أنها بسم الله تجري وبه تقف، وأنها ليست كسائر السفن التي بأهلها تجري وبهم تقف، وهم الذين يتولون إجرائها ووقفها، وسفينه نوح عليه السلام كان جريها بالله وبه رؤسوها، لا صنع لهم في ذلك، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]، وما كان في تصرف^(٢) الناس لم يجر في مثل هذه الحال سالمة^(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِن رَّيِ لَنَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: أي: غفورٌ لنا رحيمٌ بنا، يسترُّ علينا الزلات، ويرحمنا بالنَّجاة.

وقال الكلبي: ركب فيها نوح عليه السلام لعشر مَضِينٍ من رجب، وخرجوا منها يوم عاشوراء^(٤).

(٤٢) - ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٣٣).

(٢) في (ف): «تصريف».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ١٣٣).

(٤) روى نحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٤٠) عن قتادة، وورد نحوه في حديث مرفوع رواه

الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤١٩) عن عبد الغفور بن عبد العزيز عن أبيه. قال الشيخ أحمد شاكر:

خبر هالك من نواحيه جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿وَهُیَ تَجْرِیْ بِهِمْ فِی مَوْجٍ کَالْجِبَالِ﴾: أي: ركبوا في السفينة فجرت بهم في أمواج عظيمة هائلة تشبه الجبال؛ أي: كانت الأمواج ترفع السفينة، وكانت السفينة كال موج العظيم الذي يشبه الجبال.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِی مَعْزِلٍ﴾: أي: كان معزلاً عنه: ﴿يَبْنِیْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِیْنَ﴾ ولم يقل: من الكافرين؛ لأن حالته كانت ملتبسةً عليه؛ لأنه كان ينافقه.

وقيل: علم كفره، ولكن معنى ندائه: يا بُنَيَّ أَسْلِمْ ولا تكن ثابتاً على الكفر مع الكفار، واركب معنا تسلم.

(٤٣) - ﴿قَالَ سَآوِیْ إِلَى جَبَلٍ یَّعِصُنِیْ مِنَ الْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْیَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مِنْ رَحْمَةٍ وَحَالٍ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِیْنَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَآوِیْ إِلَى جَبَلٍ یَّعِصُنِیْ مِنَ الْمَآءِ﴾: أي: قال ابنه كنعان: سألتجئ إلى جبل يمنعني من الماء ويمسكني.

﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْیَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: أي: لا مانع اليوم من عذاب الله الذي نزل بأمره ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾؛ أي: إلا الله الذي قد رحمنا بما آمنا من الغرق.

وقيل: ﴿لَا عَاصِمَ الْیَوْمَ﴾؛ أي: لا معصوم؛ كما في قوله تعالى: ﴿فِی عِشَّةٍ رَاضِیَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]؛ أي: مرضية، وقوله تعالى: ﴿مِنْ مَلْؤَدِفِیْ﴾ [الطارق: ٦]؛ أي: مدفوق، وقال الشاعر:

بطيء القيام رخيماً الكلا م أضحى فؤادي به فاتنا^(١)
أي: مفتوناً.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَجَعْ﴾؛ أي: إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مَنْ أَسْلَمَ، فَأَسْلِمَ تَسْلَمَ، وكان هذا حين فار التَّنُورَ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ^(٢) الغرقى بحالٍ يعاينون أسباب الآخرة، فيكون إيمانهم إيماناً يأسٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾: قيل: أي: حال بين كنعان وبين الالتجاء بالجبل الموجُ.
وقيل: حال بين نوح وبين ابنه الموجُ.

﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمة الله عليه: أي: صار من المغرقين، أو كان في علم الله تعالى أنه يغرق، لا أنه كان من المغرقين قبل ذلك، وعلى هذين الوجهين قوله في إبليس: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]^(٣).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أخطأ المسكين من وجهين:
أحدهما: أنه رأى الهلاك من الماء، وكان من الله تعالى.
ورأى النجاة والعصمة من الجبل، وهي من الله جلّ جلاله.

(١) انظر: «الصحيح» (مادة: فتن)، و«تفسير الثعلبي» (١٧١ / ٥).

(٢) في (أ) و(ر): «قبل أن يصير الطوفان بحال يصير».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١٣٤ / ٦).

قال: ويقال: احتمل أن لو قيل له: يا نوح؛ غرقنا العالم بدعائك، فلا عليك إن غرقنا ولدًا لك في جملتهم^(١).

وذكر الشيخ الإمام أبو بكر الفارسي^(٢) في «تفسيره» قال: روي عن عكرمة أنه قال: لما قال نوح لابنه كنعان: اركب معنا؛ قال: سأوي إلى جبل أتخذ فيه^(٣) قبة من صُفْر، وحملَ فيها الطَّعام والشراب، وردمَ بابها، فلمَّا علا الماء فوقها؛ ألقى الله تعالى عليه البول، فجعل يبول ولا ينقطع حتَّى امتلأتِ القبة، فغرق الله تعالى الكفار بالماء وغرقه ببوله^(٤).

(٤٤) - ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾؛ أي: نشفي ماءك الذي يخرج منك ﴿وَنَسَمَاءَ أَقْلِي﴾؛ أي: احبسي ماءك، ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾؛ أي: نقص ونشفته الأرض، وصار ما نزل من السماء هذه البحور، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾: هلك من هلك ونجا من نجا، واستقرت

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢/ ١٣٨).

(٢) أحمد بن محمد بن أيوب أبو بكر الفارسي الواعظ المفسر، نزيل نيسابور، كان يحضر مجلسه نحو عشرة آلاف، أخذ عنه أبو عبد الله الحاكم، توفي سنة (٣٦٤هـ). انظر: «طبقات المفسرين» للسيوطي (ص: ٣١).

(٣) «فيه» ليس في (أ) و(ف).

(٤) ذكر نحوه القسيري في «لطائف الإشارات» (٢/ ١٣٩) دون نسبة.

السَّفِينَةُ بَعْدَمَا طَافَتِ الْأَرْضَ كُلَّهَا فِي سِتَّةِ أَشْهُرٍ^(١) ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ وهو^(٢) جَبَلٌ بِأَرْضِ الْمَوْصِلِ، ﴿وَقِيلَ بَعْدًا﴾؛ أَي: سُبْحًا، ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يَعْنِي: قَوْمَ نُوحِ الَّذِينَ غَرَقُوا.

وَقَالُوا: مَعْنَى الْآيَةِ: جَرَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ إِلَى أَنْ تَنْتَهِى^(٣) الْأَمْرُ وَبَلَغَ هَذَا الْمَبْلَغُ. الْإِبْتِلَاعُ: الْإِزْدِرَادُ، وَالْإِقْلَاعُ: الْإِمْسَاكُ، وَالْغِيضُ: النِّقْصُ مُتَعَدِّ، وَالِاسْتَوَاءُ: الْإِسْتِقْرَارُ، وَقُضِيَ الْأَمْرُ: فُيِّرَ مِنْهُ، وَالْبُعْدُ: الْهَلَاكُ.

وَمَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ مِنَ الْقَوْلِ فَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْمَلَائِكَةُ قَالَتْ ذَلِكَ لَفْظًا، وَقَدْ وَضَعَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا^(٤) فَهَمًّا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عِبَارَةً عَنْ بُلُوغِ الْأَمْرِ ذَلِكَ الْمَبْلَغَ وَجَرَّيْهِ عَلَى مَا جَرَّى؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وَفِي الْآيَةِ مِنْ عَجِيبِ الْبَلَاغَةِ وَجُوهٌ كَثِيرَةٌ:

مِنْهَا: أَنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ الْأَمْرِ عَلَى مَعْنَى التَّعْظِيمِ لِفَاعِلِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ مَعَانَاةٍ وَلَا لُغُوبٍ.

وَمِنْهَا: حَسَنُ تَقَابُلِ الْمَعَانِي.

وَمِنْهَا: حَسَنُ اتِّتْلَافِ الْكَلَامِ.

وَمِنْهَا: حَسَنُ الْبَيَانِ فِي تَقْرِيرِ الْحَالِ.

(١) رَوَاهُ بَنُحُوهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ الْكُبْرَى» (١/ ٤٢)، وَالتَّطَبُّعِيُّ فِي «تَارِيخِهِ» (١/ ١١٥)، وَابْنُ

عَسَاكِرٍ فِي «تَارِيخِ دِمَشْقَ» (٦٢/ ٢٤٦) مِنْ طَرِيقِ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٢) فِي (أ): «وَقِيلَ».

(٣) فِي (أ): «يَنْتَهِى».

(٤) «فِيهَا» مِنْ (أ). وَالضَّمِيرُ فِيهَا يَعُودُ عَلَى الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ الْمُخَاطَبَيْنِ.

ومنها: الإيجازُ من غير إخلال.

ومنها: سياق القصة في أوجز خطبة.

إلى غير ذلك ممَّا دلَّ عليه هذا الكلام من الحُسْنِ العجيب واللُّطْفِ البديع.

وقال الضَّحَّاك: مطَّرتِ السَّمَاءُ أربعين يومًا اللَّيْل والنَّهَار، وخرج ماء الأرض أربعين يومًا، فارتفع الماء على كُلِّ جبل خمسة عشر ذراعًا، وسارت بهم السَّفِينَةُ، وطافَتْ بهم في الأرضِ كُلُّهَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ لا تستقرُّ على شيءٍ، حتَّى آتَتْ الحَرَمَ وطافَتْ أسبوعًا، ورُفِعَ البيت الَّذي بناه آدم إلى السَّمَاءِ السَّادسة، وهو البيت المعمور^(١).

وقال قتادة: بعثَ نوحٌ عليه السَّلام الغرابَ لينظرَ، فوجد جيفةً فوقَ عليها، فبعثَ الحمامةَ فاتته بورق الزَّيتون، فأعطيت الطَّوْقَ في عنقِها والخضابَ في رجلِها^(٢).

(٤٥) - ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ

الْحَكَمِينَ﴾.

وقول الله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ

أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾: أي: دعا الله تعالى فقال: ربِّ؛ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وقد وعدتني إنجاء أهلي، ووعدك الصَّدق لا خُلْفَ فيه، وأنت الحاكمُ بِالْعَدْلِ لا يشوبُ حَكَمَكَ زُلٌّ

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٤٢)، والطبري في «تاريخه» (١/ ١١٥)، وابن عساكر

في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٤٦) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٠١)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٣).

ولا خطأ فترجع، وقد حكمت بإنجاء أهلي، وهذا ابني مشرف على الهلاك، فعرفني السبب فيه لأكون على علم، فيسكن له قلبي.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان هذا ابنه من صلبه^(١).

وقال مجاهد: كان ابن امرأته^(٢).

وقال قتادة: سألت عنه الحسن فقال: والله ما كان ابنه، قلت: إن الله تعالى أخبر عنه أنه قال: ﴿إِنِّي أَنبِئُكَ﴾ وأنت تقول: لم يكن ابنه، وإن أهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه، فقال الحسن: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب^(٣).

وقال: إن نوحًا قال: ﴿مِنْ أَهْلِي﴾ ولم يقل: مني^(٤).

﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ أي: الوعد بالعذاب هو الصدق، ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾ قضيت لقوم بالنجاة ولقوم بالغرق.

(٤٦) - ﴿قَالَ يَنْحُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَِّّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْحُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَِّّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: كان عند نوح أن

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٣٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٣٥).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢١٥)، والطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٢٧).

(٤) هذه زيادة على الخبر السابق ذكرها عن الحسن الواحدي في «البيسط» (١١ / ٤٣٤)، والزمخشري

في «الكشاف» (٢ / ٣٩٦). وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٧٢) عن أبي جعفر الباقر.

ابنه كان على دينه؛ لِمَا أَنَّهُ كَانَ يُظْهِرُ الْمَوَافَقَةَ لَهُ، وَإِلَّا لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَيَسْأَلُهُ نَجَاتَهُ، وَقَدْ سَبَقَ عَنْهُ النَّهْيُ عَنْ سَوْأَلِ مِثْلِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧]، فَكَانَ سَأَلَ عَلَى الظَّاهِرِ الَّذِي عِنْدَهُ، كَمَا كَانَ أَهْلُ التَّفَاقِ يَظْهَرُونَ الْمَوَافَقَةَ لِرَسُولِنَا وَيُضْمِرُونَ خِلَافَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِذَلِكَ حَتَّى أَطْلَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، فَكَذَلِكَ حَالُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمْ يَكُنْ قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ تَكْذِيبًا لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، لَكِنْ مَعْنَاهُ: هُوَ مِنْ أَهْلِكَ عَلَى مَا عِنْدَكَ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَهْلِكَ الَّذِي بَشَّرْتُكَ بِنَجَاتِهِمْ^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾: قرأ الكسائيُّ على الفعل؛ أي: ﴿عَمِلَ﴾ ابْنُكَ عَمَلًا ﴿غَيْرَ صَالِحٍ﴾؛ أي: كَفَرَ وَمَا أَسْلَمَ، فَأَفْسَدَ وَمَا أَصْلَحَ.

وقرأ الباقر: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ﴾ بِالتَّنْوِينِ ﴿غَيْرُ صَالِحٍ﴾ بِالرَّفْعِ^(٢)، وَلَهُ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: إِنَّ سَوْأَلَ هَذَا عَمَلٌ لَيْسَ بِصَالِحٍ، وَهَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمَجَاهِدٍ وَإِبْرَاهِيمَ^(٣).

وقيل: ﴿عَمِلُ﴾ نَعْتُ الْإِبْنِ، مُصَدَّرٌ أُقِيمَ مَقَامَ الْفَاعِلِ؛ قَالَ الزَّجَّاجُ^(٤)، وَأَنْشَدَ قَوْلَ الْخَنَسَاءِ:

تَرْتَعُ مَا رَتَعْتَ حَتَّى إِذَا اذْكُرْتَ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ^(٥)

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ١٣٦).

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٣٣٤)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٥).

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٣٣ - ٤٣٤).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣ / ٥٥).

(٥) انظر: «ديوان الخنساء» (ص: ٣٨٣).

أي: مقبلٌ ومدبرٌ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين وعدتكَ أنْ تُنْجِيَهُمْ^(١).

وقال الضَّحَّاكُ: أي: ليس من أهل دينك ولايتك^(٢).

﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾؛ أي: أخبرتكَ عن حال ابنك إذ كنتَ غيرَ عالم به، فلا تسألني بعدها ما ليس لك به علم؛ أي: معرفة باطنه حتَّى آذن لك فيه ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بأحكامي التي منها ألا تسألني ما لم آذن لك فيه.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ هو كما قال لنبينا محمد عليه السَّلام: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وإن كان في علمه أنَّه لا يكون من الجاهلين، وهو لما ذكرنا مرَّات أن العصمة لا تمنع النَّهي عن الشَّيء، بل بالنَّهي تظهر العصمة^(٣).

(٤٧) - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَعْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: أنْ أعود إلى ما لا أعلم بالإذن في سؤاله.

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٣٣)، والطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٢٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٣٢).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ١٣٨).

﴿وَلَا تَعْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾: أي: وإن لم تستر عليّ ما مضى من هذا السؤال، ولم ترحمني بقبول إنابتي، أكن من الهالكين.

وهذا ثناء من الله تعالى على نبيه نوح، وتعريف لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم تعظيم الأنبياء قبله أمر الله، وتوقيهم عن تقصير يقع منهم أو انبساط وإن قل. وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾؛ أي: بالعصمة عن العود إلى مثله ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾ هو طلبُ المغفرة والرحمة بالكنية، وهو أكّد وأبلغ من قوله: (اللهم اغفر لي وارحمني)؛ لأنّ قوله: ﴿وَلَا تَعْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾ قطع رجاء المغفرة والرحمة من غيره، وإخباراً أنّه لا يملك أحد ذلك غيره، وليس في قوله: (اغفر لي وارحمني) قطع كون ذلك من غيره، بل هو يدلّ على طلب المغفرة والرحمة لا غير، وعلى ذلك سؤال آدم وحواء: ﴿وَلَا تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] (١).

(٤٨) - ﴿قِيلَ يٰنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ يٰنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: قلنا له؛ لأنّه قال: ﴿بِسَلَامٍ مِنَّا﴾. وقيل: قالت الملائكة بأمرنا.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ١٣٨).

﴿يُنْجِ أَهْبَطُ﴾؛ أي: انزل من السفينة إلى الأرض.

وقيل: من الجودي إلى قرار الأرض.

﴿سَلَّمَ﴾؛ أي: تحية؛ كما قال: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: ٧٩]، وهو الثناء الحسن.

وقيل: أي: بسلامة من الآفات.

﴿وَبَرَكَتٍ﴾: جمع بركة؛ وهي ثبوت الخير بتمامه^(١)، وهو في حقه تكثير ذريته وأتباعه، وجعل أكثر الأنبياء من ذريته، وأئمة الدين في القرون الباقية من نسله، وسائر المنافع.

﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أراد الأمم الذين كانوا من بعده، فإنه لم يكن معه يومئذ إلا نفر يسير، ودل هذا أن دين الأنبياء جميعاً دين واحد وإن اختلفت شرائعهم، فإنه جعلهم مِّمَّنْ معه على اختلاف شرائعهم^(٢). ثم يجوز أن يكون هذا السلام ممّا سأل: ﴿وَالْتَعَفَّرَ لِي وَتَرَحَّمَنِي﴾، والبركات ممّا سأل: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً﴾ [المؤمنون: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَتَمَتَّعُهُمْ﴾ هذا ابتداء كلام^(٣)؛ أي: أُمَّمٌ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ نَسْلِكَ أُمَّتَّعُهُمْ فِي الدُّنْيَا إِلَى انْقِضَاءِ أَجَالِهِمْ، ثُمَّ يَصِيبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي النَّارِ.

(١) في (أ): «ونمائه».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٤٠).

(٣) «كلام» ليس في (أ) و(ف).

(٤٩) - ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُنْقِيتِ﴾.

وقوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُنْقِيتِ﴾: أي: هذه الأنباء من أنباء الغيب؛ أي: من أنباء الأمم السالفة التي يغيب العلم بها عمن لم^(١) يعرفه الله تعالى.

﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾: نقصها عليك؛ لتقف عليها بعد أن كنت أنت وقومك لا تعلمونها؛ إذ كنتم أميين.

ويحتمل أن يكون العرب لم يعرفوا خبر الطوفان أصلاً، فإن بعض الملاحدة والفلاسفة ينكرون ذلك إلى يومنا.

ويحتمل أنهم عرفوا قصة الطوفان لشهرته، لكن لم يعرفوا قصة الابن الذي غرق، وهذا أولى.

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ﴾؛ أي: على ما أمرت به ونهيت عنه.

وقيل: على أذى الكفار.

وقيل: كما صبر الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُنْقِيتِ﴾: قيل: اتقوا الشر، فإنه ذكر هذا بمقابلة قوله: ﴿وَأُمُّ سَمِيعَهُمْ﴾ وهم الكفار.

(١) في (ف): «لا».

وقيل: أي: الذين اتَّقُوا الشُّرْكَ والمعاصي، ولهم العاقبة الحميدة المطلقة، وقد مرَّ بيان^(١) هذه القصَّة بتمامها في (سورة الأعراف).

(٥٠) - ﴿وَالِىٰٓ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوْرَ اَعْبُدُوْا اللّٰهَ مَا لَكُم مِّنَ الْاِلٰهِيْنَ غَيْرُهُۥٓ اِنْ اَنْتُمْ اِلَّا مُفْتَرُوْنَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالِىٰٓ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾: عطف على قوله: ﴿وَلَقَدْ اَرْسَلْنَا نُوحًا اِلٰى قَوْمِهٖ﴾.

﴿قَالَ يَنْفَوْرَ اَعْبُدُوْا اللّٰهَ مَا لَكُم مِّنَ الْاِلٰهِيْنَ غَيْرُهُۥٓ﴾: مرَّ تفسيره وشرحه في (سورة الأعراف).

﴿اِنْ اَنْتُمْ اِلَّا مُفْتَرُوْنَ﴾ على الله في إصافتكم إليه الشُّركاء.

(٥١) - ﴿يَنْفَوْرَ لَا اَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ اَجْرًا اِنْ اَجْرِيْ اِلَّا عَلٰى الَّذِىْ فَطَرَنِيْٓ اَفَلَا تَعْقِلُوْنَ﴾.

﴿يَنْفَوْرَ لَا اَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ اَجْرًا اِنْ اَجْرِيْ اِلَّا عَلٰى الَّذِىْ فَطَرَنِيْٓ﴾: أي: خلَّقني.

﴿اَفَلَا تَعْقِلُوْنَ﴾ ما أقول لكم فتدبروه، فيتبين لكم صدقي.

وقال الإمام أبو منصور رحمة الله عليه: ﴿اِنْ اَنْتُمْ اِلَّا مُفْتَرُوْنَ﴾ يحتمل: في تسميتكم الأصنام آلهة، ويحتمل: في قولكم: الله أمرنا بها، ويحتمل: في إنكاركم الرسالة، أو البعث بعد الموت.

(١) في (ر) و(ف): «سياق».

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ، وَأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ^(١).

(٥٢) - ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾: مرّ تفسيره في أوّل هذه السّورة، وقدّم الاستغفار على التّوبة لأنّ المغفرة هي الغرض، والتّوبة سببٌ يتوصّل به إليها، فقدّم ذكر الغرض على السّبب.

وقيل: استغفروا بالإيمان، ثمّ ارجعوا بأعمالكم وأموالكم إليه دون غيره.

وقوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾: أي: يُرْسِلِ المطرَ في وقته مدرارًا لا ينقطع، والمدرار: الكثير^(٢) الذي لا ينقطع، والمدرار: الكثير المتتابع، و(مفعّال) صفةٌ مبالغة؛ كقولهم: متجار ومطار ومطعام^(٣) ومغوار.

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿مِدْرَارًا﴾: متتابعًا^(٤).

وقال مقاتل بن حيان^(٥): دائمة.

وقال ابن كيسان: غزيرًا كثيرًا^(٦).

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ١٤٢).

(٢) «الكثير» ليس في (أ).

(٣) في (أ): «ومطعمان» بدل من «ومطار ومطعام».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤ / ١٢٦٣).

(٥) في (ر) و(ف): «بن سليمان بن حيان»، ولم أجد القول الآتي بهذا اللفظ عن أي منهما، وقاله أبو

عبيدة في «مجاز القرآن» (١ / ١٨٦).

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٧٤) عن مقاتل بن حيان وابن كيسان.

وقوله تعالى: ﴿وَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾: أي: يَهَبْ لكم أموالاً وأولاداً زيادةً على ما حصل عندكم اليوم من ذلك، فتقدروا على دفع أعدائكم بكثرة عددكم، وكانوا في قُوَّةٍ فوعدوا الزيادة على ذلك.

وقال مقاتل: حبس الله تعالى عنهم المطر ثلاث سنين، وأعقم أرحام نساءهم، فلذلك قال ذلك^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا بَعْضُنَا بَعْضًا﴾: أي: لا تُعْرِضُوا عن الإيمان مُذْنِبِينَ. وقال القشيري رحمه الله: ثم توبوا بعد الاستغفار من توهّمكم أن نجاتكم باستغفاركم، بل تحققوا أنكم لا تجدون نجاتكم إلا بفضل ربكم، فبفضله وصلّتم إلى استغفاركم، لا باستغفاركم وصلّتم إلى نجاتكم.

وقوله: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ الاستغفار: قرع باب الرزق، فإذا رجع العبد إلى الله تعالى بحسن تضرّعه فتح الله تعالى عليه أبواب رحمته، ووفّر عليه أسباب نعمته^(٢).

(٥٣) - ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾: أي: بحجّة واضحة على دعوى رسالتك لتُزِمنا تصديقك والانقياد لك.

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٨٥).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٤١).

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ﴾؛ أي: من أجل قولك؛ كما يُقال: كسوتك عن عري؛ أي: من أجل عريك.

وقيل: الباء و(عن) متناوبان^(١)، قال تعالى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]؛ أي: عنه، وقال هاهنا: ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾؛ أي: بقولك.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بمصدقين.

(٥٤ - ٥٥) - ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾؛ أي: ما نقول إلا أصابك بعض آلهتنا بجنون؛ أي: خبل في عقلك؛ قاله ابن عباس والحسن ومجاهد^(٢).
وقيل: أي: ما نظن وما نقول فيما بيننا إذا ذكرنا حديثك إلا أن بعض أصنامنا التي نعبدُها أصابك بجنون، عقوبة لك على الدُّعاء إلى تركها ورفض عبادتها.

فقال هود: ليس هو كما تقولون، وأنا أشهد الله تعالى وأشهدكم أنني بريء من شرككم، غير موافق لكم على دينكم، فاستعملوا الحيل أنتم وآلهتكم التي تزعمون

(١) في (أ): «متساويان».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٤٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد، وذكره الواحدي

في «السيط» (١١ / ٤٤٦) عن الحسن.

أَنَّهَا اعْتَرَتْنِي بِسُوءٍ فِي الإِسَاءَةِ بِي وَإِيصَالِ الْمَكَارِهِ إِلَيَّ، ثُمَّ لَا تَوَخَّرُوا ذَلِكَ؛ لِنَنْظَرِ
هَلْ يُمْكِنُكُمْ أَوْ يُمْكِنُ آلِهَتُكُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِي شَيْئًا مِنَ السُّوءِ؟

وهذا دليلٌ صَحَّةِ نُبُوَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ لثِقَتِهِ بِوَعْدِ اللَّهِ بِحِفْظِهِ وَنَصْرَتِهِ.

فَإِنْ قَالُوا: لِمَ قَالُوا: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرْنَاكَ بِبَعْضِ الْهَيْئَةِ بِسُوءٍ﴾، وَقَدْ قَالُوا أَقُولَا
غَيْرَ ذَلِكَ؟

قلنا^(١): معناه: فِي سَبَبِ الْخِلَافِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ الْحَالِ.

فَإِنْ قَالُوا: لِمَ قَالَ: ﴿وَأَشْهَدُوا﴾، وَلَيْسُوا بِأَهْلٍ لِلشَّهَادَةِ؟

قلنا: لِتَقْوَمَ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، لَا بِهِمْ^(٢).

(٥٦) - ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَحِمِي وَرَبِّي﴾ مَائِنَ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ أَخَذُ بِنَاصِيئِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَحِمِي وَرَبِّي﴾: أَي: فَوَضَّعْتُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ تَعَالَى،
مَدْبُورِي وَمَدْبُورِكُمْ، وَمُقِيمِي وَمُقِيمِكُمْ، لَا أَعْتَمِدُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا أَخَافُ غَيْرَهُ؛ إِذْ كُلُّ
شَيْءٍ فِي قَبْضَةِ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ.

وقوله تعالى: ﴿مَائِنَ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ أَخَذُ بِنَاصِيئِهَا﴾: أَي: مَا مِنْ^(٣) نَفْسٍ تَدْبُ عَلَى
الْأَرْضِ إِلَّا هُوَ قَاهِرٌ لَهَا مُصَرِّفٌ لَهَا عَلَى مَا يَرِيدُ بِهَا.

(١) فِي (ف): «قلنا قالوا قولاً».

(٢) فِي (ف): «لا لهم» وليست فِي (ر).

(٣) «ما من» من (ف).

والأخذُ بالنَّاصِيَةِ كنايةٌ عن الإذلالِ والقَهْرِ، وكانت العربُ إذا أسرت رجلاً فأرادت إطلاقه جزّت ناصيته؛ ومثله قوله تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: قيل: أي: إِنَّ رَبِّي يدلُّ على صراطٍ مستقيمٍ. وقيل: يحثُّ عليه. وقيل: يحملُكم عليه.
وقيل: هو بغير إضمارٍ، ومعناه: إِنَّ رَبِّي على الحقِّ لا يعدلُّ عنه.

(٥٧) - ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: أصله: فَإِنْ تَوَلَّوْا، سقطت إحدى التَّاءين تخفيفاً؛ أي: فَإِنْ تُعْرِضُوا بعدَ هذا عن الإيمان بالله لم يلزمي مِنْ تَبِعَةِ إِعْرَاضِكُمْ شيءٌ^(١).
وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾: مِنَ الدُّعَاءِ إِلَى الْإِيمَانِ ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ أي: ويهلككم الله بعدَ هذا، ويجعل غيركم خلفاً عنكم.

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾: ولا يدخلُ مُلكه بإهلاككم نقصٌ، ولا تقدرون على أن تضرُّوه أو تضرُّوا أولياءه بكيدكم.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾: أي: لا يخفى عليه شيءٌ، ولا يذهبُ عنه شيءٌ، ولا يفوته.

(١) في (أ): «بشيء».

وقيل: أي: بكل شيء حفيظ، فيحفظ أنبياءه وأوليائه.

وقيل: أي: يحفظ الأعمال فيجازي عليها.

(٥٨) - ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَحْنُ نُهُم مِّنْ عَذَابٍ

غَلِيظٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾: أي: أمرنا بإهلاك عادٍ ﴿نَحْنُ هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَحْنُ نُهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: شديد، وأصله: الكيف الثقيل، وهو هاهنا استعارة عن الشدة والهول، وهو ما نزل بهم من عذاب الدنيا.

وقيل: هو عذاب الآخرة أيضاً في حق المؤمنين.

وقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله: هذا يدل على أن من نجا نجا برحمة الله تعالى لا بعمله، ولذلك قال النبي ﷺ: «لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله»، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(١).

ثم يحتمل قوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾؛ أي: يبعث هود إليهم حتى أتبعوه فنجوا لذلك.

ويحتمل: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾؛ أي: بتوفيقنا إياهم للإيمان حتى نجوا به^(٢).

(٥٩) - ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَحْنُ نُهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

(١) رواه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (١٤٦ / ٦).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُوا عَذَابَكُمْ يَوْمَ الْبَعْثِ﴾: بالنبي والحجج^(١) ﴿وَعَصَا رُسُلِهِ﴾ لأنهم إذا عصوا هودًا فقد عصوا كل الرسل؛ لأن كل الرسل يدعون إلى الله تعالى، فعصيان واحد منهم عصيان الكل.

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾: أي: كل متكبر مخالف؛ وهم رؤسائهم.

قال السدي: الجبار: الذي يقهر الناس ويُجبرهم على ما أراد^(٢).

وقال عكرمة: الجبار: الذي يقتل على الغضب^(٣).

وقال أبو عوسجة: الجبار: المتجبر، وهو المتكبر، والعنيد: هو المعاند المخالف^(٤).

وقال قتبي: العنود والعنيد والعائد: المعارض لك بالخلاف عليك^(٥).

وقال أبو عبيدة: العنيد والعنود والعائد: الجائر^(٦).

وفي الآية تسلية النبي ﷺ فيما كان يقاسي من البلاء، وتقوية للمؤمنين فيما نذبوا إليه من حُسن الرجاء، والوعد بتبديل ما كانوا يلقونه من الشدة والرخاء.

(١) «بالنبي والحجج» ليس في (ف).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩ / ٢٨٧)، والواحد في «تفسيره» (٢١ / ٣٩٧).

(٣) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦ / ٣٧٧) دون عزو، وعزه الواحدي في «البيسط» (١٤ / ٢١٠) للكلبي.

(٤) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦ / ١٤٧).

(٥) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٠٥).

(٦) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١ / ٢٩٠).

(٦٠) - ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: أي: أُلْحِقُوا، واللَّعْنَةُ: الطَّرْدُ، ومعناه: لُتَّبِعُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، طُرِدُوا وَبُعِدُوا عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ. ثُمَّ بَيَّنَّ السَّبَبَ فَقَالَ:

﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾: أي: هَلَاكًا، منصوبٌ على المصدر بإضمار الفعل، وقد مرَّ سياق القصة في (سورة الأعراف).

(٦١) - ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾: عطفٌ على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [هود: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾: مرَّ تفسيره. وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: أي: ابتداءً خلقكم من الأرض، فخلق أباكم آدم مِّنَ التُّرَابِ، وجعلكم عَمَّارَهَا؛ أي: سَكَّانَهَا^(١)، وعامر الأرض: ساكنها، قال الشاعر:

فإِنَّكَ مِنْ بَيْتٍ لِّعَيْنِي مُعْجَبٌ وَأَعْجَبُ فِي عَيْنِي مِنَ الْبَيْتِ عَامِرُهُ^(٢)

(١) في (أ): «ساكنيها».

(٢) البيت لعبد الله بن الدمينية، وهو في «ديوانه» (ص: ١٨٣)، و«أمالى القالي» (١/ ٧٨)، برواية:

«وأحسن في عيني» بدل «وأعجب في عيني».

وقيل: أي: القائمين بعمارتها بالزراعة والغرس والبناء والحفر.
 وقيل: أي: عمركم فيها؛ أي: جعل لكم فيها أعمارًا.
 وقيل: أعمرها لكم^(١)؛ أي: جعلها لكم مدة عمركم.
 وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾: أي: اسألوا مغفرته بالإيمان ﴿ثُمَّ تَوُوبُوا إِلَيْهِ﴾؛ أي: ارجعوا إليه بالندم وسؤال الثبات.
 ﴿إِنْ رَاقِبَ قَرِيبٌ﴾: أي: إلى من رجاه ﴿يُجِيبُ﴾ لمن دعاه.
 قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: أعاشكم^(٢).
 وقال الضحَّاك: أطال عمركم^(٣).
 وقال مجاهد: أعمركم، من العمرى^(٤).
 وقال قتادة: أسكنكم فيها^(٥).
 وكان هود عليه السلام يسكن وادي القرى بين المدينة والشَّام^(٦)، وكانت عاد باليمن.

-
- (١) «لكم» من (أ).
 (٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٧٦).
 (٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٧٦)، والماوردي في «تفسيره» (٢ / ٤٧٩)، والواحدي في «البيسط» (١١ / ٤٥٥).
 (٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٥٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٤٨). ومعناه: أعمركم فيها، ويزيئها منكم بعد انصرام أعماركم.
 (٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٧٦).
 (٦) كذا قال، والصواب أن هذه مساكن ثمود قوم صالح.

(٦٢) - ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾: أي: كنّا نرجوك للانتفاع بك، ونتوقع القوة فيما بيننا^(١) من جهتك، فأخلف رجأؤنا.

وقيل: كنّت ترحم الضّعفاء وتعود المرضى ونحو ذلك قبل ادّعاءك النبوة، فصرت تخالفنا وتسفّهنا.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتَهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾: الذين كانوا أكمل عقولاً منا، وأبصر بالأمور كلّها، وهو استفهام بمعنى الإنكار.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾: أي: في^(٢) شكٍّ مُرِيبٍ مُوقِعٍ للرّيبة فيك؛ أي: التّهمة؛ أي: ونحن فيما تدعوننا إليه من ترك عبادة آلّهتنا وإفراد ربّك بالعبادة في شكٍّ يوجب اتّهامك فيما تضيفه إلى الله تعالى^(٣)؛ إذ ليس يجوز أن يكون آبأؤنا يجهلون الحقّ ويتركون الدّين الذي يرضى الله تعالى به.

(٦٣) - ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَضُرُّنِي مِّنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَضُرُّنِي مِّنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾: أي: أجابهم عن قولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِي

(١) في (أ) و(ر): «القوة في ديننا».

(٢) بعدها في (أ) و(ف): «كلّ».

(٣) في (أ): «إلى آدم».

شَكَرَ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿١﴾ فقال: أخبروني عنكم؛ إِنْ كُنْتُ مُحَقِّقًا فِي دَعْوَى الرِّسَالَةِ، وَكُنْتُ عَلَى بَيَانٍ مِنْ رَبِّي فِي أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّهُ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ، وَأَمَرَنِي بِإِنذَارِكُمْ، وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى أَعْطَانِي مِنْ عِنْدِهِ كَرَامَةً، وَخَصَّنِي بِهَا مِنَ الْإِيمَانِ وَالرِّسَالَةِ، أَيْجُوزُ لِي مَعَ هَذَا أَنْ أَعْصِيَ رَبِّي فَأُقَصِّرَ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ، وَأَقَابِلَ رَحْمَتَهُ بِمَعْصِيَتِهِ فَأَسْتَحِقَّ نَزُولَ عَذَابِهِ وَسَخَطِهِ؟! فَمَنْ يَنْصُرُنِي حِينَئِذٍ فَيَمْنَعَ عَنِّي عَذَابَهُ؟ فَمَا تَزِيدُونَنِي بِهَذَا الْاِحْتِجَاجِ ^(١) غَيْرَ أَنْ أَضِلَّكُمْ وَأُضِلَّ ^(٢) آبَاءَكُمْ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: غير بصارة ^(٣) في خسارتكم ^(٤).

وقال الحسين بن الفضل: غير نسبتي إياكم إلى الخسارة ^(٥).

وقال الإمام الزاهد أبو منصور رحمه الله: قال بعضهم: فما تزيدونني بمجادلتكم إِلَّا خسرانًا.

وقيل: فما تزدادون بمعصيتكم إياي إِلَّا خسرانًا لأنفسكم.

وقال القتيبي: ﴿غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾: غير نقصان ^(٦).

(١) في (أ): «الاجتماع».

(٢) أي: أنسبكم أنتم وآباؤكم إلى الضلال إذ تعبدون غير الله. وتحرفت العبارة في (ر) و(ف) إلى: «أضلكم وأضل».

(٣) في (ر) و(ف): «مضارة».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤ / ٣٩٣) (ط: دار التفسير)، وانظر: «تنوير المقباس» للفيروزابادي (ص: ١٨٧)، وفيه: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾: فما ازداد إِلَّا بصيرة في خسارتكم.

(٥) ذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٧٦)، والواحد في «البيضا» (١١ / ٤٥٧).

(٦) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٠٥).

وقال أبو عوسجة: هو من الخسران [يقال: خسرته]؛ أي: ألزمته الخسران^(١).

(٦٤) - ﴿وَيَنْقَوْمَ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ فَإِذَا جَاءَ عَذَابُ قَرِيبٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْقَوْمَ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: إذا أُضيفَت جزئيةُ الأشياءِ إلى الله تعالى فهو على تعظيم تلك الجزئيات المضافة إليه.

فإذا أُضيفَت إليه كَلِيَّةُ الأشياءِ فهو على إرادة تعظيم الله تعالى وتبجيله؛ نحو قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧]، ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٩١]^(٢).

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ يقول: إن شككتُم في أمري فهذه آيةُ الله معجزةٌ تبين لكم صدق نبوتي.

والآيةُ فيها أن الله تعالى أخرجها لهم^(٣) من الصخرة وهم يشاهدونها، وخرجت وهي حاملٌ كما طلبوا، وكانت تشربُ يوماً تنفردُ به ولهم يومٌ، وتأتي هي المرعى يوماً والوحشي يوماً، وقد مرَّت قصَّتُها في (سورة الأعراف).

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (١٥٠ / ٦) وما بين معكوفتين منه، ومعنى ألزمته الخسران: نسبته إلى الخسران، ومثله: فسقته وفجّرته؛ إذا نسبته إلى الفسق والفجور. انظر: «تفسير الثعلبي» (١٧٦ / ٥).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (١٥١ / ٦).

(٣) «لهم» ليس في (أ).

وقوله تعالى: ﴿فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوها بِسُوءٍ﴾: قيل: بمنع عن الشرب، فقد قال: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَها﴾ [الشمس: ١٣]، وقيل: بعقر. وقوله تعالى: ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾^(١): أي: عاجلٌ إنْ مَسَّسْتُمُها بِسُوءٍ. وقال أبو موسى الأشعري: أتيتُ مصدرها^(٢) الذي اضْطُرَّتْ إليه فلم تجدْ منفذاً، فإذا هو ستون ذراعاً^(٣).

(٦٥)- ﴿فَعَقَرُوها فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوها﴾: أي: فعقرها أخو ثمود قدار بن سالف، ومعه مِصْدَعُ بن مَهْرَج.

﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾: أي: بلدكم.

وقيل: أي: في دار الدنيا، ولو أراد بها المنازل لقال: في دياركم. وقيل: أراد بالواحد الجمع؛ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [الحج: ٥]، وتقديره: ليتمتع كل واحدٍ منكم في داره. والتمتع: التلذذ بالمدركات الحسية.

يقول: أمهلكم الله تعالى ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ بلا زيادة، ثم تُعَذَّبُونَ، وهو العذاب القريب الذي ذكرتُ لكم.

(١) بعدها في (ر): «فَيَأْتِيَكُم عَذَابٌ».

(٢) تحرفت في (أ) و(ر) إلى: «مقدرها»، والمثبت من (ف) والمصادر.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠ / ٢٩٧)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٧٦)، والزمخشري في

«الكشاف» (٢ / ١٢١) و(٣ / ٣٢٧). وليس في المصادر: «الذي اضطرت إليه».

﴿ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾: أي: مكذوب فيه.

ورُوي أَنَّهُ قال لهم: تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ يَجِيءُ هَلَاكُكُمْ، فَتَصْبِحُ أَلْوَانُكُمْ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مُصْفَرَّةً، وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي مُحْمَرَّةً، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ مَسْوَدَّةً، ثُمَّ تُسْتَأْصَلُونَ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ^(١).

فكان كما قال؛ لأنَّهم عقروا النَّاقَةَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، وَاسْتَأْصَلُوا يَوْمَ السَّبْتِ.

(٦٦) - ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَيْنَا صَلْدِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾: أي: بالعذاب ﴿بَنَيْنَا صَلْدِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾؛ أي: أخرجناهم من بينهم.

وقوله: ﴿بَرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ فسرناها في قصّة عاد.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾: قرأ الكسائي ونافع في رواية بنصب الميم على الظرف، والباقون بالخفض على الإضافة^(٢).

والخزي: الفضيحةُ بالعذابِ المُهينِ المستأصل.

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩١٣) عن معمر. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠ / ٢٨٤) عن السدي و(١٠ / ٢٩٥) عن قتادة.

وهو قطعة من حديث طويل رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٥٨ - ٤٦٢) من حديث عمرو بن خارجة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٦)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٥).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾: أي: القادر على إهلاك مَنْ يريد، المنيعُ سلطانه^(١) مِنْ أَنْ يغالبه العبيد^(٢).

وقيل: ﴿الْقَوِيُّ﴾ في نصرة أوليائه، ﴿الْعَزِيزُ﴾: المنتقم مِنْ أعدائه لأوليائه.

(٦٧) - ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾: يُقال: صاح بهم جبريل، ويُقال: الصيحة: النداء بوقوع العذاب ونزول الصّاعقة.

وقيل: هو الصّوت الهائل الذي يجيء فلا تتمالك له القلوب، بل تنفطر وتنخلع، فيموت السّامعون لها.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: الصّيحة: الصّاعقة.

وقيل: هي اسمٌ لكلّ عذاب، ولا يُدرى كيف كان؟ أو كان عذابهم قَدْر صيحةٍ مِنْ سرعة وقوعه بهم، أو لَمَّا رَأوا العذاب صاحوا فيما بينهم، فلمّا جاءتهم الصّيحة ماتوا^(٣).

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمًا﴾: أي: صاروا.

وقيل: كان العذاب بالليل؛ فلذلك قال: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمًا﴾؛ أي: ساقطين على الوجوه.

وقيل: ساقطين على الرُّكب.

(١) في (أ): «سلطانه».

(٢) في (أ): «العنيد».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٥٢).

وقيل: لازقين بالأرض.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ميّتين^(١).

وقال قتادة: هالكين^(٢).

وقال مجاهد: جامدين^(٣).

وقال ابن كيسان: ساقطين كجثوم الطائر.

(٦٨) - ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ الْآلَاءُ إِنَّمَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدَ لِّلثَمُودَ ﴿٦٨﴾

وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾؛ أي: كأن لم يقيموا فيها، غني بالمكان - من حد علم - إذا أقام به^(٤).

﴿الْآلَاءُ إِنَّمَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾: فبذلك استحقوا هذا العذاب ﴿أَلَا بُعْدَ لِّلثَمُودَ﴾؛ أي: هلاكاً.

وقرأ الكسائي وحده بالتَّوِين والخفض موافقةً للأوّل، والباقون تركوا تنوينه وفتحوه، ونوّنوا الأوّل^(٥)؛ لأنّ (ثموداً) إنّ جعل اسم قبيلة لم يُصرف لاجتماع

(١) في (ر) و(ف): «ساكتين». والخبر ذكره الواحدي في «البيسط» (٩ / ٢١٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٥٢).

(٣) في (ف): «خامدين»، وهكذا ذكره الواحدي في «البيسط» (٩ / ٢١٦) عن ابن عباس، وهو قول مقاتل في «تفسيره» (٢ / ٤٧ و ٢٨٩) وبعض المفسرين، والمثبت من (أ) و(ر) وكذا ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤ / ٢٥٢) دون نسبة.

(٤) «به» ليس في (أ) و(ف).

(٥) لكن حمزة وحفصاً منعاه الصرف في الأول أيضاً. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٧)، و«التيسير» (ص: ١٢٥).

التَّعْرِيفِ والتَّأْنِيثِ فيه، وإن جُعِلَ اسماً للقوم صُرِفَ؛ لأنَّ العَلَّتَيْنِ لم تجتمعا، ولمَّا جاز صرْفُهُ وتركُ صرْفِهِ اختير الصَّرْفُ في النَّصْبِ دون الرَّفْعِ والجَرِّ؛ لأنَّ النَّصْبَ أَخْفُ الحركات.

(٦٩) - ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىَ قَالُوا اسْلَمْنَا قَالَ سَلِمْتُ فَمَا لِيَتْ أَنْ جَاءَ يَعِجْلُ حَنِيزٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىَ﴾: ﴿رُسُلُنَا﴾؛ أي: الملائكة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: جبريل وملكان^(١). وقال الضَّحَّاك: كانوا تسعة.

وقال السُّدِّيُّ: كانوا أحدَ عشرَ ملكاً على صورة الغِلَمان الحسن^(٢).

كانوا نزلوا لإهلاك قوم لوطٍ وقراهيم بنواحي الشَّام، وإبراهيمُ كان ببلاد فلسطين فمَرُّوا به، ولوطٌ كان ابن أخِي إبراهيم^(٣)، فجاءوا إبراهيم بالبشري: قيل: البشارة بهلاك قوم لوط.

وقال الحسن: البشارة بأنَّ الله تعالى يَهَبُ له إِسْحَاقَ ولدًا، ويجعله رسولاً إلى عباده، وبعده يعقوب نافلة^(٤).

(١) في (ر) و(ف): «جبريل وميكائيل». والمثبت من (أ)، وهو الموافق لما ذكره الثعلبي في «تفسيره»

(٥ / ١٧٧)، والواحد في «البيسط» (١١ / ٤٦٦)، ولفظهما: «جبريل وميكائيل وإسرافيل».

(٢) ذكره عن الضحَّاك والسدي: الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٧٧)، والواحد في «البيسط» (١١ / ٤٦٦).

(٣) في (ف): «ابن عم إبراهيم وكان ببلاد فلسطين» بدل: «ابن أخِي إبراهيم».

(٤) ذكره دون نسبة مقاتل في «تفسيره» (٢ / ٢٩٠)، والطبري في «تفسيره» (١٨ / ٣٩٣)، والثعلبي في

«تفسيره» (٥ / ١٧٧).

وقيل: بسلامته وسلامة قومه مع هلاك قوم لوط.

وقيل: بدوام الخلة والوصلة.

وقيل: بسلام الله.

وقيل: هو سرُّ بين الحبيّين لا اطلاع عليه للغير، قال قائلهم:

بَيْنَ الْمُحِبِّينَ سِرٌّ لَيْسَ يَفْشِيهِ قَوْلٌ وَلَا قَلَمٌ لِلْخَلْقِ يَحْكِيهِ^(١)

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سَلَمًا﴾: نصبٌ بوقوع القول عليه، كأنه قال: أظهروا سلامًا، أو: قدّموا سلامًا، وما يجري مجراه.

وقيل: ﴿قَالُوا﴾ مقرّر على نظمه، و﴿سَلَمًا﴾ منصوبٌ بإضمار الفعل؛ كأنهم قالوا: نسلم عليك سلامًا، أو قالوا: نسلم سلامًا؛ لأنَّ السَّلامَ بمعنى السَّلامة، وهو كقوله تعالى: ﴿فَضْرَبَ الرَّقَابَ﴾ [محمد: ٤] أنه نصبٌ على إضمارِ الفعلِ.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سَلَمًا﴾: أي: عليكم سلامٌ.

وقال: الفراء: قال حين نكرهم: ﴿سلام﴾؛ أي: هو سلام - أي: سلامة - إن شاء الله، من أنتم؟^(٢)

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾: أي: ولد بقرة، سُمِّيَ به لتعجيل أمره بقرب ميلاده.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: أي: نضيج^(٣).

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٩ / ١٣٩)، و«لطائف الإشارات» للقسيري (٢ / ١٦٥).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢ / ٢١).

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٦٨).

وقال الحسن: أي: مشوي^(١).

وقال ابن عرفة: مشويٌّ بالرّضاف. والرّضيف: الحجر المحمّي، وهو (فعليل) بمعنى مفعول، وقد حنّده؛ أي: شواه تحت الأرض بالحجارة المحمّاة.

وقيل: هو السّمين الذي يسيل منه الودك^(٢).

ومعنى ﴿فَمَالَيْتَ﴾؛ أي: فما مكث؛ إذ كان عنده طعامٌ مُعدٌّ للأضيافِ كلّ يوم، أو عَجَلَ تقديم الطّعام، فأمرَ بذبح عجلٍ وحنّده، وجعل قرب المدّة بسبب التّعجيل كعدم اللَّبث مبالغةً مجازاً.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فيه دليلٌ على أنّ الأدب إذا نزل الضّيف هو تقديم الطّعام قبل المحادثة والمساءلة، ولو كان إبراهيم عليه السلام اشتغل بذلك عرف أنّهم ملائكة، فلم يشتغل باتّخاذ الطّعام^(٣).

(٧٠) - ﴿فَلَمَّارَ آيْدِيهِمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّارَ آيْدِيهِمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾: أي: لما رآهم لم يمدّوا أيديهم إلى الطّعام للأكل ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أي: أنكرهم، يقال: نكر وأنكر واستنكر، قال الأعشى:

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٧٠) عن سفيان.

(٢) الودك: دسم اللحم. انظر: «الصّحاح» للجوهري (مادة: ودك).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ١٥٤).

وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرْتُ مِنْ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلْعَا^(١)

وقال أبو العالية: يقال: نَكَرَ بقلبه، وأنكرَ بعينه^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: أي: أضمر، وقيل: أي: أحس.

وقيل: أنكرهم حين لقيهم لا يعرفهم، قال تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]، وازداد ذلك حين لم يتناولوا طعامه، فأضمر في قلبه خوفاً، وكان القوم إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل طعامهم ظنوا أنه لم يَجِئْ بخير، وأنه يحدث نفسه بشر^(٣).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾: لَمَّا عَلِمَتِ الْمَلَائِكَةُ أَنَّهُ اسْتَشْعَرَ خَوْفًا مِنْهُمْ أَمَّنُوهُ بِأَن كَشَفُوا لَهُ الْأَمْرَ فَقَالُوا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾؛ أي: لإهلاكهم.

وقيل: إِنَّهُمْ دَعَوْا اللَّهَ تَعَالَى بِأَحْيَاءِ الْعَجَلِ، فَطَفِرَ حَيًّا إِلَى مَرَعَاهُ؛ أي: وثب^(٤).

(٧١) - ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ رِثَاءً إِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ هي سارة بنت هاران بن ناحور، بنت عم إبراهيم بن آزر بن ناحور.

(١) نسب للأعشى في الكثير من كتب الأدب والتفسير، وهو في «ديوانه» (ص: ١٥١). غير أن أبا عبيدة

ذكر في «مجاز القرآن» (١/ ٢٩٣) عن يونس عن أبي عمرو أنه هو الذي زاد هذا البيت في شعر

الأعشى، وقال: فأتوب إلى الله منه.

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١١/ ١٦٣).

(٣) في (ف): «وأنه يحدث شراً».

(٤) في (أ): «ذهب».

وقيل: كانت قائمةً من وراء السّتر تنظرُ إلى الملائكة وإبراهيم.

وقيل: كانت قائمةً على رؤوسهم تخدمهم على الطّعام، وكانت عجوزاً فلم يكنْ بذلك بأسٌ، حكاة الإمام أبو منصور رحمه الله، وقال: لسنا ندري أين كانت قائمة^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَضَحِكَتْ﴾ قيل: ضحكت تعجباً لما أشرف من العذاب على قوم لوط وهم غافلون، فإنه وصله بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠].

وقيل: ضحكت سروراً بما زال من الرّوع عنها وعن إبراهيم بظهورهم ملائكةً. وقيل: ضحكت تعجباً من امتناع الأضياف عن الأكل.

وقال وهب: ضحكت تعجباً من أن يكون لهما ولدٌ وقد هرما، وعلى هذا يكون في الآية تقدّم وتأخيرٌ: فبشرناها بإسحاق فضحكت.

وقال مقاتل: ضحكت من خوف إبراهيم منهم وهم عدد قليلٌ، وهو بين خدّمه وحشمه^(٢).

وقال عكرمة: أي: حاضّت، تقول العرب: ضحكت الأرنب: إذا حاضّت^(٣).

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (١٥٥ / ٦).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢٩٠ / ٢).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢١٢). ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٠٥٥ / ٦) عن ابن عباس. وتعقب هذا القول ابن كمال باشا في «تفسيره» عند هذه الآية بقوله: (وأما ما قيل: إنّ (ضحكت) بمعنى: حاضّت. ردّ بأن التعجب بعده يبعده، إذ لا يُعجب من الولادة في زمن الحيض...). وللألوسي في «روح المعاني» (١٦ / ١٢ - ١٧) مناقشة حسنة بين المؤيدين لهذا القول والمعارضين له فلتنظر ثمة.

وقيل: ضحكت سرورًا بالبشارة بالولد، وقد بلغت ثمانيًا وتسعين سنة، وإبراهيم ابن مئة وعشرين سنة.

وقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ﴾: أي: على السنة الرُّسل - وهم الملائكة - بولد اسمه إسحاق ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾: قرأ حمزة وابنُ عامر وعاصم في رواية حفص: ﴿يَعْقُوبَ﴾ بالنَّصب، والباقون بالرفع^(١)، وهو على الابتداء.

ووجه النَّصب: أنَّ المعطوف على المخفوض بخافضٍ وبينهما حائلٌ يُحتاج فيه إلى إعادة الخافض، فيقال: مررتُ بزيدٍ ومن بعده بعبدِ الله، فإذا لم يأتوا بالباء في (عبد الله) نصبوه، كأنهم أرادوا: ورأيتُ من بعده عبدَ الله.

ووجه آخر: أنَّ قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ بمنزلة قوله: فوهبنا لها إسحاق، فعطفَ عليه ﴿يَعْقُوبَ﴾ بالنَّصب.

وقيل: الراء: النَّافلة، فإنَّ صحَّ هذا، وإلا فظاهر ما يُفهم من وراء وهو الخلف، يدلُّ على البشارة بالنَّافلة أيضًا، فإنه يكون بعده.

ودلَّت الآيةُ أنَّ الذَّبيح هو إسماعيل، فإنَّ الله تعالى بشرَ إبراهيم عليه السَّلام بأن يكون لإسحاق ولدٌ، وكان يعلمُ أنَّه لا يموت حتَّى يُولد له ذلك، فلا يكون على هذا في الأمر بذبح هذا الولد امتحانٌ؛ إذ يعلمُ أنَّه لا يتحقَّق فيه الذَّبح للحال، فتعيَّن للابتلاء الولد الآخر؛ وهو إسماعيل.

(٧٢) - ﴿قَالَتْ يَوْنَتَلَيْءُ أَلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَوْنَتَلَيْءُ﴾: لَمَّا بُشِّرَتْ بِإِسْحَاقَ تعجَّبت، فقالت: يا ويلتا،

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٥).

فافتتحت بالدعاء بالويل على ما جرت به العادة، وكأنها قالت: يا عجباً.
﴿إِلَهُدَّ وَأَنَا عَبْرٌ﴾: أي: مُسنَّة، لم تدخلها الهاء لأنها وُضعتُ للأنثى خاصَّة.
وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾: أي: زوجي، ونصب ﴿شَيْخًا﴾ على الحال،
أو على القطع؛ لأنه نكرة نُعتَ بها معرفة.
﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾: ولم يكن هذا إنكاراً لقدرة الله تعالى، بل هذا ممَّا يَرِدُ
مثله على النَّفس إذا سُمعَ بغتة، على ما عليه طبعُ البشريَّة.
وقد يكون التَّعجُّب من جهة تمنِّيها لسرعة كون ذلك، فتقول: أئنَّى يكون هذا؟
فمتى يكون قريباً أو بعيداً؟ وأحوَلُ شابةً وزوجي شاباً، أو نكون على حالنا؟ فإنَّه
عجبٌ عادة.

(٧٣) - ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ
مُجِيدٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: أي: لا عجب أن يرزق الله مثلكما^(١)
ولداً.

وقوله تعالى: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾: يحتملُ أن يكون إخباراً؛
أي: أنتم أهل بيت نزل الله عليكم الرَّحمة والبركات بما أتى من النُّبوة وتَمَّ من
النُّعمة.

ويحتملُ الدُّعاء؛ أي: واصل^(٢) الله لكم يا أهل البيت.

(١) في (ف): «منكما».

(٢) في (ر): «وأسأل».

وفيه ردُّ على مَنْ أنكرَ مِنَ الرَّافِضَةِ أَنْ يَكُونَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ﴾: قال الحسن: أي: محمودٌ كريمٌ^(١).

وقيل: أي: محمودٌ على نِعَمِهِ عِنْدَ خَلْقِهِ، وَكَرِيمٌ مَنَعَهُ عَلَى عِبَادِهِ، فَأَنْتُمْ أُولَى بِهَذِهِ النِّعْمَةِ إِذْ كُنْتُمْ أَهْلَ خَلْقِهِ وَمَوَالَاتِهِ.

ثُمَّ أَوَّلَ الْقِصَّةِ ﴿قَالُوا سَلَمًا﴾، وَفِي هَذِهِ آيَةُ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَاتِ، وَهِيَ إِمَامُ التَّحِيَّةِ، وَلَمَّا قَالُوا: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ بَقِيَ هَذَا الدُّعَاءُ عَلَى أَلْسِنَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي الصَّلَوَاتِ: «كَمَا صَلَّيْتَ وَبَارَكْتَ وَرَحِمْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ»^(٢).
وَالْبَرَكَةُ: الزِّيَادَةُ وَالنَّمُو، وَقَدْ اسْتَجِيبَ ذَلِكَ، فَبَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْهُمْ، وَهُمْ الْخَلْقُ الْكَثِيرُ، وَالْعَرَبُ مِنْ أَوْلَادِ إِسْمَاعِيلَ، وَهُمْ الْجُمُ الْغَفِيرُ.

(٧٤) - ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾: أي: الخوف، راعه يروعه: إِذَا أَفْرَعَهُ وَخَوْفَهُ، وَهُوَ مَا مَرَّ: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

(١) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦ / ١٥٨)، والبغوي في «تفسيره» (٤ / ١٩٠) دون نسبة.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» (٩٩١)، والبيهقي في «سننه» (٣٧٩ / ٢)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وفيهما: «وترحمت». وينحوه رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأصل الحديث رواه البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه، دون ذكر الرحمة.

﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾: وهو ما بينا، فأضمر جواب (لَمَّا) هاهنا، وهو: انبسط لمعارضتهم وصفتهم^(١).

﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾: أي: جعل يجادلهم، قال الحسن: يجادل رُسُلَنَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ^(٢).

واختلَفَ في ذلك الجدل:

قال الحسن: هو قوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنِ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [العنكبوت: ٣٢]^(٣).

وقال قتادة: أَيْعَذَّبُونَ إِنْ كَانَ فِيهِمْ خَمْسُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قالوا: لا حَتَّى نَزْلَهُمْ إِلَى عَشْرَةٍ، فقالوا: لا^(٤)، وذلك قوله: ﴿فَوَاحِشًا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦].

وقيل: جادلهم ليعلم بأي شيء استحقوا عذاب الاستئصال، وهل ذلك واقعٌ بهم لا محالة، أم على سبيل الإخافة ليقبلوا إلى الطاعة؟

وقيل: ﴿يُجَادِلُنَا﴾؛ أي: يسألنا إمهالهم رجاء أن يسلموا، أو سمّاها جدالاً لأنه كان يحرص في السؤال حرص المجادل عنه^(٥).

وقال القشيري رحمه الله عليه: كانت مراجعة إبراهيم مع الله تعالى في أمر قوم

(١) «وصفتهم» ليس في (أ).

(٢) ذكره عن الحسن الماوردي في «تفسيره» (٢/ ٤٨٧)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٩٣).

عن ابن عباس رضي الله عنهما، ونقله الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٨٠) عن عامة أهل التفسير.

(٣) انظر التعليق السابق.

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٢١)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٩٠).

(٥) «عنه» من (ف).

لو طُ بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، لَا لِحَظِّ نَفْسِهِ، فَسَلَّمَ^(١) لَهُ الْجِدَالَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عُلُوِّ شَأْنِهِ حَيْثُ تَجَاوَزَ عَنْهُ ذَلِكَ^(٢).

(٧٥) - ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ﴾: الحليمُ: البطيءُ الغضبِ، والأوَّاهُ: الدَّعَاءُ، وقيل: الرَّحِيمُ.

وقيل: المتأوِّه أسفاً على ما فات قومَ لوطٍ مِنَ الإيمانِ، والمنيب: الرَّاجِعُ إِلَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِالْإِخْلَاصِ، وَهَذَا مَدْحٌ لَهُ وَبَيَانٌ أَنَّ سُؤَالَه كَانَ عَنْ رَحْمَةٍ وَرِقَّةٍ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَارِضَةً وَلَا اعْتِرَاضًا عَلَى قَضِيَّةٍ.

(٧٦) - ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَا بِهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾: أي: قيل له: تَوَلَّ عَنْ هَذَا الْجِدَالَ وَالسُّؤَالَ؛ لِأَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِهِمْ لَا مُحَالَةً.

﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾: أي: عَذَابُ رَبِّكَ، وقيل: أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعَذَابِ.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا بِهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾: أي: سيأتيهم عَذَابٌ لَا يُرَدُّ وَلَا يُدْفَعُ بِالشَّفَاعَةِ، فَسَكَتَ وَتَرَكَ السُّؤَالَ.

(١) فِي (أ): «فَسَمِيَ»، وَالْمَثْبُتُ مِنْ بَاقِي النُّسخِ وَ«اللطائف».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقيصري (٢/ ١٤٧).

(٧٧) - ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ﴾: أي: ساءه مجيئهم؛ أي: حزنه، والكناية ترجع إلى الرسل.

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾؛ أي: ضاق نفسه عن هذا الحادث^(١)، وذكر الذرع مثل، وهو المساحة في الحقيقة، وكأنه قدر البدن مجازاً؛ أي: بدنه ضاق قدره عن احتمال ما وقع؛ أي: لما صار هؤلاء الملائكة من عند إبراهيم إلى لوط في صورة البشر، ورآهم حسان الوجوه، خاف عليهم من قومه أن يقصدوهم في منزله ولا يمكنه دفعهم، ولم يمكنه التصريح به للأضياف، وساءه وضعف عنه احتماله.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمل أن يكون قوله: ﴿سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ لمكان الأضياف، ويحتمل أن يكون كلاهما بهلاك قومه، ويحتمل أن يكون أحدهما في هذا، والآخر في ذلك^(٢).

﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾: أي: شديد، ولا تستعمل إلا في الشرِّ، مأخوذ من العصابة؛ كأنه التف على الناس بالشرِّ، أو التف بعض شره ببعض.

وقيل: هو من إحاطة شره بالناس، ومنه عصابة الرأس، وعُصبة الرجل: قرابته المحيطون^(٣) به.

(١) في (أ): «عن هذه الحادثة».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٦٠) بنحوه.

(٣) في (أ): «قرايبه والمحيطون».

(٧٨) - ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقَوْمِرْ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾: قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدِّيُّ: أي: يُسرعون في المشي^(١).

وقال الضَّحَّاك: يسعون^(٢).

وقال الفراء: هو مشي بين الهرولة والجَمَرِ^(٣).

وإنما أسرعوا إلى الأضياف لما أعلمتهم امرأة لوط - وكانت كافرة - فقالت: ما رأيْتُ أحسنَ وجوهاً، ولا أطيَّبَ ريحاً، ولا أنظفَ ثياباً منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾: كناية عن إتيانهم الذُّكران.

﴿قَالَ يَنْقَوْمِرْ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: قال مجاهد: بنات قومي؛ لأنَّ النَّبِيَّ كالأب لقومه، وأزواجه أمهاتهم، وأولادهم كأولاده^(٤).

وقال مقاتل وجماعة: أراد بنات صُلبه^(٥).

﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾؛ أي: أحلُّ لكم بالنِّكاح.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥٠٠ - ٥٠١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥٠٠).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢ / ٣٨٧)، وفيه: «يهرعون؛ أي: يسرعون بسيرهم. والإهرع: الإسراع فيه، شبيه بالرعدة».

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢١٤)، والطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٦٢).

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (٢ / ٢٩٢).

وقال الحسين بن الفضل: أي: على شرط إسلامكم^(١).

وقال آخرون: لعلّه في ذلك الوقت كان يُباح للمشرك المسلمة^(٢)، وكان ذلك في ابتداء الأمر جائزاً في هذه الأمة، فالنبي ﷺ زوّج ابنته من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن الربيع وكانا كافرين^(٣).

ثمّ قوله: ﴿أَطْهَرُ﴾ لا يدلّ على أنّ إتيان الذّكران كان طاهراً، لكنّهم اعتقدوا طهارة ذلك، فبنى ذلك على زعمهم، وهو كما رُوِيَ أنّ أبا سفيان بن حرب قال يوم أُحُد: أعلّ هبل، فقال النبي ﷺ لِعُمَرَ: «قل: الله أعلى وأجلّ»^(٤).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل أن يكون هذا تعريفاً لهم خُبث ذلك الفعل، ويكون معنى قوله: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: هذا أقلّ خبثاً من ذلك؛ أي: الزّنى بالبنات دون إتيان الذّكران في الخبث، وكانوا يعتقدون حرمة الزّنى، فيبَيّن^(٥) أنّ هذا يزول بالنّكاح، وذاك لا يزول بحال^(٦).

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْغِي﴾: أي: لا تُخجلوني في أضيافي، ولا تفضحوني فيهم.

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤ / ١٩١).

(٢) في (أ): «كان ينكح المشرك المسلمة».

(٣) انظر: «سيرة ابن هشام» (١ / ٦٥٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢ / ٣٣٩).

(٤) رواه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء رضي الله عنه.

(٥) في (أ): «فسر»، وفي (ف): «فتبين».

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ١٦١). وهذا كلام مردود، وإغراق في التأويل، فكيف

يظن بهؤلاء أنهم يرون الزنا حراماً ثم يستحلون ما أقبح منه وهو إتيان الذكور، ومن أين عرف هذا

القائل أن هؤلاء القوم الذين بلغوا غاية السوء أنهم كانوا يحرمون الزنا وهم كافرون أصلاً بالله

فاعلمون لأقبح القبائح، ثم كيف يتصور أن يدعو نبي لفاحشة من أجل بيان ما أفحش منها؟

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾: أي: مهتدٍ إلى طريق الحق، فينهاكم عن هذا، ويدفعكم عن أضيافي.

وقال عكرمة: أليس منكم رجلٌ رشيدٌ^(١) يقول: لا إله إلا الله^(٢)؟

(٧٩) - ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾: قال محمد بن إسحاق: أي: لسن لنا بزوجات^(٣).

وقيل: أي: ما لنا فيهن من حاجة، فجعلوا تناول ما لا حاجة لهم فيه كتناول ما لا حق لهم فيه.

﴿وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾: من إتيان الذكور^(٤).

(٨٠) - ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾: أي: عُدَّة، وجوابه محذوف، وهو أبلغ؛ لأنَّ النفس تذهب في كلِّ مذهب.

وقيل: هو كلمة تمنٍّ؛ أي: ليت لي بكم قوَّة.

(١) «رشيد» ليس في (أ).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٦٣) عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما. وعزاه السيوطي في «الدر المثور» (٤ / ٤٥٨) عن عكرمة إلى أبي الشيخ.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٦٣).

(٤) في (أ): «الذكران».

وقوله تعالى: ﴿أَوَّاهٍ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾: مجازٌ عن عشيرة يلتحق بهم ويستعينهم^(١).

وفي الخبر: «ما بعث الله تعالى بعده نبياً إلا وهو في كثرة من عشيرته ومنعة تسكيناً لقلبه»^(٢).

وقيل: لو أن لي بكم قوة على هدايتكم لهديتكم، وعن هذه الحالة أنجيتكم.

(٨١) - ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَّكَ إِنَّهُ مُصِيبُهُمَا أَصَابُهُمْ إِن مَّوْعَدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ قيل: قالوا: إن ركنك لشديد، وإنّا رسل ربك أرسلنا لإهلاك قومك، فلا تخف، فلن يصلوا إليك بمساءة فينا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان لوط عليه السلام أغلق بابه، والملائكة في داره، وقومه على الباب يناظرونه، فقال جبريل صلوات الله عليه: إنّا رسل ربك فافتح الباب، ففتح ودخلوا، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾^(٣) [القمر: ٣٧]؛ أي: أعميناهم أو^(٤) محوناها.

(١) في (ف): «يستغيث بهم»، وفي (ر): «وأستغيث بهم».

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٠٩٠٣)، والترمذي (٣١١٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) روى نحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٥١٨ / ٥).

(٤) في (أ): «أعميناها و» بدل من «أعميناهم أو».

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ قرأ ابن كثير ونافع: ﴿فَاسْرِ﴾ بالوصل من سرى، والباقون بالقطع من أسرى^(١)، وهما لغتان في اللّازم، والتّعدية هاهنا بالباء. فخرج وأهله وأولاده والمؤمنون معه ﴿يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: بطائفة من الليل^(٢).

وقال الصّحّاك: بقيّة من اللّيل. وقال قتادة: بصدره. وقال الأخفش: بعد جنح^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَّكَ﴾: قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿أَمْرًا نَّكَ﴾ رفعًا بدلًا عن قوله: ﴿أَحَدٌ﴾، والباقون بالنّصب على الاستثناء^(٤). والنّهي عن الالتفات أمرٌ بالإسراع ليتباعدوا عن القوم فلا ينالهم أثر عذابهم. وقيل: أي: لا تشتغل قلوبكم بما خلّفتم من المال والمتاع، وامضوا مخفّين مسرعين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهُمَا أَسَاطِيرُ﴾: من العذاب؛ لأنّها كافرةٌ مثلهم. فقال لوط لجبريل: متى وقت هلاكهم؟ قال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ فقال لوط: أريدُ أسرعَ من ذلك، فقال جبريل عليه السّلام: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾: استفهامٌ بمعنى الإثبات.



(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٦٥).

(٣) ذكره الأقوال الثلاثة الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٨٣).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٥).

(٨٢) - ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾: أي: العذاب الذي أَمَرْنَا بِهِ ﴿جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا﴾؛ أي: جعلَ جبريلُ أعلى قريتهم سافلها بأمرنا، على ما مرَّ سياقُ القصة في (سورة الأعراف).

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾: أي: وأمطرنا عليهم بعد التَّقْلِيلِ أحجارًا من سِجِّيلٍ.

قيل: حجارة صلبة ليست من جنس حجارة البرد.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: هو فارسيٌّ معرَّب سنك وكل^(١)، كالديباج والجاموس.

وقال أبو عبيدة: هو شديد من الحجارة^(٢).

وقيل: هو مثل السَّجَلِ في الإرسال عليهم^(٣)؛ أي: الدَّلُو.

وقيل: السَّجَل: هو الإرسال.

وقيل: هو من السَّجَلِ - المشدَّد باللام - وهو الكتاب؛ أي: حجارة كتَبَ عليها الله تعالى أن يعذبهم بها.

(١) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما ابن أبي شيبة (٢٩٩٧٨)، والطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٦٨)، وزاد بعضهم فيه: (حجر وطن). وروى عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٧٠٠)، والطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥٢٦) عن قتادة قال: (السجيل: الطين).

(٢) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١ / ٢٩٦).

(٣) «عليهم» ليس في (أ).

وقال الفراء: طينٌ طُبِّحَ حَتَّى صَارَ كالأَرْحَاءِ، و﴿مَنْضُودٍ﴾؛ أي: يتبع بعضها بعضاً^(١)، كالمَتَاعِ المنضُودِ بعضها على بعضٍ.
وقيل: كانت مَنْضُودَةٌ فِي السَّمَاءِ مَعْدَّةً.

(٨٣) - ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَاهِي مِنَ الظَّالِمِينَ يَبْعِدُ﴾.
وقوله تعالى: ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾: نُصِبَتْ لَأَنَّهَا نَعَتْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿حِجَارَةً﴾؛ أي: مَعْلَمَةٌ فِي خَزَائِنِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي لَا يُتَصَرَّفُ فِيهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ بِعَلَامَاتٍ تَعْرِفُهَا الْمَلَائِكَةُ إِذَا أُمِرُوا أَنْ يَمْطُرُوهَا.
وقال الحسن: أي: مَخْتُومَةٌ^(٢).
وقال الرِّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: مَكْتُوبٌ عَلَى كُلِّ حَجَرٍ اسْمٌ مِّنْ رُّمِي بِهِ، وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ يَبْعِدُ﴾: أي: لَمْ تَكُنْ لَتُخْطِئْهُمْ.
وقيل: اتَّبَعَتْ الْمُتَفَرِّقِينَ عَنْهُمْ فِي الْأَمْصَارِ وَالْأَسْفَارِ.
وقيل: مِنْ مُّشْرِكِي قَرِيشٍ، وَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ جَبْرِيلَ عَنْ هَذَا فَقَالَ: «يَعْنِي: مَنْ ظَالِمِي أُمَّتِكَ»^(٤).

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٤).

(٢) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١/ ٥١٦).

(٣) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦/ ١٦٥)، والبخاري في «تفسيره» (٤/ ١٩٤)، بلا نسبة.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٨٤)، والواحدي في «البيسط» (١١/ ٥١٩) من حديث أنس

رضي الله عنه بلا إسناد. قال الولي العراقي: ذكره الثعلبي بغير إسناد، ولم أقف له على إسناد. انظر:

«الفتح السماوي» للمناوي (٢/ ٧٢٠).

وقوله تعالى: ﴿بَعِيدٍ﴾؛ أي: بمكان بعيد.

(٨٤) - ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوْرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُسُوا أَلْمِيزَالَ وَالْمِيزَانُ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا﴾: عطف على قوله: ﴿نُوحًا﴾.

﴿قَالَ يَنْفَوْرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: مرّ تفسيره.

﴿وَلَا تَنْفُسُوا أَلْمِيزَالَ وَالْمِيزَانَ﴾: كانوا مشركين، فدعاهم إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى، ثم نهاهم عن ظلم الناس في الكيل والوزن، وحذّرهـم سوء عاقبته.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ﴾: أي: أراكم في الخصب وسعة الرزق^(١)، وكثرة النعم، ورخص الأسعار، على وجه لا ضرورة بكم معه إلى نقص الكيل والوزن، فاستبقوا نعمة الله عليكم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي: محيط بكم عذابه، كما قال: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦]، ويوم شديد^(٢)، و﴿يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٧٧]، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ إِنَّ تَلَقَّيْتُمْ هَذِهِ النِّعَمَ بِالْكَفْرِ وَالظُّلْمَ النَّاسُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ عَذَابُ يَوْمٍ مُّحِيطٍ بِكُمْ، فَلَا تَتَخَلَّصُونَ عَنْهُ.

(١) في (أ): «في الخصب والسعة والرزق».

(٢) كذا في النسخ، وليست آية.

(٨٥) - ﴿وَيَقَوْمُ أَوفُوا أَلْمِ كَيْالَ وَالْمِيزَاتِ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمُ أَوفُوا أَلْمِ كَيْالَ وَالْمِيزَاتِ بِالْقِسْطِ﴾: أي: أتموها بالعدل.

أعاد الأمر بالإتمام بعد تقديم النهي عن ضده، وهو كقولك: صلِّ قرابتك ولا تقطعها، فيكون الجمع بين الأمر والنهي عن ضده دليلاً على تأكد وجوبه.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾: أي: ولا تنقصوا الناس ما استحقوه عليكم بالعقود.

﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: العثي: المبالغة في الإفساد، من حدِّ عِلَمَ.

وجعل هذه المعاملة إفساداً في الأرض لأنه تبديل حكم الدين، والله تعالى أصلح الأرض بالأمر بالمعاملات التي إذا عملوا بها اعتدلت أحوالهم، وزال الظالم عنهم، فمن غير هذا فقد أفسد.

(٨٦) - ﴿بَقِيَتْ أَلِلَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَقِيَتْ أَلِلَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: أي: ما يقيه الله تعالى لكم بعد إيفائكم حقوق الناس بالقسط في الكيل والوزن أحمد عاقبة، وأكثر بركة مما تبقونه لأنفسكم من فضل الخيانة.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: قيل: هو متصل بقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا... وَلَا تَبْخَسُوا... إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

فيحتمل أنهم كانوا يقرّون بأن الله تعالى خالقهم ومالكهم، كما قال في حقّ مشركي العرب: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، والإقرار بالالوهيّة لله يوجب طاعته فيما أمر ونهى.

ويحتمل أنه متّصل بقوله تعالى: ﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: هي خير لكم؛ إن صدّقتموني فيه وعملتُم به حصل لكم هذا الخير.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: إن ما^(١) أبقي الله لكم من الثواب في الآخرة خير لكم من الأموال في الدنيا.

وقيل: طاعة الله التي يبقى ثوابها خير لكم من هذا^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾: قال: إنني لستُ أشهد ببياعاتكم حتّى أعلم ببيخسكم، وإنما أعرف ذلك بإخبار الله تعالى، وفيه إثبات رسالته.

وقيل: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾؛ أي: بمسلّط عليكم أجبركم على هذا، وإنما أنا مبلغٌ منذرٌ.

وقيل: وما أنا بمأمورٍ بحفظكم فأؤاخذ بفعلكم.

(٨٧) - ﴿قَالُوا يَنْشَعِبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَنْشَعِبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾: قيل: كان شعيبٌ صلوات الله عليه يصليّ الصلوات،

(١) في جميع النسخ: «مما»، والمثبت من «تأويلات أهل السنة».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٦٨).

وكانوا يقولون له: ما تستفيدُ بهذا؟ فكان يقول: إِنَّهَا تَأْمُرُ بِالْمَحَاسِنِ وَتَنْهَى عَنِ الْمَسَاوِي، كَمَا عَرَّفَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ أَصْلَوْتَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فقالوا له على وجه الاستهزاء به: ﴿أَصْلَوْتَ تَأْمُرُ أَنْ تَتْرَكَ﴾؛ أي: تَأْمُرُنَا بِتَرْكِ عِبَادَةِ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَأَنْ نَتْرِكَ التَّبَسُّطَ فِي أَمْوَالِنَا بِمَا نَشَاءُ مِنْ إِيفَاءٍ وَنَقْصٍ؟

وقيل: أَدِينُكَ^(١) يَأْمُرُكَ بهذا؟ وَسُمِّيَ الدِّينَ بِهَا^(٢) لِأَنَّهَا أَعْظَمُ شَرَائِعِ الدِّينِ، وَمَا خَلَتْ عَنْهَا شَرِيعَةٌ أَحَدٍ مِنَ الْمُرْسَلِينَ.

وقيل: كانوا يكسرون الدَّراهم الصَّحِيحَةَ، فَكَانَ تَبَايُعُهُمْ بِالْمَكْسُورِ عَدَدًا، وَبِالصَّحَاحِ وَزَنًا^(٣)، فَيَقْعُ الْبَخْسُ بِهَذَا.

وقيل: كانوا يقطعون أطرافها، فيستفضلون القُرَاضَاتِ، وَيَتْبَاعُونَ بِالْبَاقِي عَلَى أَنَّهُ دَرَاهِمٌ تَامَةٌ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾؛ أي: السَّفِيهِ الضَّالُّ، وَهَذِهِ التَّسْمِيَةُ عَلَى الْقَلْبِ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِهْزَاءِ؛ كَمَا يُقَالُ لِلْحَبَشِيِّ: أَبُو الْبَيْضَاءِ، وَهُوَ كَقَوْلِ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ لِأَبِي جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وَقَالَ الشَّاعِرُ:

فَقُلْتُ لِسَيِّدِنَا يَا حَلِي — مُمْ إِنَّكَ لَمْ تَأْسُ أَسْوَأَ رَفِيقًا^(٤)

(١) فِي (ر) وَ(ف): «أَرْبِكَ».

(٢) فِي (ر) وَ(ف): «بِهَذَا».

(٣) فِي (ر): «بِالْمَكْسُورِ عَدَدًا وَالصَّحَاحِ وَزَنًا».

(٤) الْبَيْتُ لِشَيْبِ بْنِ خُوَيْلِدٍ. انْظُرْ: «الْحَيَوَانَ» (٣/ ٨٢)، وَ«الْبَيَانُ وَالتَّبْيِينُ» (ص: ١٠٧)، وَ«لِسَانُ

الْعَرَبِ» (مَادَّة: خَفَقَ). وَدُونَ نِسْبَةٍ فِي «تَأْوِيلُ مَشْكَلِ الْقُرْآنِ» لِابْنِ قَتِيْبَةَ (ص: ١١٨)، وَ«الْأَضْدَادُ»

لِابْنِ الْأَثْبَارِيِّ (ص: ٢٥٨).

وقيل: معناه: إِنَّكَ عِنْدَنَا حَلِيمٌ رَشِيدٌ، وَلَسْتَ تَفْعَلُ بِنَا مَا يَقْتَضِيهِ حَالُكَ، فَتَسْفَهُنَا وَتَمْنَعُنَا عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُنَا الْعُقَلَاءُ، وَهَذَا لَيْسَ بِفِعْلِ الْحَلِيمِ الرَّشِيدِ، وَهُوَ كَقَوْلِ قَوْمِ صَالِحٍ: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ [هود: ٦٢].

(٨٨) - ﴿قَالَ يَنْقُورِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمُ إِلَى مَا أَنْهَيْتُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْقُورِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾: أي: على حجة وبيان في التوحيد والصلوات.

﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾: أي: أعطاني ذلك من عنده عطاءً حسنًا.

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمُ إِلَى مَا أَنْهَيْتُكُمْ عَنْهُ﴾: أي: أخالفكم في ترك ما أمرتكم به ميلًا إلى فعل ما أنهاكم عنه، بل لا أمركم بشيءٍ إِلَّا عَمَلْتُ بِهِ، وَلَا أَنْهَاكُمْ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْتَهَيْتُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾: أي: ما أريدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ فِي الْأَرْضِ مَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾: أثبت الإرادة والفعل من نفسه، والتوفيق من ربه، وهو الجمع بين الطاعة والاستطاعة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو خلاف قول القدرية والجبرية.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾: أي: عليه اعتمدتُ لَمَّا كَانَ (١) لَا يَتِمُّ شَيْءٌ إِلَّا بِتَوْفِيقِهِ، وَأُنِيبُ إِلَيْهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ؛ أي: أرجعُ إِلَيْهِ فِي تَمَامِ مَا أُنْوِيهِ.

وجوابُ هذا الكلام محذوفٌ؛ أي: أَسْفَهُونِي عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ وَتَشَاقُونِي عَلَيْهِ؟ وهو استفهامٌ بمعنى التَّوْبِيخِ.

وقيل: الجواب على هذا التَّقْدِيرِ: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أَفَاعِدِلُ عَنْ عِبَادَتِهِ مَعَ هَذِهِ الْحَالَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَيْهَا الْمَوْجِبَةِ لَهَا.

وقيل: ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾؛ أي: نَبْوَةً.

وقيل: توفيقاً للأعمال الصالحة.

وقيل: أي: كفايةً في المعاش، وهو كما مرَّ.

﴿وَأَتَتْني مِنْهُ رَحْمَةٌ﴾ ومعناه: إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ أَهْتَدِي بِهِ إِلَى أُمُورِ الدِّينِ، وَكَفَافٍ أَصْلَحُ بِهِ أُمُورَ الدُّنْيَا؛ فَأَنَا مُسْتَغْنٍ عَنْ أَمْوَالِكُمْ، فَلَا أَمْرُكُمْ بِالْإِيْفَاءِ وَلَا أَنْهَاكُمُ عَنِ الْبَخْسِ طَمَعًا فِي مَالِكُمْ، بَلْ إِرْشَادًا لَكُمْ إِلَى إِصْلَاحِكُمْ.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الرزق الحسن: ما كُفِيَ صاحبه كَدُّ طَلِبِهِ، وَلَمْ يُصِبْهُ نَصَبٌ بِسَبَبِهِ.

ويقال: الرِّزْقُ الْحَسَنُ: مَا وُجِدَ غَيْرَ مُرْتَقَبٍ (٢) وَلَا مُحْتَسَبٍ وَلَا مُكْتَسَبٍ (٣).

(١) «لما كان» من (أ).

(٢) في (ف): «ما وجد من غير تعب» وفي (ر): «ما وجد عن غير مرتقب».

(٣) «ولا مكتسب» ليس في (أ). وهذه الألفاظ لم ترد في «اللطائف».

ويقال: الرِّزْقُ الحسن: ما يستوفيه شهوْدُ الأرزاق^(١)، ويجبُ طلبُهُ عنِ المنعِمِ بوجودِ الإِرفاقِ^(٢).

وقال في التَّوَكُّل: هو تركُ التَّدْبِيرِ لشهودِ التَّقْدِيرِ، والثِّقَّةُ بالمَوعودِ عندَ عدمِ المَوجودِ، ويتبيَّنُ ذلكُ بانتفاءِ الاضطرابِ عندَ عدمِ الأسبابِ.

وقيل: هو السُّكُونُ والثِّقَّةُ بالمضمونِ.

ويقال: سَكُونُ القلبِ بمضمونِ الرَّبِّ^(٣).

(٨٩) - ﴿وَيَقَوْمٍ لَا يُجْرِمُونَكَ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمٍ لَا يُجْرِمُونَكَ شِقَاقِي﴾: قال الحسنُ وقتادة: أي: لا يحملنَّكم^(٤).

وقال الرَّجَّاج: أي: لا يكسبنَّكم شِقَاقِي؛ أي: معاداتي ومخالفتي^(٥).
وقد شاقَّه مشاقَّة؛ أي: صار في شقٍّ، وخصمَّه في شقٍّ.

(١) في (أ): «الرِّزْق».

(٢) العبارة في «اللطائف»: (ما يستوفيه بشهود الرزق ويحفظه عند التمتع بوجود الرِّزْق). ويقال: الرزق الحسن ما لا ينسى الرِّزْق، ويحمل صاحبه على التوسعة والإنفاق).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقسري (٢/ ١٥٢ - ١٥٣).

(٤) ذكره عنهما الماوردي في «تفسيره» (٢/ ٤٩٨)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٥١)، وابن

أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٧٤)، عن قتادة.

(٥) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٧٤).

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَكُمْ نُوْحُ أَوْ قَوْمُ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾: أي: لا يحملنكم ذلك أَنْ تُصِرُّوا على الكفر، فيصيبكم مثل ما أصابهم.

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾: أي: لم يبعد العهد بما جرى عليهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ذكَّروهم حال هذه الأمم؛ لأنَّهم كانوا يقلِّدون آبائهم، فيقول: فعلوا ذلك لكن أصابهم ما أصابهم، فاجتنبوا ذلك.

ويقول أيضًا: إِنَّ قَلَدْتُمْ الَّذِينَ عبدوا الأوثان فهلكوا، فهَلَّا تقلِّدون الَّذِينَ لم يعبدوها فَنَجَّوْا^(١).

(٩٠) - ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾: قد فسَّرناه في هذه السُّورة مرارًا.

﴿إِنْ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ بمن استغفره وتاب إليه ﴿وَدُودٌ﴾ مِنَ الْوُدِّ؛ وهو الحُبُّ، ويجوزُ أَنْ يكون بمعنى الوادِّ، ويجوزُ أَنْ يكون بمعنى المودود، فَإِنَّ الْفَعُولَ^(٢) يصلح لهما.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ١٧٣).

(٢) في (أ): «الفاعل»، وفي (ر) و(ف): «المفعول». والصواب المثبت. قال الزجاجي في «تفسير أسماء الله الحسنى» (ص: ٥٢): (الْوَدُودُ يجوزُ أَنْ يكونَ فَعُولًا بمعنى فاعل ويجوزُ أَنْ يكونَ فَعُولًا بِمَعْنَى مَفْعُولٍ).

ومن العلماء من جمع المعنيين معاً، قال ابن القيم في «التيبان في أيمان القرآن» (ص: ١٤٦): (والتحقيق: أَنَّ اللفظ يدلُّ على الأمرين؛ على كونه وادًّا لأوليائه، مودودًا لهم، فأحدهما بالوَضْع، والآخر باللزوم. فهو الحبيبُ الْمُحِبُّ لأوليائه، يحُبُّهم ويحُبُّونه).

وقوله: (فأحدهما بالوَضْع، والآخر باللزوم)، شرحه في قول الزجاجي: (والله تعالى وصف نفسه في مَوَاضِعَ بَأَنَّهُ يُحِبُّ، وَلَا يُحِبُّ إِلَّا وهو أيضًا مَحْبُوبٌ مودود عند أوليائه).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: حَقُّ أَنْ يُودَّ؛ إِذْ مِنْهُ كُلُّ إِحْسَانٍ، وَالنَّاسُ جُبِلُوا عَلَى حَبٍّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ.
ويجوز: ودودٌ لِمَنْ تَوَسَّلَ إِلَيْهِ^(٣).

(٩١) - ﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا﴾: أي: لا نفهمُ لَأَنَّكَ تُحِيلُنَا عَلَى أُمُورٍ غَائِبَةٍ.

﴿وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا﴾ قال الحسن: أي: مَهِينًا^(٢).

وقال سفيان: أي: ضَعِيفَ الْبَصَرِ^(٣).

وقال سعيدُ بنُ جبيرٍ وقتادة: أي: أَعْمَى^(٤).

وقيل: أي: ضَعِيفَ الْبَدَنِ.

وقيل: أي: لا مَالَ لَكَ ولا أَعْوَان، فلا تَقْدِرُ أَنْ تَحْمِلَنَا^(٥) عَلَى مَرَادِكَ، ولا تُنْمَعُ عَنَّا إِنْ قَصَدْنَاكَ.

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ١٧٤).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١ / ٢٠٠).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥٥٣).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥٥٢) عن سعيد بن جبير، وذكره الواحدي في «تفسيره»

(٥٣٤ / ١١) عن قتادة.

(٥) في (ر): «تحيلنا».

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾: أي: عشيرتُك، وهم على ديننا.

﴿لَرَجَمَنَّكَ﴾: قيل: لرميناك بالحجارة، وقيل: لسببناك، وقيل: لقتلناك.

وقيل: لطرذناك؛ كقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ﴾ [الأعراف: ٨٨]، وهو من قوله

تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رَجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وهو طردهم وإبعادهم عن الاستماع.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ﴾: أي: في نفسك، وإنما نُعِزُّ^(١) رَهْطَكَ،

ونكره إبخاسهم فيك.

(٩٢) - ﴿قَالَ يَنْقَوْمِ ارْهَطِي أَعِزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذْهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنِّي

رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْقَوْمِ ارْهَطِي أَعِزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: أكرم عندكم وأعزُّ

من الله الذي بعثني إليكم، وألزمكم إعزائي والانقياد لي؟ استفهام بمعنى الإنكار.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذْهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا﴾: أي: جعلتم أمر الله ظهراً^(٢)؛ أي:

تستخفون به فلا تسمعون مواعظه، وتكذبون بآياته، ولا تأتمرون بأمره، وتعبدون غيره.

تقول العرب: جعلت حاجتي وراء ظهرك، وفي ضده: جعلت حاجتي نُصَبَ

عَيْنِكَ، وأمام وجهك. ومجازه: جعله حيث لا يراه، فيسهو عنه وينساه.

والظَّهْرِيُّ منسوبٌ إلى الظَّهر، كالدهريّ - بالضم - منسوب إلى الدهر، والسَّهْلِيُّ

- بالضم - منسوب إلى السَّهل، وتغيّر الحركات في النسبة كثير.

(١) في (أ): «نعزز».

(٢) في (أ): «ظهرياً»، وفي (ر): «ظهيراً».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ يعني: عالم بالكلية، يجازيكم عليها.

(٩٣) - ﴿وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ﴾: أي: اثبتوا على ما أنتم عليه، فإنني عاملٌ على مكاني؛ أي: منكم العصيان، ومنِّي الإبلاغ، وهو صيغة أمرٍ معناه التهديد.

وقيل: أي: اعملوا فقد مكنتكم في الدنيا من العمل.

وقيل: أي: على تمكّن منكم من عملكم وثبت فيه؛ كما قال نوحٌ صلوات الله عليه: ﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾: وفي قصة نوح عليه السلام: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٣٩]؛ ليتّصل بالفاء فيصير كالجواب، وهاهنا بحذفها، وهو استئناف؛ أي: سوف تعلمون الذي يأتيه عذابٌ يفضّحه، والذي هو كاذب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾: أي: وانتظروا ما يكون من حكم الله تعالى بيني وبينكم، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾: منتظرٌ مراقبٌ لكم.

(٩٤ - ٩٥) - ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبَاءٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّلْمَدِينِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمًا ۝١٤﴾ كَانَ لَرِغْوَانٍ فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ: مرّ تفسير هذه الكلمات مرّات.

وقال هاهنا: ﴿وَأَخَذَتِ﴾ على تأنيث اللفظ، وقال في قصّة صالح عليه السّلام على تذكير المعنى، فإنه في معنى الصياح، ومرّ سياق القصّة في (سورة الأعراف). وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: سوف تعلمون في العاقبة من يأتيه منّا عذابٌ يخزيه، نحن أو أنتم؟ وتعلمون أيضًا من الكاذب منّا، نحن أو أنتم؟ لأنّ كلّ واحدٍ من الفريقين يدّعي على الفريق الآخر الكذب، فارتقبوا هلاكى، وأنا أرتقب هلاككم، وارتقبوا لمن العاقبة منّا، لنا أو لكم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ﴾: هلك كلّ واحدٍ من الفريقين بالصّيحة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يُعَذَّبْ بعذابٍ واحدٍ إلّا قومان؛ قومٌ شعيب، وقومٌ صالح، فأما قومٌ صالح فأخذتهم الصّيحة من تحتهم، وقومٌ شعيب من فوقهم، فنشأت لهم سحابةٌ فيها عذابهم فلم يعلموا، كهية الظّلة فيها ريحٌ، فلمّا رأوها أتوها يستظلّون تحتها من حرّ الشّمس، فسأل عليهم العذاب من فوقهم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩] (١).

(٩٦) - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾: الآيات والسّلطان

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٦ / ١٧٧).

واحدٌ عندَ بعضهم، وهو المعجزات، لكن كُرِّرَ لاختلافِ الصَّفَتَيْنِ؛ لَأَنَّهَا سَمَّيَتْ آيَاتٍ مِنْ جِهَةِ الْعِبَرَةِ الْعَظِيمَةِ، وَسَمَّيَتْ سُلْطَانًا مِنْ جِهَةِ الْقُوَّةِ الْعَظِيمَةِ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمل أن تكون الآيات هي الأوامر والنواهي، والسُّلْطَانُ: هو البراهين^(١).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الآيات: هي المعجزات الباهرة، والسُّلْطَانُ المبين: استيلاؤه على قلب مَنْ رآه^(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]، لم يره أحدٌ إِلَّا أَحَبَّهُ، ولم يأخذه في الله فشلٌ ولا ضعفٌ، لطمَ وجهَ فرعون وهو رضيعٌ، ووكزَ القبطيَّ حتى أتى عليه، وأخذَ برأس أخيه يجرُّه إليه، وقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فُتْنُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ولم يعاتبه الله تعالى في شيءٍ من ذلك، بل تجاوز عنه لِمَا أعطاه مِنَ السُّلْطَانِ وَالْقُوَّةِ^(٣).

(٩٧) - ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

وقوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾: أي: الأشراف من قومه، والإرسال إليه يكون إرسالاً إلى العامة.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: في كلِّ ما أمر به ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾؛ أي: بمؤدٍّ إلى الحقِّ والصَّواب.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٧٨).

(٢) في (ر): «أحبه»، وفي (ف): «خص به».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٥٥).

(٩٨) - ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيُسَّ أَلْوَرْدًا مَّوْرُودًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي: يتقدمهم، فيكون قدامهم وهم خلفه؛ لأنهم رضوا بأن يكون قائدهم في الدنيا إلى خلاف ما دعا إليه موسى.
﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾: أي: يوردهم إياها، وذكر بصيغة الماضي إلحاقاً بالكائن المتحقق؛ لأنه يكون لا محالة.
والإيراد: الإدخال.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما في القرآن من الورد في ذكر جهنم، فهو الدخول فيها؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾ [مريم: ٨٦]، والله ليردنها كل بر وفاجر، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا﴾ [مريم: ٧٢]^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَيُسَّ أَلْوَرْدًا مَّوْرُودًا﴾: أي: المدخل^(٢) المدخول.

(٩٩) - ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُسَّ الرِّفْدِ الْمَرْفُودُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: أي: وأتبعهم الله ما أنزل بهم^(٣) من العذاب لعناً لهم في الدنيا، ويوم القيامة يلعنون أيضاً في النار وقبل

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٥٢)، والطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥٦٣).

(٢) في (أ): «الداخل».

(٣) في (ر): «ما يرديهم».

دخولها، وهو لعنُ الخلائق إِيَّاهم في الدُّنيا وفي الآخرة، كما في قوله تعالى:
﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقيل: هو الطُّرد في الآخرة عن الرَّحمة، فلم يُرَحِّمُوا لا في عذاب الدُّنيا ولا في عذاب الآخرة.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: هو الطُّرد في الدُّنيا عن الإيمان، وفي الآخرة عن الجنان^(١).

وقوله تعالى: ﴿يَسِّرْكَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ هو في اللُّغة لمعنيْن؛ الرَّفْد: العَوْن، والرَّفْد: العطاء، وجعله بمقابلة ما لأهل الجنة من المعونة والعطية، كما ذكر البشارة بالنار في حق الكفار بمقابلة بشارة المؤمنين بالمسار والمبار.

(١٠٠) - ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾: أي: ذلك النبأ، وهو الخبر العظيم ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾؛ أي: نخبرك بأمورها تُتبع بعضها بعضاً، وهي القرى التي سكنها الأمم الخالية، منها ما هو الآن عامرٌ قد بادَ أهلُه وخلفُهم غيرُهم ككفار فرعون^(٢)، ومنها ما هو حصيدٌ؛ أي: مستأصلٌ خرابٌ؛ كقُرى قوم لوطٍ ونحوها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿قَائِمٌ﴾: يُرى له أثرٌ، و﴿وَحَصِيدٌ﴾: لا يُرى له أثرٌ^(٣).

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٥٦).

(٢) في (ف): «كفار» بدل من «ككفار فرعون».

(٣) رواه هكذا الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٦٧) عن قتادة، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٦٧)، =

وقال مجاهد: ﴿قَائِمٌ﴾؛ أي: خاوية على عروشها، و﴿وَحَصِيدٌ﴾: مستأصل^(١).

وقال قتادة: ﴿قَائِمٌ﴾: لم يذهب أصلاً، و﴿وَحَصِيدٌ﴾: قد ذهب أصلاً^(٢).
وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾: جذرانها وحيطانها، ومنها
﴿حصيد﴾: ساقط^(٣).

(١٠١) - ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: أي: ما عذبناهم بغير ذنب،
ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك وتكذيب الرسل.

﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾: أي: فما نفعتهم، ولا دفعت عنهم ﴿آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أي: أصنامهم التي اعتقدوها آلهة معبودة.
﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾: أي: العذاب الذي أمر به.
﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾: قال مجاهد وقاتادة: أي: غير تخسير^(٤).

= وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٨٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «القائم: قرى
عامرة. والحصيد: قرى خاملة».

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٨٨).

(٢) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٣) روى أوله ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٨٢).

(٤) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٨٣).

وقيل: أي: غير هلاك^(١)؛ أي: ما زادتهم الأصنام إلا الخسار والهلاك؛ لأنَّ عبادتهم إيّاها أفضتْ بهم إلى ذلك.

(١٠٢) - ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.
 وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾:
 أي: وكما أخذنا هذه القرى التي سمّيناها - أي: أهلها - نأخذ أهل سائر القرى إذا ظلموا بالشُّرك.

(١٠٣) - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾: أي: فيما فعلنا بهم
 مَشْهُودٌ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾: أي: فيما فعلنا بهم
 وأخبرنا عنهم عبرة لِمَن اتَّقَىٰ وخشي عقوبة العُقبي.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾: أي: يُجْمَع فيه
 النَّاسُ، وَحَدَّ النَّعْتَ لِلتَّقَدُّمِ كما يُوحَّد الفعل، والمراد: جمع النَّاسِ وغيرهم فيه
 من الملائكة والجنِّ والشَّياطين والحيوانات، لكن خصَّ النَّاسَ بالذكر لأنَّهم
 المقصودون بالجمع.

﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾: أي: يشهده أهل السَّمَاوَاتِ وأهل الأرضين.

(١) في (ف): «إهلاك».

(١٠٤ - ١٠٥) - ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ﴾: أي: وما تؤخر هذا اليوم إلا لأجل معلوم العدد عندنا؛ لأنه لا يتقدم ولا يتأخر.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾: قرأ عاصم وابن عامر وحمزة بغير ياء في الوصل والوقف اتباعاً لخط المصحف، وهو لغة هذيل، يقولون: لا أدري، وقرأ الباكون بالياء في الوصل، والحذف في الوقف، إلا ابن كثير فإنه يقف بالياء أيضاً^(١).

ونصبه بإضمار: وذكرهم ﴿يَوْمَ﴾ وهو مضاف إلى ﴿يَأْتِ﴾ وهي إضافة غير محضة؛ لأنه إلى فعل لا إلى اسم^(٢)، وإنما جاز لأن اليوم اسم زمان، والزمان مع الفعل يتناسبان من حيث إن الفعل لا ينفك عنه، ويتصرف^(٣) بتصرفه، ولا يكون موجوداً إلا وقتاً واحداً كالزمان لا يبقى.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾: أي: لا تتكلم، حذفت إحدى التاءين تخفيفاً؛ أي: لا يشفع أحدٌ لأحدٍ إلا بإذن الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والهاء في قوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ ترجع إلى الله تعالى؛ كما في قوله: ﴿يَجْمُوعٌ لَهُ﴾ [هود: ١٠٣]، وقد ذكر قبله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠٢].

وقيل: ﴿يَجْمُوعٌ لَهُ﴾ يرجع إلى اليوم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٧).

(٢) في (ر) و(ف): «الفعل لا إلى الاسم».

(٣) في (ف): «ولا ينصرف».

الْقِيَمَةِ ﴿[الأنبياء: ٤٧]﴾، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ﴾ [آل عمران: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]، لكنَّ الجمعَ إلى الله تعالى، فكان قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ راجعاً إلى ذلك المدلول.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾: أي: فممنَّ يُشْهَدُ وَيُجْمَعُ له شَقِيٌّ ومنهم سعيدٌ، وحذف تكرار (منهم) اختصاراً؛ كما في قولك: بين فلان وفلان عداوةٌ.

(١٠٦) - ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا﴾: كلمة (أَمَّا) لتمييز نوعٍ من نوعٍ، أو شخصٍ من شخصٍ.

﴿فِي النَّارِ﴾؛ أي: مأواهم النار ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾: قال الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الشَّهيق: أوَّلُ صوتِ الحمار، والزَّفِيرُ آخرُهُ^(١).

وقال الضحَّاك: الزَّفِير: حين ينهق، والشَّهيق: حين يفرغ من نهيقه^(٢).

وقال مقاتل: الزَّفِيرُ: أوَّلُ نهيق الحمار، والشَّهيقُ: آخرُهُ^(٣).

وقال أبو العالية: الزَّفِير: في الحلق، والشَّهيق: في الصَّدر^(٤).

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (١٧١ / ٢) لكن على العكس بين الزفير والشهيق، ولفظه قريب مما سيأتي عن الضحَّاك.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨٩ / ٥) عن الضحَّاك ومقاتل بلفظ مطابق لما سيأتي عن مقاتل.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢٩٨ / ٢).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٧٧ / ١٢).

وقال الخليل: الزَّفير: إخراج النَّفس، والشَّهيق: ردُّ النَّفس^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية: الزفير: صوت شديد، والشهيق: صوت ضعيف^(٢).

وقيل: الزَّفير: النَّفسُ العالي للتحسُّر على الشيء الذي فات، والشَّهيق: كأنه أعلى في النَّفس من الزَّفير.

وقيل: الزَّفير: ترديد النَّفس مع الصَّوتِ مِنَ الحزن حتَّى تنتفخ الضُّلوع، وزفرتِ النَّار: إذا سُمِعَ لها صوتٌ في شدَّة توقُّدها، والشَّهيق: الصَّوتُ الفطيع يخرجُ مِنَ الجوف بمدِّ النَّفس، وأصله الطُّول المفرط، مِنْ قولهم: جبلٌ شاهق؛ أي: ممتدٌّ^(٣) طولاً.

وقيل: ذلك إذا قيل لهم: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فصاروا لا يتكلَّمون، ولم يبقَ لهم إلَّا أصواتٌ منكِّرة لا حروفَ معها.

(١٠٧) - ﴿خَلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿خَلِدِينَ فِيهَا﴾: ﴿خَلِدِينَ﴾ نَصَبٌ عَلَى الْحَالِ مِنْ فِعْلِ الزَّفير. قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: كلمةٌ تُذَكِّرُ^(٤) للتأبيد؛ كقولك^(٥): لا أكَلِّمَكَ

(١) انظر: «العين» للخليل (باب الهاء والقاف والشين) (٣/ ٣٦١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٧٧).

(٣) في (ف): «ممتنع».

(٤) في (ر) و(ف): «كله يذكر».

(٥) في (أ) و(ف): «كما يقال».

مَا حَنَّتِ النَّيْبُ^(١)، وَمَا أَطَّتِ^(٢) الْإِبِلَ، وَمَا أَوْرَقَ الشَّجَرُ، وَمَا أَيْنَعَ الثَّمَرُ، وَمَا جَنَّ لَيْلٌ،
وَمَا سَالَ سَيْلٌ، وَمَا طَرَقَ طَارِقٌ، وَمَا نَطَقَ نَاطِقٌ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾: قيل: الاستثناء يرجع إلى الموحدين منهم، لأنَّ
الأشقياء صنفان^(٣)؛ كفَّار مَخْلَدُونَ فيها، وموَحِّدُونَ مَذْنُبُونَ مُخْرَجُونَ^(٤) منها بعدَ
مَدَّةٍ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾؛ أي: مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ
الْقِبْلَةِ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَخْرَجَهُمْ^(٥).

وقال قتادة: إِنَّ قَوْمًا يَصِيبُهُمْ سَفْعٌ مِنْ نَارٍ بِذُنُوبٍ اقْتَرَفُوهَا، ثُمَّ يَخْرِجُهُمُ اللَّهُ
تَعَالَى مِنْهَا^(٦).

وقال ابن كيسان: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ فِي الْفَرِيقَيْنِ مِنْ تَعْمِيرِهِمْ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ
مَصِيرِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَالنَّارِ^(٧).

وقال الزَّجَّاجُ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ؛ قَوْلَانِ لِأَهْلِ اللُّغَةِ الْكُوفِيِّينَ
وَالْبَصْرِيِّينَ، وَقَوْلَانِ لِأَهْلِ الْمَعَانِي، فَأَمَّا أَحَدُ قَوْلِي أَهْلِ اللُّغَةِ:

فَهُوَ أَنَّ ﴿إِلَّا﴾ هَاهُنَا بِمَعْنَى: سِوَى؛ كَمَا يُقَالُ فِي الْكَلَامِ: مَا كَانَ مَعْنَى رَجُلٍ إِلَّا

(١) النيب: جمع ناب، وهي المسنة من النوق. انظر: «الصحاح» (مادة: نيب).

(٢) الأطيع: هو صوت الرحل والإبل من ثقل أحمالها. انظر: «الصحاح» (مادة: أطم).

(٣) في (ر) و(ف): «لأنَّ الأشقياء صنفين»، وفي (أ): «كان الأشقياء صنفين».

(٤) في (أ) و(ف): «يخلدون... يخرجون».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٨٩).

(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢ / ١٩٨)، والطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥٧٩).

(٧) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٩٠)، والواحدي في «البيسط» (١١ / ٥٥٩).

زيدٌ، و: لي عليك ألفُ درهمٍ إِلَّا الألفان التي عليك لي^(١)، فيكون معناه على هذا: ما دامتِ السَّمَاوَات والأَرْضُ سوى^(٢) ما شاء ربُّك من الخلود فيها أبد الأبدِين، حتى لا يخرجوا منها قط ما دامت عليها أضعاف مدة السماوات والأرض إلى ما لا تنقطع فيه الأوهام^(٣).

والثَّاني: الاستثناءُ مِنَ الإخراج مع أَنَّهُ لا يريدُ أَن يخرجَهُم: أَنَّهُ لو شاء أَن يخرجَهُم لأخرجَهُم، ولكنَّه حكم أَنَّهُم خالدون فيها، ولا تبديل لحكمه.
وأما القولان لأهل المعاني:

فأحدهما: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ مِنْ مقدارِ توقيفِهِم على رؤوسِ قبورِهِم للمحاسبة.

والثَّاني: وقع الاستثناء على الزَّيادة في النِّعيم والعذاب، وتقديرُهُ: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ مِنْ زيادة النِّعيم وزيادة العذاب^(٤).

(١) قوله: «لي عليك ألفُ درهمٍ إِلَّا الألفان التي عليك لي» كذا جاءت العبارة في النسخ، ولفظ الزجاج: (لك عندي ألف درهم سوى الألفين - وإلا الألفين - اللذين لك عندي)، والمعنى من حيث الاستدلال متقارب.

(٢) في (أ): «إلا».

(٣) قوله: «من الخلود فيها أبد الأبدِين...» إلى هنا وقع بدلاً منه في (أ): «من مقدار توقيفِهِم على رؤوس قبورِهِم للمحاسبة»، ولعله سهو من الناسخ أو سبق نظر، فإن هذه العبارة ستأتي في مكانها. أما عبارة الزجاج فقد جاءت مختصرة مفيدة للمعنى دون كل هذه الإطالة حيث قال: (سوى ما شاء ربك من الخلود والزَّيادة). وكذا نقل عنه الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٩٠)، والواحدي في «البيسط» (١١ / ٥٦١) ولفظه: (سوى ما شاء ربك أن يزيدهم من الخلود على مدة العالم).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣ / ٧٩ - ٨٠). ولعل أحسن الأقوال هو الأول؛ أي: (سوى ما شاء ربك من الخلود والزَّيادة)، ليتوافق مع قسيمه الآتي في أهل الجنة، فإنه هناك لا شك أنه للزيادة، لا =

وقيل: الاستثناء واقع من العذاب المذكور في الآية، وهو الزفير والشهيق؛ أي: لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ مدة^(١) السماوات والأرض إلا ما شاء ربك من نقلهم من هذا إلى نوعٍ آخر من العذاب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾: أي: حكمه ماضٍ في الفريقين على ما يريده، لا اعتراض لأحدٍ عليه في حكمه.

(١٠٨) - ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُوزٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ﴾: قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص بضم السين، والباقون بفتحها^(٢).

وسعد يسعد سعادةً لازم من حد (علم)، وسعده يسعده متعده من حد (صنع).

وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾: هو على ما فسرناه في الآية الأولى.

وقوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُوزٍ﴾: أي: غير مقطوع^(٣)، وقد جدَّ جدًّا؛ أي: قطع، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا﴾ [الأنبياء: ٥٨]؛ أي: قطعاً؛ أي: أعطاهم الجنة عطاءً غير مقطوع، ودل^(٤) أن الاستثناء ليس للنقصان، فكان للزيادة.

= للنقصان عن مدة دوام السماوات والأرض، ولا لعدم الزيادة على تلك المدة.

(١) في (ف): «ما دامت».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٩)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٦).

(٣) في (ر) و(ف): «منقطع».

(٤) في (ر) و(ف): «وذلك».

(١٠٩) - ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾: أي: لا تكُ في شكٍّ فيما يعبد هؤلاء المشركون من دون الله أنه باطل، فإنَّهم ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل؛ تشبُّهاً بهم، وإبقاءً لعاداتهم، لا بحجة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبُهُمْ﴾: أي: أنصباؤهم، ووحد لأنه جنس فيصلح للجمع^(١)؛ أي: من العذاب ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ من قدر استحقاقهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نصيبهم من خير أو شر^(٢).

والخطابُ للنبي ﷺ، والمرادُ به الأمة.

(١١٠) - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾: أي: في الكتاب؛ وهو التَّوراة، واختلاف قومه فيه كان من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه آمن به بعضهم، وكفر بعض.

والثاني: أنهم زادوا فيه ونقصوا منه، وهو ما ذكر من التَّحريف.

والثالث: في تأويله على ما أحبَّوه، وتقريره على مقتضاه.

(١) في (ف): «لِلوَاحِدِ وَالْجَمْعِ».

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٠٠)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٩١)، وابن أبي حاتم في

«تفسيره» (٦/ ٢٠٨٩).

وهذا تسليّةٌ للنبيِّ ﷺ، يقول: يا محمّد؛ اختلفَ فيما أُنزلَ عليك^(١)، فلا يشقَّنَّ عليك، فقد اختلفَ فيما أُنزلَ على من قبلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾: أي: قولٌ سبقَ منه؛ لأنّه لا يعاجلهم بالعذاب، بل يمهّلهم إلى أن يبلغَ الكتابُ أجله.

وقوله تعالى: ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾: أي: بالعذاب المستأصل.

وقال الإمام أبو منصور رحمة الله عليه: ويحتمل: ولولا أنّه كان من حكمه أنّهم إذا اختلفوا في الكتاب والدين، وصاروا بحيث لا يهتدون إلى شيء، أن يبعثَ رسولاً يبيّن لهم الدين، ويدعوهم إلى الهدى ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ بالهلاك^(٢).

ثمّ قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يجوز أن يكون في كفار عصر رسول الله ﷺ، ويحتمل أن يكون في قوم موسى عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَلِإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾: أي: من العذاب.

وقيل: من الدين؛ لأنّهم يقلّدون آباءهم.

و﴿مُرِيبٍ﴾: نعت ﴿شَكٍّ﴾، وهو الموجبُ اتّهام الرّأي فيه^(٣).

(١١١) - ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾ فيه أربع قراءات:

قرأ ابنُ كثير ونافع بتخفيفهما.

(١) في (ف): «إليك».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٩٠).

(٣) في (ف): «وهو المخيب اتهام الرّأي فيهم».

وقرأ ابنُ عامر وحمزة وحفص عن عاصم بتشديدهما^(١).

وقرأ أبو عمرو والكسائي بتشديد ﴿إِنَّ﴾ وتخفيف ﴿لَمَّا﴾.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بتخفيف ﴿إِنَّ﴾، وتشديد ﴿لَمَّا﴾^(٢).

أما تخفيفهما: فـ(إِنَّ) للتأكيد، وأصله التشديد، وخُفِّفَ للتفسير فبقي ناصباً كما كان، و(لَمَّا): اللَّامُ لِأَمِّ التَّأَكِيدِ، و(ما) صِلَةٌ زَائِدَةٌ مُؤَكِّدَةٌ، و﴿يُؤَفِّقُهُمْ﴾ لام توكيد أيضاً، وهو جمعٌ بين تأكيدين، وتقديره: وَإِنَّ كَلَّامِ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنَ الْمُتَفَقِّينِ^(٣) والمختلفين في كتاب موسى وكتابك يوفِّيه ربُّكَ يا مُحَمَّدُ جزاءَ أعمالهم، والجزاء مُضْمَرٌ.

وكذلك تأويل تشديد الأوَّل وتخفيف الثاني.

ويجوز على هاتين القراءتين أَنْ تكون ﴿لَمَّا﴾ المخففة لام ابتداء، و(ما) بمعنى الَّذِي، ويكون نظير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مریم: ٧١]، ﴿لَمَنْ يُبْطِئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢].

وأما تشديدهما فـ﴿إِنَّ﴾ للتأكيد، و﴿لَمَّا﴾ بالتشديد له وجوه:

منها: قول الفراء: وهو أَنَّ أصله: (لَمِنْ مَا)^(٤)، فاجتمعت ثلاث ميمات، حتَّى أُدْغِمَتْ

(١) في (ف): «بتشديدهم».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٩)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٦).

(٣) «من المتفقين» من (أ).

(٤) في (ر) و(ف): «صلة لمن ما»، وفي (أ): «أصله أن ما»، والصواب المثبت. و(من) على هذا القول هي الجارة، و(ما) هي الموصولة أو الموصوفة، وهي واقعة على مَنْ يعقل. هذا على قول الفراء، وذهب غيره منهم المهدوي إلى أن (مَنْ) هي الموصوفة أو الموصولة، و(ما) زائدة، ثم في كلا الوجهين صنع ما سيأتي من الحذف، قال هذا أبو حيان في «البحر» (٣٧٥ / ١٢) ثم تعقبه بقوله: =

ثُمَّ خَفَّفْتُ، فَصَارَتْ (لَمَّا)، وتقديره: وَإِنَّ كَلًّا مِنَ الْمُتَّفِقِينَ وَالْمُخْتَلِفِينَ لَمَّا لِيُوفِيَنَّهُمْ، وتكرار لام التوكيد في موضعين^(١) على طريق قولهم: إِنِّي لَبِحَمْدِ اللَّهِ لَصَالِحٌ^(٢).

ومنها: قول الزَّجَّاج: (وَإِنَّ [كَلًّا] لَمَّا) بمعنى جمعاً، مِنْ قَوْلِكَ: لَمُمْتُ الشَّيْءَ أَلُمُّهُ لَمًّا؛ أي: جمعته^(٣)، و(لَمَّا) على وزن فَعَلَى، بمعنى جمعاً فلم ينصرف؛ كما تقول: تَتَرَى، وتقديره: وَإِنَّ كَلًّا جَمْعًا لِيُوفِيَنَّهُمْ. وعليه قراءة الزهري: (لَمَّا) بالتَّنوين^(٤).

ومنها: قول المازني: إِنَّهَا فِي مَعْنَى: لَمَّا^(٥) المخففة، شُدِّدَتْ لِلتَّأْكِيدِ^(٦). وَأَمَّا تَخْفِيفُ ﴿إِنْ﴾ وَتَشْدِيدُ ﴿لَمَّا﴾: ف(إِنْ) لِلنَّفْيِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ [الطارق: ٤]، و﴿لَمَّا﴾ فِي مَعْنَى إِلَّا؛ كَقَوْلِكَ: سَأَلْتُكَ لَمَّا فَعَلْتَ؛ بِمَعْنَى: إِلَّا فَعَلْتَ، وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]؛ أَي: مَا كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ، وَتَقْدِيرُهُ هَاهُنَا: مَا كُلُّهُمْ إِلَّا لِيُوفِيَنَّهُمْ، وَهُوَ اخْتِيَارُ الزَّجَّاجِ^(٧). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: أَي: عَالِمٌ، وَهُوَ وَعْدٌ وَوَعِيدٌ لِلْفَرِيقَيْنِ.

= (وهذان الوجهان ضعيفان جداً...)، وانظر باقي كلامه ثمة.

(١) في (أ): «موضعهم».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢ / ٢٩ - ٣٠).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣ / ٨٢).

(٤) ذكرها الفراء في «معاني القرآن» (٢ / ٣٠)، والطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥٩٨)، والثعلبي في «تفسيره»

(٥ / ١٩٢). وهي قراءة شاذة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ٦٦).

(٥) في (أ): «لما». وهي سقط من (ف).

(٦) ذكر الزجاج هذه القول ورده. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣ / ٨١)، وانظر: «البيسط» للواحدي

(١١ / ٥٧٢).

(٧) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣ / ٨١).

(١١٢) - ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾: أي: استقم على طاعة الله عز وجل كما أُمِرْتَ به من التبليغ والإنذار والوعظ والصبر على ما قُلِدْتَهُ، قال: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [الشورى: ١٥].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: هو المذكور في قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمُوا﴾ [الأحقاف: ١٣]، فقوله: ﴿قَالُوا﴾ إقرار، والاستقامة عليه أن يجعل في نفسه وجميع أموره الربوبية والألوهية لله جل جلاله، ويأتي ما يجب أن يؤتى، وينتهي عما يجب أن ينتهي عنه، ويتبع أمره ونهيهِ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾: أي: وليستقم من تاب معك^(٢) من الشرك ورجع إلى الله تعالى بأعماله مخلصاً بها على إيمانهم وإخلاصهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾: أي: لا يحملنكم إمهال الله تعالى على مجاوزة أمره. وقيل: لا تطغوا في الاستقامة، فتخرجوا عن حدها بالزيادة على ما أُمِرْتُمْ به فرضاً أو نفلاً.

وقيل: أي: لا تطغينكم النعمة فتخرجوا عن الاستقامة، والطغيان: تجاوز المقدار في الفساد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: يرى أعمالكم، ويعلم أسراركم، ويوفي جزاءكم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ١٩١).

(٢) في (أ): «واستقم ومن تاب» وفي (ف): «واستقم مع من تاب» بدل: «وليستقم من تاب معك».

آيَةٌ كَانَتْ أَشَدَّ عَلَيْهِ وَلَا أَشَقَّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ. وَلِذَلِكَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ حِينَ قَالُوا: قَدْ أَسْرَعَ الشَّيْبُ فَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «شَيَّبَنِي هُوْدٌ وَالْوَاقِعَةُ وَأَخَوَاتُهُمَا»^(١).

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتُ﴾؛ أَي: عَلَى الْقُرْآنِ^(٢).
وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْخَطَابُ لَهُ وَالْمَرَادُ أُمَّتُهُ^(٣).

وَقَالَ الْإِمَامُ الْقَشِيرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ السَّيْنُ فِي (الاستقامة) سَيْنَ الطَّلَبِ؛ أَي: سَلِّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى الْإِقَامَةَ لَكَ عَلَى الْحَقِّ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَسْتَقِمَّ﴾: فَأَقِمَّ، يُقَالُ: اسْتَقَامَ وَأَقَامَ؛ كَمَا يُقَالُ: اسْتَجَابَ وَأَجَابَ.

قَالَ: وَيُقَالُ: الْمُسْتَقِيمُ: مَنْ لَا يَنْصَرِفُ عَنْ طَرِيقِ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَمْ يَصِلْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، يَصِلُ سِيرُهُ بِسُرَاهُ^(٤)، وَوَرَعُهُ بِتَقْوَاهُ، وَيَبَالُغُ فِي تَرْكِ هَوَاهُ.

قَالَ: وَيُقَالُ: اسْتَقَامَةُ النَّفُوسِ فِي نَفْيِ الزَّلَّةِ، وَاسْتَقَامَةُ الْقُلُوبِ فِي نَفْيِ الْغَفْلَةِ، وَاسْتَقَامَةُ الْأَرْوَاحِ فِي نَفْيِ الْعِلَاقَةِ، وَاسْتَقَامَةُ الْأَسْرَارِ فِي نَفْيِ الْمَلَا حِظَةِ.

وَاسْتَقَامَةُ الْعَابِدِينَ: أَلَّا يَدَّخِرُوا نَفُوسَهُمْ عَنِ الْعِبَادَةِ، وَلَا يَخْلُؤُوا^(٥) بِأَدَائِهَا، يَقْضُونَ عَسِيرَهَا^(٦) وَيَسِيرَهَا.

(١) ذَكَرَهُ بِتَمَامِهِ الثَّعْلَبِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٩٢ / ٥)، وَرَوَى الْمَرْفُوعُ مِنْهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٢٩٧) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

(٢) رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٩٩ / ١٢) عَنْ سَفْيَانَ.

(٣) ذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٩٢ / ٥)، وَالْوَاهِدِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٧٦ / ١١).

(٤) فِي الْمَطْبُوعِ مِنْ «لَطَائِفِ الْإِشَارَاتِ»: «بِمَسْرَاهُ».

(٥) فِي النُّسخِ: «يَخْلُونَ»، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ «الْطَّائِفِ».

(٦) فِي النُّسخِ: «غَيْرَهَا»، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ «الْطَّائِفِ».

واستقامة الزَّاهدين: أَلَّا يَرْجِعُوا إِلَى دُنْيَاهُمْ، يَتْرَكُونَ قَلِيلَهَا وَكَثِيرَهَا.
واستقامة التَّائِبِينَ: أَلَّا يُلْمُوا بَعْدَ التَّوْبَةِ بَزَلَّةٍ، فَيَدْعُونَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا^(١).

(١١٣) - ﴿وَلَا تَرْكُؤُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُؤُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: الرُّكُون - مِنْ حَدِّ (علم) - فِي اللُّغَةِ: السُّكُون إِلَى الشَّيْءِ بِالمَحَبَّةِ لَهُ وَالمِيلِ إِلَيْهِ.

قال ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَي: لَا تَمِيلُوا^(٢).

وقال أَبُو الْعَالِيَةِ: أَي: لَا تَرْضَوْا بِأَعْمَالِهِمْ^(٣).

وقال قَتَادَةُ: أَي: لَا تَلْحَقُوا بِالمُشْرِكِينَ^(٤).

وقال ابن حِيَّان: لَا تَسْكُنُوا^(٥).

وقال السُّدِّيُّ: أَي: لَا تَدَاهِنُوا^(٦).

وقال سَفِيَّانُ الثَّوْرِيُّ^(٧): مَن لَاقَ^(٨) لَهُمْ دَوَاةً، أَوْ بَرَى لَهُمْ قَلَمًا، أَوْ نَاوَلَهُمْ

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢/ ١٦٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٠١).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٠٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٠).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٠).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٣) عن ابن كيسان.

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٣)، والواحدي في «البيضا» (١١/ ٥٧٧).

(٧) في (ف): «وقال السدي».

(٨) في النسخ «ألاق»، والصواب المثبت، لأن (لاق الدواة) أي: أصلح مدادها. انظر: «القاموس =

قرطاسًا يكتبون عليه، دخل في هذا؛ قال الله تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]؛ أي: وأعاونهم^(١).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: لا تعملوا بأعمالهم، لا تمدحوهم على أعمالهم، ولا تتركوا الأمر بالمعروف عليهم، لا تأخذوا شيئاً من حرام أموالهم، لا تمكّنوهم من قلوبكم، لا تخالطوهم، لا تعاشرهم؛ كل ذلك محتمل^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾: جوابُ النَّهي بالفاء فنصبَ لذلك ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ وفي النظم تقديمٌ وتأخيرٌ: ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ... ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾؛ أي: لا تُعَاوَنُونَ^(٣) بدفع العذابِ عنكم ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾: يتولّونكم ويدفعون عنكم.

وقيل: هو مقررٌّ على نظمه، ومعناه: ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ ولا أولياء لكم حينئذٍ يتولّون^(٤) دفعه عنكم ﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾.

(١١٤) - ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكْرَيْنِ﴾.

= المحيط» للفيروزآبادي (مادة: ليق)، أما (ألاق) فلا تستخدم لهذا المعنى. انظر: «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (مادة: ألقى).

(١) ذكره الإمام أحمد في «الورع» (ص: ٩٣)، وأبو طالب المكي في «قوت القلوب» (٢/ ٤٣٤)، ويروى مرفوعاً: رواه الإمام أحمد في «الورع» (ص: ٩٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وذكره الديلمي في «الفردوس» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٦١).

(٣) في (ف): «تعاونوا».

(٤) في (أ) و(ف): «مولون».

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾: قال سعيد بن جبير: الطرفان: الغداة والعشي، فصلاة طرفي الغداة: صلاة الفجر، وطرفي العشي^(١): الظهر والعصر^(٢). وفي الخبر: سها رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشي؛ إمّا الظهر وإمّا العصر^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَزُلْفَاءَ مِنَ اللَّيْلِ﴾: جمع زُلْفَةٍ؛ وهي المنزلة، وأراد بالزُلْفَةِ: ساعات الليل؛ وهي كالمنازل والمراحل المزدلفة؛ أي: المقترنة^(٤)، وأراد بذلك صلاة المغرب والعشاء؛ قاله الحسن وقتادة^(٥).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ قال ابن عباس والضحاك وقتادة والسدي وعطاء والحسن: أي: الصلوات الخمس^(٦).

وروى عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «الصلوات الخمس الحسنات يذهبن السيئات»^(٧).

(١) في (ر) و(ف): «وفي طرفي العشاء».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٦٠٢) عن مجاهد ومحمد بن كعب القرظي.

(٣) رواه مسلم (٥٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في (ر) و(ف): «المقترنة».

(٥) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٦٠٩ - ٦١٠).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٦١٢ - ٦١٣) عن ابن عباس وابن مسعود والحسن والضحاك ومحمد بن كعب القرظي ومسروق.

(٧) روى نحوه الإمام أحمد في «المسند» (٥١٣)، والبخاري في «مسنده» (٤٠٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٨١٧)، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٣٢٣)، وصحح إسناده السيوطي في «الدر المنثور» (٤ / ٤٨٥). ولفظ البيهقي والضياء أقرب إلى لفظ المصنف.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «الصلوات كفارة الخطايا، فاقروا إن شئتم: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾»^(١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: الصلوات نفسها تكفر الخطايا، وقيل: يذكر ما ارتكب من الذنوب فيندم عليها، فذلك المكفر^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ﴾؛ أي: عظة للمتعتبين.

وقيل: النهي عن الركون إلى الذين ظلموا، والأمر بإقامة الصلاة، عظة للذاكرين الله بقلوبهم وألسنتهم، فهم يذكرون فضله وعدله وثوابه وعقابه، فيرجعون ويخشعون فيتعظون ويستقيمون.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت الآية في أبي اليسر عمرو بن غزية الأنصاري^(٣)؛ وكان رجلاً يبيع التمر، فأتته امرأة تبتاع تمرًا، فراودها عن نفسها، ثم ندم، وأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله؛ إنني راودت امرأة عن نفسها، ونلت منها ما نال الرجل من امرأته إلا الجماع، فقال النبي ﷺ: «انتظر ما يأمرني فيه ربي»، فحضرت صلاة العصر، فصلّى النبي ﷺ العصر، فلما فرغ أتاه جبريل بهذه الآية،

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٩٠٧)، ومن طريقه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٨١)، ورواه

الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (١٨٩٨)، وابن عدي في «الكامل» (٢ / ١٠٤).

(٢) في (أ): «فذلك التكفير». وانظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ١٩٤)، وفيه: (فذلك يكفر).

(٣) قال ابن حجر في «الإصابة» (٤ / ٥٥٣): انفرد الكلبي بتسميته غزية بن عمرو. ووردت القصة

لنبهان التمار، ولأبي اليسر كعب بن عمرو. وأغرب الثعلبي في تفسيره، فسمى أبا اليسر عمرو بن غزية، كأنه رأى القصة وردت لهما، فظنه واحدًا، فإن كان ضبطه حمل على أن عمرو بن غزية كان يكنى أبا اليسر أيضاً، فيستدرك على مصنفي المشتبه، فإنهم لم يذكروا من الصحابة إلا أبا اليسر كعب بن عمرو.

فقال النَّبِيُّ ﷺ: «أَيْنَ أَبُو الْيَسْرِ؟» فقال: هذا يا رسول الله، فقال: «أَشْهَدُتَ مَعَنَا هَذِهِ الصَّلَاةَ»، قال: نعم، قال: «فَإِنَّهَا كَفَّارَةٌ لِمَا عَمَلْتَ»، فقام عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، أهذا له خَاصَّةٌ أَمْ لَنَا عَامَّةٌ؟ قال: «بَلْ لَكُمْ عَامَّةٌ»^(١).

وقال مقاتل: نَزَلَتْ فِي أَبِي مَقْبَلٍ عَمْرٍو بْنِ قَيْسِ التَّمَّارِ^(٢)، أُمَّتُهُ امْرَأَةٌ فِي السُّوقِ تَرِيدُ التَّمْرَ، فَقَالَ لَهَا: إِنَّ هَذَا التَّمْرَ لَيْسَ بِجَيِّدٍ، وَفِي الْبَيْتِ تَمْرٌ أَجْوَدُ مِنْ هَذَا، هَلْ لَكَ فِيهِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَذَهَبَ بِهَا إِلَى بَيْتِهِ، فَقَبَّلَهَا وَجَعَلَ يَدُورُ حَوْلَهَا، وَالْمَرْأَةُ تَقُولُ لَهُ: أَتَقِي اللَّهَ، فَتَرْكُهَا، وَسُقُطَ فِي يَدِهِ، فَأَتَى أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَأَلَ عَنْ ذَنْبِهِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اسْتَرِ عَلَى نَفْسِكَ وَتَبَّ إِلَى اللَّهِ، فَأَتَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ لَهُ كَذَلِكَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ هَذِهِ الْآيَةَ^(٣).

(١) القصة بمجملها صحيحة، فقد روى نحوها البخاري (٥٢٦)، ومسلم (٢٧٦٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

والبخاري (٦٨٢٣)، ومسلم (٢٧٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه.
ومسلم (٢٧٦٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. وليس في الصحيحين تعيين صاحب القصة. وكذا رواه بنحوه دون تعيين الإمام أحمد في «مسنده» (٢٢٠٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٩٣١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وسياقه قريب مما سيأتي عن مقاتل. ورواه الترمذي (٣١١٥) من حديث أبي اليسر قال: (أُتِنِي امْرَأَةٌ تَبْتَاعُ تَمْرًا...) فذكره، قال الترمذي: حسن غريب، وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره.

وقد وقع في صاحب القصة اختلاف قدمنا بعضاً منه عن «الإصابة»، ومما قيل في اسمه: كَعْبُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْيَسْرِ، وقيل: إِنَّهُ عَمْرُو بْنُ غَزِيَّةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْأَنْصَارِيِّ أَبُو حَبَّةَ التَّمَّارِ، وقيل: ابْنُ مُعْتَبٍ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وقيل: أَبُو مُقْبَلٍ عَامِرُ بْنُ قَيْسِ الْأَنْصَارِيِّ، وقيل: نَبْهَانُ التَّمَّارِ، وقيل: عَبَّادٌ. وقال الحافظ أيضاً في «الفتح» (٣٥٧/٨) بعد أن ذكر الاختلاف عليه: وأقوى الجميع أنه أبو اليسر.

(٢) في «تفسير مقاتل»: «عمر بن قيس».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٠١-٣٠٢). وانظر ما تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا﴾ =

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الحسنات: ما يجودُ به الحقُّ، والسيِّئات: ما يُذنبُ به العبدُ.

وقيل: حسناتُ الندمِ يُذهبنَ سيِّئاتُ الجُرمِ.

وقيل: حسناتُ العِرفانِ يُذهبنَ سيِّئاتُ العصيانِ.

وقيل: حسناتُ العناية يُذهبنَ سيِّئاتُ الجناية^(١).

(١١٥) - ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾: قيل: واصبرْ على أمرِ الله والصَّلاةِ له؛ كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، فإنَّه إحسانٌ، ﴿اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وقيل: واصبرْ على أداءِ ثقلِ الرِّسالة، وعلى ما ينالك من الأذى بتبليغها ولا تُكافهم، فإنَّه إحسانٌ.

وقيل: اصبر على ترك^(٢) المعاصي، وأحسنِ الأعمال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: المصلِّين^(٣).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الصَّبر: تجرُّعُ كاساتِ التَّقديرِ من غيرِ تعيسٍ.

= فَحِشَّةٌ أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴿الآية.

(١) في (ر): «الخيانة». وانظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٦١).

(٢) في (أ) و(ف): «عن» بدل: «على ترك».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٤)، والواحدي في «البيسط» (١١/ ٥٨٤).

وقيل: الصَّبر: حبس النَّفْس على معانقة الأمر ومفارقة الزَّجر.
﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: العالمين أَنَّ الأجرَ على الصَّبر والطَّاعة
بفضل الله، لا بفعل العبد^(١).

(١١٦) - ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا
قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.
وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ
إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾: بيَّن
أنَّه لم تُهْلِكِ القرونُ الَّتِي ذَكَرَ قصصها إِلَّا بظلمهم، فقال: فهَلَّا كَانَ مِنَ القرونِ
الماضية ذو عقلٍ وتدبيرٍ وبقيةٍ خيرٍ ينهون قومهم عن الفسادِ في الأرض؛ وهو إظهارُ
الكفرِ والمعاصي، والتَّظالمِ والفسادِ وسفكِ الدِّماءِ ونهبِ الأموالِ وانتهاكِ الحُرْمِ؛
ليمتنعوا عن ذلك كله.

وتحقيقُ هذا التَّوبيخِ نفِي وجودِ ذلك؛ أي: لم يكن^(٢) فيهم أولو بقيةٍ يفعلون
هذا إِلَّا قليلاً منهم، ولم يقبلِ الباقون قولهم، وهذا القليلُ هم المؤمنون بالأنبياء
الذين قال الله فيهم: (أَنْجَيْنَا فَلَانًا وَالَّذِينَ آمَنُوا معه)^(٣).

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ [هود: ١١٦]؛ أي: نُعموا. والمتَّرفُ:
المنعم، والتَّرفَةُ: النعمة.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقسري (٢/ ١٦٢).

(٢) في (ر): «يوجد».

(٣) في (ف): «أُنجيناها والذين آمنوا معه»، وفي (ر): «فأنجينا الذين آمنوا معه».

أي: إِنَّ الْمُتَعَمِّينَ الَّذِينَ نَشَؤُوا فِي اللَّذَاتِ لَمْ يَنْهَوْا عَنِ الْفَسَادِ، وَلَمْ يَنْتَهَوْا بِأَنْفُسِهِمْ، بَلِ اتَّبَعُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَحْوَالِ، وَكَانُوا مُجْرِمِينَ مُشْرِكِينَ مُسْتَكْثَرِينَ مِنَ الْمَعَاصِي.

وَدَلَّتِ الْآيَةُ أَنَّ أَكْثَرَ مَا يَمِيلُ إِلَى الْكُفْرِ وَالْبَاطِلِ هُمُ الْمُتَرَفُونَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

(١١٧) - ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾: أي: ليس من صفة ربك أن يَهْلِكَ القرى ظالماً؛ أي: بغير ذنبٍ منهم؛ أي: لم يَهْلِكْ أهل القرى الذي^(١) عُدِّبَ في هذه السُّورة وهو ظالم، قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقيل: قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾؛ أي: بظلمٍ منهم؛ يعني: بشرك^(٢) الله.

﴿وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾: فيما بينهم، لا يتظالمون.

ودلَّ أنَّ هذه القرى لو تكافَتْ عن الظُّلم لم يُهْلِكُوا.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: المصلح: مَنْ قامَ بِحَقِّ رَبِّهِ دُونَ حِطِّ نَفْسِهِ.

وقيل: المصلح: مَنْ اهْتَمَّ لِنَفْسِهِ، فَأَثَرَ نَجَاتَهُ عَلَى هَلَاكِهِ.

وقيل: هو المصلحُ قلبه لمعرفة سيِّده، والمصلحُ سرّه لمشاهدة سيِّده^(٣).

(١) في (ر) و(ف): «التي».

(٢) في (أ): «يعني شرك»، وفي (ر): «أي: بشرك».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٦٣).

(١١٨ - ١١٩) - ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: أي: متفقة على الإيمان والطاعات؛ كما قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ: أي: ولكن شاء أن يكونوا مختلفين لما علم منهم اختيار ذلك، فلا يزالون مختلفين هكذا كما شاء، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ فعصمه عن الاختلاف لما علم منه اختيار الحق، ووفقه للنظر والاستدلال فأدرك الحق.

﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾: أي: لما هم عليه من الاختلاف.

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: أي: مضى ^(١) قول ربك فيهم بما علم منهم، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال عكرمة ومجاهد: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يعني: أهل الأهواء ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ يعني: أهل السنة والجماعة ^(٢).

وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ وهم الحنيفية، للرحمة خلقهم ^(٣).

(١) «مضى» من (أ).

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٦٣٣) عن مجاهد، وروى نحوه (١٢ / ٦٣٥) عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٦٣٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٩٤).

وقال ابن عباس والضحاك ومجاهد وقتادة: وللرحمة خلقهم؛ يعني: الذين رحمهم^(١).

قال الحسن: وللاختلاف خلقهم^(٢)، وبه قال مقاتل بن حيان ويमान بن رثاب وعطاء^(٣).

قال النبي ﷺ: «اعملوا فكل مسرر لما خلق له»^(٤).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ولو شاء الحق لجعلهم أرباب الوفاق ثم لم يوجبوا لمملكته زينا، ولو شاء لجعلهم أرباب الخلاف ثم لم يوجبوا لجلاله شيئا. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِفِينَ﴾ لأنه كذلك أراد بهم ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ في سابق حكمه، فعصمه عن الخلاف في حاصل عمره.

﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ كَلَّا لِمَا أَقَامَهُمْ بِهِ وَنَصَبَهُمْ لَهُ وَأَثَبَهُمْ فِيهِ؛ مِنْ وَفَاقٍ وَشَقَاقٍ، وَجُحُودٍ وَتَوْحِيدٍ.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾؛ أي: لا تبديل لقوله، ولا تحويل لحكمه^(٥).

(١٢٠) - ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٦٣٩ - ٦٤٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٦٣٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٩٦).

(٣) ذكره عنهم الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٩٤)، والواحدي في «تفسيره» (١١ / ٥٨٩).

(٤) رواه البخاري (٧٥٥١)، ومسلم (٢٦٤٩) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ١٦٣).

وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾: أي: وكل القصص.

وقيل: أي: وكل الذي تحتاج إليه نخبرك به من أخبار الرسل.
و﴿مَا نُنْثِبُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾: ﴿مَا﴾ بدل عن ﴿وَكَلَّا﴾. قاله الزجاج^(١).
وقيل: ﴿وَكَلَّا﴾؛ أي: ومن كل.

ومعنى الآية: ونقص عليك الأفاصيل كلها من أخبار الرسل تثبيتاً لفؤادك؛ أي: تسكيناً له، وتقويةً على الاستقامة، وتبليغ الرسالة، وتقرير الحجج، والصبر على أذى الكفار، والاستقامة على الصبر بإقامة الصلوات.
وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَا نُنْثِبُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ يعني: نسدد^(٢). وقال الضحاك: نقوي. وقال ابن جريج: نصبر^(٣).

وقال بعضهم: نطيب.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾: أي: في هذه السورة ما يحق تدبره والعمل به.

وقال الحسن: أي: في هذه الدنيا الحجج والبراهين^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: المؤمنون هم الذين يتفعون^(٥).

به.

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣ / ٨٤).

(٢) في (ف): «نشد».

(٣) ذكر هذه الأقوال الثلاثة الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٩٥)، والواحي في «البيضا» (١١ / ٥٩١).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٦٤٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٩٦).

(٥) في (أ): «هم المتفعون».

وقيل: لِمَنْ هُمُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْعَمَلُ بِشَرَائِعِهِ، لَا لِمَنْ أُتْرِفَ فِيهَا، وَاتَّبَعَ مَا أُتْرِفَ فِيهِ.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: قَصَّ عَلَى نَبِيَّنَا قِصَصَ الْجَمِيعِ، وَلَمْ يَذْكُرْ قِصَّتَهُ لِأَحَدٍ تَشْرِيفًا لَهُ وَتَخْصِيصًا.

وقال: وَلَمْ يَكُنْ ثَبَاتٌ قَلْبِهِ بِمَا قُصَّ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ كَانَ اسْتِقْلَالُ قَلْبِهِ بِمَنْ كَانَ يَقْصُ^(١) عَلَيْهِ، وَفَرَقَ بَيْنَ مَنْ يَسْتَقِلُّ بِمَا يَسْمَعُ، وَبَيْنَ مَنْ يَسْتَقِلُّ بِمَنْ مِنْهُ يَسْمَعُ. وَأَنْشَدَ لِبَعْضِهِمْ:

وَحَدَّثَنِي يَا سَعْدُ عَنْهَا فَرَدَّتَنِي جَنُونًا فَرَدَّنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعْدُ^(٢)

(١٢١ - ١٢٢) - ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ (١٣) وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾: أي: قل يا محمد للمشركين: اعملوا على تمكُّنكم ما أحببتم، إِنَّا عَامِلُونَ بِمَا أَمَرْنَا، وَهَذَا أَشَدُّ وَعِيدٍ وَتَهْدِيدٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾: قال ابن جريج: انتظروا ما يعدُّكم

(١) في (ف): «قص» بدل: «كان يقص».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٦٣ - ١٦٤). والبيت مختلف في نسبته، فنسب للعباس بن أحنف كما في «زهر الآداب» للقيرواني (١/ ٢١٤)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (١٣/ ٢٤٦).

ونسب لابن أبي عيينة كما في «الحماسة المغربية» (٢/ ٩٦٤).

ونسب لعبد الله بن المعتز كما في «المتنحل» للثعالبي (ص: ٢١١).

الشَّيْطَانِ مِنَ الْغُرُورِ، فَإِنَّا مَتَّظِرُونَ مَا يَعِدُنَا بِهِ الرَّحْمَنُ^(١) مِنَ النَّصْرِ وَالْعُلُوِّ^(٢).
وقال بعضهم: انتظروا ما أُوعِدْتُمْ بِهِ عَلَى الْكُفْرِ، فَإِنَّا مَتَّظِرُونَ مَا وُعِدْنَا بِهِ عَلَى
الْإِيمَانِ.

(١٢٣) - ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ
وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: هو العالم بعواقب الأمور
وبغيب السماوات والأرض، وهو ما غاب عن حسِّ العباد، فليس يخفى عليه شيء
من أفعال المشركين وأقوالهم، فيحاسِبُهُم بها ويجازيهم عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾: أي: الأمور كلها، فهو جنس؛ أي: لا
ينفذ فيها إلا حكمه، وهو المستحقُّ لذلك الأفراد بالعبادة.

﴿فَاعْبُدْهُ﴾ يا محمد بإخلاص ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ غير خائفٍ سواه، ولا راجٍ
غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: فيثبُّ المؤمنين المطيعين،
ويعاقب الكافرين والعاصين.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: عمى على العباد العواقب، وأخفى عليهم
السَّوابق^(٣)، وألزمهم القيام بما كلفهم في الحال، فقال: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ فَإِنْ تَقَسَّمَ الْقَلْبُ

(١) في (أ) و(ف): «يعدنا الله».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٦٤٨).

(٣) في (أ): «عليهم السَّوابق»، وفي (ف): «رؤياهم السَّوابق». ولفظ «اللطايف»: (دونهم السَّوابق).

وَتَرْجَمَ الظَّنُّ فَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ؛ أَي: اسْتَدْفِعِ الْبَلَاءَ عَنْكَ بِحَسَنِ الظَّنِّ وَدَوَامِ الرَّجَاءِ.
﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: بَلْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَمْضَى فِي كُلِّ
أَمْرٍ حَكَمًا^(١).

وَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: فَاتِحَةُ التَّوْرَةِ فَاتِحَةُ سُورَةِ الْأَنْعَامِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَعْدِلُونَ﴾،
وْخَاتِمَةُ التَّوْرَةِ خَاتِمَةُ هُودٍ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الْآيَةُ^(٢).
وَبِاللَّهِ الْعَوْنُ.

أَتَمَمْتُ هَذِهِ السُّورَةَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ الْمَعْبُودِ، الرَّبِّ الَّذِي يَحِقُّ لَهُ الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ،
الْمَلِكُ^(٣) الَّذِي يَرْبِّي بِفَضْلِهِ الْوَالِدَ وَالْمَوْلُودَ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ الْمَوْجُودُ
وَالْمَفْقُودُ.

فَنَسَأُلُهُ الْأَمَانَ عَنْ^(٤) وَسَاوِسِ الْمَطْرُودِ، وَخَاتِمَةِ السَّعَادَةِ بِبَرَكَاتِ سُورَةِ هُودٍ،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢/ ١٦٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٤٧).

(٣) في (ر) و(ف): «الرب».

(٤) في (ف): «عند».

سُورَةُ يُوسُفَ

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي جَعَلَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ قِصَّةَ يُوسُفَ، الرَّحْمَنِ الَّذِي جَعَلَ الْمُلْكَ
بَعْدَ السَّجَنِ حِصَّةَ يُوسُفَ، الرَّحِيمِ الَّذِي كَشَفَ بِالتَّقْوَى وَالصَّبْرِ غَصَّةَ يُوسُفَ.

وَرَوَى أَبِي بَنْ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عَلِّمُوا أَرْقَاءَكُمْ سُورَةَ
يُوسُفَ، فَإِنَّهُ أَيْ أَمْرِي مُسَلِّمٌ تَعْلَمُ سُورَةَ يُوسُفَ وَعَلَّمَهَا مَلِكٌ يَمِينُهُ وَأَهْلُهُ هَوْنٌ اللَّهُ
عَلَيْهِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، وَأَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى الْقُوَّةَ أَلَّا يَحْسَدَ مُسْلِمًا»^(١).

وسورة يوسف مكيّة، وهي مئة وإحدى عشرة آية، وألف وسبع مئة وسبع
وسبعون كلمة، وسبعة آلاف ومئة واثنان وستون حرفاً.

وانتظام أوّل هذه السّورة بآخر السّورة الّتي قبلها: أَنَّهُ افْتَتَحَ هَذِهِ السّورة بقوله:
﴿الرَّ﴾ معناه: أَنَا اللَّهُ أَرَى مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الثَّرَى، فلي غيب السّماوات العلّى
والأراضي السفلى، ولستُ بغافلٍ عمّا يعمل الورى.

ووجه آخر: أَنَّهُ قَالَ فِي أَوَاخِرِ تِلْكَ: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ [هود: ١٢٠]،
وقال في أوائل هذه السّورة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، وهذه
إحدى القصص، وقد قُصِّتْ أَحْسَنُ الْقَصَصِ.

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٤ / ٤٨٠)، والواحدي في «الوسيط» (٢ / ٥٩٩). قال ابن كثير في
«تفسيره»: حديث منكر من سائر طرقه. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة»
للشوكاني (ص: ٢٩٦).

وانتظام كل هذه السورة بتلك السورة: أن السورتين في تسليّة النبي ﷺ على ما أصابه من الأذى والنوائب، وفي تلك السورة ذكر ما لقي الأنبياء من الأجانب، وفي هذه السورة ما لقي يوسف عليه السلام من الأقارب.

(١) - ﴿الرَّيَّةَ آيَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الرَّيَّةَ﴾ ذكرنا فيها أقاويل المفسرين في أول (سورة يونس).

وقيل: معناه: أنا الله أرى من العرش إلى الثرى.

وقيل: أنا الله أرى ما نزل بيوسف من البلوى، من الجبّ والسجن والشكوى، ثم جعلته ملك الدنيا، وجمعه مع شيخه المبلى.

وقوله تعالى: ﴿رَّيَّةَ آيَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: أي: تلك الآيات أو السور^(١) المنزلة قبل هذه السورة، وهي آيات الكتاب.

وقيل: أي: تلك الآيات المكتوبة في اللوح المحفوظ الموعودة لك.

أو: تلك الآيات التي أخبرت الأنبياء بإنزالها عليك هي آيات الكتاب.

وقيل: ﴿رَّيَّةَ﴾ بمعنى: هذه؛ كما مرّ في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، وأوردنا دليلاً؛ أي: هذه السورة، أو: هذه الآيات.

أو: ﴿الرَّيَّةَ﴾ هذه الحروف التي هي اسم هذه السورة ﴿رَّيَّةَ آيَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾؛ أي: فيه بيان ما بالناس من حاجة إليه في دينهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: فيه بيان الحلال والحرام^(٢).

(١) في (ر): «والسورة».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/١٣) عن مجاهد.

وقال قتادة: فيه بيان الرُّشد والضَّلَال^(١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فيه بيان الحقِّ والباطل، والعدل والجور^(٢).
وقال الإمام القشيري رحمه الله: في إنزال الكتاب عليه وإرسال الرسول إليه تحقيق لأحكام المحبة، وتأكيّد لأسباب الوصلة؛ فإنَّ مَنْ عُدِمَ حقيقة الوصول استأنس بالرسول، ومَنْ بقي^(٣) عن شهود الأحابِ تسلَّى بورود الكتاب^(٤).

(٢) - ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾: أي: الكتاب ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: كلامًا مجموعًا بلسان العرب ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لتعقلوا عن الله خطابه، فتتدبروه وتعملوا بما فيه.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لا تدري بأيّ لسانٍ كان في اللوح المحفوظ، غير أنّه أخبر أنّه أنزله بلسان العرب، وهكذا كلُّ كتابٍ أنزل بلسان المنزل عليهم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما لكم وما عليكم، وما تأتون وما تدرّون.

أو ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أنّ هذه الأنباء التي يخبركم بها محمّدٌ من الله تعالى؛ لأنّها كانت في كتبهم بغير لسانه، فأخبر على معنى ما كان في كتبهم، فدلّ أنّه عرف ذلك بالله تعالى.

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٦٩)، والطبري في «تفسيره» (٦/١٣).

(٢) في (ر): «والعذاب والثواب». انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/٢٠٤).

(٣) في (ر) و(ف): «نفي».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/١٦٦).

أَوْ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَنَّ فِيهِ شَرْفَكُمْ؛ لِأَنَّكُمْ تَصِيرُونَ مَتَّبِعِينَ لِمَا يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى مَعْرِفَةٍ مَا فِيهِ، وَالنَّاسُ أَتْبَاعُ لَكُمْ؛ وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ أَرْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]؛ أَي: شَرْفَكُمْ^(١).

(٣) - ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾: أَي: نَخْبِرُكَ أَحْسَنَ الْإِخْبَارِ. و﴿الْقَصَصِ﴾ مصدرٌ، وهو إِتْبَاعُ الْخَبَرِ بَعْضُهُ بَعْضًا عَلَى سِيَاقِهِ عَلَى وَجْهِهِ. يقال: فلانٌ حَسَنُ الْاِقْتِصَاصِ لِلْحَدِيثِ؛ إِذَا كَانَ جَيِّدَ السِّيَاقِ لِلْحَدِيثِ، لَا يَقْطَعُ الْمَعَانِي الْمُرْتَبِطَةَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، فَيَفْسُدَ نَظْمُهُ، وَتَسْتَبِيهِمْ مَعَانِيهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه﴾ [القصص: ١١]؛ أَي: أَتَّبِعِي^(٢) أَثَرَهُ، وَقَالَ: ﴿فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]؛ أَي: أَتَّبَاعًا.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْقَصَصُ اسْمًا^(٣) كَالْخَبَرِ^(٤).

وقوله تعالى: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾: أَي: بِوَحْيِنَا، وَ﴿مَا﴾ مَعَ الْفِعْلِ مُصَدَّرٌ؛ كَقَوْلِكَ: أَكْرَمُكَ بِمَا أَكْرَمْتَنِي؛ أَي: بِإِكْرَامِكَ إِيَّايَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الإنسان: ١٢]؛ أَي: بِصَبْرِهِمْ.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٠٥).

(٢) فِي (ر): «ابتنغي».

(٣) فِي (ر) وَ(ف): «سَمَاعًا».

(٤) فِي (ف): «لِلْخَبَرِ».

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾: أي: وقد كنت من قبل هذا الوحي من الغافلين عن هذه القصة ونحوها؛ أي: وما كنت من قبله إلا من الغافلين، فإن كلمة (إن) المخففة مع اللام بعدها لها طريقتان، على ما مرّ مراراً.

وقال الإمام الزاهد أبو منصور رحمه الله: وهذا يدلُّ على أنَّ الإيمان بجملة الأنبياء والرسل إيمانٌ وإن لم تُعرف أنفسهم وأسماءهم وقصصهم^(١).

والغفلة ثلاثة أنواع: مذمومة، ومحمودة، وغير مذمومة ولا محمودّة.

فالمذمومة: الغفلة عن الله تعالى، وعن ذكره، وعن الآخرة؛ قال الله تعالى: ﴿عَنْ أَيْنِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

والمحمودة: هي الغفلة عن الشر^(٢)، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾ [النور: ٢٣].

وغير المحمودّة والمذمومة في هذه الآية.

والغفلة عن الشيء هي ألا يخطر ذلك بباله.

وروي أنَّ الصحابة رضي الله عنهم قالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا، فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ فقالوا: يا رسول الله؛ لو وعظتنا وذكرتنا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]^(٣).

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٠٦).

(٢) في (ف): «البشر».

(٣) رواه البزار في «مسنده» (١١٥٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧٤٠)، وابن حبان في «صحيحه»

(٦٢٠٩)، والضياء في «المختارة» (١٠٦٩)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وحسنه

الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٣٦٣٤).

ثمَّ في تسميته أحسنَ القصص وجوه:

قيل: لأنَّه ليست قصَّةٌ من قصص القرآن^(١) تتضمَّن من النُّكت والفوائد ما تتضمَّن هذه القصَّة.

وقيل: لامتداد الأوقات فيما بين أوَّلها وآخرها.

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: كان بين رؤيا يوسف عليه السَّلام ومسير أبيه إليه وإخوته أربعون سنة^(٢). عليه أكثر المفسِّرين إلَّا الحسن فإنَّه يقول: كان بين رؤياه ومسير أبيه إليه ثمانون سنة^(٣).

وقيل: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾؛ أي: أعجب القصص.

وقيل: لأنَّها مجموعةٌ في سورةٍ، وسائر القصص متفرقةٌ في آياتٍ وسورٍ.

وقيل: لأنَّها في أبوين وأولاد، ليس فيهم أجنبيٌّ وعدو.

وقال محمَّد بن يحيى البشاغري^(٤): هي أحسنُ القصص لِما أنَّ فيها ثلاثة أحوال:

- مراعاة طاعة الله تعالى في الرِّخاء والشَّدَّة.

- وتحسين الأخلاق في المعاملة.

(١) في (ر): «القصص إلَّا القرآن».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩٧ / ٥).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٣٥٩ / ١٣).

(٤) سيأتي في هذه السورة أن المؤلف ينقل عنه من كتابه «عصمة الأنبياء»، وقد جاء في «هدية العارفين»

(١٨٩ / ٢): محمد بن يحيى أبو الحسن البشاغري صنف «كشف الغوامض في أحوال الأنبياء».

لكن جاء فيه أنه ألفه سنة (٨٣٨) ثمان وثلاثين وثمان مئة. فإن صحَّ التاريخ فلا يُعقل أن يكون هو.

- وإقامة المروءة ببذل السَّعة عند القحط^(١) والسَّنة.

فمراعاة الطَّاعة عند الشَّدَّة بحدودها وشروطها وصفوتها^(٢) وحلاوتها في صفة ضعف العبد من أعجوبات اللُّطف والتَّوفيق.

وتحسين الأخلاق عند الجفاء والأذية - وخصوصًا بين القرابة - من أشرف مقامات^(٣) الاختصاص بالكرامة.

وبذل الثَّروة والسَّعة وقت المحنة والحاجة من أعلى منازل العبودية، وأصفى درجات السَّخاء.

وقيل: سمَّاها أحسن القصص لحسن مجاوزة يوسف إخوته، وصبره على أذاهم وإغضائه.

وقيل: إنَّما كانت^(٤) أحسن القصص لأنَّا نحن نقصُّ، وعليك نقصُّ.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إنَّما كانت أحسن القصص^(٥) لخلوها عن الأمر والنَّهي الذي سماعه يوجب اشتغال القلب؛ لِمَا فيه من الخوف من التَّقصير الواقع فيه.

وقيل: أحسن القصص؛ لأنَّ فيه ذكر الأحباب.

وقيل: لِمَا فيه من ذكر ترك يوسف هواه بإعراضه عن زليخا عند مراودتها إيَّاه عن نفسه.

(١) في (ر): «العجز».

(٢) في (أ) و(ف): «وصورتها».

(٣) في (ف): «مقام».

(٤) «إنَّما كانت» ليس في (أ) و(ف).

(٥) في (ف) و(أ): «أيضًا» بدل من «إنَّما كانت أحسن القصص».

وقال: في قوله: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: أي: لم تصل هذا بكذك وجهك، ولا بطلبك وجدك، وبعطائنا وجدته لا بعنائك، وبفضلنا لا بتعلمك^(١)، وبتلطفنا لا بتكلفك، وبنا لا بك^(٢).

(٤) - ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ إِيَّيَ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾: قال الزَّجَّاج: أي: نحن نقص عليك إذ قال يوسف.

وقيل: أي: واذكر يا محمد إذ قال يوسف^(٣).

﴿لَأَبِيهِ﴾: أي: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام.
﴿يَتَابَتِ﴾: قرأ ابن عامر بفتح التاء على إرادة: يا أبتاه، على نداء التذبة، وقرأ بعضهم بالضم؛ لأنه نداء مفرد معرفة^(٤)، وقرأ العامة بالجر على الإضافة بالياء، وحذف الياء تخفيفاً^(٥)؛ كما في قولهم: يا نفس، يا قوم، وقرأ ابن كثير: ﴿يَا أَبَاهُ﴾ بهاء ساكنة عند الوقف^(٦)،.....

(١) في (ف): «بعملك».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢ / ١٦٧).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣ / ٨٨).

(٤) أجازته الفراء وقال: لم يقرأ به أحد نعلمه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢ / ٣٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢ / ١٩٠). وقرأ بها ابن أبي عبلة. انظر: «الكامل في القراءات» (ص: ٥٧٥).

(٥) «تخفيفاً» ليس في (أ).

(٦) وقف ابن كثير وابن عامر بالهاء، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (١ / ٣٤٤)، و«التيسير» للداني (١ / ١٢٧).

وزيادة الهاء في الاسم على الأب للترقيق^(١) والعطف والتحنُّن.

وقيل: للتعويض من الواو التي من أصل الكلمة.

وقيل: للتعويض من ياء الإضافة.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾: أي: في النوم، وقد رأى بالعين يرى رؤيةً، ورأى بقلبه يرى رأياً، ويرى في المنام يرى رؤياً.

وقوله تعالى: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾: اسمان جُعلا اسماً واحداً، فَبُنِيَ على الفتح.

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ﴾: كرر قوله: (رأيت) تأكيداً لَمَّا طَالَ الكلام.

وقيل: معناه: أَنَّهُ رَأَاهُمْ فِي النَّوْمِ، وَرَأَاهُمْ يَسْجُدُونَ لَهُ، فَالْأَوَّلُ لِرُؤْيَا^(٢) أَعْيَانِهِمْ، وَالثَّانِي لِرُؤْيَا فَعْلِهِمْ.

وقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ ولم يقل: (رأيتها) لَأَنَّهُ وَصَفَهُمْ بِالسُّجُودِ الَّذِي هُوَ فِعْلُ الْعُقَلَاءِ، فَالْحَقَّ كُنَايَتُهُمْ بِكُنَايَةِ الْعُقَلَاءِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ﴾ [النمل: ١٨].

وفي سجودهم له وجهان:

أحدهما: أَنَّهُ السُّجُودُ الْمَعْهُودُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَكَانَ تَكْرِمَةً لَا عِبَادَةً.

والثاني: أَنَّهُ بِمَعْنَى الْخُضُوعِ^(٣)؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

(١) في (ر): «للترفيق».

(٢) في (ر) و(ف): «الرؤية العين؛ يعني».

(٣) في (ر): «الخشوع».

تَرَى الْأَكْمَ فِيهَا سُجَّدًا لِلْحَوَافِرِ^(١)

وكانت الكواكبُ الأحدَ عشرَ مُثَلًّا لإخوته الأحدَ عشرَ، والشمسُ والقمرُ مثالين لأبيه وخالته، وكانت تحتَ أبيه، وكانت^(٢) أمُّه ماتت، واسمها راحيل، واسم خالته لايا، وهما بنتا لايان بن ناهر، وناهر أخو إبراهيم الخليل صلوات الله عليه، ولايان بن ناهر كان خال يعقوب عليه السَّلام.

وقال وهبُ بن منبه: كان يوسفُ صلوات الله عليه رأى قبل هذه الرؤيا - وهو ابن سبع سنين - في نومه أنَّ إحدى عشرة عصًا^(٣) طوَّالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدَّائرة، وإذا عصًا صغيرة وثبتت^(٤) عليها حتَّى اقتلعتُها وغلبتُها، فوصفَ ذلك لأبيه، فقال له: إياك أن تذكرَ هذا لإخوتك، ثم رأى وهو ابن اثنتي عشرة سنة أنَّ أحدَ عشرَ كوكبًا والشمسُ والقمرُ سجدنَ له، فقصَّها على أبيه، فقال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ الآية^(٥).

وذكر أبو القاسم بن حبيب في «تفسيره» بإسناده عن جابر بن عبد الله: أنَّ يهوديًا أتى النَّبِيَّ ﷺ فقال: يا مُحَمَّدُ؛ أخبرني عن أسماء الكواكب اللاتي سجدنَ ليوسف، فقال له النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ أَخْبَرْتُكَ أَتُؤْمِنُ^(٦) بي؟» قال: نعم، فأثاه جبريلُ

(١) عجز بيت لزيد الخيل، انظر: «ديوانه» (ص: ٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢/ ١٣٧). وصدرة:

بِجَيْشٍ تَضِلُّ الْبُلُقُ فِي حَجَرَاتِهِ

(٢) «تحت أبيه وكانت» من (أ).

(٣) في (ف): «غصنًا».

(٤) في (أ): «تثب».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٨).

(٦) في (ف) و(أ): «لتؤمن».

صلوات الله عليه فعلمه أسماءها، وهي: الحَرَثَان والطَّارِق والقَابِس والصَّرُوح^(١) والفَلَيْق والمُصْبِح^(٢) والوَثَّاب والدَّيَّال والعَمُودَان والفَرْع وذو الكنفات^(٣)، رَأَهْنَ

(١) في (ف) و(أ): «الضروح».

(٢) المصْبِح: هو ما يطلع قبل الفجر كما قال الشهاب. حاشية الشهاب على البيضاوي (١٥٥/٥).

(٣) رواه سعيد بن منصور في «سننه - التفسير» (١١١١)، وابن حبان في «المجروحين» (٢٥٠/١) - (٢٥١)، والطبري في «تفسيره» (١٣/١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/٢١٠١)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٩٧/١)، من طريق الحكم بن ظهير عن السدي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر به.

قال ابن حبان: هذا لا أَصْلُ له مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، والحكم بن ظهير الفزارى الكوفي كان يشتم أصحاب محمد ﷺ، يروي عن الثقات الأشياء الموضوعات.

وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، وكأن واضعه قصد شين الإسلام بمثل هذا، وفيه جماعة ليسوا بشيء، قال يحيى بن معين: الحكم بن ظهير ليس بشيء. وقال النسائي: متروك الحديث.

وقال الجوزجاني كما في «التهذيب»: ساقط؛ لميله وأعاجيب حديثه، وهو صاحب حديث نجوم يوسف.

وقال ابن كثير في «تفسيره»: تفرد به الحكم بن ظهير الفزارى وقد ضعفه الأئمة، وتركه الأكثرون. وله طريق آخر ليس فيه الحكم بن ظهير، رواه الحاكم في «المستدرک» (٨١٩٦) من طريق أسباط بن نصر عن السدي به، وصححه على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي. وجعله السيوطي في «اللائى المصنوعة» (٨٣/١) متابعاً لرواية الحكم بن ظهير، وتابع السيوطي في ذلك الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص: ٤٦٤)، لكن الشيخ عبد الرحمن المعلمي في تعليقه على «الفوائد» رد ذلك فقال: وقف الذهبي في «تلخيصه» فلم يتعقبه، ولا كتب علامة الصحة كعادته فيما يقر الحاكم على تصحيحه، وقد جزم الجوزجاني ثم العقيلي بأن الحكم بن ظهير تفرد به عن السدي، ومن طريق الحكم، ذكره المفسرون، مع أن تفسير أسباط عن السدي عندهم جميعاً، فكيف فاتهم منه هذا الخبر، ووقع للحاكم بذاك السند؟ هذا يشعر بأن بعض الرواة وهم، وقع له الخبر من طريق الحكم، ثم التبس عليه فظنه من طريق أسباط، كالجادة، والله أعلم.

يوسف والشمس والقمر، نزلت من السماء فسجدن له، فأخبر والدّه فقال: يا بنيّ؛ هذا أمرٌ مشّت^(١) وسيجمعه الله تعالى بعدّ.

وقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: الشمسُ أمّه، والقمرُ أبوه^(٢).

وقال مقاتل: الشمسُ أبوه، والقمرُ أمّه^(٣).

وقال السّديّ: الشمسُ أبوه والقمرُ خالته، واسمها راحيل، وكانت أمّه ماتت واسمها لايا^(٤).

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: بلغنا أنّ يوسف صلوات الله عليه كان نائماً في حجر أبيه ذات ليلة، فانتبه مرعوباً، فقال له يعقوب عليه السلام: حبيبي؛ ما الذي دَعَرَكَ؟ قال: يا أباه؛ رأيت رؤيا عجباً، قال: ماذا رأيت؟ قال: رأيتُ كأنّي على رأس جبلٍ شامخٍ، وحوله أشجارٌ وأنهارٌ ورياضٌ، فيينا أنا كذلك إذ رأيتُ كواكبَ نزلت من السماء والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين^(٥).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: دلّت هذه الآية أنّ إخوة يوسف كانوا علماء؛ فإنّه شبّههم بالكواكب وبها يُهتدى، فدلّ أنّهم كانوا علماء يُقتدى بهم، وشبّه الأبوين بالشمس والقمر، وبهما جميع منافع الخلق؛ إذ بهما صلاح جميع الأغذية في الأرض، ونضج جميع الفواكه والأنزال^(٦).

(١) في (أ): «متشتت».

(٢) في (أ): «أبوه والقمر أخوه». والخبر رواه ابن المنذر في «تفسيره» كما في «الدر المنثور» للسيوطي

(٤ / ٤٩٩)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ١٢) من قول ابن جريج.

(٣) ذكره الواحدي في «البيسط» (١٢ / ١٨).

(٤) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٥) لم أقف عليه.

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٢٠٦).

ودلت الآية على أنَّ الرؤيا قد تخرج على غير ما رأى، وقد تخرج على عين ما رأى، فقد رأى سجود الكواكب، وخرجت الكواكب على الإخوة والسُّجود على عينه، وهو كروية إبراهيم صلوات الله عليه في المنام ذبح الولد، فخرج الولد على الكبش، والذبح على عينه، فهذا أصل لنا أنَّ الخطاب قد يخرج والمراد به عينه، وقد يخرج والمراد به غيره.

وفيه جواز الاجتهاد، وطلب المعنى في المخاطبات، وما ظهر للناس من تعبير الرؤيا على الاجتهاد يدلُّ أيضًا على جواز العمل بالاجتهاد.

ودلت الآية أيضًا على أنَّ إخوة يوسف كانوا علماء حكماء وعارفين بتعبير الرؤيا؛ فإنَّ يعقوب قال ليوسف عليهما السلام: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ وذلك لعلمهم بالتعبير.

(٥) - ﴿قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ يعني: فقال يعقوب: يا بني لا تخبر إخوتك برؤياك، وهم روبيل ويهوذا وشمعون ولاوي، أمُّهم لايا امرأة يعقوب، ودان وأشر ويشجر^(١)، أمُّهم دلفا جارية يعقوب، ونفثالي وجاد وزبالون، أمُّهم زلفا جارية يعقوب، وبنيامين أمُّه راحيل وهي أمُّ يوسف أيضًا مع أخوات، وكانت راحيل أخت لايا، وهما بنتا لايان بن ناهر خال يعقوب، والجاريتان كانتا هدية لايان لختنه يعقوب.

(١) في (أ): «ودار وأشير وشحو» بدل: «ودان وأشر ويشجر».

وقوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾: نصب بالفاء لأنه جواب النهي، وعلامة نصبه حذف النون.

يقول: إن تأويل رؤياك ظاهر لا يخفى عليهم، فلا يؤمن أن يحملهم ذلك على أن يبغوا لك الغوائل ويخفوا لك الحيل، ويدعوهم إلى ذلك الشيطان، وذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾: أي: ظاهر العداوة ومظهرها، وهذا يدل على أن يعقوب كان قد علم من الإخوة حسداً ليوسف، فقال له هذا. وقال القتيبي: الكيد: هو الاحتيال للاغتيال^(١).

وقيل: هو طلب اتصال الشر به على غير علم منه.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾: بدء كل شر يكون من الشيطان، يقذفه في القلوب، ويخطره في الصدور، ثم تكون العزيمة على ذلك والفعل من العبد، وهو ما قال عز وجل: ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠٠]^(٢).

وفي الآية أن الرؤيا حق، وهي من المبشرات، وهي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة؛ كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»^(٣).

(١) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢١٢).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٢٠٨).

(٣) رواه البخاري (٦٩٨٨)، ومسلم (٢٢٦٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وذلك أنَّ أعوامَ الوحي اثنان وعشرون ونصف؛ ستة أشهر في ابتداء^(١) الرؤيا الصادقة، فكانت جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة^(٢).

وفيها: أنَّ شفقة الآباءِ وافرّة، وحسد الإخوة ظاهرٌ، ولهذا قال أصحابنا رحمهم الله: تُقبَل شهادة الأخ للأخ؛ لأنّه لا تُهمّة فيه، ولا تُقبَل شهادة الأب لابن، ولا شهادة الابن للأب؛ للثّمة.

وفيها: أنَّ عداوة إبليس - لعنه الله - لنا قديمة، والله تعالى في إبقائه لطفٌ عظيمٌ، فإنّه يحيل لمعاصينا عليه، وذلك مذكورٌ في قصّة كثيرٍ من الأنبياء: ﴿فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [البقرة: ٣٦]، ﴿فَوَسَّوْهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٠]، ﴿وَمَا أَسْنِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣]، ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥]، ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ﴿وَمَا يَزَعْنَاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، ﴿لَا يَفْنَنَكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ﴿إِنَّمَا أَسْتِزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

(٦) - ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ﴾: أي: كما دلّ رؤياك على إكرام الله تعالى إياك بتفضيلك على إخوتك، كذلك يختارُك فيستخلصُك بالنبوة.

(١) في (أ): «الابتداء».

(٢) كذا قال، ولا يستقيم كون الرؤيا جزءاً من ستة وأربعين على هذا، وقد جاء في «شرح السنة» للبعوي (٢٠٤/١٢): أنَّ جُملة أيام الوحي ثلاثة وعشرون سنة، كان ستة أشهر في المنام، وبهذا فُسِّرَ قوله ﷺ: «رؤيا المؤمن جزءٌ من ستة وأربعين...».

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: ويلهمك عمّا تؤوّل إليه عاقبة ما يراه الناس في مناماتهم.

وقيل: ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: أن يلهمك ^(١) العلم بعواقب الأمرِ بوحى من الله تعالى. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾: أي: ويكمل ما ابتدأك به من الإنعام، والابتداء هو إخراجُه من أصلاب الأنبياء، والإتمام بالنبوة والإنجاء ^(٢).

﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾: أي: أولاد يعقوب، ودلّ على نبوة أولاده.

﴿كَمَا آتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾: بالرسالة والوحي.

وقيل: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بتخليصك من غوائل إخوانك وسائر الناس؛ كما جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وفدى إسحاق بالذبح العظيم ^(٣)، وهذا كله كان بشارة من يعقوب ليوسف.

وقيل: كان دعاء له بذلك كله؛ كما قال في آخر هذه السورة: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]، وتقول: يديمُ الله عزك ويطيّل بقاءك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يجري على يوسف من المفتّح إلى المختتم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكم له ولأبيه ولإخوته بما حكم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: تأويل صحف إبراهيم عليه السلام.

وقيل: ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: العلم والكلام.

(١) «أن يلهمك» ليس في (أ).

(٢) في (ر): «والإيحاء»، وليست في (ف).

(٣) الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾: بما صنع به إخوته، أو عليمٌ بتمام الإنعام ﴿حَكِيمٌ﴾: يضع كلَّ شيءٍ موضعه^(١).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: قيل: الاجتباء: عصمته من ارتكاب ما راودته امرأة العزيز عن نفسه.

وقيل: من قضايا الاجتباء إسباله السَّترَ على فعل إخوته، حيث قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولم يذكر خلاصه من البئر.

وقيل: من قضية الاجتباء توفيقه لسرعة العفو عن إخوته، حيث قال: ﴿لَا تَزِرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢].

و﴿تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ﴾: هو معرفة قدر كلِّ أحدٍ، والوقوف على مقدار كلِّ قائلٍ بما يسمع من نطقه وحديثه بحدة الكياسة وصدق الفراسة.

وإتمام النعمة: توفيق الشكر على النعمة.

وقيل: من إتمام النعمة: الصَّونُ عن شهود النعمة بروية^(٢) المنعم، ومن تمامها صونها عن الزوال والتغيير، ومن تمامها رفع الهمة عن مساكنة النعمة^(٣).

(٧) - ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّالِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ﴾: أي: دلالات، وقرأ ابن كثير

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٢٠٩).

(٢) في (ر): «برؤية توفيق الشكر على النعمة بروية».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ١٦٩).

وحده: ﴿آيَةٌ﴾ على الوجدان^(١)، وهو في معنى الجمع أيضًا؛ يقال: هذا الشيء علامةٌ لأمرٍ كثيرة.

﴿لِّلسَّالِئِلِينَ﴾: أي: للذين سألوا رسول الله ﷺ عن هذه القصة^(٢).

روي أن اليهود - لعنهم الله - قالوا للمشركين: اسألوا محمدًا لِمَ انتقل يعقوب من مصر إلى الشام^(٣)، فنزلت السُّورة، فكانت آيةً على صدق نبوته^(٤).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أتى قومٌ من اليهود رسول الله ﷺ، فوافق إتيانهم ذكر رسول الله ﷺ قصة يوسف عليه السلام، فتعجبوا منه وقالوا له: من أين لك هذا يا محمد؟ فقال: «علمنيه ربِّي»، وعادوا إلى اليهود فقالوا لهم: إنَّ محمدًا العربيَّ يذكر قصة يوسف كما أنزلت في التَّوراة، فنزلت هذه الآية: ﴿ءَايَتُ لِّلسَّالِئِلِينَ﴾؛ يعني: اليهود^(٥).

وقال مقاتل: سألت اليهود رسول الله ﷺ عن قصة يوسف عليه السلام فأخبرهم بها، فلم يؤمن به غير جبر عبد عامر الحضرمي^(٦).

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٤)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٧).

(٢) في (ف): «النعمة».

(٣) كذا في جميع النسخ، وفي مصادر التخريج: «من الشام إلى مصر».

(٤) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٨٧)، والسمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٧٨)، والواحدي في

«السيط» (١٢/ ٩)، والزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٤٤٠).

(٥) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٧٦).

(٦) في (ر): «غير جبر من اليهود عبد عامر الحضرمي». وقوله: «عبد عامر الحضرمي» ليس في

(ف). وانظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣١٩)، وفيه: «غير جبر غلام ابن الحضرمي». وفي «الإصابة»

(١/ ٥٦٢): جبر مولى عامر بن الحضرمي، وفي رواية الواقدي: جبر مولى بني عبد الدار، ذكر

الواقدي أنه كان بمكة، وكان يهوديًا، فسمع النبي ﷺ يقرأ سورة يوسف فأسلم وكنم إسلامه، ثم =

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمل أنه آياتٌ للسَّائِلِينَ إلى آخر الدهر.
 وقوله: ﴿ءَايَتٌ﴾ يحتمل أن المراد: قصته سورة تامة هي آيات الكتاب.
 ويحتمل أنه آياتٌ صدق نبوته؛ لأن قصته في كتبهم كانت بغير لسانه، فجاء بها
 بلسانه^(١) من غير زيادة ولا نقصان، فدل أنه بالله علم ذلك^(٢).
 وقال الإمام القشيري رحمه الله: في قصته آياتٌ لكل ذي محنة حتى يعلم أنه
 كيف يصبر، ولكل ذي نعمة حتى يعلم أنه كيف يشكر.
 قال: ويقال: في قصته دلالاتٌ كيفية العفو عن الزلة، وكيفية الخجلة عند اللقاء
 لأهل الجفوة.
 وقيل: في قصته دلالاتٌ لطف الحق سبحانه لأوليائه بالعصمة، وآيات أن
 المحبة لا تخلو عن المحنة.
 وقيل: فيه آياتٌ على أن من صدق في رجائه^(٣) تخلص يوماً من بلائه^(٤).
 وقيل: ﴿ءَايَتٌ﴾؛ أي: عجائب، قال الشاعر:
 آية في الجمال ليس له في الـ خلق شبه وما له من نظير^(٥)

= أطلع مواله على ذلك، فعذبه، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة شكاً إليه ما لقي فأعطاه ثمنه فاشترى
 نفسه وعتق واستغنى، وتزوج امرأة ذات شرف في بني عامر.

(١) في (ر): «فجاءت بلسانه».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢١٠).

(٣) في (ر): «رخائه». وانظر التعليق الآتي.

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٦٩)، وفيه: (... من صدق في رجائه يختص يوماً ببلائه).

(٥) بلا نسبة في «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (١/ ٢٦٦).

وقيل: السُّؤال أنواعٌ، والفوائد للسَّائلين، فإذا جالستَ العلماءَ فسَلْ بلسانك، وإذا جالستَ الحكماءَ فسَلْ بعينك^(١)، وإن جالستَ العارفينَ فسَلْ بقلبك، وإن جالستَ المحبينَ فسَلْ بسرِّك، فإذا لقيتَ العالمَ فقدمْ لسانك، وإذا لقيتَ الحكيمَ فقدمْ عينك، وإذا لقيتَ العارفَ فقدمْ قلبك، وإذا لقيتَ المحبَّ فقدمْ سرِّك، وإن اطلعتَ على عيبٍ فقدمْ روحك.

وقال بعضُ أهل العلم: يمكن تمشية الآية في كلِّ السَّائلين، فكأنه قال: إن سألكَ العصاة: ما يفعلُ اللهَ بهم؟ فاقرأ عليهم قصَّةَ يوسفَ، وقل: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]، كما غفرَ اللهُ لإخوةَ يوسفَ.

وإن سألكَ الَّذِينَ يُوْذُونَ الْآبَاءَ وَيَعْقُبُونَهُمْ: ما يفعلُ اللهَ بهم إذا تابوا؟ فقل: يعفو عنهم، كما عَفِيَ عن أولادِ يعقوبَ.

وإن سألكَ الممتحنونَ: ما عاقبةُ أمرهم؟ فقل: الفرَجُ، كما فرَجَ اللهُ عن يعقوبَ. وإن سألكَ المحبُّونَ: كيفَ حالُّهم؟ فقل: يصلونَ إلى الحبيبِ كما وصلتَ زليخا إلى يوسفَ.

وإن سألكَ المسجونونَ: ما عاقبةُ أمرهم؟ فقل: الفرَجُ كما فرَجَ اللهُ عن يوسفَ. وإن سألكَ المهمومونَ، وإن سألكَ الواقعونَ في القَحْطِ، وكذا... فأجبهم بهذه القصَّةَ على التَّفصيلِ.

وقيل: ﴿إِنِّي لِّلَّسَّالِينَ﴾: لأصحابِ رسولِ الله ﷺ، حيث سألوا رسولَ الله ﷺ: لِمَ سَمَّى اللهُ تعالى هذا أحسنَ القصصِ؟ قال: «لأنَّ المخبرَ عنه هو أحسنُ القائلينَ قولاً، والمخبرَ عنه أحسنُ النَّاسِ وجهًا، فإنَّ يوسفَ لم يكن بعده أحدٌ في

(١) في (أ): «بنفسك»، وفي (ر): «بعقلك».

الحسنِ مثله»، فقالت عائشة رضي الله عنها: هو أحسن أم أنت يا رسول الله؟ قال: «هو أحسن خلقًا، وأنا أحسن خلقًا»، فقالت عائشة رضي الله عنها: فلم لا تخبر الناس به؟ قال: «إن لم أقل أنا فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَنَّا لَعَلَّيْ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤٤]»، فنزل جبريل عليه السلام وقال: أخبر الناس أن نورَكَ ونورَ يوسفَ افترعا^(١) في صلبِ آدمَ، وصارَ الحسنُ والجمالُ ليوسفَ، والذكرُ والشرفُ، والنورُ والحبورُ، والضياءُ والبهاءُ، والعفافُ والكفافُ، والهيبةُ^(٢) والرِّفعةُ، والعلمُ والحلمُ، والفضلُ والعدلُ والعزمُ، والسيادةُ والسَّعادةُ^(٣)، والحوُضُ والشفاعةُ، والدَّعوةُ والإجابةُ، والقضيبُ^(٤) والناقةُ، والتَّاجُ والعمامةُ، والسَّيفُ والهِراوةُ، والصَّبْرُ والقناعةُ، والنُّسْكُ والإنابةُ، والرَّحمةُ والرَّأفةُ، والوقارُ والسَّكينةُ، والشَّريعةُ المرضيَّةُ، والأحكامُ الحنيفيَّةُ، والصَّلَاةُ المكتوبةُ، والزَّكاةُ المفروضةُ، والسَّمْعُ والطَّاعةُ، والصَّفُّ والجماعةُ، والتَّأذِينُ والإقامةُ، والتَّكْبِيرُ والتَّهْلِيلُ، والتَّسْبِيحُ والتَّقْدِيسُ، والتَّحْمِيدُ والتَّمْجِيدُ، والحُجُّ والعمرةُ، والبلدُ المحَرَّمُ، والمسجدُ المعظَّمُ، وزمزمُ والمقامُ، والمشعرُ الحرامُ، والقرآنُ الحكيمُ، والخُلُقُ العظيمُ، والآياتُ المفصَّلاتُ، والكلماتُ المتلَوَّاتُ، والأزواجُ الطَّاهراتُ، والعلوُّ في الدَّرَجَاتِ، والبراقُ والمعراجُ، والمقامُ المحمودُ، والحوُضُ المورودُ، والمحضرُ المشهودُ، والأفقُ الأعلى، والمقامُ الأدنى، وسلامُ الله الأعلى، هذه كُلُّهَا لَكَ^(٥).

(١) في (ف) و(أ): «افترعا».

(٢) في (أ): «والهمة».

(٣) في (أ): «والحزم والبشارة» بدل من «والسيادة والسعادة».

(٤) في (أ): «والقصب».

(٥) لم أقف له على سند ولا ذكر في الكتب المتقدمة، ونقله الصفوري في «نزهة المجالس»

(١٠٥ / ١) عن المصنف.

(٨) - ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ

مُبينٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾: اللام بمعنى القسم؛ أي: قالوا: إن يوسفَ حقاً وأخاه لأمّه وهو^(١) بنيامين ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ﴾؛ أي: جماعة يتعصب بعضها لبعض، وكانوا عشرة، والعربُ تطلق هذا الاسم على العشرة إلى الأربعين؛ أي: نحن جماعة لا نعجزُ بالاحتياال عليه ليخلو لنا وجه أبنينا، فيعاملنا^(٢) بالمحبة والتعطف، فلماذا لا نحتال لذلك؟

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبينٍ﴾: أي: خطأ بين يائثارِ اثنين على عشرة مع استوائهم في كونهم أولاداً له، ومع اقتدار العشرة على الاحتياال على واحد^(٣). وأيضاً هو في غلطٍ في تدبير أمر الدنيا؛ إذ نحن أنفعُ له من يوسف وبنيامين، لأننا نقوم في أمواله ومواشيه.

وأيضاً لو أنعمَ النظر لم يأمنُ سوءَ عاقبة هذا الاختيار لتحاسد الأقارب، وهذا عدولٌ منه عن طريق الرأْي في استصلاح الأولاد.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فيه دلالةٌ أنّه لا بأسَ للرجل أن يخصَّ [بعض] ولده بالعطف عليه والميل إذا كان فيه معنى ليس ذلك في غيره، فلهذا قال أصحابنا رحمهم الله: لا بأسَ بالرجل أن يخصَّ بعض ولده بالهبة له إذا لم يقصدِ الجورَ على غيره من الأولاد، وخصّه لمعنى أوجبَ ذلك؛ كما فعله أبو بكرٍ بعائشة رضي الله عنهما، حيثُ نحلّها جزاً من عشرين وسقاً بالعالية^(٤).

(١) «لأمّه وهو» ليس في (ف).

(٢) في (أ): «فيعمنا».

(٣) من هنا سقط في (أ) ورقة كاملة.

(٤) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٤/ ٧٥٢)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٦٥٠٧)، وابن أبي =

ثُمَّ يَحْتَمِلُ تَخْصِيصُ يَعْقُوبَ يَوْسُفَ وَأَخَاهُ بِالْحُبِّ وَجَوْهًا:
أحدها: ما رأى فيهما من الضَّعْفِ فِي أَنْفُسِهِمَا، وَالْعَجْزِ فِي أَبْدَانِهِمَا، فَازْدَادَتْ
شَفَقَتُهُ عَلَيْهِمَا لِذَلِكَ، وَهَذَا مِمَّا يَكُونُ بَيْنَ الْخَلْقِ.
والثاني: أَنَّهُ خَصَّهْمَا بِذَلِكَ لِفَضْلِ خُصُوصِيَّةٍ كَانَتْ لَهُمَا؛ إِمَّا مِنْ جِهَةِ الدِّينِ أَوْ
الْعِلْمِ أَوْ غَيْرِهِ، أَمْرُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ [لِذَلِكَ].
أَوْ لِأَنَّهُ لَمَّا بُشِّرَ يَعْقُوبُ بِنَبْوَةِ يَوْسُفَ كَانَ يَفْضُلُهُ عَلَى سَائِرِ أَوْلَادِهِ، وَيُؤَثِّرُهُ
عَلَيْهِمْ لِذَلِكَ.

وَأِنَّمَا قَالُوا: ﴿يُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا﴾ بِأَثَارِ تَظَهُّرِ عِنْدَهُمْ، وَإِلَّا فَحَقِيقَةُ
الْمَحَبَّةِ لَا تُعْرَفُ^(١).

وَقَالَ الْإِمَامُ الْقُشَيْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَمَّا اعْتَرَضُوا بِقُلُوبِهِمْ عَلَى أَبِيهِمْ فِي تَقْدِيمِ
يَوْسُفَ عَلَيْهِمْ فِي الْمَحَبَّةِ، عَاقِبَهُمُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ بِتَرْكِهِمْ حَتَّى بَسَطُوا فِي أَبِيهِمْ بِلِسَانِ
اللَّوْمِ فَوْصَفُوهُ بِالضَّلَالِ، وَهُوَ مِنَ الْمَحَالِّ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ هُوَ الذَّهَابُ فِي أَمْرِ
يَوْسُفَ بِكُلِّ حَالٍ.

قَالَ: وَيُقَالُ: لَمَّا حَسَدُوا فِي تَقْدِيمِ أَبِيهِمْ يَوْسُفَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَرْضَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ
وَتَعَالَى حَتَّى أَقَامَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ يَوْسُفَ، فَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا؛ لِيَعْلَمُوا^(٢) أَنَّ الْحَسُودَ لَا
يَسُودُ.

قَالَ: وَيُقَالُ: أَطْوَلَ النَّاسِ حَزَنًا وَأَدْوَمُهُمْ غُصَّةً مَنْ أَرَادَ تَأْخِيرَ مَنْ قَدَّمَ اللَّهُ

= شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٢٠١٣٥)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وَلَفْظُ «الْمَوْطَأُ»: «عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَتْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ كَانَ نَحَلَهَا جَادَ عَشْرِينَ وَسَقَا مِنْ مَالِهِ بِالْغَابَةِ...».

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢١٠ - ٢١١).

(٢) فِي (ر) وَ(ف): «لَعَلَّم»، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ «لَطَائِفِ الْإِشَارَاتِ».

تعالى، أو تقديم مَنْ أَخْرَجَهُ اللهُ تعالى؛ إِنَّ إِخْوَةَ يَوْسُفَ أَرَادُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي أَسْفَلِ الْجُبِّ، فَرَفَعَهُ اللهُ تعالى فَوْقَ السَّرِيرِ^(١).

وقيل: إِنَّمَا قَالُوا: ﴿لِيُؤْسَفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا﴾ في حَقِّ يَوْسُفَ؛ فَلَأَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَصْحَبَهُ يَوْمَ عِيدِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: قَمِيصَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي أَلْبَسَهُ لَهُ جَبْرِيلُ، وَقَدْ جَاءَ بِهِ مِنَ الْجَنَّةِ يَوْمَ أُلْقِيَ فِي نَارِ نَمْرُودَ، وَشَدَّ وَسَطَهُ بِمَنْطِقَةِ إِسْحَاقَ، وَوَضَعَ فِي يَدِهِ خِزْرَانَةً جَاءَ بِهَا جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ وُلِدَ إِسْحَاقُ، فَحَسَدُوهُ لِتَخْصِيصِهِ بِهَا، وَاسْتَدْلُّوا عَلَى مُحَبَّتِهِ إِيَّاهُ^(٢).

(٩) - ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾: فقالوا: مَا الرَّأْيُ؟ قَالَ وَهْبٌ: قَالَ ذَلِكَ شَمْعُونُ. وَقَالَ كَعْبٌ: قَالَه دَانُ. وَقَالَ مِقَاتٌ: قَالَه رُوَيْلٌ؛ وَهُوَ أَكْبَرُهُمْ سَنًا^(٣).

وقال بعضهم: لَمَّا قَالُوا: ﴿لِيُؤْسَفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا﴾ تَرَاءَى لَهُمُ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ وَقَالَ: إِنَّ يَوْسُفَ يَرِيدُ أَنْ يَسْتَعْبِدَكُمْ، فَقَالُوا: مَا الرَّأْيُ؟ فَقَالَ: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ﴾، فَقَالُوا لَهُ: لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ كُنَّا عَاقِبِينَ لِلْأَبِ، عَاصِينَ لِلَّهِ تعالى، فَقَالَ: ثُمَّ تَتُوبُونَ فَتَكُونُوا قَوْمًا صَالِحِينَ، ثُمَّ غَابَ عَنْهُمْ، فَتَبَتُوا عَلَى هَذَا الرَّأْيِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾؛ لَتَنْحَسِمَ مَادَّةُ هَذَا الْأَمْرِ ﴿أَوْ اطْرَحُوهُ﴾؛ أَيِ:

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢/ ١٧٠).

(٢) لم أجده، وظاهر أنه من الإسرائيليات.

(٣) ذكر هذه الأقوال الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٩).

أَلْقَوْهُ فِي أَرْضٍ غُرْبَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْ أَرْضِ يَعْقُوبَ، بَحِيثٌ يَخْفَى عَلَيْهِ مَوْضِعُ يُوسُفَ، وَتَقْصَى^(١) دُونَهُ أَخْبَارُهُ.

وقوله: ﴿أَرْضًا﴾؛ أي: إلى الأرض، نصب بنزع الخافض؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؛ أي: من قومه.

وقوله تعالى: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: قال مقاتل: أي: يَصِفُ لكم^(٢). جُزِمَ لَأَنَّهُ جَزَاءُ الْأَمْرِ، وَلِذَلِكَ حُذِفَتْ وَאוهُ، يَقُولُ: لَا يَزَاحِمُكُمْ يُوسُفُ فِي بَرِّهِ وَعُطْفِهِ وَاسْتِثْنَاهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾: عطف على ﴿يَخْلُ﴾ وهو جزم، ولذلك حُذِفَتِ النُّونُ.

وقال مقاتل: أي: يصلح أمرُكم فيما بينكم وبين أبيكم^(٣)، يعني به: صلاح أمر الدنيا من جهة التَّمَكُّنِ مِنَ الْأَبِ.

وقال ابنُ عَبَّاسٍ والسُّدِّيُّ: أي: وتوبوا من صَنِيعِكُمْ^(٤)؛ وهو القَتْلُ أَوْ الطَّرْحُ، وَعَقُوقُ الْأَبِ، وَإِذْءَاءُ الْأَخِ، وَعَصْيَانُ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَغْفِرُ لَكُمْ بِتَوْبَتِكُمْ، فَقَدْ اعْتَقَدُوا التَّوْبَةَ قَبْلَ ارْتِكَابِ الذَّنْبِ.

(١) في (ف): «وتقصي».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٩٩).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢ / ٣٢٠).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ١٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٠٥)، عن السدي.

وذكره الواحدي في «البيسط» (١٢ / ٣٠)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤ / ١٨٤) عن ابن

عباس رضي الله عنهما.

وقال الإمام أبو منصور^(١) رحمة الله عليه: قديماً^(٢) قيل: مَنْ طلب الكلَّ فاته الكلُّ، أرادَ إخوةَ يوسفَ أن يكونَ إقبالَ يعقوبَ بالكلِّيةِ عليهم، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ [يوسف: ٨٤].

وقيل: كان قصدُهم ألا يكونَ يومئذٍ عندَ أبيه، فساوى عندهم أقسامَ غيبته^(٣)، فقالوا: إمَّا القتلَ وإمَّا النَّفيَ، ولا بأسَ بما يكونَ بعدَ ألا يكونَ يوسفُ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ لم تطبْ نفوسُهم بأن يذهبوا عن الله بالكلِّيةِ، فدبروا لحسنِ الرجعى قبل ارتكابِ ما دعتهم نفوسُهم إليه، وهذه صفةُ أهلِ العِرفانِ باللهِ جلَّ جلالُه^(٤).

(١٠) - ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَفْعَلُوا يَوْسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَفْعَلُوا يَوْسُفَ﴾: قال قتادة وابنُ إسحاق: قال ذلك روبييل^(٥). وقال الزَّجاجُ: قال ذلك يهوذا^(٦)، قال: إنَّ قتلَ يوسفَ أمرٌ عظيمٌ فلا تفعلوه. وقوله تعالى: ﴿وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾: قال الحسنُ: أي: في قعرِ البئرِ^(٧).

(١) كذا قال، وهو سهو منه رحمه الله، فإن الآتي هو كلام القشيري لا الماتريدي.

(٢) في (ر): «ربما»، والمثبت من (ف) و«اللطائف».

(٣) في (ر): «فساوى أقسامَ غيبته»، ولم ترد هذه الجملة في «اللطائف».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١٧٠ - ١٧١).

(٥) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٠).

(٦) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٩٣).

(٧) ذكره الواحدي في «البيسط» (١٢/ ٣٢)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٨٥).

والغِيَابَةُ فِي أَصْلِ اللَّغَةِ: الْقَعْرُ؛ أَي: الْمَوْضِعُ الَّذِي يَغِيبُ فِيهِ صَاحِبُهُ، وَكُلُّ مَا غِيبَ^(١) شَيْئًا عَنِ الْحَسِّ يَكُونُ فِيهِ فَهُوَ غِيَابَةٌ، وَالْقَبْرُ يَسْمَى بِذَلِكَ، قَالَ الشَّاعِرُ:

وإِن أَنَا يَوْمًا غِيبْتُنِي غِيَابَتِي فسيروا بسيري في العَشِيرَةِ وَالْأَهْلِ^(٢)
وَالْجُبُّ: الْبُئْرُ الَّتِي لَمْ تُطَوَّ^(٣)، تُسَمَّى بِذَلِكَ لِأَنَّهُ غِيبَ عَنْهَا تَرَابُهَا؛ أَي: قُطِعَ،
وَقَالَ الْأَعَشَى:

لِئِنْ كُنْتَ فِي جُبِّ ثَمَانِينَ قَامَةً وَرُقِيتَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلَمٍ
لَيْسْتَ دَرَجَتِكَ الْقَوْلُ حَتَّى تَهْرَهُ وَتَعْلَمَ أَنِّي عِنْدَكُمْ غَيْرُ مُلْجَمٍ^(٤)
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَلْقَظُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾: وَالْإِلْتِقَاطُ: تَنَاوُلُ الشَّيْءِ مِنَ الطَّرِيقِ،
وَمِنْهُ: اللَّقْظَةُ وَاللَّقِيطُ.

وَالسَّيَّارَةُ: الْعَيْرُ، وَقِيلَ: مَارَةُ الطَّرِيقِ.

يَقُولُ: أَلْقَوْهُ فِي أَسْفَلِ بُئْرٍ عَمِيقٍ قَلِيلَةِ الْمَاءِ عَلَى مَمَرِ السَّيَّارَةِ وَالْقَوَافِلِ يَلْتَقِظُهُ
بَعْضُهُمْ، فَيَخْلُوا لَكُمْ مَكَانُهُ مِنْ غَيْرِ ارْتِكَابِ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ - وَهُوَ الْقَتْلُ - وَيَحْصُلُ
لَكُمْ الْمَقْصُودُ الْآخَرُ؛ وَهُوَ رَمِيْكُمْ إِيَّاهُ الْبَلَدَ الثَّانِي^(٥) مِنْ غَيْرِ أَنْ تَحْتَاجُوا إِلَى تَكْلُفِ
سَفَرٍ فِيهِ^(٦) بِأَنْفُسِكُمْ.

(١) فِي (ف): «يَغِيبُ فِيهِ».

(٢) الْبَيْتُ لِلْمَنْخَلِ بْنِ سَبِيْعِ الْعَنْبَرِيِّ كَمَا فِي «مَجَازِ الْقُرْآنِ» (١/ ٣٠٢)، وَ«الْكَشَافُ» (٢/ ٤٤٧). وَهُوَ

فِي «مَعَانِي الْقُرْآنِ» لِلزَّجَّاجِ (٣/ ٩٤) رَوَايَةٌ: (غَيْبَتُنِي مِنْتِي).

(٣) طَوَى الْبُئْرَ: عَرَشَهَا بِالْحِجَارَةِ وَالْأَجْرِ.

(٤) الْبَيْتَانِ لِلْأَعَشَى، وَهُمَا فِي «دِيَوَانِهِ» (ص: ٨٢). وَتَهْرَهُ: تَكْرَهُهُ.

(٥) فِي (ف): «الْبُئْرُ وَالثَّانِي»، وَلَعَلَّ الصَّوَابَ: الْبَلَدُ الثَّانِي.

(٦) «فِيهِ» لَيْسَ فِي (ف).

فنصحَ هذا القائل إلى الإخوة بهذا التدبير، وكان مقصده نقض رأيهم في القتل، وجزهم^(١) عنه إلى الرأى الثاني بتسهيل ذلك السبيل إليهم، والعاقِل إذا دُفِعَ إلى شرٍّين^(٢) اختارَ أهونَهُما.

﴿فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ﴾ بالتعريف دون التنكير، له معنيان: يحتمل أنهم أشاروا إلى بئرٍ قد عرفوها في أسفارهم، ويحتمل أن يكون ذلك كقولك: ارم به في الماء، لا تريد به ماءً بعينه، إنما تريد به الجنس.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾؛ أي: إن كنتم تريدون تمامَ تدبيركم فافعلوا هذا، فليس لكم أوفق منه.

وقال الإمام أبو حسين محمد بن يحيى البشاغري في «كتاب العصمة»: إنَّ الأخوةَ تستصحبُ الشَّفقةَ، لكنَّ الميلَ إلى حظِّ النَّفسِ ربَّما يَغلبُ على الشَّفقةِ فلا يقدِرُ على استعمالِها، فيعاملُ أخاهَ معاملةَ الأجانبِ والشَّفقةُ على حالِها غيرُ متلاشيَّة، لكنَّها غيرُ عاملة، دليلُه قولُ أحدهم للآخرين: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَقِمْ وَفِي غَيْبَتِ الْجَبِّ﴾، وهذا كلامٌ من هذا القائل على نظم الشَّفقة، وإجابتهم له مبنية على نظم^(٣) الشَّفقة أيضًا، أنَّ مطالبَهم حظوظَهم من أبيهم غلبت عليهم، فلم يتركوه من غير أذى ومكروه، وألحقوهما به، ولم يخرجوا أيضًا بالإهلاك على الاستئصال؛ لأنَّ الإلقاء في الجبِّ مرجوٌّ منه الخلاص.

وقولهم أيضًا: ﴿إِنْ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ عنوا به: لفي خطأً بين؛ حيث لا يسوي

(١) في (ر): «زجرهم»، وفي (ف): «ومرهم»، ولعل الصواب المثبت.

(٢) في (ف): «شيئين».

(٣) «نظم» من (ف).

بَيْنَنَا فِي الْمَحَبَّةِ لَنَا، وَالْإِقْبَالَ عَلَيْنَا، وَالتَّجَنُّحَ^(١) بَنَاءً، فَلَمْ يَعْرِفُوا أَنَّ إِقْبَالَ يَعْقُوبَ إِلَى يُوسُفَ لَمْ يَكُنْ مِنْ جِهَةِ الْوَلَدِ، وَإِنَّمَا كَانَ مِنْ مَعْرِفَةِ صَنِيعِ اللَّهِ تَعَالَى^(٢)، وَبِمَا وَضَعَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ مِنَ اللَّطَائِفِ.

وَكَانَتْ مَحَبَّتُهُ لِمَا كَانَ يُكْشَفُ لَهُ مِنْ زِيَادَةِ الْإِطْلَاعِ عَلَى صَنِيعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ، وَكَانَ لَا يَلْزُمُهُ التَّسْوِيَةُ بَيْنَهُمْ، وَلِهَذَا قَالُوا: إِنَّ لِلْأَبِ أَنْ يَزِيدَ فِي الْإِحْسَانِ وَالْبِرِّ لِبَعْضِ الْأَوْلَادِ دُونَ بَعْضٍ؛ لَزِيَادَةِ مَنْقَبَةٍ فِي الدِّينِ أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا، وَإِنْ كَانَ الْأَوْلَادُ سُوءًا فِي مَعَانِي الدِّينِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْوِيَ بَيْنَهُمْ فِي الْإِكْرَامِ وَالْبِرِّ.

فَلَمْ يَكُنْ يَعْقُوبُ فِي خَطَأٍ بَيِّنٍ كَمَا قَالَ بَنُوهُ، إِلَّا^(٣) أَنَّهُمْ تَوَهَّمُوا أَنَّهُ يَكْرُمُهُ لْغَيْرِ الْوَلَدِيَّةِ^(٤)، فَرَأَوْا أَنْفُسَهُمْ أَوْلَادَهُ، فَنَسَبُوهُ إِلَى الْخَطَأِ، وَلَوْ عَرَفُوا أَنَّهُ لَمَعْنَى مِنْ لَطَائِفِ اللَّهِ فِيهِ يَكْرُمُهُ لَمْ يَنْسَبُوهُ إِلَى الْخَطَأِ.

وَفِي ذَلِكَ إِبَانَةٌ أَنَّهُمْ يَسْتَغْظَمُونَ إِقْبَالَ أَبِيهِمْ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا عَظْفَهُ عَلَيْهِمْ^(٥)، وَيَغْتَنِمُونَ إِكْرَامَهُ إِيَّاهُمْ مَا كَسَوْهُ، وَلَوْ كَانُوا مَتَهَاوِنِينَ^(٦) بَيْنَ الْوَالِدِ غَيْرِ مَغْتَنِمِينَ عَظْفَهُ عَلَيْهِمْ لَمْ يَشْتَغَلُوا بِتِلْكَ الْمَمَّاكِسَةِ مَعَ أَبِيهِمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ^(٧) جَهِلُوا وَجْهَ الْمَعَامَلَةِ فِي خِلَالِ كَلَامِهِمْ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ وَمَعَ أَبِيهِمْ وَمَعَ أَخِيهِمْ، مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِمْ: ﴿لْيُوسُفُ

(١) فِي (ر): «وَالنَّجْحَ».

(٢) بَعْدَهَا فِي (ر): «مَنْحَهُ فِي التَّقْوِيمِ».

(٣) فِي (ر): «لَوْلَا».

(٤) فِي (ر): «الْوَلَدِ».

(٥) «فَأَرَادُوا عَظْفَهُ عَلَيْهِمْ» مِنْ (ف).

(٦) فِي (ف): «مَتَقِينِينَ».

(٧) فِي (ف): «لَأَنَّهُمْ» بَدَلَ: «إِلَّا أَنَّهُمْ».

وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴿[يوسف: ٨]، ومن نحو قولهم: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩]، وقولهم: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩]، وقولهم: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْتَمُنَّ عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ١١].

ثم ترك المجاهرة بقتله مغافصةً في ذلك كله، دليل على صحة إيمانهم؛ إذ لو لم يكن لهم إيمان لم يكن لهم مانع عن قتله من غير تدسيس أو احتيال، وذلك كله دليل على أن بركة نبوة أبيهم وأجدادهم كانت متعدية إلى بواطنهم، حتى لم يصيروا معاندين عناد المعرضين عن الحق بفعلهم^(١)، إلا أنهم لم يكونوا في ذلك الوقت أنبياء، فلم يُعصموا عن المحظورات كلها، فوقعوا فيما وقعوا الحكمة بالغية علمها الله تعالى، وعلم نفعها متصلاً بهم وبأبيهم وبأخيههم وبالمسلمين، فأجرى عليهم تلك المعصية^(٢)، وعقَّب تلك اللطائف والنعم فيهم وفي غيرهم.

(١١) - ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْتَمُنَّ عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْتَمُنَّ عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ﴾: ولما اتفقوا على التَّغْيِيب صاروا إلى أبيهم يعقوب عليهم السلام فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْتَمُنَّ عَلَى يُوسُفَ﴾.

وفي الكلمة ثلاثة أوجه: (لا تأمننا) بنونين على الإظهار^(٣)؛ لأنَّ النونين من كلمتين.

(١) في (ف): «بوجه».

(٢) في (ف): «العصية».

(٣) نسبت لأبي رضي الله عنه والحسن والأعمش وطلحة بن مصرف. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٧)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٢٣)، و«البحر المحيط» (١٢/ ٤٢٠).

و: ﴿لَا تَأْمَنَّا﴾ بنونٍ واحدة على الإدغام؛ لالتقاء المثلثين^(١).

و: ﴿لَا تَأْمَنَّا﴾ بالإدغام وإشمام الضمة^(٢)؛ طلباً لِمَا كان فيها من الضمِّ.

وقد أَمَنَ يَأْمَنُهُ؛ أي: ائتمنَه، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [البقرة: ٢٨٣].

قالوا: لِمَ تخافُ علينا أَنْ نناله بسوء ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾؛ أي: وهو أخونا وشقيقنا، فنحنُ له ناصحون، يريدون به الخير ظاهراً وباطناً، لا موضعَ لاثِّهَامِك إِيَّانا فيه.

ونصَّحُهم له في السَّفَر: أَنْ يَحْطُوهُ^(٣) ولا يدَعُوهُ يأخذ وجهًا مخوفًا، ولا يُفَرِّدُوهُ عن أنفُسِهِم، ولا يكلِّفُوهُ ما يُخَافُ عليه منه، ونحو هذا.

قال مقاتلٌ: في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾، فقال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾، فحينئذٍ قالوا: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾^(٤).

وقال في «كتاب عصمة الأنبياء»: كأنَّهم كانوا طالِبوه مرارًا حتَّى خاطبوه بهذا: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾، ولو كان هذا ابتداءً كلامٍ ولم يظهر منه منعٌ لم يصحَّ هذا الخطابُ، وأرادوا بتأكيد هذا الكلام استرسالَ أبيهم واستسلامه بإرسالِ يوسفَ معهم، ثمَّ قالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ فظاهرُه كذبٌ منهم؛ لأنَّهم أضَمُّوا غشَّه، إلَّا أنَّ فيه نوعَ نصيحٍ من وجهين:

أحدهما: أنَّه بإضمارهم الإضرارَ بأخيهم كانوا معتقدين للنُّصح، لذلك لم

(١) هي قراءة أبي جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (١/٣٠٣).

(٢) هي قراءة باقي العشرة. وهنا نهاية السقط في (أ) المشار إليه في (ص ٣١٨).

(٣) في (أ): «يحفظوه».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/٢٠٠).

يكفروا، وهذا هو المذهب السَّديد أنَّ مرتكبَ^(١) الكبيرة إذا لم يستحلَّها فهو في عَقْد الإيمان صحيحٌ، فإخوة يوسف عرفوا النَّصح في باطنهم، غير أنَّ غلبة الشهوة في حظوظهم حملتهم على ذلك الفعل، فلم يستعملوا النَّصح المتمكَّن.

والثَّاني: أنَّهم اعتقدوا تغييبه عن أبيه، لا إهلاكه، وفي ذلك طرفٌ من النَّصح، وهم كانوا مع هذا التَّأويل غير ناصحين بمكان أبيهم وأخيهم؛ لأنَّ قليل الأذى لمكان الوالدين كثيرٌ، وكذا قليل قطع الرَّحم، فكيف بما أفضوا إليه؟

وقال الإمام القشيري رحمه الله: كلامُ الحسود لا يُسمع، ووعظه لا ينجع، وإن كان في معرض النَّصح، فإنَّه يُطعمُ الشَّهْدَ ويَطعمُ الصَّابَ^(٢)، ويظهرُ الشَّفا^(٣) ويضمِرُ الأوصاب^(٤).

قال: ويُقال: العجبُ من قبول يعقوبَ ما ضمَّنه له من حفظِ يوسفَ وقد تفرَّسَ فيما قال ليوسف: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، ولكن إذا جاء القدرُ عمي البصرُ. قال: ويُقال: مَنْ قَبِلَ على محبوبه حديثَ أعدائه لقيَ ما لقيَ يعقوبُ في يوسفَ من بلائه^(٥).

(١) في (أ): «من ارتكب».

(٢) في (ف) و(ر): «يطعمُ الشَّهْدَ ويَطعمُ الصَّابَ»، وفي «لطائف الإشارات»: «يطعمُ الشَّهْدَ ويسقي الصَّابَ». والصَّاب: عصارة شجر مر. انظر: «الصَّاح» للجوهري (مادة: صوب).

(٣) في (ر): «الصفاء».

(٤) الأوصاب: جمع وَصَبٍ، وهو المرض الملازم الدائم. انظر: «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (مادة: وصب). وجملة: «ويظهرُ الشَّفا ويضمِرُ الأوصاب» لم ترد في مطبوع «اللطائف».

(٥) في (ر): «من أولاده». انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٧١ - ١٧٢).

(١٢) - ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب﴾: قرأ ابن كثير: بفتح النون وكسر العين: ﴿يَرْتَع﴾ من ارْتَعَيْتُ^(١)، وقرأ نافع بالياء فيهما وجزم العين، وأجمعوا على جزم: ﴿وَيَلْعَب﴾^(٢).

قالوا: ابعثه معنا إلى الصحراء غداً، نأكل جميعاً ما يكون فيها بكثرة وسعة، ونلعب فيها جميعاً، وذلك في اللعب المباح الذي قد يفعله الكبار مع الصغار، خصوصاً إذا كانوا إخوة لا يحتشم بعض من بعض.

ويجوز أن يكون ذلك اللعب هو ما ذكر بعده من الاستباق، في قولهم: ﴿ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾؛ أي: نرتمي بالقسي والسهام.

وقيل: نستبق بالأقدام، وكل ذلك مباح في الشرع.

قال النبي ﷺ: «ليس من الله مباح إلا ثلاثة؛ ملاعبة الرجل أهله، ورميه عن قوسه، وتأديبه فرسه»^(٣).

وقال عليه السلام: «ستكون لكم فتوح، فلا يعجزن أحدكم أن يلهو بقوسه وأسهمه»^(٤).

(١) وكسر البزي عنه العين من غير ياء، واختلف عن قبل في إثبات الياء وحذفها.

(٢) وملخص ما فيهما: الكوفيون ونافع ﴿يَرْتَع وَيَلْعَب﴾ بالياء فيهما والباقون بالنون، وكسر نافع وابن كثير العين من ﴿يَرْتَع﴾ وجزمها الباقون. والخلاف عن ابن كثير على ما ذكرنا. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٤٥)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٨ و ١٣١)، و«النشر» (٢/ ٢٩٣ و ٢٩٧).

(٣) رواه أبو داود (٢٥١٣)، والترمذي (١٦٣٧)، والنسائي (٣٥٧٨)، وابن ماجه (٢٨١١)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. وقال الترمذي: حديث حسن.

(٤) روى نحوه مسلم (١٩١٨) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

وكان رسول الله ﷺ يسابقُ عائشةَ على الأقدام^(١).
 وَمَنْ قَرَأَ ﴿نَرْتَعُ﴾ بتسكين العين؛ فهو من رَتَعَ يَرْتَعُ رُتوعًا، وَمَنْ قَرَأَ بالكسر؛
 فهو من ارْتَعَى يَرْتَعِي ارْتِعَاءً، وهما في المعنى واحدٌ.
 وَمَنْ قَرَأَ بياء المغايبة فيهما فقد جعل الفعلَ لِيُوسِفَ يَسْرُحُ^(٢) وَيَتَقَلَّبُ في
 الصَّحراءِ ويلعبُ لعبَ الصِّبيانِ وحده.
 ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾: في حين لعبه مِنْ أَنْ يَنَالَهُ سوءٌ، أو يَتَعَثَّرَ، أو يطوفَ بحيث
 يَنَالُهُ ما^(٣) يُخَافُ عليه مِنَ الوحوشِ أو الهوامِ.
 وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أَطْمَعُوا يَعْقُوبَ في تمكينهم يوسفَ ممَّا فيه
 فرحه^(٤) مِنَ اللَّعْبِ وراحته، فَطَابَتْ نَفْسُهُ بِإِذْهَابِهِمْ إِيَّاهُ مِنْ عِنْدِهِ^(٥)، وَإِنْ كَانَ يَشُقُّ
 عليه فراقه^(٦)، وَلَكِنَّ الْمَحَبَّ يُؤَثِّرُ رَاحَةً مَحْبُوبِهِ عَلَى مَشَقَّتِهِ^(٧).
 وَلَمَّا رَكَنَ يَعْقُوبُ إِلَى قَوْلِهِمْ: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أَتَى مِنْ قِبَلِهِمْ، حَتَّى قَالُوا:
 ﴿وَرَكَّعْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكْلَهُ الذُّبُّ﴾، كَذَلِكَ يَكُونُ مَنْ سَلَّمَ حَبِيبَهُ إِلَى
 أَعْدَائِهِ غَصَّ بِتَحْسِّيِ بِلَائِهِ^(٨).

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٤١١٨)، وأبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) في (ف): «يتفرج».

(٣) «يناله ما» من (ف).

(٤) في (أ): «بما فيه تفرح يوسف»، وفي (ف): «مما فيه يفرح يوسف». وعبارة «اللطف»: «بما فيه راحة نفس في اللعب».

(٥) في (ر): «بإذهابه معهم». وفي «اللطف»: «لإذهابهم إياه من بين يديه».

(٦) «فراقه» ليس في (أ). وجملة: «وإن كان يشق عليه فراقه» ليست في «اللطف».

(٧) في (أ): «على مشقة يوسف». وفي «اللطف»: «على محبة نفسه».

(٨) انظر: «لطف الإشارات» للقشيري (١٧٢ / ٢).

وقال في كتاب «عصمة الأنبياء»: ما معنى إجابة يعقوبَ لِبَنِيهِ في إرسالِ يوسفَ معهم، وقد سمعَ أَنَّهُم للَّرْتُعِ واللَّعِبِ يدعونَه ويحملونه، وهو نبيُّ مرسلٌ؟ هَلَّا تحرَّزَ عن إجابَتِهِمْ؟

قلنا: إِنَّه عليه السَّلام عاملهم بالعِشْرَةِ فيما لم يكن محرِّمًا على يوسفَ في حالِ صِبَاهُ، والرَّتْعُ واللَّعِبُ اللَّذَان كانوا يدعونَه إليهما لم يكونا معصيةً، وإنَّ كانا مكروهَيْنِ أو لغوينِ، والنُّجْبَاءُ الأَجَلَّةُ في معاملة الناس ومجاملتهم كانوا لا يختارون من الأعمالِ إِلَّا أَفْضَلَهَا^(١)، وَمِنَ الأُمُورِ إِلَّا أَكْمَلَهَا^(٢)، لكنَّهُمْ إِذَا اسْتَقْبَلَهُمْ مَمَّنْ دُونَهُ لَغَوْا أو إِصَابَةُ بِمَكْرُوهِه عاملُوهم^(٣) على قَدَرِ احتمالِهِمْ، فلم يكنْ مِنَ النُّجْبَاءِ الأَصْفِيَاءِ مذمومًا لجَمِيلِ مرادِهِمْ في تحسِينِ أَخْلَاقِهِمْ؛ استِجْلَابًا مِنْهُمْ لِلَّذِينَ عاملُوهم^(٤) إِلَى الحَقِّ والهُدَى.

فإنَّ قالَ قائلٌ: بَأَنَّ يحيى عليه السَّلام فيما يُروى عنه عرفَ ذلك، حتَّى دفعَ الإجابةَ لِلصَّبِيَّانِ إِلَى اللَّعِبِ، حتَّى مدَّحَه اللهُ تعالى فقالَ: ﴿وَأَيَّتَنُ الْخُكْمِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] وهو ابنُ أربعِ سِنِينَ، حيثُ قالَ لَهُمْ: مَا لِلَّعِبِ خُلِقْتُ^(٥). فَهَلَّا عرفَ يوسفُ عليه السَّلام حتَّى كان يدفعُهُمْ؟

(١) في (ر): «أو لغوا من الأعمالِ وإنَّ كان الأنبياءُ والأصفياءُ لا يختارون من الأحوالِ إِلَّا أَفْضَلَهَا» وفي

(ف): «أو لغوينِ إذ ليس المراد من الأعمالِ إِلَّا أَفْضَلَهَا».

(٢) في (ر) و(ف): «أَجْمَلَهَا».

(٣) في (ر): «عاملوه».

(٤) في (ر): «عاملوه».

(٥) رواه ابنُ المَبَارَكِ في «الزهد» (٨٢٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٣٩٦)، والطبري في «تفسيره»

(١٥ / ٤٧٤)، والخراطي في «مساوئ الأخلاق» (٧٠٥) عن معمر.

قلنا: إِنَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ لِلْعَبِّ لَمْ يُخْلَقْ، وَلَكِنْ لَمْ يَدْفَعْ كَلَامَهُمْ تَعْظِيمًا لِلْإِخْوَةِ الَّذِينَ كَانُوا أَكْبَرَ سِنًا مِنْهُ، وَلَمْ يُظْهِرِ الْإِجَابَةَ بِالْكَلَامِ وَلَا بِالْعَمَلِ رَتَعًا وَلَعِبًا فِيمَا بِهِ بَأْسٌ مِنْ حَسَنِ عِشْرَتِهِ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: خَافَ يَعْقُوبُ عَلَى يَوْسُفَ الضَّيْعَةِ مِنْ جِهَةِ الْجُوعِ بِتَرْكِهِمْ حِفْظَ أَوْقَاتِ^(١) الْأَكْلِ، فَأَمَّنُوهُ أَيْضًا عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿يَرْتَعُ﴾؛ أَي: يَأْكُلُ.

وَخَافَ عَلَيْهِ أَنْ يَكْلِفُوهُ^(٢) أَمْرًا يَشْقُ عَلَيْهِ وَيَشْتَدُّ، فَأَمَّنُوهُ أَيْضًا عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَيَلْعَبُ﴾؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي اللَّعْبِ مَشَقَّةٌ وَلَا شِدَّةٌ.

وَخَافَ عَلَيْهِ الضَّيْعَةَ بِتَرْكِهِمْ حِفْظَهُ، فَأَمَّنُوهُ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، حَتَّى اسْتَنْقَدُوهُ مِنْ يَدَيْهِ^(٣).

وقيل: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْتَمَنَّا﴾ هَذَا عِتَابٌ مِنْهُمْ لِأَبِيهِمْ، وَمِثْلُهُ فِي الْقُرْآنِ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [الحديد: ٨]، ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٠]، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٥]، وَهَذَا عِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ عِبِيدِهِ، وَقَالَ نُوحٌ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، وَهَذَا عِتَابُهُ مَعَ أُمَّتِهِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١٢] وَهَذَا عِتَابُ الصَّالِحِينَ مَعَ أَنْفُسِهِمْ.

وَقَالُوا: قَوْلُهُمْ: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ تَكَلَّمُوا بِثَمَانِي كَلِمَاتٍ، وَفِيهَا ثَمَانِيَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْخَطَا:

(١) فِي (ر): «آفَات».

(٢) فِي (ف): «يَلْقُوهُ».

(٣) انْظُرْ: «تَأْوِيلَاتُ أَهْلِ السَّنَةِ» لِلْمَاتَرِيدِيِّ (٦/ ٢١٣).

قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ﴾ وهذا أمرٌ، وأمرُ الابنِ لأبيه خطأً.
 وقالوا: ﴿مَعَنَا﴾ وهذا منهم رؤية أنفسهم، وهي خطأً.
 وقالوا: ﴿غَدًا﴾ وهذا طولُ أملٍ منهم، وهو خطأً.
 وقالوا: ﴿يَرْتَعِ﴾ وهذا حديثُ الأكلِ وحظُّ النفسِ، وهذا من المتورِّعين خطأً.
 وقالوا: ﴿وَيَلْعَبُ﴾ وهو من الأنبياء خطأً.
 وقالوا: ﴿وَإِنَّا﴾ فأعظموا أنفسهم، وهذا من الكبراءِ خطأً.
 وقالوا: ﴿لَحَفِظُونِ﴾ رأوا الحفظَ من أنفسهم، وهو من الله جلَّ جلاله، فإضافته
 إلى العبد خطأً.
 وأطلقوا هذا الوعد ولم يقولوا: إن شاء الله؛ وهو خطأً، لكن سترَ عليهم أبوهم
 مع علمه بخطئهم شفقةً عليهم.

(١٣) - ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾: الحزنُ: ألمُ القلبِ بفواتِ المحبوبِ، والخوفُ: انزعاجُ النفسِ
 لنزولِ المكروه.

وقالوا: لعلَّ تلكَ المواضع كانت مَسْبَعَةً، فخافَ أن يشتغلوا عنه بما يشتغلُ
 مثلهم، فيغفلوا عنه، فيعدو عليه ذئبٌ فيأكله.

وقال مقاتل: وإنما قال يعقوب ذلك لأنه رأى في المنام أن ذئبًا انتزع يوسف من يده^(١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وهذا لا يُحتمل؛ لأن رؤيا الأنبياء حقٌ وصدقٌ، فلا يحتمل أن يرى ذلك ثم يقول: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّبُّ﴾، أو يدعه يذهب معهم، لكنه خاف عليه أكل الذَّب على ما يُخاف على الصبيان في المفاوز؛ إذ الخوف على الصبيان منها والضباع عليهم يكون بالذَّب أكثر من [أي] وجهٍ آخر؛ لأنه جائز أن يفترسه سبعٌ عند اشتغالهم بعمل^(٢).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: يقول: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾؛ لأنني لا أصبر عن رؤيته، ولا طاقة لي بفرقه، هذا إذا كانت الحالة حالة السلامة، فكيف ومع هذا أخاف أن يأكله الذَّب؟!

وفي الخبر: «إنما يُسلطُ على ابنِ آدمَ ما يخافه»^(٣)، ولما خاف يعقوب على ولده الذَّب امتحنَ بحديثِ الذَّب^(٤).

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢٠١) بلا نسبة، وعزاه الواحدي في «السيط» (٢ / ٦٠٢) إلى المفسرين.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٢١٥)، وما بين معكوفتين منه.

(٣) رواه الختلي في «الدياج» (٦٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وذكره الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» (١ / ١٧٦)، والدلمي في «مسند الفردوس» (٩٠٤٠). وفيه بكر بن حذلم قال ابن حجر في «لسان الميزان» (٢ / ٣٤٠): متروك. ووهب بن أبان، قال ابن حجر في «لسان الميزان» (٦ / ٢٢٩): لا يُدرى من هو وأتى بخبر موضوع، ذكره الأزدي فقال: متروك الحديث غير مرضي، ثم أسند له من طريقه هذا الحديث.

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ١٧٢).

(١٤) - ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَسِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَسِرُونَ﴾: أي: لئن قدر على أكله الذئب ونحن فرقة نحيطُ به ونحوطه، فلا يعجز مثلنا عن ذبِّ السباع عنه ﴿إِنَّا إِذًا لَّخَسِرُونَ﴾؛ أي: مضيِّعون، نخسرُ أخانا فيذهب هدرًا، وكأنَّا^(١) سلَّمناه إلى الذئب وعرضناه للضياع.

والخاسر في اللغة: لقبٌ مذمومٌ، يقاربُ معناه معنى الهلاك، ومعنى الضَّلال^(٢)؛ كما قال تعالى: ﴿فَاتَزِيدُنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣] قالوا: غير تضليل، وكأنَّه ضدُّ المفْلَح، والمفْلَح: مَنْ نال المطلوب وفاز بالخير، والخاسر: مَنْ لا خيرَ فيه ولا فلاحَ له، وحقيقته النُّقصانُ، ومنه الخسران الَّذي هو ضدُّ الرِّبح، فالخاسرُ: هو النَّاقِصُ العقلِ والتَّدبِيرِ.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: حقٌّ في إخوة يوسفَ ما وصفوا به أنفسهم من الخسرانِ، وإنَّ مَنْ باعَ أخاهُ مثلَ يوسفَ بمثلِ ذلك الثَّمَنِ البَخْسِ فحقيقٌ أن يُقالَ: خَسِرْتَ صَفْقَتَكَ^(٣).

وفي «كتاب عصمة الأنبياء»: فإنَّ قالوا: كيفَ كانَ يجوزُ مِنَ النَّبِيِّ المرسلِ الاشتغالُ بعباداتِ النَّاسِ في كلامِهِمْ، مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ إلى آخره، وأسرارُ الأنبياء كانتَ لله عزَّ وجلَّ، غيرُ مُبَقَّي^(٤) فيها غيرُ ذِكْرِهِ، فكيفَ كانَ يحزُّهُ أمرُ يوسفَ؟

(١) في (أ): «وكنّا».

(٢) في (أ): «الضال»، وفي (ر): «الضياع».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٧٣).

(٤) في (ف): «أن يبقى»، وسقطت كلمة غير من (أ).

قلنا: هذا إظهارٌ منه الشَّفقة على الولد، والوالدان مأموران^(١) بالشَّفقة على الأولاد، والشَّفقة عليهم لا تزيلُ حقَّ الحقِّ عن أسرارهم؛ لأنَّ الشَّفقة قائمةٌ برحمة الله تعالى، ورحمته صفته لا تبعده عن الحقِّ سرًّا وعلنًا؛ قال الله تعالى لنبيه: ﴿فَمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وإلا كان باطنه مصفًى عن شوائب الشكِّ، ورواتب^(٢) الميل إلى الأسباب، دليله قوله تعالى: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ إِلَهُكُمْ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يوسف: ٦٧] إخبارًا بأنَّ ما يخاطبهم على قدر احتمال عقولهم، على ما جرَّت به العاداتُ فيما بين النَّاسِ استعمال الأسباب لإبلاء^(٣) العذر وتسكين الخواطر^(٤) من: لعلَّ وعسى.

وقال بعضُ الحكماء: قيل: البلاءُ موَكَّلٌ بالمنطق، فكان بلاءُ يعقوبَ من ذلك، قال: ﴿إِنِّي لَيَحْزَنُنِي﴾ فحزن، وقال: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ فقالوا: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾، وقال: ﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ فجعلوا ذلك عذرًا لأنفسهم فقالوا: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا﴾، وكان يجتهدُ بذكر هذه الكلمات في حفظ الولد وحثَّ الإخوة على ذلك، فتكلَّم بما صار تلقينًا لهم ماذا يفعلون، فقد كانوا لا يدرون ماذا يصنعون به، وماذا يقولون له، فتلقَّنوا من كلماته عذرهم، وتعلَّموا بإشارته عذرهم^(٥).

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال: لَمَّا قال يعقوب: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ قالوا: ما سمِعنا بذئبٍ أكلَ إنسانًا، فَمِنْ أَيْنَ تقولُ هذا؟ قال: رأيتُ منذُ ليالٍ

(١) في (ف): «والوالد مأمور».

(٢) في (ف): «ورواتب».

(٣) في (ر): «لإيلاء».

(٤) في (أ): «الجواهر».

(٥) «وتعلَّموا بإشارته عذرهم» من (أ).

على قُلَّةِ جبل ويوسف في بطن الوادي، وقد أحاطت به عشرة ذئاب يريدون قتله، فأرذت النُّزولَ لأنقذه فلم أجد إلى ذلك سبيلاً، فبينا أنا كذلك انشقت الأرض فسقط يوسف فيها، فها لني ذلك، فاستيقظت فإذا يوسف في حجري، فقلت: الحمد لله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فالجبل حال يعقوب، والذئاب إخوة يوسف، وانشقاق الأرض وقوعه في غيابة الجب.

ف قيل لابن عباس رضي الله عنهما: وهل كان يعلم يعقوب تأويل الرؤيا؟ قال: نعم.

قالوا: فلم أرسله معهم؟ قال: أما سمعتم: إذا جاء القدر^(١) عمي البصر^(٢)؟!

(١٥) - ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾: وها هنا محذوف؛ أي: فأرسل يعقوب يوسف عليهما السلام، فلما ذهبوا به.

روي أن إبليس - لعنه الله - أتاهم، فقال وهو في صورة شيخ، وكانوا يدبرون ذلك في الشتاء: ليس هذا وقت الخروج به إلى الصحراء، فامكثوا حتى يجيء الربيع، فقولوا للأب: طاب الزمان وتزينت الصحراء، ويوسف في البيت لا يرى ما نرى،

(١) في (ف) و(أ): «القضاء».

(٢) لم أجده عن ابن عباس، وروى نحوه أبو سعيد الواعظ في مقدمة كتاب «منتخب الكلام في تفسير الأحلام» (ص: ٢٩٤) من طريق عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب بن منبه. وعبد المنعم بن إدريس قال عنه أحمد بن حنبل كما في «الميزان»: كان يكذب على وهب بن منبه، وقال البخاري: ذاهب الحديث. وقال ابن حبان: يضع الحديث على أبيه وعلى غيره.

فَأَذَنَ لَهُ فِي الْخُرُوجِ مَعَنَا فَيَنْفَرَجَ، فَلَمَّا جَاءَ الرَّبِيعُ جَاؤُوا إِلَى يُوسُفَ فَكَلَّمُوهُ حَتَّى رَغَبُوهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالُوا: إِذَا^(١) سَأَلْنَا أَبَانَا أَنْ يَأْذَنَ لَكَ فَاجْهَدْ أَنْتَ مَعَنَا فِي الْاسْتِئْذَانِ، فَفَعَلُوا، فَتَضَرَّعَ يُوسُفُ إِلَى أَبِيهِ فِي ذَلِكَ، فَاضْطَرَّ فَأَذَنَ لَهُ لَيْلًا أَنْ^(٢) يَخْرُجَ مَعَهُمْ غَدًا، وَكَانَ طَوْلَ اللَّيْلِ يَبْكِي خَوْفًا^(٣) عَلَى فِرَاقِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ رَجَّلَهُ وَطَيَّبَهُ، وَبَنَفِيسِ الثِّيَابِ جَمَلَهُ، وَلَبَسَ هُوَ ثِيَابَهُ، فَخَرَجَ مَعَهُمْ يَشِيعُ يُوسُفَ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ دَرَبِ كَنْعَانَ إِلَى شَجَرَةٍ كَانَ عِنْدَهَا وَدَاعُ الْمَسَافِرِينَ عَانَقَ يُوسُفَ وَودَّعَهُ وَبَكَى، وَقَالَ لِإِخْوَتِهِ: لَا تَلُومُونِي، فَإِنِّي أَتَوَسَّمُ فِيهِ أَثَارَ أَبِي وَجَدِّي، وَأَوْصَى يُوسُفَ وَصَايَا وَقَالَ: لَا تَنْسَ اللَّهَ تَعَالَى بِكُلِّ حَالٍ، وَإِذَا وَقَعْتَ فِي بَلِيَّةٍ فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ، وَأَكْثِرْ مِنْ قَوْلِ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَإِنَّ جَدَّكَ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ قَالَ ذَلِكَ، وَلَا تَنْسَنِي فَإِنِّي لَا أَنْسَاكَ، وَلَا تَضْحَكُ حَتَّى تَرَانِي، فَإِنِّي لَا أَضْحَكُ حَتَّى أَرَكَ.

وَعَاهَدَ إِخْوَةَ يُوسُفَ أَنْ يَطْعِمُوهُ وَيَسْقُوهُ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَيَحْمِلُوهُ وَلَا يَتَعَبُوهُ، فَفَعَلُوا مِنْهُ ذَلِكَ، وَاحْتَمَلَهُ رُوَيْبِلَ عَلَى عَاتِقِهِ^(٤)، وَرَجَعَ يَعْقُوبُ، فَغَابُوا عَنْهُ^(٥)، فَلَمَّا بَعَدُوا عَنْهُ أَلْقَاهُ رُوَيْبِلَ عَنْ عَاتِقِهِ، وَقَالَ لَهُ: امْشِ كَمَا نَمْشِي^(٦)، فَمَشَى وَأَعْيَى فَقَعَدَ وَقَالَ: عَطِشْتُ فَاسْقُونِي، فَلَمْ يَسْقُوهُ، وَعَجَزَ عَنِ الْمَشْيِ فَأَكْرَهُوهُ، وَلَمَّا امْتَنَعَ لَطَمَهُ بَعْضُهُمْ وَعَتَّفُوا عَلَيْهِ، وَقَالُوا: أَيْنَ رُؤْيَاكَ النُّجُومَ وَالشَّمْسَ سَاجِدَةً لَكَ؟ اسْتَعْنِ بِهِمْ وَاسْتَسْقِهِمْ وَاسْتَحْمِلِهِمْ.

(١) فِي (أ) وَ(ر): «إِنَّا».

(٢) فِي (أ): «لَأَنْ» بَدَلَ: «لَيْلًا أَنْ».

(٣) «خَوْفًا» لَيْسَ فِي (ف).

(٤) فِي (ف): «وَعَاتِقَهُ يَعْقُوبُ» بَدَلَ مِنْ «عَلَى عَاتِقِهِ».

(٥) «فَغَابُوا عَنْهُ» مِنْ (أ) وَ(ف).

(٦) «كَمَا نَمْشِي» لَيْسَ فِي (ف).

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْمَعُوا﴾: قيل: أي: عزموا، وقيل: اتفقوا^(١) ﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ﴾: قد فسرناه.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾: قيل: بشرناه على لسان ملك.

وقيل: ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾: أرسلنا إليه بالنبوة.

قال الحسن: أعطاه الله تعالى النبوة وهو في الجب^(٢).

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ﴾: هذه بشارة مؤكدة^(٣) تأكيد اليمين؛ أي: لتخبرنهم بما فعلوا بك، وهو قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٩]، وهذا نبا توبيخ، وهو بشارة له بمصير أمره إلى ذلك.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: حالة إلقاءه في الجب أن الله تعالى أوحى إليه وبشّره به.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: حين انقطع عنه ملاطفة أبيه جاءه الوحي من بارئه، وهكذا سُنَّته جلَّ جلاله لا يفتح على نفوس أوليائه باباً من البلاء إلا فتح على قلوبهم أبواب الصفاء وفنون لطائف الولاء^(٤).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويشبه أن يكون قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى يعقوب، ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾، وذلك قوله تعالى: ﴿أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، عَلِمَ أَنَّهُ حَيٌّ بِذَلِكَ الْوَحْيِ، وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

(١) بعدها في (ف): «أن يجعلوه في غيبة الجب وهو ما أخبر الله تعالى بقوله».

(٢) ذكره الجصاص في «أحكام القرآن» (٣/ ٢١٧)، والواحدي في «البيضا» (١٢/ ٤٢)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٢٥)، والرازي في «مفاتيح الغيب» (١٨/ ٤٣٦)، وأبو حيان في «البحر المحيط» (١٢/ ٤٢٦).

(٣) في (ف): «تؤكد».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٧٣).

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦]^(١).

واختلفوا في جواب (لَمَّا):

قال أهل البصرة: هو محذوفٌ تقديره: عظمت فتنتهم، أو: كبر ما قصدوا إليه.
وقال أهل الكوفة: الواو من: ﴿وَأَجْمَعُوا﴾، أو من قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾، أو من قوله: ﴿وَجَاءَ آبَاَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ مقحمة زائدة^(٢)، ونظير هذا الإقحام قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمُوا وَلَهُ لُجَيْنٌ^(١٣) وَنَدَيْتُهُ﴾ [الصافات: ١٠٣ - ١٠٤]، وقال امرؤ القيس:

فلَمَّا أَجْزَنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى بَنَّا بَطْنَ خَبْتِ ذِي حِقَافٍ عَقَنْقَلٍ^(٣)

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٢١٦).

(٢) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (١٢ / ٤١)، و«تفسير ابن عطية» (٣ / ٢٢٥).

(٣) البيت من معلقة امرئ القيس. انظر: «ديوانه» (ص: ٣٩). قوله: (أجزنا) يقال: أجزت المكان وجزته: إذا قطعته. الحي: القبيلة. الانتحاء: الاعتماد على الشيء. البطن: مكان مطمئن حوله أماكن مرتفعة. الخبت: أرض مطمئنة. الحقف: رمل مشرف معوج، ويروى: (ذي قفاف)، وهي جمع قف: وهو ما غلظ وارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلاً. العقنقل: الرمل المنعقد المتلبد. وأصله من العقل وهو الشد، وزعم أبو عبيدة وأكثر الكوفيين أن الواو في (وانتحى) مقحمة زائدة، وهو عندهم جواب (لَمَّا)، والواو لا تقحم زائدة في جواب لَمَّا عند البصريين، وهو في مثل هذا الموضع محذوف، وتقديره في هذا البيت: فلما كان كذا وكذا تنعمت وتمتعت بها، وحذف جواب (لَمَّا) كثير في التنزيل وكلام العرب. يقول: فلما جاوزنا ساحة الحي وخرجنا من بين البيوت وصرنا إلى أرض مطمئنة بين حفاف، يريد مكاناً مطمئناً أحاطت به حفاف أو قفاف منعقدة؛ والعقنقل من صفة الخبت لذلك لم يؤنثه، ومنهم من جعله من صفة الحفاف وأحلّه محل الأسماء وعطله من علامة التأنيث لذلك. وقوله: (انتحى بنا بطن خبت) أسند الفعل إلى (بطن خبت) والفعل عند التحقيق له وللحيبة، ولكنه ضرب من الاتساع في الكلام، والمعنى: صرنا إلى مثل هذا المكان؛ =

(١٧) - ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعَانَا فَاكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾.

وقيل: جوابه: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ من غير إقحام.

وقال وهب: فجاءوا به إلى رأس جب، وأرادوا أن يلقوه فيه، فعلق بهم وتعلق^(١) برأس الجب، وتعلق^(٢) قميصه بصخرة، فخلعوا قميصه وتركوه عرياناً، وأوثقوا يديه لكيلا يتعلق بشيء، ثم ألقوه فيها، فقال لهم: ردُّوا عليَّ قميصي أستترُّ به في الجب، فقالوا له: ادعُ الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر حتَّى يستروك في الجب.

وكان ذلك الجب بالأردن، في وادٍ من أوديتها، على رأس ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وكان ماؤها غليظاً كدراً، فلَمَّا ألقى فيها يوسف عذب ماؤها وصفاً، ووَكَّلَ الله تعالى ملكاً فوضع يوسف على صخرة ثابتة في الجب، وقعد يؤنسُه، وبكى يوسف واشتدَّ بكاءه، وبكى الجب لبكائه، وكلُّ شيء سَمِعَ صوته من شجرٍ أو حجرٍ أو مدرٍ^(٣).

وقيل: أوثقوا^(٤) وسطه بحبل وأرسلوه به فيه، فلَمَّا توسَّط الجب قطعوا الحبل، فكاد يسقط، فأمر الله جلَّ جلاله جبريل أن يدركه، فأدركه وأخذه، وجرَّ حجراً منه، فجعله كسرير وأجلسه عليه، وقالت هوامُّ البئر بعضُها لبعض: لا تخرجن من

= وتلخيص المعنى: فلَمَّا خرجنا من مجمع بيوت القبيلة وصرنا إلى مثل هذا الموضع طاب حالنا وراق عيشنا. انظر: «شرح المعلقة» للزوزني (ص: ٥٠).

(١) «بهم وتعلق» ليس في (ف).

(٢) «وتعلق» ليس في (ف).

(٣) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٢٩) عن السدي. وهو من الإسرائيليات.

(٤) في (ر): «شدوا».

مساكنكنَّ، فَإِنَّ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَزَلَ بِسَاحَتِكُنَّ، فَنَحْجِزُنَ إِلَّا الْأَفْعَى، فَإِنَّهَا قَصَدَتْ يَوْسُفَ، فَصَاحَ بِهَا جَبْرِيلُ فَصُمَّتْ، وَبَقِيَ الصَّمَمُ فِي نَسْلِهَا.

وَعَلَّمَ جَبْرِيلُ يَوْسُفَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ هَذَا الدُّعَاءَ: اللَّهُمَّ يَا كَاشِفَ كُلِّ كَرْبَةٍ، وَيَا مُجِيبَ كُلِّ دَعْوَةٍ، وَيَا جَابِرَ كُلِّ كَسِيرٍ، وَيَا مِسِّرَ كُلِّ عَسِيرٍ؛ وَيَا صَاحِبَ كُلِّ غَرِيبٍ، وَيَا مُؤَنِّسَ كُلِّ وَحِيدٍ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ، أَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ لِي فَرْجًا وَمَخْرَجًا، وَأَنْ تَقْذِفَ حَبْكَ فِي قَلْبِي حَتَّى لَا يَكُونَ لِي هَمٌّ وَلَا ذِكْرٌ غَيْرُكَ، وَأَنْ تَحْفَظَنِي وَتَرْحَمَنِي يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

ثُمَّ رَجَعَ جَبْرِيلُ، وَلَمَّا غَرَبَتِ الشَّمْسُ جَاءَ يَهُودًا إِلَى رَأْسِ الْجَبِّ وَنَادَى: يَا يَوْسُفُ، يَا يَوْسُفُ؛ أَحْيِي أَنْتَ أَمْ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ يَوْسُفُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: يَهُودًا، وَكَيْفَ حَالُكَ؟ قَالَ: كَيْفَ حَالُ مَنْ ثَكَلَ أُمُّهُ، وَفَقَدَ أَبَاهُ، وَجَفَاهُ إِخْوَتُهُ، وَاغْتَرَبَ عَنْ وَطَنِهِ، وَهُوَ جَائِعٌ عَطْشَانٌ مَهْمُومٌ عَرِيَانٌ؟! لَيْسَ مِنَ الْأَحْيَاءِ فَوْقَ الْأَرْضِ، وَلَا مِنَ الْأَمْوَاتِ تَحْتَ الْأَرْضِ، فَبَكَى يَهُودًا وَارْتَفَعَ بِكَأْوِهِ، وَقَالَ لَهُ يَوْسُفُ: إِنَّ لِكُلِّ مَيِّتٍ وَصِيَّةً، وَوَصِيَّتِي إِلَيْكَ إِلَّا تَنْظُرَ إِلَى شَابٍّ إِلَّا ذَكَرْتَ شَبَابِي، وَلَا إِلَى يَتِيمٍ إِلَّا ذَكَرْتَ يَتَمِي، وَلَا إِلَى غَرِيبٍ إِلَّا ذَكَرْتَ غَرِيبِي.

فَبَكَى يَهُودًا بَكَاءً شَدِيدًا، فَسَمِعَ الْإِخْوَةُ بِكَاءِهِ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا لَهُ: أَتَبْكِي عَلَيْهِ؟ وَسَدُّوا رَأْسَ الْجَبِّ بِصَخْرَةٍ عَظِيمَةٍ، فَبَكَى يَوْسُفُ حِينَئِذٍ، وَصَاحَ صَيْحَةً بَكَى لَهَا مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ، وَقَالُوا: يَا رَبَّنَا، ارْحَمْهُ، فَبَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى جَبْرِيلَ وَمَعَهُ أَطْعَمَةٌ وَأَشْرَبَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَنَوَّرَ الْجَبَّ، وَكَانَ الْقَمِيصُ الَّذِي أَلْبَسَهُ جَبْرِيلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْهَوَاءِ يَوْمَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَصَلَ إِلَى يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ جَعَلَهُ فِي تَعْوِيدِ

وربطه على عضد يوسف، فحلّه^(١) جبريل وأخرجَه وكساه، وطيب قلبه بالبشارات، وقال له بأمر الله: ﴿لَتُنَدِّتَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قال قائلهم:

الدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَالَةٍ كَذَاكَ حَالُ الْعَبْدِ فِي الْعُسْرِ
أَمَا تَرَى يُوسُفَ فِي جُبِّهِ فِي ضَيْقِ أَمْرٍ ثَمَّ فِي الْيُسْرِ

(١٦) - ﴿وَجَاءَ آبَاَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ آبَاَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾: العشاء: في آخر النهار إلى نصف^(٢) الليل.

و﴿يَبْكُونَ﴾ في معنى الحال؛ أي: يُظْهِرون الحزنَ على يوسف، ويحتمل أنهم ندموا على ما فعلوا.

(١٧) - ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾: قال الزَّجَّاج: أي: نترامى أئنا أصوبُ سهمًا^(٣). وقيل: أي: نتعادي بالأقدام أئنا أسرعُ عدواً.

﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا﴾: أي: رَحَلْنَا ﴿فَاكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾؛

(١) في (ر): «فخلعه».

(٢) «نصف» من (أ).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٩٥).

أي: بمصدقٍ لنا فيما نقوله ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾؛ أي: عند الناس لا نُتَّهَمُ بتضييع
أخينا، وذلك لسوء ظنِّك بنا، واتِّهامك لنا فيه.

(١٨) - ﴿وَجَاءَ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ
وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾: أي: مكذوبٍ فيه؛ مصدرٌ أُريدَ به
المفعول به؛ كـ (الثَّقة) يُراد به الموثوقُ به؛ أي: أخرجوا له قميصَ يوسفَ ملطوخًا
بدَمٍ كذبوا فيه.

قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما ومجاهدٌ: كان دمٌ سَخْلَةٌ، أو هموه أنه دمُ ابنه^(١).
﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾: أي: لم يصدِّقْهم فيما جاؤوا به من الدَّم، وما
أخبروه به مِن أكل الذَّبِّ، وقال لهم: ليس الأمرُ على ما تذكرُون، بل زَيَّنْتَ لكم
أنفُسُكم أمرًا ففعلتموه.

و﴿أَمْرًا﴾ كنايةٌ عن تضييعهم يوسفَ أو إهلاكهم إيَّاه، ولمَّا يكن ذلك بيِّنًا عند
يعقوبَ كُنِيَ فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾: أردُّنم أن يخلو وجهي لكم، فغيبتم
يوسفَ عني.

وقوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: أي: فلي صبرٌ جميلٌ، أو: فمني^(٢)؛ كقوله تعالى:

(١) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٧٨)، والطبري في «تفسيره»

(٣٦ / ١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢١١١ / ٧). رواه الطبري في «تفسيره» (٣٥ / ١٣) عن

مجاهد. السَّخْلَةُ: تطلق على الذكر والأنثى من أولاد الضأن والمعز ساعة تولد، والجمع سخال

وسَخْلٌ. انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: سخل).

(٢) في (ف): «أو هي مني».

﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ﴿فَدَيْتُهُ مِثْلَ مِثْلِهِ﴾ [النساء: ٩٢]؛ أي: فعله ذلك.

قال النَّبِيُّ ﷺ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: صَبْرٌ لَا شَكْوَى فِيهِ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾: أي: أَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَى كَشْفِ مَا التَّبَسَّ عَلَيَّ مِنْ أَمْرِكُمْ.

وعن الشَّعْبِيِّ قَالَ: كَانَتْ قِصَّةُ يُوسُفَ كُلَّهَا فِي قَمِيصِهِ، لَمَّا أَلْقَاهُ إِخْوَتُهُ فِي الْجَبِّ نَزَعُوا عَنْهُ قَمِيصَهُ، وَعَمَدُوا إِلَى سَخْلَةٍ فَذَبَحُوهَا وَلَطَّخُوا قَمِيصَهُ بِدَمِهَا، ثُمَّ جَاؤُوا بِهِ إِلَى أَبِيهِمْ، فَنَظَرَ يَعْقُوبُ إِلَى الْقَمِيصِ وَهُوَ صَحِيحٌ فَقَالَ لَبْنِيهِ: إِنَّ كَانَ هَذَا الذَّبُّ لَحَلِيمًا حِينَ أَكَلَ ابْنِي وَلَمْ يَخْرُقْ قَمِيصَهُ، وَلَمَّا شَهِدَ شَاهِدٌ قَالَ: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مَنَ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ﴾ [يوسف: ٢٧] الآيات، وَلَمَّا أَتَى يَعْقُوبُ بِقَمِيصِهِ فَأَلْقَى عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا^(٢).

وَفِي الْقِصَّةِ: أَنَّهُمْ لَمَّا أَبْطَوْا عَلَى يَعْقُوبَ كَانَتْ لَهُ جَارِيَةٌ يَقَالُ لَهَا: صَفْرَاءُ، فَقَالَ لَهَا: خُذِي بِيَدِي فَانْطَلِقِي بِي أَسْتَقْبِلُ يُوسُفَ، فَخَرَجَا مِنْ كِنْعَانٍ، وَصَعِدَا تَلًّا يَنْظُرَانِ، فَلَمَّا أَظْلَمَ اللَّيْلُ قَالَ لَهَا: صِيحِي بِأَوْلَادِي، فَقَالَتْ: يَا أَوْلَادَ يَعْقُوبَ؛ هَذَا أَبُوكُمْ يَنْتَظِرُكُمْ، فَسَمِعُوا بِذَلِكَ وَهُمْ فِي وَادٍ، فَمَزَقُوا ثِيَابَهُمْ وَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا يُوسُفُ، يَا حَبِيبَاهُ، فَقَالَ يَعْقُوبُ: مَا هَذَا الصَّيَاحُ؟ فَأَخْبَرَتْهُ بِمَا يَقُولُونَ، فَخَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: أَيُّ ذَنْبٍ أَكَلَهُ؟

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (١١٠)، والطبري في «تفسيره» (١٣ / ٤١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١١٢) عن حبان بن أبي جبلة مرسلاً.

(٢) روى نحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٨٢)، والطبري في «تفسيره» (١٣ / ٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١١١).

وفي هذه الرواية: أَنَّهُمْ كانوا أخذوا ذئبًا فأحضره، فقالوا: هذا الذئب، فقال للذئب: لِمَ أَكَلْتَ ولدي؟ فتكلَّم الذئب وقال: إِنَّا لا ندورُ حولَ غنمِك، فكيفُ نأكلُ ولدَكَ؟! قال: فهل هو في الأحياء؟ قال: نعم، قال: أين هو؟ قال: سَلْ جبريلَ، قال: إِنَّه لا يخبرني، قال: وإذا لم يخبركَ هو فكيفَ أخبركَ؟ وقال لأولاده: أسمعتم؟ قالوا: تصدَّقْ ذئبًا وتكذِّبنا ونحن عشرة! فقال: جيئوا^(١) بشيءٍ يدلُّ على ذلك ويكون لي تذكرةً عنه، فذهبوا وعادوا عشاءً وقد حملوا قميصه ملطَّخًا بدمِ شاةٍ، فأخذه ونظرَ فيه، فإذا هو صحيحٌ لم يُخرَقْ، فقال: هل كان يوسفُ في هذا القميصِ؟ قالوا: نعم، قال: كيف وصلَ إليه ولم يُخرَقْ هذا؟ فخرجوا، فقال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، ثُمَّ توجَّه إلى الوادي وهو يقول: يا ولدي وقرَّةَ عيني وثمرَّةَ فؤادي؛ في أيِّ جُبِّ طرحوك؟ في أيِّ بحرٍ غرَّقوك؟ بأيِّ سيفٍ قتلوك؟ بأيِّ أرضٍ دفنوك؟ فبكى لبكائه الملائكةُ، فأتاه جبريل وقال: قد أبكىَّت^(٢) ببكائك الملائكةُ، فقال: ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

وفي «كتاب عصمة الأنبياء» قال: أضاف^(٣) فعلهم إلى تسويلِ أنفسهم، ولم يصرِّحْ بالفعلِ عنهم، فلم يقل: فعلتُم ما فعلتُم وأنتم ظالمون، بل قال: ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ وعقودُكم للإيمان خاليةٌ عن قبولِ تسويلِ أنفسكم ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ﴾؛ أي: يسهِّلْ لي الصَّبْرَ إذا تأمَّلتُ فعلكم أنكم لم تكابروني^(٤) معتقدين إيدائي، فيخفُّ عليَّ تحمُّلُ أذاكم، فأصبرُ صبرًا جميلًا، وهو الذي لا جزعَ فيه.

(١) في (أ): «أجيئوا».

(٢) في (أ): «بكى».

(٣) في (أ) و(ف): «أصاب».

(٤) في (أ): «تكابروني في».

وقد فعل ذلك عند الصدمة الأولى، ووفى حق الصبر؛ إذ لوعة المصيبة عند حدوثها أشد، فإذا لم يخالف وعده بالصبر الجميل؛ إذ لم يجزع للحال، وجزعه من بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأَسَفُ عَلَى يُونُسَ﴾ [يوسف: ٨٤] لا ندرى لماذا كان، فلا يزول به الصبر، على أن الجزع لا يزول الصبر^(١)؛ قال النبي ﷺ في وفاة إبراهيم ولده: «إن القلب يجزع، والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الرب»^(٢)؛ أبان أن صفة الإنسان هي الضعف والعجز^(٣)، قال تعالى: ﴿وَحَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

ولأن جزعه كان لفوات تلك اللطائف التي كان اختص بها يوسف، فكانت تؤثر في سر يعقوب عليه السلام^(٤)، وهي كانت ربانية، والعبد فيما يفوته من نحو هذا إذا جزع بما يعمي بصره ويدوب جسمه كان ممدوحاً معلّى^(٥) قدره.

على أن جزعه إن جعل على فراق يوسف على ما قال: ﴿يَتَأَسَفُ عَلَى يُونُسَ﴾ وحمل على ظاهره لم يبعد من الحكمة، والأشباح لها حرمة في ذات الله تعالى رداً على المعتزلة، فإذا جزع لفقد جسد أجل الله قدره؛ فقد أجل ما أجله الله عز وجل، فلم يكن جزعه كجزع الغافلين لفقد الولد بحق الميل إليهم نهمه ورغبة في حظوظهم منهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وفي الآية دلائل:

- (١) في (ف): «لا يزول مع الصبر»، وفي (ر): «لا يزيد مع الصبر».
- (٢) رواه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
- (٣) في (ف): «والجزع».
- (٤) بعدها في (أ): «فتحلى بتلك اللطائف»، وفي (ر): «فتحلى بتلك اللطائف».
- (٥) في (ر): «على».

أحدها: أن من ارتكب صغيرةً فإنه يُخافُ عليه التعذيبُ ولا يصيرُ كافرًا، ومن ارتكب كبيرةً لم يخرج من الإيمان؛ لأنَّ إخوة يوسف همُّوا بقتله^(١) أو طرحه في الجُبِّ، والتَّغْيِيبِ عن وجه أبيه وإخلائه^(٢) عنه، وذلك لا يخلو منهم: إمَّا أن تكون صغيرةً أو كبيرةً؛ فإن كانت صغيرةً فقد استغفروا عليها بقولهم: ﴿يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [يوسف: ٩٧]، دلَّ أنَّهم إنما استغفروا لِمَا خافوا من^(٣) العذابِ عليها وإن كانت كبيرةً، فلم يخرجوا عن الإيمان حيث صاروا^(٤) أنبياءً من بعد، وصاروا قومًا صالحين.

دلَّ ما ذكرنا على نقض قول المعتزلة في صاحب الصَّغيرة: إنَّه لا يعذبُ عليها، وصاحب الكبيرة: إنَّه يخرج من الإيمان، ونقض الخوارج في قولهم: إنَّه إذا ارتكب كبيرةً أو صغيرةً صار به كافرًا مشرِّكًا بالله^(٥)، ونقض قول من يقول: إنَّ من كذَّب متعمِّدًا أو وعدَ فأخلف أو أوَّتمنَ فخان يصير منافقًا؛ لأنَّ إخوة يوسف اتُّمِنُوا فخانوا، ووعدوا فأخلفوا، وحدَّثوا فكذبوا، فلم يصيروا منافقين لأنَّهم قالوا: أكله الذُّبُّ، وما أكله، وهو^(٦) كذبٌ، واوَّتمنوا فخانوا حين ألقوه في الجُبِّ، ووعدوا أنَّهم يحفظونه فلم يحفظوه.

فإن قيل: رُوِيَ عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثٌ مِنْ عِلَامَاتِ النِّفَاقِ: إِذَا حَدَّثَ

(١) في (ف): «بقتل يوسف».

(٢) في (ف): «وإخلائه».

(٣) «من» من (ف).

(٤) في (أ) و(ر): «صاروا به».

(٥) «بالله» من (أ).

(٦) في (ر) و(ف): «لأنه».

كذب، وإذا أُوْتِمِنَ خَانَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ»^(١)، فكيف توفَّق بين الآية والخبر، إذ هو لا يحتمل النَّسخَ لأنَّه خبرٌ، والخبرُ لا يحتملُ النَّسخَ؟

قيل: يشبه أن يكون هذا في قومٍ خاصٍّ، أو تمنوا ما أُودِعَ في التَّوراةِ من نعتِ^(٢) محمَّدٍ ﷺ غيرَها، ووعدوا أن يبيِّنوه فأخلفوا وكتموه، وحدثوا أنَّهم بيَّنوه فكذبوا.

أو يصير منافقاً ممَّا ذَكَرَ^(٣) إذا كان ذلك في أمر الدين، فأمَّا في غيره فإنَّه لا يصير به منافقاً، ولا يكون ذلك من أعلام المنافق، والله تعالى أعلم^(٤).

وقال في قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: ﴿فَصَبْرٌ﴾؛ أي: كَفُّ النَّفْسِ عن الجزع، ﴿جَمِيلٌ﴾ لا مكافأة فيه، فإنَّهم بما فعلوا كانوا مستوجِبين ذلك^(٥).

(١٩) - ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ. قَالَ يَبُشْرَى هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ. قَالَ يَبُشْرَى هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: قرأ ابن كثيرٍ ونافع وأبو عمرو^(٦): ﴿يا بشراي﴾؛ أي: بالآلف مضافةً بالياء، وقرأ الباقون: ﴿يَبُشْرَى﴾ غير مضافٍ^(٧).

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (ف): «بعث».

(٣) في (أ): «منافقاً بما وعد».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢١٦-٢١٧).

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢١٩).

(٦) وكذا ابن عامر الشامي.

(٧) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٤٧)، و«التيسير» (ض: ١٢٨). وقرأ ابن عامر مثل ابن كثير

والوارد^(١): الصَّائِرُ إِلَى الْمَاءِ لِلإِسْتِقَاءِ مِنْهُ.

وَأَدْلَى دَلْوَهُ: أَرْسَلَهَا لِيَمْلَأَهَا، وَدَلَّاهَا يَدْلُوهَا: أَخْرَجَهَا مَلَأَى مَاءً.

وَالْإِسْرَافُ: الْإِخْفَاءُ.

وَالْبُضَاعَةُ: قِطْعَةٌ مِنَ الْمَالِ تُحْمَلُ لَطَلْبِ رِبْحِهَا.

يقول: وَجَاءَتْ عِيرٌ يَسِيرُونَ إِلَى مَوْضِعٍ - قِيلَ: كَانُوا يَسِيرُونَ إِلَى مَصْرَ جَائِنٍ مِنَ الشَّامِ - فَاتَتْهُوَ إِلَى نَاحِيَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَالْجَبُّ هُنَاكَ، فَأَرْسَلُوا مَنْ يَرُدُّ الْبِئْرَ فَيَسْتَقِي لِهِمُ الْمَاءَ عَلَى رَسْمِ الْقَوَافِلِ، فَأَرْسَلَ دَلْوَهُ فِي الْبِئْرِ، فَتَعَلَّقَ بِهَا يَوْسُفُ، فَرَأَاهُ الْوَارِدُ فَنَادَى أَصْحَابَهُ - وَهُمْ بِالْقُرْبِ مِنْهُ - بِالْبَشَارَةِ، فَقَالَ: يَا بُشْرَى لَكُمْ، هَذَا غَلَامٌ عَبْدٌ قَدْ وَجَدْتُهُ.

وَمَنْ قَرَأَ: ﴿يَا بُشْرَايَ﴾ فَمَعْنَاهُ: يَا بَشَارَةَ لِي.

وَلَمَّا نَادَى أَصْحَابَهُ - وَهُمْ رَفَقَتُهُ^(٢) - بِالْبَشَارَةِ، فَنَظَرُوا إِلَيْهِ ﴿وَأَسْرُوهُ بِضْعَةَ﴾؛ أَيِ: قَالُوا فِي أَنْفُسِهِمْ: نَبِيعُ هَذَا الْغَلَامِ مِنْ مَلِكِ مِصْرَ، فَنَكُونُ قَدْ انْتَفَعْنَا^(٣) بِشِمْنِهِ، فَتَقْدِيرُ هَذَا: أَسْرَوْا هَذَا فِي أَنْفُسِهِمْ جَاعِلِينَ لَهُ^(٤) بِضَاعَةً.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَنَّ هَذَا الْوَارِدَ وَرَفَقَتَهُ خَافُوا أَنَّ سَائِرَ أَهْلِ الْعِيرِ إِنْ عَلِمُوا بِالْحَالِ اسْتَشْرَكُوهُمْ فِيهِ، فَأَسْرَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا إِذَا سَأَلَهُمْ أَهْلُ الْعِيرِ عَنْهُ قَالُوا: إِنَّهُ بِضَاعَةٌ اسْتَبْضَعْنَاهُ بَعْضُ أَهْلِ الشَّامِ إِلَى مِصْرَ؛ لِيَسْلَمَ الْغَلَامُ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ مَزَاحِمَةٍ.

(١) فِي (أ): «وَالْوَارِدُ أَيْضًا».

(٢) فِي (ر) وَ (ف): «رَفَقَةٌ».

(٣) فِي (ف) وَ (أ): «ارْتَفَقْنَا».

(٤) أَيِ: جَاعِلِينَ إِيَّاهُ، وَاللَّامُ تَدْخُلُ عَلَى الْمَفْعُولِ مَعَ اسْمِ الْفَاعِلِ لِلتَّقْوِيَةِ.

وقيل: ﴿وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً﴾: هو فعلُ إخوة يوسفَ، وكانوا بالقرب منهم، جاؤوا وكتُموا أَنَّهُ أَخُوهُمْ، وجعلوه عبدًا حملوه بضاعةً لأنفسهم يبيعونه، ولم يُظهر يوسفُ؛ خوفًا على نفسه من القتل الذي أوعده به^(١).

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما كان الإخوة يعملونه، أو الملتقطون، من إسراره بضاعةً، ولو شاء الله لغيرهم، ولعجل ليوسفَ عليه السلام خلاصه، لكنه أمضى فيه سابق حكمه على وفق علمه وإرادته، حيث جعل لكل أجل كتابًا، فأمهلهم حتى يبلغ الكتاب أجله، فيخلصه حينئذٍ.

قال كعبٌ: كان بين مدينَ ومصرَ^(٢)، فأخطأت الرفقة الطريقَ، فعثروا على بئرٍ في وسط مفازةٍ، ولم يكن البئر على الطريق، وإنما كانت بئرًا للرعاة يسقون أغنامهم منها. وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: لما أراد الله جلَّ جلاله خلاصَ يوسفَ من الجبِّ أزعجَ خواطرَ السيَّارةِ في قصدِ السَّفرِ، وأعدمهم الماءَ حتى احتاجوا إلى الاستقاء، ليصلَ يوسفُ إلى خلاصه، وقد قيل: رَبُّ تشويشٍ يقعُ في العالم والمقصودُ منه سكونٌ واحدٍ، وقد قيل: رَبٌّ ساعٍ لقاعدٍ^(٣).

وقال وهبٌ: كان يوسفُ صلوات الله عليه في الجبِّ ثلاثةَ أيَّامٍ، وإخوته بالقرب منه يحرسونه حتى جاءتِ السيَّارةُ؛ وهي رفقةٌ من أهل مدينَ، وهم ثلاثُ مئةٍ وثلاثة عشرَ نفسًا، فنزلوا قريبًا من الماء، فأرسلوا واردهم - وهو مجلث بن رعويل - فأدلى دلوهُ.

(١) ذكره ابن كمال باشا في «تفسيره» عند هذه الآية عن ابن عباس، ثم تعقبه بقوله: ولا يخفى ما فيه من الاختلال لحسن نظم المقال، والإشكال من جهة أن التعبير المذكور لا يناسب الحال.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢٠٠).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ١٧٤).

وقال عثمان بن عبد العزيز الحيري: وكان سيّد القوم مالك بن دُعر الخزاعي من العرب.

وقيل: هو مالك بن دُعر بن ثويب بن عباد بن مدين بن إبراهيم من أهل مدين؛ ابن أخي شعيب^(١).

﴿وَأَرَادَهُمْ﴾ بُشَيْر، وكان لمالك غلامان: بُشير، وبُشري، فأدلى بُشير دلوه، فتعلّق بها يوسف، فقعّد فيها فأمسك الحبل بيده، فطلع الغلام من الدلو يتكلّم بغير كلام السيّارة، ولم يروا مثله حسناً وجمالاً ونضرة وتماماً، فلمّا نظر إلى الغلام قال لأصحابه: يا بُشري، أو قال لصاحبه: يا بُشري؛ وهو اسمه.

﴿وَأَسْرَوْهُ يَضَعَةً﴾: كتموه عن القوم، وقالوا لأهل القافلة: بضاعة استبضّعناه أهل الماء نبيعه لهم بمصر، وكان ذلك بأعين إخوة يوسف، فجأؤهم^(٢) وقالوا لهم: هل لكم أن تشتروا منّا هذا الغلام؟ قالوا: أو مملوك هو لكم؟ قالوا: نعم، قالوا: حاشا لله، ما هذا بمملوك، ولا موسوم بالعبوديّة، ولكنّه موسومٌ بسيما الأحرار والكرام، فما قصّة هذا الغلام؟

قالوا: وُلد في حجورنا، ونشأ بيننا، وربّيناه بأيدينا، فأحبّه أبونا، فأكرمه وآثره ونعمّه وممّقه^(٣)، فصرف وجهه وغلب عليه، فأدرّكنا ما يدرك النّاس من الغيرة والحسد، وغازطنا أن يكون عبدنا أحبّ إلى أبينا منّا، وليس بمملوكٍ لأبينا، ولكنّه ابن أمّةٍ لأمّنا، وقد وهبته لنا، وأذنّت لنا في بيعه، وكرهت قربه من أجلنا، فلمّا سمعت السيّارة مقاتلهم، ورأوا حالّتهم وحسن هيأتهم، صدّقوهم فاشتروه منهم.

(١) رواه الطبري في «تاريخه» (١/ ٣٣٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه في «التفسير» (١٣/ ٦١) عن ابن إسحاق.

(٢) في (ف): «فجأؤوا».

(٣) ومقه: أحبه. انظر: «الصّحاح» للجوهري (مادة: ومق).

(٢٠) - ﴿وَشَرَّوْهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾.

فذلك قوله: ﴿وَشَرَّوْهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ﴾: أي: باعوه، يعني: إخوته، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وقوله: ﴿بِثَمَنِ بَخْسٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: قليل^(١)، والبَخْسُ في اللغة: النقص.

وقال ابن حيَّان: أي: زيف رديء^(٢).

وقيل: أي: حرام؛ لأنَّ ثمن الحرِّ حرام^(٣).

وقوله تعالى: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾: بدلٌ من (ثمن بخرس).

قال أبو بكر بن عبدش^(٤): هذا يدلُّ على أنَّه كان من ثلاثة إلى عشرة؛ لأنَّ ما فوقه من العدد لا يُسمَّى دراهم^(٥).

وقيل: إنَّها لقلَّتْها عُدَّتْ ولم توزن.

وقيل: كانت أربعين أو دونها، وكانوا يعدُّون ما دون الأوقية، ويَزِنُون ما فوقها، والأوقية: أربعون درهماً.

وأكثرهم على أنَّها كانت عشرين، وهو قول ابن عباس وقتادة وعكرمة

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٥٥) عن الشعبي وعكرمة.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢٠٥)، والواحدي في «البيضا» (١٢ / ٥٦). وابن حيَّان هو مقاتل.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٥٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أبو بكر بن عبدش مفسر نقل عنه الثعلبي في مواضع من «تفسيره»، وسماه في «معجم الأدباء»

(١٨٣٠ / ٦): أبو بكر بن عبدوس.

(٥) القول بلا نسبة في «تفسير السمرقندي» (٢ / ١٨٥).

وعطية^(١)، وكانوا عشرةً، وأصاب كل واحدٍ منهم درهمان.
 وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾: أي: كانت الإخوة غير راغبين
 في ثمنه.
 وقيل: في بيعه^(٢).

وقيل: وكان المشترون في شرائه غير راغبين؛ لأن الإخوة وصفوه بالإباق.
 وقيل: أي: ما خطر ببال المشتريين معه الفسق مع صباحته وملاحته.
 وفي القصة: أنهم لما عرضوه على البيع قال مالك: ليس معي نقدٌ كثيرٌ، قالوا:
 نساهلك بما معك، فكان معه عشرون درهماً للثقة، فاشتراه منهم بها، فطلب مالك
 منهم كتاب المشتري، فكتب روبيل: باسم إله إبراهيم، هذا ما اشترى أبو دلالة
 مالك بن دُعر الخزاعي مملوكاً من آل يعقوب بعشرين درهماً، نصفها عشرة دراهم،
 وأعطاهم عهده وميثاقه الذي اتخذ على أنبيائه ورسله أمانة في ذمته بأن لا يلبسه إلا
 المسح^(٣)، ولا يطعمه إلا قوته، ولا يحمله إلا على بعيرٍ بغير وكاءٍ، ولا يطلقه حتى
 يدخله مصر. وقبض آل يعقوب الثمن، وأخذ مالك العبد، وأشهدوا بذلك على
 أنفسهم أصحاب العير من التجار^(٤).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: ﴿بِثْمَنِ بَخْسٍ﴾: أي: باعوه بثمنٍ لا
 يُباع مثله بمثله.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٥٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما وعطية وقتادة، ورواه ابن أبي
 حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١١٥) عن عكرمة.

(٢) في (أ): «عينه».

(٣) المسح: ثوب من الشعر غليظ. انظر: «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (٣ / ٣١٥).

(٤) خبر غريب مخترع لا أصل له.

﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ قيل: أي: المشترون لما خافوا ذهاب الثمن إن كان مسروقاً^(١).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ليس العجب ممَّن يبيع يوسف بثمنٍ بخسٍ، إنَّما العجبُ ممَّن يجدُّ مثلَ يوسفَ بثمنٍ بخسٍ، والحرمانُ لا غايةَ له، والبَحْتُ لا نهايةَ له.

قال: ويقال: ليس العجبُ ممَّن يبيعُ يوسفَ بثمنٍ بخسٍ، العجبُ ممَّن يبيعُ وقتَه - الَّذي هو أعزُّ من الكبريتِ الأحمرِ - بعَرَضٍ حقيرٍ من الدنيا.

قال: ويقال: إنَّ السَّيَّارةَ لم يعرفوا قيمته وزهدوا في شرائه بثمنٍ بخسٍ، والَّذين وقفوا على جماله وشيءٍ من حاله غالوا بمصرَ في ثمنه حتَّى اشتروه^(٢) بزنته دراهم ودنانير مرَّات، وفي معناه أنشدوا:

إِنْ كُنْتُ عِنْدَكَ يَا مَوْلَايَ مَطْرَحًا فعندَ غيرِكَ محمولٌ على الحَدَقِ^(٣)

(٢١) - ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ. وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٢٢١).

(٢) في (ر): «شروه».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ١٧٥)، والبيت لأبي طالب محمد بن علي بن عبد الله المعروف بالبغدادي المستوفي. كما في «بيتمة الدهر» للثعالبي (٥ / ٢٨٨).

أَوْ نَتَّخِذْهُ وَلَدًا ﴿١﴾: قال وهبٌ: فانطلقت السيَّارة حتَّى وردوا به مصرَ، فرفعوه إلى سوقِها، فعرضوه للبيع، فترافع النَّاسُ في ثمنه وتزايدوا وتنافسوا فيه، حتَّى بلغ ثمنه وزنه مسكًا، ووزنه ورقًا، ووزنه حريًّا، فوُزِنَ فبلغ أربع مئة رطلٍ، وهو يومئذٍ غلامٌ ابن ثلاث عشرة سنة، وقيل: ابن ثمانِي عشرة سنة، وقيل: ابن تسع عشرة سنة.

اشتراه بذلك رجلٌ من القبط يُقال له: قطفير، وهو عزيزُ مصر^(١)، وهو أمينُ أهل مصر في أنفسهم، وأمينُ فرعونَ وخازنه على كلِّ شيء يملكه ويحوزه وكاتبه^(٢)، وكان قطفير مؤمنًا معلنًا بإيمانه، وكان شرطَ على الملك ألا يصدَّه عن دينه، ولا يدعوه إلى غيره ليعملَ له؛ وكان رجلًا صالحًا.

قيل: والملكُ فرعونُ موسى، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر: ٣٤]، وهو غيرُ بعيدٍ؛ لأنَّ فرعونَ عاش أربع مئة سنة. وقيل: بل فرعونُ موسى من أولادِ فرعونِ يوسفَ؛ وهو الوليدُ بن الريان رجلٌ من العماليق.

وقيل: لمَّا نقدَ العزيزُ لمالك بن دُعْر هذه الأشياء؛ قال يوسفُ لمالك: لا تأخذ هذه الأشياء ثمنًا عني فإنِّي حرٌّ، وبينَ نسبه، فقال مالك: لِمَ لا تخبرني بذلك؟ فقال: لا يمكن، فأتى العزيزَ وقال: لا يصلح لمثلي - وأنا تاجرٌ من تجَّار ولايتك، والمستظلُّ بظلِّ دولتك - أن أربحَ عليك، وإنِّي اشتريته بعشرينَ درهمًا، فلا آخذُ منك إلا هذا القدرَ، ولولا أنَّك لا ترضى بامتثالي عليك لم آخذُ منك شيئًا، فأحسنْ إلى هذا فإنَّه أهلٌ للإحسانِ.

(١) بعدها في (أ): «وهو أمين مصر».

(٢) «ويحوزه، وكاتبه» ليس في (ف).

ثُمَّ أَتَى إِلَى يَوْسُفَ وَقَالَ: إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ^(١) بِقَوْلِكَ، وَبَيْنَنَا مِمَالِحَةٌ^(٢)، فَاقْضِ حَاجَتِي، قَالَ: وَمَا حَاجَتُكَ؟ قَالَ: أَنَا رَجُلٌ لَا وَلَدَ لِي، فَادْعُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنِي وَلَدًا، فَنَظَرَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى جَبْرِيلَ مَقْبَلًا يَقُولُ لَهُ: ادْعُ اللَّهَ لِلتَّاجِرِ فَإِنَّهُ قَرِيبٌ مَجِيبٌ، فَقَالَ: مَا أَقُولُ؟ فَقَالَ: قُلْ: يَا مَنْ يُعْزُّ وَيَذُلُّ، يَا مَنْ يَضَعُ وَيَرْفَعُ، وَيَا مَنْ يُعْطِي وَيَمْنَعُ، يَا مَنْ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، ارْزُقِ الشَّيْخَ أَوْلَادًا ذُكُورًا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فاستجيب له دعوته، وكان لمالك بن دعر اثنتا عشرة جارية، فرجع إليهن وباشرهن، فحملت كل جارية وولدت ذكرين، فاجتمع له أربعة وعشرون ابنًا: الشرعي^(٣)، والسبدي، والسندري^(٤)، والأخيل، والبلندي، والمهذب، والمصفي^(٥)، والأصفح، والصمحمح^(٦)، والخضم، والمشرقي، ومصدع، والسמידع، والرحال، والذئال، والصيفي، وقيطي^(٧)، وبينهس^(٨).

(١) في (ف): «أعلمت».

(٢) أي: مؤاكلة، يقال: مالحت فلاناً ممالحة، وهو يحفظ حرمة الملح والممالحة. انظر: «أساس البلاغة» للزمخشري (مادة: ملح).

(٣) في (أ): «الشرعي»، وفي (ر): «الشرعني»، والمثبت من «أنساب اليمن» للكلبي (١ / ٢١٤)، و«الاشتقاق» لابن دريد (ص: ٣٧٨).

(٤) في (ر): «والسدري».

(٥) في (أ): «والمهذب والمصطفى».

(٦) في (أ): «والضحضح» وفي (ف): «والصحيح»، وفي (ر): «والفخضم». والمثبت من «أنساب اليمن»، و«الاشتقاق».

(٧) في (ف) و(ر): «قيطي».

(٨) في (ف): «وينهس».

وَعَسْعَسٌ، وَالْعَمَلْسُ^(١)، وَالْعَدْبَسُ، وَالْمَلَدَسُ، وَالْعَلَّاسُ^(٢)، وَالْعَرَنْدَسُ^(٣).

وَلَمَّا اشْتَرَاهُ الْعَزِيزُ وَحَمَلَهُ إِلَى بَيْتِهِ قَالَ لَامْرَأَتِهِ زَلِيخَا: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾؛ أَي: أَحْسِنِي مَقَامَهُ^(٤)، وَأَنْزِلِيهِ مَنْزِلَةً مِّنْ يُكْرَمُ.

﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾: بِالْإِعَانَةِ لَنَا عَلَى أُمُورِنَا الَّتِي نَلِيهَا، يَكْفِينَا بَعْضُ أَشْغَالِنَا، فَتَرْفِقُ ارْتِفَاقَ الْعَبِيدِ ﴿أَوْ نَخْذُهُ وَلَدًا﴾؛ أَي: نَتَبَّأَهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمَا لَمْ يَكُنْ لِهَمَا وَلَدٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ كَانَ، وَالتَّمَسَا الزِّيَادَةُ، أَوْ تَوَسُّمًا فِي يَوْسُفَ مَا كَانَ مَعْدُومًا فِي أَوْلَادِهِمَا، وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى الْبَسَ يَوْسُفَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ لِبَاسَ مِثْلِهِ مِمَّنْ قَدْ أَعَدَّهُ لِاصْطِفَائِهِ.

وَقِيلَ: أَصْدَقُ النَّاسِ فِرَاسَةً ثَلَاثَةٌ: الْعَزِيزُ حِينَ قَالَ: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذُهُ وَلَدًا﴾، وَابْنَةُ شَعِيبٍ حِينَ قَالَتْ: ﴿يَتَأَبَّتِ اسْتَعْرَاجُهُ إِنْ خَيْرَ مِّنْ اسْتَجَرَّتْ

(١) فِي (ف): «قَلَمَسٌ»، وَفِي (أ): «الْقَلَمَسُ».

(٢) كَذَا فِي جَمِيعِ النُّسخِ، وَفِي «أَنْسَابِ الْيَمَنِ»: «السَّنْدَرَسُ».

(٣) قَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ فِي «الْإِسْتِثْقَاءِ» (ص: ٣٧٨-٣٧٩): الشَّرْعِيُّ: مَنْسُوبٌ إِلَى شَرْعَبٍ، جَنْسٍ مِنَ الثِّيَابِ. وَالسَّبَنْدِيُّ: الْجَرِيءُ الْمُقَدَّمُ، وَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِ الثَّمَرِ. وَالسَّنْدَرِيُّ: ضَرْبٌ مِنَ الطَّيْرِ. وَالسَّرَنْدِيُّ مِنْ قَوْلِهِمْ: اسْرَنْدَيْتُهُ إِذَا عَلَوْتَهُ. وَالْأَخِيلُ: ضَرْبٌ مِنَ الطَّيْرِ مَعْرُوفٌ. وَالْبَلَنْدِيُّ مِنْ قَوْلِهِمْ: ابْلَنْدَى الْمَوْضِعُ: إِذَا صَلَبٌ وَغُلْظٌ. وَالْأَصْفَحُ: رَأْسٌ مُّصْفَحٌ: إِذَا كَانَ فِيهِ طُولٌ. وَالصَّمَحْمَحُ: الصُّلْبُ الشَّدِيدُ. وَالْخِصْمُ: الْبَحْرُ الْكَثِيرُ الْخَيْرِ. وَالْخِصْمُ: الْجَمْعُ الْكَثِيرُ. وَمُضْدَعٌ: مِفْعَلٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: صَدَعْتُ الشَّيْءَ. وَالسَّمِيدَعُ: السَّيِّدُ الْكَرِيمُ. وَيَبْهَسُ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَسَدِ. وَعَسْعَسَ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الذَّنْبِ. وَأَصْلُ الْعَسْعَسَةِ: الْخَفَّةُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: عَسْعَسَ اللَّيْلُ: إِذَا خَفَّتْ ظُلُمَتُهُ. وَالْعَمَلْسُ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الذَّنْبِ. وَالْعَدْبَسُ: الْبَعِيرُ الصَّعْبُ. وَمُلْدَسٌ: مُفَاعِلٌ مِنَ اللَّدْسِ، وَاللَّدْسُ: الرَّمْيُ، وَنَاقَةٌ لَدَيْسٌ؛ أَي: سَمِينَةٌ. وَالْعَرَنْدَسُ قَالُوا: هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَسَدِ، وَقَالُوا: هُوَ الصُّلْبُ الشَّدِيدُ.

(٤) فِي (أ): «مَثْوَى لَهُ».

الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿[القصص: ٢٦]، وأبو بكر رضي الله عنه حين استخلف عمر؛ قاله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه^(١).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾: أي: وكما خلصناه من كيد إخوته ومن الجُبِّ ملكناه أرض مصر.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: هو عبارة الرؤيا وغير ذلك ممَّا فسرناه في^(٢) أوّل السّورة، فيصير الملك بها، والنبيّ المبعوث إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾: أي: أمر نفسه، لا يغلبه على ما يريد إمضاءه أحد.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لإعراضهم عن التفكير في آياته، والاستدلال بها على كمال قدرته ونفاذ مشيئته.

وقيل: والله غالب على أمر يوسف، يدبره بما لا يعارضه فيه أحد، ويبلغه المنزلة التي بلغها إياه، ويحقق فيه رجاء أبيه إذ قال له: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ﴾ الآية [يوسف: ٦].

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تدبير الله عز وجلّ فيه، ويجهلون قدره عنده.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: لمّا تُودي على يوسف بمصر بيعه، لم يرض الله عز وجلّ حتّى أصابتهُم الضرورة حتّى باعوا من يوسف جميع أملاكهم،

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١١١٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٨٢٩)، والحاكم في «المستدرک» (٣٣٢٠).

(٢) «في» من (ف).

ثُمَّ بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْهُ فِي آخِرِ أَمْرِهِمْ طَلَبًا لِلطَّعَامِ، فَصَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ عِبِيدًا لَهُ، ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمَّا مَلَكَهُمْ مَنْ عَلَيْهِمْ فَأَعْتَقَهُمْ، فَلَيْسَ مَرَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ بِمَصْرَ نُودِيَ عَلَيْهِ بِالْبَيْعِ، أَصْبَحَ بِمَصْرَ يَوْمًا آخَرَ وَقَدْ مَلَكَ جَمِيعَ أَمْلَاكِهِمْ وَمَلَكَ رِقَابَ جَمِيعِهِمْ، فَيَوْمَ بَيَوْمٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦]، يَوْمَانِ شَتَّانَ مَا بَيْنَهُمَا. ثُمَّ إِنَّهُ أَعْتَقَ جَمِيعَهُمْ، وَكَذَا الْكَرِيمُ إِذَا قَدَرَ غَفَرَ.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾: أَنَّ مَنْ حَسَدَهُ أَرَادَ إِلَّا يَكُونُ لَهُ فَضْلٌ عَلَيْهِمْ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ عَلَى إِخْوَتِهِ وَذَوِيهِ، وَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ لَهُ مَلِكُ الْأَرْضِ، فَكَانَ مَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى لَا مَا أَرَادَ حَسَادُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾. وَأَرَادُوا أَنْ يَكُونَ يُوسُفُ عَبْدًا لِمَنْ بَاعُوهُ مِنْهُ مِنَ السَّيَّارَةِ، وَاللَّهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ عَزِيزًا بِمَصْرَ، فَكَانَ مَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى دُونَ مَا أَرَادُوا^(١)، فَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ^(٢).

(٢٢) - ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: عَشْرِينَ سَنَةً^(٣). وَقِيلَ: ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً.

يقول: وَلَمَّا بَلَغَ يُوسُفُ شَبَابَهُ وَكَمَالَ قُوَّتِهِ وَوَفُورَ عَقْلِهِ وَاهْتِدَائِهِ لِلْأُمُورِ ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: أَي: حُكْمًا بَيْنَ الْعِبَادِ بِالنُّبُوَّةِ، وَعِلْمًا بِالْدِّينِ وَبِتَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ.

(١) «دون ما أرادوا» ليس في (أ) و(ف) و«اللطايف».

(٢) انظر: «لطايف الإشارات» للقسيري (٢/ ١٧٦).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٨) عن الضحاك. وروى (١٣/ ٦٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: بضعا وثلاثين.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: وهكذا نجزي مَنْ أَحْسَنَ عَمَلَهُ فلم يخلطه بشرك ولا معصية.

قيل: المراد به رسولُ الله ﷺ؛ أَعْلَمَهُ اللهُ تعالى أَنَّهُ صَاحِبُ الرُّسُلِ إِلَى الْعَالَمِينَ عَلَى قَوْمِهِ، وَنَفَازِ الْحُكْمِ وَالسُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، كَمَا فَعَلَهُ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقال ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: المؤمنين^(١).
وقال الضَّحَّاكُ: أي الصَّابِرِينَ عَلَى النَّوَائِبِ^(٢).

وقيل: قَالَ فِي قِصَّةِ مُوسَى صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَاسْتَوَى﴾ [القصص: ١٤] ولم يقل هاهنا: (استوى)؛ لِأَنَّ مُوسَى أُوحِيَ إِلَيْهِ عِنْدَ مُنْتَهَى الْأَشَدِّ وَالْإِسْتَوَاءِ؛ وَهُوَ أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَأُوحِيَ اللهُ تَعَالَى^(٣) إِلَى يُونُسَ عِنْدَ أَوَّلِهِ؛ وَهُوَ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً.
وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ إِحْسَانَ الْأَعْمَالِ، وَيَحْتَمِلُ الْإِحْسَانَ إِلَى النَّاسِ، وَيَحْتَمِلُ الْإِحْسَانَ إِلَى نَفْسِهِ، وَيَحْتَمِلُ إِحْسَانَ صَحْبَةِ نِعَمِ اللهِ وَالْقِيَامَ بِشُكْرِهِ^(٤).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: مِنْ جُمْلَةِ الْحُكْمِ الَّذِي آتَاهُ اللهُ تَعَالَى نَفْوَ حُكْمِهِ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى غَلَبَ شَهْوَتَهُ، فَامْتَنَعَ عَمَّا رَاوَدَتْهُ زَلِيخَا عَنْ نَفْسِهِ، وَمَنْ لَا حُكْمَ لَهُ عَلَى نَفْسِهِ لَمْ يَنْفِذْ حُكْمَهُ عَلَى غَيْرِهِ.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٦٩) بلفظ: «المهتدين»، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢٠٧) باللفظين.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢٠٧).

(٣) «الله تعالى» من (ف).

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٢٢٣).

قال: وقيل: لَمَّا استوى شبابه - وكان وقتَ استيلاء دواعي مطالبات البشرية -
آتاه الله الحُكْمَ الَّذِي أثبتَه^(١) على الحقِّ وصرفه عن الباطل^(٢).

(٣٢) - ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ
مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ
لَكَ﴾ قال الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: دلَّت الآيةُ أَنَّ الْبَيْتَ قَدْ يُضَافُ إِلَى الْمَرْأَةِ
وإن كان في الحقيقة لزوجها^(٣).

وهو دليلُ أصحابنا - رحمهم الله - فيمن حلف: لا يدخلُ دارَ فلانٍ، فدخلَ دارًا
هو ساكنُها؛ يحنثُ لإضافتها إليه.

والمرادة: فعلٌ بين اثنين، يراودُ أحدهما الآخرَ على شيءٍ، فيجري في ذلك
مدافعةٌ وممانعةٌ، مأخوذةٌ من الإرادة وهي المشيئة، ومن الرَّوْدِ وهو الطَّلَبُ.

يقول: طالبتُ زليخا يوسفَ بمساعدتها على ارتكابِ الفحشاء منها.

ويجوزُ أن يكون مشتقًّا من الرُّوَيْدِ؛ وهو التَّمَهُّلُ والتَّرْفُقُ، والمرادة: هي
المطالبةُ على التَّرْفُقِ والتَّمَهُّلِ.

ومعنى: ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾؛ أي: من أجلِ نفسه، يُقَالُ: فلانٌ يخاصمُ عن فلانٍ،

(١) في (ف): «آتيناه». وفي «اللطائف»: (حبسه).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢/ ١٧٧).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٢٣).

ويجادُلُ عن فلانٍ، ويتكلَّمُ عن فلانٍ^(١)؛ أي: من أجله.

﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾: التشديد لتكثير المحال؛ وهي الأبواب، وإنما غلقتها لئلا يفجأها أحدٌ، ولئلا يتخلص يوسفٌ عنها، ولرجاء أن يجيبها، وتكون أسباب الخلوة حاصلة.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾؛ أي: تعال وهلم إلى ما هو لك، وقد توصل به^(٢) وقد لا توصل به، وقد أنشد أبو عمرو بن العلاء رحمه الله:

أبلغ أمير المؤمنين من أخا العراق إذا أتيتا
أنَّ العراقَ وأهلَهُ عنقُ إليك فهيتَ هيتا^(٣)
وهي للذكر والأنثى والواحد والجمع سواءً.

وقيل: هي كلمة حث وإقبال على الشيء، وأصله: الجلبة والصياح، وقد هيت فلانٌ بفلانٍ، وقال الشاعر:

قد رابني أن الكري أسكتنا لو كان معنياً بها^(٤) لهيتا^(٥)

(١) «ويجادل عن فلان» ليس في (أ)، «ويتكلَّم عن فلان» ليس في (ف).

(٢) في (أ) و(ر): «بك». والمثبت من (ف)، ولعل المراد وصلها بكلمة (لك)، وقد جاء بالشاهد الآتي على عدم الوصل.

(٣) البيت لرجل قاله لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٢٧٩)، و«تفسير الطبري» (١٣/ ٧٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٠٠)، و«أصول النحو» لابن السراج (٣/ ٤٧٩). وقوله: عنقُ إليك؛ أي: مائلون إليك ومنتظرونك.

(٤) في (ف): «بنا»، وكلا اللفظين في المصادر.

(٥) الرجز بلا نسبة في: «الغريب المصنف» لأبي عبيد (١/ ٣٤٣)، و«الجرائيم» لابن قتيبة (١/ ٢٣٨)، و«معجم ديوان الأدب» لإسحاق الفريابي (٢/ ٢٨٥)، و«تهذيب اللغة» (٦/ ٢٠٩).

وفيه ستُّ قراءات:

قرأ أهل العراق: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بفتح الهاء والتَّاء^(١).
 وقرأ يحيى بن وثَّاب: (هَيْتُ لَكَ) بكسر الهاء وضم التَّاء^(٢).
 وقرأ نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر: (هَيْتِ) بفتح الهاء وكسر التَّاء^(٣).
 وقرأ أهل المدينة وابن عامر: بكسر الهاء وفتح التَّاء: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾.
 وقرأ ابن كثير: ﴿هَيْتُ لَكَ﴾؛ بفتح الهاء وضم التَّاء^(٤).
 وقرأ عكرمة: ﴿هَيْتُ لَكَ﴾؛ بكسر الهاء وضم التَّاء، وهمز الحشو من الهيئة^(٥)؛
 أي: تهيأتُ لك.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾: أي: أعوذُ بالله إنَّ أجبتُ إلى هذا.
 ﴿إِنَّهُ رَفِيعٌ﴾: أي: زوجها سيدي بحكم الشَّراء ظاهراً.
 ﴿أَحْسَنَ مَثْوًى﴾: أي: أكرمَ مقامي، وقال لامرأته: ﴿أَكْرَمِي مَثْوَنَهُ﴾.
 وقال مجاهد وابن إسحاق والسُّديُّ: أي: زوجها بسطاً يدي ورفع منزلي^(٦)؛
 وكذا قال الحسن^(٧).

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٤٧)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٨).

(٢) وانظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٩٨)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٢٠٨).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٢٠٨).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٠). وملخص قراءات السبعة كما في «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٤٧)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٨): نافع وابن ذكوان: ﴿هَيْتَ﴾ بكسر الهاء من غير همز وفتح التَّاء، وهشام كذلك إلا أنه يهمز: ﴿هَيْتَ﴾، وقد روي عنه ضم التَّاء: ﴿هَيْتُ﴾، وابن كثير بفتح الهاء وضم التَّاء: ﴿هَيْتَ﴾، والباقون بفتحهما.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٥)، وانظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٢٠٨).

(٦) في (أ): «مثنوي».

(٧) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٩) عن مجاهد وابن إسحاق والسدي.

وقال الزَّجَّاج: يجوز أن يكون معناه: الله رَبِّي أحسنَ مثوأي؛ أي: عودني الإحسانَ إلى حيثُ ثويتُ منذُ فارقْتُ أبي، فلنْ أظلمَ نفسي بالمعصية له^(١).

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾: وعلى القول الأول: فلا أخونَ العزيزَ وقد أحسنَ إليَّ فأكونَ ظالمًا له ولنفسِي ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ولا يفوزونَ بخيرٍ ولا حمْدٍ من النَّاسِ.

وقيل: ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: لا يأمنُ من عذابِ الله الزُّناة.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ما داموا في ظلمِهِم، فإذا تركوه وتابوا عنه أفلحوا^(٢).

وقال: في قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾: يحتمل أن يكون معناه: ها أنا لك.

قال: وقيل: ليستَ بعربية^(٣).

ذكروا أنَّ زليخا هويتُ يوسفَ وهامتُ بحبه، فنحلَّ بدنُّها، وتغيَّرَ لونُها، وذهبَ قواها^(٤) ونومُها، وارتابَ أهلُ بيتِها في أمرِها، فسألَتْها الظُّرُّ عن ذلك، فبِثَّتْ^(٥) لها حالَها، واستعانتُ بها على بلوغِ مرادِها من يوسفَ، فقالتُ لها: أخبرني بما في قلبِك واعرضني عليه جمالِك، قالتُ: إنَّه لا يدنو مِنِّي، ولا ينظرُ إليَّ، ولا يفتحُ عينيه إذا دخلَ الدَّارَ، قالتُ: فأنا أحتالُ لذلك، لكن لا بدَّ من مالٍ كثيرٍ، فبذلتُ لها ما سألتُ،

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣ / ١٠١)، وانظر: «النكت والعيون» (٣ / ٢٣)، و«زاد المسير» (٢ / ٤٢٦).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٢٢٥).

(٣) المرجع السابق (٦ / ٢٢٣ - ٢٢٤).

(٤) في (أ): «قراها».

(٥) في (ف): «فبينت».

فَاتَّخَذَتْ بَيْتًا مِنْ رِخَامٍ مَمْلَأً عَلَى سَقْفِهِ وَحَوَائِطِهِ صُورَةَ يُوسُفَ وَزَلِيخَا.

فَلَمَّا تَمَّ ذَلِكَ هَيَّأَتْ الْبَيْتَ بِأَنْوَاعِ^(١) الْفُرُشِ، وَزَيَّنَتْهُ بِالْأَوَانِي وَالْحُلِيِّ، وَلَبَسَتْ الْحُلَّ وَتَوَجَّهَتْ بِتَاجٍ مَرْصَعٍ، وَجَلَسَتْ عَلَى سَرِيرٍ ذَهَبٍ مَرْصَعٍ بِالْيَاقُوتِ، وَعَلَيْهَا أَنْوَاعُ الْحُلِيِّ، وَدَعَتْهُ، فَجَاءَ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ.

فَلَمَّا دَخَلَ الْبَيْتَ^(٢) أَغْلَقَتْ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ؛ وَهِيَ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَقَالَتْ لَهُ: يَا يُوسُفُ، مَا أَحْسَنَ وَجْهَكَ! قَالَ: فِي الرَّحْمِ صَوَّرَنِي رَبِّي.

قَالَتْ: يَا يُوسُفُ، مَا أَحْسَنَ شَعْرَكَ! قَالَ: هُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يَسْقُطُ مِنِّي فِي قَبْرِي.

قَالَتْ: مَا أَحْسَنَ عَيْنِكَ! قَالَ: بِهِمَا أَنْظَرُ إِلَى رَبِّي.

قَالَتْ: يَا يُوسُفُ، ارْفَعْ بَصْرَكَ فَانْظُرْ إِلَيَّ. قَالَ: أَخْشَى الْعَمَى فِي آخِرِ عَمْرِي.

قَالَتْ: يَا يُوسُفُ، لِمَ تَتَبَاعَدُ عَنِّي؟ قَالَ: أُرِيدُ الْاقْتِرَابَ مِنْ رَبِّي.

قَالَتْ: يَا يُوسُفُ، الْقَيْطُونَ^(٣) فَادْخُلْ مَعِيَ. قَالَ: لَيْسَ شَيْءٌ يَسْتَرْنِي مِنْ رَبِّي.

قَالَتْ: يَا يُوسُفُ، فَرَأْسُ الْحَرِيرِ مَمَّهْدٌ لَكَ، قُمْ فَاقْضِ حَاجَتِي. قَالَ: إِذَا يَذْهَبُ

مِنَ الْجَنَّةِ نَصِيبِي.

قَالَتْ: يَا يُوسُفُ، جَعَلْتَ تَجْتَرِي عَلَى سَخَطِي؟! قَالَ: أَرْجُو^(٤) بِذَلِكَ مَرْضَاةَ رَبِّي.

قَالَتْ: يَا يُوسُفُ، عَبْدٌ اشْتَرَيْتُكَ، فَأَنْتَ تَتَعَزَّمُ عَلَيَّ؟! قَالَ: بِجُرْمِي وَخَطِيئَتِي

اشْتَرَيْتَنِي.

(١) فِي (أ) وَ(ر): «بِالْوَانِ».

(٢) «الْبَيْتَ» لَيْسَ فِي (ف).

(٣) الْقَيْطُونَ: الْمُخَدَعُ بِلُغَةِ أَهْلِ مِصْرَ. انْظُرْ: «الصَّحَاحُ» لِلْجَوْهَرِيِّ (مَادَّةُ: قَطَن).

(٤) فِي (ف): «أَطْلُبُ».

قالت: يا يوسفُ، ليتني لم أعرفُكَ. قال: ذلك فعلُ إخواني بي^(١).

قالت: يا يوسفُ، ضعْ يدَكَ على صدري. قال: لا صبرَ لي على احتراقِ جسدي.

قالت: يا يوسفُ، الجنينة قد عطشتُ، قمْ فاسقِها. قال: الَّذي بيده مفاتيحُها أحقُّ بسقيها مني.

قالت: يا يوسفُ، لأسلمنَّكَ على أيدي المعذِّبين، فيسلُّونَ جسمَكَ كما سلَّتَ جسمي، قال: لا بأسَ إذا كان ربِّي راضياً عني.

قالت: يا يوسفُ، بأيِّ علَّةٍ امتنعتَ عني؟ قال: بحقِّ اثنين؛ بحقِّ إلهي الَّذي في السَّماءِ ملكه، وبحقِّ سيِّدي الَّذي في الأرضِ سلطانه عليَّ وعليك.

قالت: يا يوسفُ، أمَّا سيِّدكَ الَّذي في الأرضِ سلطانه فإنِّي آخذُ كأسَ الزَّبرجدِ بيمينِي وإبريقَ الدُّرِّ بشمالي، فأسقيه الكأسَ الأوَّلَ فيسقطُ لحمه بين يديه، فأجعلُه في قُبْطِيَّةٍ^(٢) فأدفنه تحتَ أساسِ بيتي، وأمَّا إلهكَ الَّذي في السَّماءِ ملكه؛ فإنَّ لي من الجواهر ما لا تطيقُ حملَه دوائِي، فأتصدَّقُ بها عنكَ، فيغفرَ لك إلهكَ الَّذي به تخوَّفُني.

فغلَبَتْهُ بالكلام فلم يردَّ جواباً، فقال: معاذَ الله، ولكنَّ من ارتكبَ حراماً سوَّدَ اللهُ في القيامة وجهه، وهتَكَ على رؤوسِ الأشهادِ ستره، وأحرقَ بالنَّارِ جسمه، فلا تظلميني، ولا تسوِّدي في القيامة وجهي، ولا تخجليني يومئذٍ عندَ أبي وأمِّي، ولا تُسخطي عليَّ ربِّي، ولا تسلَّطي نارَ جهنَّم على جسمي. فعند ذلك غلَّقتِ الأبوابَ وأرختِ الحُجُبَ.

(١) «بي» ليس في (ف).

(٢) قُبْطِيَّة: ثوب أبيض، وجمعه قباطي. انظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ٢١٨).

وقال القشيري رحمه الله: لَمَّا غَلَقْتَ عَلَيْهِ أَبْوَابَ الْحَجَرَةِ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَبْوَابَ الْعِصْمَةِ، فَلَمْ يَضُرَّهُ مَا أَغْلَقْتَ بَعْدَهَا أَكْرَمَهُ بِمَا فَتَحَ.

وقيل: إِنَّ يَوْسُفَ قَالَ: إِنَّ الْعَزِيزَ رَجَا^(١) مِنِّي أَنْ أَنْفَعَهُ حَيْثُ قَالَ: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾، فَلَا أَخُوهُ^(٢) فِي حَرَمِهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مِنْهُ.

وقيل: لَمَّا حَفِظَ حَرَمَةَ الْمَخْلُوقِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مِنْهُ أَكْرَمَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِإِمْدَادِهِ بِالْعِصْمَةِ فِي الْحَالِ، وَمَكَّنَهُ مِنْ مَوَاصِلَتِهَا فِي الْمَالِ عَلَى وَجْهِ الْحَالِ^(٣).

(٢٤) - ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٥﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٥﴾: قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام، والباقون بكسرها^(٤)؛ أي: ولقد عزمْتُ زليخا على ذلك وعقدت قلبها عليه، فأما يوسف فلولاً أن رأى برهان ربّه لهم بها.

فقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ معلق بالشرط المذكور بعده، ولَمَّا أَرَاهُ الْبُرْهَانَ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُ هَمٌّ بِهَا، وَصَرَفَ اللَّهُ تَعَالَى السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ عَنْهُ، كَمَا ذَكَرَهُ فِي آخِرِ الْآيَةِ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أمّا ما قاله بعض أهل التفسير إنّها استلقت

(١) في (أ): «أمل».

(٢) في (ر) و(ف): «أخزيه».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٧٧).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٨). وقرأ نافع أيضاً بفتح اللام.

له، وهمَّ بها، وحلَّ إزاره، وأمثال هذا من الخرافات؛ فهذا كله^(١) ممَّا لا يحلُّ أن يُقال، والدلالة على فساد ذلك وجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿هِيَ زَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾.

والثاني: قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾.

والثالث: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾.

والرابع: قولهنَّ: ﴿مَا عَلَّمَنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.

والخامس: قولها: ﴿أَلَفَنَّا حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي﴾.

فهذا كله دليل على أنه لم يكن منه شيء من ذلك، وليس في ظاهر الآية ممَّا قالوا من قليل ولا كثير؛ إذ ليس فيه شيء سوى أن ﴿هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾. ثم تحتلُّ الآية وجوها عندنا:

أحدها: ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾ همَّ عزم، و﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ همَّ خطرة، ولا منع فيما خطر في القلب؛ وهو قول الحسن^(٢).

والثاني: ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾: همَّ الإرادة والتمكين، و﴿وَهَمَّ بِهَا﴾: همَّ دفع.

لكن يدخل عليه: ﴿لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ﴿فَلَوْ كَانَ هُمُ هَمَّ دَفَعَ لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ: ﴿لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ معنًى، لكن يُشبهه: همَّ بها قتلاً أو ضرباً يُتوهم أنه يفضي إلى القتل، فرأى برهان ربّه، فترك ذلك لما لا يحلُّ له قتلها.

(١) في (ف): «وأمثال هذا فهذا كله من الخرافات وهذا كله».

(٢) وذكره أيضاً الجصاص في «أحكام القرآن» (٢٢٠/٣)، والماوردي في «النكت والعيون» (٢٤/٣).

والثَّالِثُ: أَنَّهُ مَعْلُقٌ بِالشَّرْطِ: ﴿لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَنَ رَبِّهِ﴾، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن تُبَنِّنَاكَ لَفَدَّ كِدَّتْ تَرَكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، وعلى ذلك يخرج قوله تعالى: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]؛ أي: لو كان ينطقُ لفعل هو^(١).

واختلفَ في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَنَ رَبِّهِ﴾ ماذا كان؟

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ ناداه جبريلُ: يا يوسفُ بنَ يعقوبَ، اسمُكَ في الأنبياء مكتوبٌ، فلا يكنْ عملُكَ عملَ الفجَّارِ^(٢).

وقيل: كَانَ فيما ناداه: إِنَّ الطَّيْرَ فِي جَوِّ السَّمَاءِ لَا يُقَدَّرُ عَلَيْهِ، فإذا مات لعبَ به الصَّبِيَّانِ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّ الثَّورَ الصَّغِيرَ لَا يُقَدَّرُ عَلَيْهِ، فإذا مات دخل النَّملُ فِي^(٣) قرنيه، فذلك مثلك إِنْ وَاقَعَتِ الْخَطِيئَةُ.

وقيل: تَمَثَّلَ لَهُ جبريلُ فِي صورة أبيه يعقوبَ عاضًا شفته أو إصبعه، فهَابَ وبادرَ البابَ^(٤).

وقال مقاتل ومحمد بن كعب القرظيُّ: رأى فِي سَقْفِ الْبَيْتِ مَكْتُوبًا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ فَرْحَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]^(٥).

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٦٦ - ٢٢٧).

(٢) روى نحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٩٥)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٨٩، ٩٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٢٤) عن قتادة.

(٣) «في» ليس في (ف).

(٤) روى الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٨٧ - ٩١) نحوه عدة روايات عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٩٨) عن محمد بن كعب القرظي.

وقال مقاتل بن حيان: سمع صوتًا: إِيَّاكَ وموافقته^(١)، فَإِنَّكَ إِن وافقتها^(٢) صرّت كالطير الواحد^(٣) في الأرض القفار بلا ريش^(٤).

وقال جعفر الصادق: البرهان: النبوة التي أودع الله صدره، هي التي حالت بينه وبين ما يسخط الله^(٥).

وقيل: نظر إلى حائط فرأى قلمًا يكتب على الحائط: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فحوّل وجهه إلى حائط آخر فرأى القلم يكتب بعد البسملة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، فحوّل وجهه إلى الثالث فرأى ذلك القلم يكتب بعد البسملة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠]، فحوّل وجهه إلى الرابع فرآه يكتب بعد البسملة: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، فنكس رأسه، فرآه يكتب على الأرض: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، فنظر إلى السقف فرأى صورة أبيه ينظر إليه عاصبًا مسبّحته، مشيرًا إليه بالهرب، فبادر الباب.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾: أي: كذلك فعلنا لنصرف عنه الزنى^(٦).

والسوء في القرآن على وجوه:

(١) في (ر) و(ف): «وموافقته».

(٢) في (ر): «فإنك إن واقعته» وليست الجملة في (ف).

(٣) في (ر) و(ف): «الواحدان».

(٤) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٨٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢١٣).

(٦) «الزنى» ليس في (أ)، وفي (ر): «الرياء والسمعة».

أحدها: الشَّدة؛ قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩].
 والثاني: الغارة^(١) والهزيمة والجرح؛ قال تعالى: (يمسكم سوء العذاب)^(٢).
 والثالث: الشَّتْم؛ قال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾ [النساء: ١٤٨].
 والرابع: الذَّنْب؛ قال تعالى: ﴿أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُم سُوءًا بِجَهْلَةٍ﴾ [الأنعام: ٥٤].
 والخامس: القتل؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْسُوهُا بِسُوءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣].
 والسادس: العذاب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْآخِرَى الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧].
 والسابع: الشُّرك؛ قال تعالى: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ [النحل: ٢٨].
 والثامن: البرص؛ قال تعالى: ﴿تَخْرُجُ بَيضَاءَ مِن غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: ٢٢].
 والتاسع: الضُّرُّ؛ قال تعالى: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].
 والعاشر: بمعنى: بئس؛ قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].
 والحادي عشر: الزُّنى؛ قال تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾.
 وقوله تعالى: ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾؛ أي: الفعلة القبيحة، وهي الزُّنى، وكرَّر لاختلاف
 اللَّفْظَيْنِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [التوبة: ٧٨].
 ويجوز أن يكون السُّوء دواعي الزُّنى، والفحشاء عينه، والدَّواعي: المسُّ
 والقبلة والعناق وغير ذلك ونحوه^(٣).
 وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾: بكسر اللام: هم الذين أخلصوا

(١) في (ر) و(ف): «الغار».

(٢) في (ر) و(ف): «يمسكم سوء العذاب»، وكلاهما ليسا في القرآن.

(٣) في (أ): «الفاحشة» بدل «والفحشاء عينه، والدواعي المسُّ والقبلة والعناق وغير ذلك ونحوه».

أَنْفُسَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ لِلَّهِ، أَوِ الَّذِينَ صَفَّوْا أَعْمَالَهُمْ^(١) وَأَقْوَالَهُمْ وَأَحْوَالَهُمْ
عَنِ الشَّوَابِّ، وَبِفَتْحِ اللَّامِ: الَّذِينَ صَفَّاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْكُدُورَاتِ وَاصْطَفَاهُمْ
بِالْكَرَامَاتِ.

(٢٥) - ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا
جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾: أي: تعاديا إلى الباب ليطلب كل واحد منهما
السَّبْقَ على صاحبه، هي تريد أن تسبق فتظفر به، وهو يريد أن يسبق فيتخلص منها.
وقوله تعالى: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾: أي: تعلقت بذيل قميصه تجذبه،
فشقته طولا، ورجل مقدود: ذاهب في جهة الطول على استواء، ووقع ذلك منها
في قميصه من ورائه^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾: أي: وجدا زوج زليخا عند باب
الدار^(٣).

وَالسَّيِّدُ: الزَّوْجُ بِلَفْظِ الْقَبْطِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تَسَوَّدُوا»^(٤)؛ أي:
تتزوجوا فتشتغلوا^(٥).

(١) «لله أو الذين صفوا أعمالهم» من (أ) و(ف).

(٢) «وقع ذلك منها في قميصه من ورائه» ليس في (ف).

(٣) في (ف): «عند الباب».

(٤) رواه وكيع في «الزهد» (١٠٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٦١١٦)، والدارمي في «سننه»

(٢٥٦)، عن عمر رضي الله عنه موقوفاً.

(٥) كذا قال المؤلف في تأويل الخبر، وذكر نحوه عبد الغافر الفارسي في «مجمع الغرائب» (مادة: =

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾: قالت زليخا دفعًا للتهمة عن نفسها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾؟ يُفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ أَرَادَ بِهَا فَجُورًا، وَلَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، وَلَمْ تَتَعَمَّدْ صَرِيحَ الْكَذِبِ، لَكِنْ تَكَلَّمَتْ بِالتَّعْرِیْضِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ اسْتِفْهَامٌ عَنْ جَزَاءٍ مَنْ يَرِيدُ بِأَهْلِهِ ذَلِكَ، لَا تَحْقِيقُ أَنَّهُ فَعَلَ بِهَا ذَلِكَ.

قالوا: ثُمَّ خَافَتْ عَلَيْهِ الْقَتْلَ إِذْ عَلِمَتْ فِي زَوْجِهَا الْغِيْرَةَ فَقَالَتْ: ﴿لَا أَنْ يُسْجَنَ﴾؛ أي: يَحْبَسَ، ثُمَّ عَلِمَتْ أَنَّهُ لَا يَرْضَى بِهَذَا الْقَدْرُ مِنَ الْعُقُوبَةِ إِذَا وَقَعَ عِنْدَهُ أَنَّهَا صَادِقَةٌ، فَضَمَّتْ إِلَى ذَلِكَ أَمْرًا آخَرَ قَدْ يَصْغُرُ وَقَدْ يَكْبُرُ احْتِيَالًا لِلتَّسْكِينِ، فَقَالَتْ: ﴿أَوْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وَلَمَّا سَمِعَ يُوسُفُ ذَلِكَ وَعَلِمَ أَنَّ السُّكُوتَ يَفْضِي إِلَى وَقُوعِ الْفَهْمِ أَنَّهُ وُجِدَ مِنْهُ ذَلِكَ الْفُجُورُ، وَمَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَرْضَى بِلُحُوقِ هَذِهِ التَّهْمَةِ ^(١) إِيَّاهُ، فَكَيْفَ بِالصَّدِّيقِ ابْنِ الصَّدِّيقِ، وَبِالنَّبِيِّ ابْنِ النَّبِيِّ، فَصَدَّقَ لِإِظْهَارِ بَرَاءَةِ نَفْسِهِ، وَتَأْسِيسِ قَوَاعِدِ دَعْوَتِهِ إِيَّاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالشَّرَائِعِ، فَقَالَ: بَلْ هِيَ فَعَلَتْ ذَلِكَ.

(٢٦) - ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ فَعِصْبُهُ، قَدْ مِنْ قَبْلُ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾.

= (سود)، ولفظه: (وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: قَبْلَ أَنْ تَزَوَّجُوا فَتَصْبِرُوا سَادَةً بِالتَّحْكُمِ عَلَى الْأَزْوَاجِ وَالِاشْتِغَالِ بِهِنَّ لَهَوًا، ثُمَّ تَمَحَّلًا لِلنَّفَقَةِ، وَمِنْهُ: الْاسْتِيَادُ، وَهُوَ طَلَبُ السَّيِّدَةِ مِنَ الْقَوْمِ)، ثُمَّ قَالَ: (وَهَذَا مَتَّجٍ) قُلْتُ: وَهَذِهِ التَّأْوِيلَاتُ لَعَلَّهَا بَعِيدَةٌ عَنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ، فَقَدْ جَاءَ فِي رِوَايَةٍ وَكَيْعٍ تَفْسِيرُهُ بِعِبَارَةٍ: (يَعْنِي: قَبْلَ أَنْ تَجْلِسُوا لِلنَّاسِ فَتُسْأَلُوا). وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي «غَرِيبِ الْحَدِيثِ» (١/ ٥٠٧): (الظَّاهِرُ أَنَّ الْمَعْنَى: أَنْ تَصْبِرُوا سَادَةً).

(١) فِي (ف) وَ(أ): «السَّمَةُ».

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾: قال وهبٌ: فلَمَّا هرب منها اتَّبَعَتْهُ فتدارَكْتُهُ عند الباب^(١).

ورُوي أنَّ الأبوابَ المغلقة والمقفلة كانت تسقط أقفالها ومغاليقها حتَّى خرج، وأدركتُه زليخا عند الباب، فأخذتْ بذيله وهو يجاذبها ليخرج، وهي تجرُّه من خلفه ليرجع، فانشقَّ قميصُه من دُبُرٍ ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾؛ أي: زوجها عند الباب، فقال: ما شأنكما؟ قالت: أدخلت بيتك لصًا عاديًا، وائتمنته على أهلك، فأغلق عليَّ الباب وأنا نائمة، فلم أشعر إلا وهو يريد أن يدخل فراشي، ففرتُ^(٢) إليه من نومتي لآخذه، فبَدَرَنِي إلى الباب، فأراد أن يَأْبَقَ منك من أجل ما فعل فلا تراه أبدًا.

قال العزيز: أختنتني يا يوسفُ في أهلي، وغدرتني وغررتني بما كنتُ أرى من صلاحك، وما كنتُ تُظهِرُ لي من أمانتك وعفافك؟

قال يوسف: هي راودتني عن نفسي وغلبتني وغررتني، وهذا قميصي مشقوقٌ من خلفي حين وليتُ منها هاربًا.

وفي «كتاب عصمة الأنبياء»: إنَّها لو كتمت ذلك لكان لا يُفشي سرَّها، فلَمَّا أحالت بالذنب عليه لم يحبَّ أن يعرفه خائناً فیسوء ظنُّه به، حتَّى إذا عرف براءته عَلِمَ أنَّ امرأته لم تباشر الفعل فينفر طبعه عنها، بل كانت منها المراودة لا المباشرة. ووجهٌ آخر: أنَّها لو كتمت لكان يوسفُ^(٣) يظهره تأديبًا لها، والتماسًا من زوجها التَّغْيِيرَ^(٤) عليها؛ لتدوم صيانتُها في بيته.

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ١٠٢) عن قتادة وابن إسحاق.

(٢) في (ف): «فقت».

(٣) في (ف): «يوسف لم».

(٤) في (ف): «التغيير».

وقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾: وهو أخوها وكاتب زوجها وأمينه، وكان عدلاً أميناً، فقال: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ﴾ الآية.

وقال مقاتل: كان الشَّاهد رجلاً ذا لحيّة، وكان ابن عمّ المرأة^(١).

وقيل^(٢): كان صبيّاً في المهد^(٣)، وكان ابن خال المرأة.

وقال النّبي ﷺ: «ثلاثة من الصّبيان تكلموا في المهد: شاهد يوسف، وعيسى بن مريم، وصاحب جريج الرّاهب»^(٤)، والقصة معروفة.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾: لأنّه يدلّ على أنّه كان مقبلاً عليها وهو يرُدّها.

(٢٧) - ﴿وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾.

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٣٠). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٠٧ - ١١٠) عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وسعيد بن جبيرة وابن إسحاق.

(٢) في (ف) و(أ): «وقال مجاهد»، وقد ذكرنا في التعليق السابق قول مجاهد أنّه كان رجلاً.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٠٥ - ١٠٧) عن ابن عباس وأبي هريرة وسعيد بن جبيرة وهلال بن يساف والضحاك.

(٤) رواه البزار في «مسنده» (٥٠٦٧)، والحاكم في «المستدرک» (٣٨٣٥) وصححه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.

ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٨٢١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٢٧٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً. وكذا رواه ابن حبان في «صحيحه» (٢٩٠٤) موقوفاً إلا أنّه قال بدل «شاهد يوسف»: «والرابع لا أحفظه».

ورواه الحاكم في «المستدرک» (٤١٦١) وصححه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: لأنه يدل على أنه كان هارباً منها.

وهذا دليل على أن بناء الحكم على ظاهر الحال جائز عند عدم الوصول إلى دليل الحقيقة، وعليه كثير من مسائل أصحابنا - رحمهم الله - في التحري وقبول قول الناس وقول من يشهد له الظاهر إذا اختلفا في متاع البيت ونحو ذلك.

(٢٨) - ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾: أي: احتيالكن معاشر النساء على الرجال إذا عملوا بخلاف مرادكن. قيل: هو قول الزوج لها.

وقيل: هو قول الشاهد، على قول من زعم أنه رجل بالغ. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾: أي: عظيم الضرر. وقيل: أي: نافذ غالباً؛ للتَمْويه. وسمى كيد الشيطان ضعيفاً وكيد النساء عظيمًا؛ لأن ذلك سرٌّ وهذا جهرٌ، وذاك وحده وهذا مع كيد الشيطان، وذاك يفرُّ بالاستعاذة وهذه لا تفرُّ، وذاك مع الله وهذا معك.

(٢٩) - ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾: أي: قال زوج زليخا. وقيل: قال ذلك الرجل الشاهد: يا يوسف، أعرض عن هذا الحديث فلا تذكره

لأحد، وهو سترٌ لحالها، وهو المستحبُّ المندوبُ إليه ألا يفشى سرُّ أهل بيت، خصوصاً حرمة ومماليكه.

وقيل: لا تبال له، وطب نفساً، فقد ظهر لي براءتك.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾: أي: قال لزيخا: استغفري الله، وهي وإن كانت مشركة فهم يقرّون بأن الله خالقهم، وأنهم يعبدون الأصنام لتقرّبهم إلى الله زلفى، فيعتقدون استغفار الله من الذنوب.

وقيل: بل قال لها الشاهد: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾؛ أي: اعتذري من زوجك وسليته^(١) أن يستر عليك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾: أي: الخائنين في حقّ الزوج.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ليس كلُّ أحدٍ أهلاً للبلاء، إنّ البلاء لأربابِ الولاء، فأما الأجانبُ فيتجاوز عنهم ويُخلّى سبيلهم، لا لكرامة محلّهم، ولكن لحقارة قدرهم، هذا يوسف عليه السلام كان بريء السّاحة، وظهر لكلّ طهارة جانبهِ، فابتلي مع هذا بالسّجن، وأما امرأة العزيز فقد ظهر للعزيز سوء فعلها، حيث قال: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾، واقتصر في حقّها أن تستغفر من ذنبها، ولم ينزل بها شيء من البلاء، ويفعل الله ما يشاء^(٢).

(٣٠) - ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَدُّ فَنَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا

إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

(١) في (أ): «وسيلة».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٨١).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَسُوهُ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾: أي: انتشر خبر امرأة العزيز وميلها إلى يوسف، وقال جماعة من النساء في مصر: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾؛ أي: زوجة خازن الملك، وكان يُسمَّى عزيزاً لتلقيب الملك إياه به، أو على معنى أنه عزيزٌ عند ملكه مكرَّمٌ لديه، أو على معنى منَعته بكثرة خدمه وأعوانه.

﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾؛ أي: عبد زوجها، والعبد يُسمَّى فتىً، والأمة تُسمَّى فتاةً، قال النبي ﷺ: «لا يقولنَّ أحدكم: عبدي وأمّتي، ولكن ليقل: فتاي وفتاتي»^(١).

وأضفن من اعتقدنه عبد زوجها إليها^(٢) لطاعته لها، وتصرفه فيما يصلح لها من أسباب المنزل، وعلى هذا عُرِفَ الناس في إضافة ممالك أحد الزوجين إلى الآخر.

وقد يضاف إلى جميع أهل البيت فيقال: عبدهم، قال عمرُ في عبد سرق امرأة زوجة مولاة ولم يقطعهُ: عبدُكم سرق متاعكم^(٣).

وقوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾: أي: أصاب شغافها؛ كما يُقال: كبده ورأسه وبطنه وظهره؛ أي: أصاب هذه الأعضاء.

وقال الإمام القشيري رحمه الله وأبو عبيدة: شغاف القلب: غلافه^(٤)، وهو جلدة عليه؛ أي: دخلها الحب وأصاب القلب.

(١) «تسمى» من (ف).

(٢) رواه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في (ر): «وأضيف إليها» بدل «وأضفن من اعتقدنه عبد زوجها إليها».

(٤) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٨٣٩ / ٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٨٥٦٨).

(٥) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٣٠٨ / ١).

وقال الحسنُ: هو باطنُ القلبِ^(١).

وقيل: وسطُ القلبِ.

وقرأ الشَّعْبِيُّ وأبو رجاء العطاردي: (قد شعفها)؛ بالعين المعجمة من تحتها^(٢)، ومعناه: أذهب قلبها.

﴿حَبًّا﴾؛ أي: بالحبِّ، نصبٌ على التَّنْفِيرِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: أي: نراها في مراودة عبدها في ضلالٍ من الرأْي، وعدولٍ عن العقل، إذ صارت في جلاليتها وعلوِّ حالتها تراوِدُ عبدَ زوجها بارتكابِ الفاحشة.

وقيل: أردن بهذا الكلام التَّوَصُّلَ إلى النَّظَرِ إلى يوسف.

قال وهبٌ: كنَّ أربعا؛ امرأة السَّاقِي وامرأة الخَبَّاز وامرأة صاحب الدَّوَابِّ^(٣) وامرأة صاحب السِّجْنِ^(٤).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ١١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٣١).

(٢) أي: المهملة، وقوله: «من تحتها» ليس في (ف). والقراءة رواها الطبري في «تفسيره» (١٣ / ١١٩) عن أبي رجاء، وذكرها عنهما ابن خالويه في «إعراب ثلاثين سورة» (ص: ١٨٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢١٦). وعزاها ابن جني في «المحتسب» (١ / ٣٣٩): لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن بخلاف، وأبي رجاء، ويحيى بن يعمر، وقتادة بخلاف، وثابت البناني، وعوف الأعرابي، وابن أبي مريم، والأعرج بخلاف، ومجاهد بخلاف، وحמיד بخلاف، والزهري بخلاف، وابن محيصن ومحمد بن السمين وعلي بن حسين بن علي وجعفر بن محمد.

(٣) في (أ): «الدواة».

(٤) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢ / ١٩٠)، والواحدي في «البيسط» (١٢ / ٨٦) عن الكلبي، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣ / ٣٠) عن جوير.

قال مقاتل: كنَّ خمسًا. فزاد امرأة الحاجب^(١).

(٣١) - ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾: أي: بحيلتهنَّ، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ لتريهنَّ يوسف.

وقيل: إنها كانت أفشَّت إليهنَّ أمر يوسف واستكتمتهنَّ، فلما تحدثنَّ به أرادت إيقاعهنَّ فيما كانت وقعت فيه، فدعتهنَّ وفعلت ما فعلت.

وقوله تعالى: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾: أي: تدعوهُنَّ إلى دارها للطَّعام؛ كامرأة تُضيف صواحبها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا﴾: أي: هيأتَ لهنَّ مجلسًا للطَّعام يتكئنَّ فيه على الوسائد ونحوها، فعل المتنعِّمين من الاتِّكاء قبل الطَّعام وبعده، وقال النبي ﷺ: «أما أنا فلا آكل متَّكًا»^(٢).

وقال مجاهد: (مُتَّكًا) بسكون التَّاء بغير الهمز. والمُتَّك: الأُتْرُج^(٣).

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢ / ٣٣١).

(٢) رواه البخاري (٥٣٩٨)، والترمذي (١٨٣٠)، من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه. وليس في رواية البخاري: «أما أنا».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ١٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٣٣).

وقيل: البَزْمَاوَرْد^(١). وهو قول الضَّحَّاك^(٢).

وقال وهب: أَعْتَدْتُ لَهْنٍ أَتْرَجًا وبطيحًا ومورًا^(٣).

وقال القتيبي: كُلُّ مَا قُطِعَ بِالسَّكِينِ؛ فهو عند العرب مُتْكٌ، وقد بَتَكَ وَمَتَكَ؛ أي: قَطَعَ، والباء والميم يتعاقبان، يقال: أَغْبَطْتُ عَلَيْهِ الحَمَى وَأَغْمَطْتُ؛ أي: لَزِمْتَهُ، وَسَبَدَ رَأْسَهُ وَسَمَدَ؛ أي: اسْتَأْصَلَهُ بِالْحَلْقِ، وَضَرْبَةً لَزِيبٍ وَلَا زِمٍ^(٤).

(١) في (ر) و(ف): «الرمان». والبَزْمَاوَرْد قول العامة، وهو الزُّمَّارْد والزَّمَّارْد: وهو طعام من البيض واللحم والسمن، معرب كما في «القاموس»، أو هو الرقاق الملوّف باللحم، كما في حواشي «الكشاف»، وفي كتب الأدب: طعام يقال له: لقمة القاضي، أو: لقمة الخليفة، وقيل: البزماورد ضرب من الحلوى يصنع من العجين بالسكر، وقيل: كل ما عمل من السكر حلوى فهو زماورد. انظر: «معجم متن اللغة» لأحمد رضا (٦١/٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣٣).

(٣) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٤٦٤).

قلت: وكما يظهر من سياق الزمخشري أن هذا من وهب رحمه الله في تفسير (المتك) على القراءة الأخرى، لا (المتكأ) على قراءة العامة، وقد فسر أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ٣٠٩) المتكأ بالنمق يتكنن عليه، ثم قال: (وزعم قوم أنه الأترج، وهذا أبطل باطل في الأرض، ولكن عسى أن يكون مع المتكأ أترج يأكلونه).

وعلى هذا فقد يكون وهب أراد بكلامه ما أعطت أولئك النسوة حين المتكأ لا تفسير المتكأ نفسه، وهكذا وجه الطبري ما روي من طريق مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله: أعطتهن أترجًا، وأعطت كل واحدة منهن سكيًا. قال الطبري: (فبين ابن عباس في رواية مجاهد هذه ما أعطت النسوة، وأعرض عن ذكر بيان معنى المتكأ، إذ كان معلومًا معناه). وكان الطبري قد روى قبل ذلك من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَعْتَدْتُ لَهْنًا مُتَكَا﴾ قال: مجلسًا. ثم ذكر كلام أبي عبيدة ووافقه فيه. انظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ١٢٣ - ١٢٥).

(٤) انظر: «غريب القرآن» (ص: ٢١٦-٢١٧)، و«تأويل مشكل القرآن» (ص: ١١٥) كلاهما لابن قتيبة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا﴾: أي: وأعطت سكينًا تعالج به ما تحتاج إلى قطعه مما قدّم إليهنّ من الطّعام والفواكه، وهكذا فعل الأعاجم، يوضع عندهم لكلّ من على المائدة سكينٌ يقطع به اللحم وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيَّ﴾: وذلك في حال ما كنّ يعالجن بالسّكين، فلمّا خرج عليهنّ بهنّ واعتراهنّ من روعة جماله^(١) وهيبه جلاله ما قطعنّ بالسّكين أيديهنّ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ أَكْبَرْتَهُ﴾: أي: فخرج، فلمّا رأيته أعظمته، وليس قول من قال: أكبرنّ؛ أي: حضنّ، بشيء؛ لأنّه غير معروف، ولأنّه قال: ﴿أَكْبَرْتَهُ﴾ فعّاه بالهاء، والحيض لازم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾: قال قتادة: أي: ابن أناملهنّ^(٢).

وقيل: ألقينّ مفاصلهنّ.

وقال مجاهد: فما أحسننّ إلّا بالدم، ولم يجدنّ من حرّ اليد ألمًا لشغل خاطرهنّ بيوسف^(٣).

وقال وهب: كنّ أربعين امرأة، وبلغني أنّ سبعة من الأربعين متّنّ في ذلك المجلس وجدّا بيوسف وحبّاه^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا حَسْبُ لِلَّهِ﴾: أي: معاذ الله أن نقول: هذا بشر.

(١) في (أ): «جماله بكماله».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ١٣٥).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢١٨)، والواحدي في «السيط» (١٢ / ١٠٠). ولا شك أن هذا

الذي بلغه هو من تخاريف الإسرائيليات.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢١٨).

وقوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾: أي: ليس هذا آدميًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾: أي: ما هذا إِلَّا مَلَكٌ مَكْرَمٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالنَّاسُ إِذَا رَأَوْا أَمْرًا لَهُ ^(١) رَوْعَةٌ وَجَمَالٌ قَالُوا: كَأَنَّهُ مَلَكٌ، كَمَا يَقُولُونَ فِي ضِدِّهِ: إِنَّهُ شَيْطَانٌ، قَالَ الشَّاعِرُ:

فَلَسْتُ لِإِنْسِي وَلَكِنْ لِمَلَأِكٍ تَنَزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ ^(٢)

وفي قراءة بعضهم: (ما هذا بِشَرِي) بكسر الباء والشين ^(٣)، وبِشْرَى مصدرٌ ومعناه المفعول؛ أي: ليس هذا بِمَشْتَرَى، (إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ) بكسر اللام ^(٤)؛ أي: ليس بمملوك، وقال قائل:

غَابَتْ صِفَاتُ الْقَاطِعَاتِ أَكْفَهَا فِي شَاهِدٍ هُوَ فِي الْبَرِيَّةِ أَبْدَعُ

(١) في (أ): «رَأَوْا مِنْ لَهُ».

(٢) نسب البيت لعدد من الشعراء؛ فنسب لعلقمة بن عبدة يمدح الحارث بن جبلة كما في «ذيل ديوانه» (ص: ١١٨)، و«المفضليات» (ص: ٣٩٤)، و«الزاهر» لأبي بكر الأنباري (٢/ ٢٥٥). ونسب لمتمم بن نويرة كما في «ديوان متمم» (ص: ٨٧)، ونسب لأبي وجزة يمدح عبد الله بن الزبير كما في «شرح ديوان المتنبي» للعكبري (٢/ ٣٧٤)، أو لرجل من عبد القيس يمدح النعمان كما في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٣)، و«شرح القصائد السبع» لابن الأنباري (ص: ٥٢٢)، و«الصحاح» للجوهري (مادة: ملك). ودون نسبة في «الكتاب» (٤/ ٣٨٠)، و«إصلاح المنطق» (ص: ٧١)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ١١٢). وقال السيرافي في «شرح أبيات إصلاح المنطق» (ص: ٢٠٧): يروى لأبي وجزة يمدح عبد الله بن الزبير، ويروى لرجل من عبد القيس يمدح النعمان.

(٣) نسبت للحسن وأبي الحويرث الحنفي. انظر: «المحتسب» (١/ ٣٤٢)، و«الكشاف» (٢/ ٤٦٦)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٠)، و«البحر» (١٢/ ٤٦٨).

(٤) قرأ بها عبد الوارث رواية المنقري، وابن عبد الكبير عن أبي عمرو. انظر: «الكامل في القراءات» لليشكري (ص: ٥٥١). ونسب ابن عطية لمن قرأ (بَشْرَى) أنه قرأ أيضًا: (إِنْ هَذَا إِلَّا مَلِكٌ كَرِيمٌ) بكسر اللام.

فَفَتَيْنَ^(١) مِنْ أَوْصَافِهِنَّ فَلَمْ يَكُنْ مِنْ نَعْتِهِنَّ تَلَذُّذٌ وَتَوَجُّعٌ^(٢)

(٣٢) - ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ زَادْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ۖ فَاسْتَعَصِمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ ۖ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾: لَمَّا رَأَتْ امْرَأَةً الْعَزِيزِ أَنَّهُنَّ افْتُنَّ بِيُوسُفَ وَجَدَتْ مَوْضِعًا لِلْعَذْرِ فَقَالَتْ: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾.

ويحتمل: فهذا ذلكن الذي لمتني فيه، وقلتن ما قلتن، ثم اعترفت بأنها راودته عن نفسه، فقالت:

﴿وَلَقَدْ زَادْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ۖ فَاسْتَعَصِمَ﴾: أي: امتنع وتحفظ عن إجابتي، فهذا يبطل قول مَنْ قال: قصد إجابتها وحل إزاره^(٣).

ثم اعترأها من افتتان النسوة به زيادة شغف به، فهتكت جلباب الحياء، وعادت بحضرتهن إلى مراودته، أو إلى ما يشبه المراودة، فقالت:

﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾: أي: ليحبسن في السجن، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾: أي: الأذلاء، جمع بين النون المشددة وبين النون المخففة؛ لأنهما^(٤) في معنى واحد، وكُتِبَتِ الثانية ألفاً لخفائها وسكونها، والوقف عليه بالألف، قال الأعشى:

(١) في (أ): «فتين»، وفي (ر) و(ف): «فتن»، والمثبت من المصدر.

(٢) ذكره الكلاباذي عن بعض أهل عصره في «التعرف لمذهب أهل التصوف» (ص: ١٢٧).

(٣) في (ف): «أزاره».

(٤) في (ف): «إلا أنها».

وسَبَّحَ على حين العشيَّات والضُّحى ولا تعبدِ الشَّيْطَانَ والله فاعبُد^(١)
أي: فاعبدن^(٢).

وقيل: لَمَّا بَغَتْ عليه وأَتَهَمَتْهُ بما فيها ابتلاها الله تعالى بأنْ هتَكَتْ بلسانها
سترها، وكشَفَتْ أمرها.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: كَانَتْ زليخا أتمَّ حالاً في أمر يوسفَ وفي
الافتتانِ به من النسوة، فَأَثَرَتْ رُؤْيَاهُ فِيهِنَّ، ولم تَوَثِّرْ فِيهَا كما أَثَرَتْ فِيهِنَّ، حيثُ
قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، وذلك لِأَنَّهُ قَوِيَ حَالُهَا بطول الصُّحبة، وصَارَتْ رُؤْيَاهُ يوسُفَ غِذاءً
لِهَا، فلم يُوَثِّرْ فِيهَا، والتَّغْيِيرُ صِفَةُ أَهْلِ الْبِدَايَةِ، فإذا دام المعنى زَالَ التَّغْيِيرُ.

قال أبو بكرٍ الصَّدِيق رضي الله عنه وقد رأى رجلاً يبيكي وهو قريب العهد
بالإسلام: هَكَذَا كُنَّا حَتَّى قَسَتِ الْقُلُوبُ^(٣)؛ أي: قَوِيَتْ وَصَلُبَتْ، وكَذَا الْخَزْفُ أَوَّلُ
مَا يُجْعَلُ فِيهِ الْمَاءُ يُسَمَعُ لَهُ نَشِيشٌ، وإذا تَعَوَّدَ شَرَبَ الْمَاءِ سَكَنَ، فلا يُسَمَعُ لَهُ بعد
ذلك صوتٌ^(٤).

قال وهبٌ: وَلَمَّا ظَهَرَ هَذَا قَبِحَتْ الْمَقَالَةُ فِيهَا، وَعَيَّرَهَا نِسَاءُ الْمُلُوكِ، وَقُلْنَ:
إِنَّهَا تَرَاوَدُّ عَبْدَهَا عَنْ نَفْسِهِ؛ قد فَضَحَهَا^(٥)، وشَغَفَهَا حُبًّا، وَأَزْرَى بِهَا، وهو كَارُهُ لَهَا،

(١) انظر: «ديوان الأعشى» (ص: ١٨٧). وصدره فيه برواية:

وَذَا النُّصْبِ الْمَنْصُوبِ لَا تُنْسَكُنْهُ

(٢) «أي: فاعبدن» ليس في (ف).

(٣) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ١٣٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٥٢٤)، وأبو نعيم
في «حلية الأولياء» (١/ ٣٣).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٨٣).

(٥) «قد فضحها» ليس في (ف).

يُبْغِضُهَا وَيَمْقَتُهَا، وَيَهْرَبُ مِنْهَا، وَلَوْ رَأَى فِيهَا خَيْرًا لَطَاوَعَهَا^(١)، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ مِّنَّا لِأَذَلَّتْهُ^(٢).

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِسُوءِ قَوْلِهِنَّ لَهَا وَإِزْرَائِهِنَّ عَلَيْهَا احْتَالَتْ لِفَضِيحَتِهِنَّ، وَأَرَادَتْ أَنْ تَصْغُرَ إِلَيْهِنَّ أَنْفُسُهُنَّ، فَبَعَثَتْ إِلَى أَرْبَعِينَ امْرَأَةً مِّنْ عِظَمَائِهِنَّ لَمْ تَدَعْ فِيهِنَّ أَشْرَفَ وَلَا أَعْظَمَ مِنْهُنَّ، فَصَنَعَتْ لَهُنَّ مَادِبَةً عَظِيمَةً، فَلَمَّا فَرَعَتْ مِنْ ذَلِكَ فَرَشَتْ لَهُنَّ وَاتَكَأْنَ، وَوَضَعَ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ الْأُتْرُجَ وَالْبَطِيخَ وَالْمُورَ، وَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا لِّتَقْطَعَ بِهِ مَا وَضَعَتْ قَدَامَهَا، فَلَمَّا أَتَشَأْنَ فِي قِطْعِ ذَلِكَ قَالَتْ: أَلَا أَرَى كُنَّ عَبْدِي الَّذِي عَيَّرْتَنِي بِهِ؟ قُلْنَ لَهَا: بَلَى، فَإِنْ كَانَ لَكَ فِيهِ عَذْرٌ عَذْرُنَاكَ وَسَاعِدُنَاكَ^(٣)، وَإِنْ أَخْطَأَتْ أَوْ قَصَرَ رَأْيُكَ^(٤) وَعَظُنَاكَ وَعَرَّفْنَاكَ، وَدَلَّلْنَاكَ عَلَى الرَّشْدِ وَالسَّدَادِ.

فَاغْتَنِمْتُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِنَّ وَقَالَتْ: أَخْرِجْ عَلَيْهِنَّ يَا يُوسُفُ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِنَّ أَعْظَمْنَهُ وَبُهِتْنَ، وَفِي أَيْدِيهِنَّ السَّكَائِنُ، فَالْهَى^(٥) أَيْدِيَهُنَّ وَعَيُونَهُنَّ وَقُلُوبَهُنَّ وَعَقُولَهُنَّ، فَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَأَبْنَى الْأَنَامِلَ، وَأَقْسَمْنَ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِنَّ: مَا هَذَا بَشَرًا، وَلَا وَلَدُهُ بَشَرٌ، وَإِنَّهُ لَمَلَكٌ كَرِيمٌ مِنْ رُّؤُوسِ الْمَلَائِكَةِ.

قَالَ وَهَبٌ: بَلَّغْنِي أَنَّ يُوسُفَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أُعْطِيَ ثُلُثَ حُسْنِ الدُّنْيَا، وَسَارَةَ السُّدُسَ، وَالْخَلْقَ النِّصْفَ^(٦).

(١) فِي (أ): «لَخَادَعَهَا».

(٢) «لَوْ كَانَ لِأَحَدٍ مِّنَّا لِأَذَلَّتْهُ» لَيْسَ فِي (ف).

(٣) فِي (أ): «وَشَايَعْنَاكَ»، وَفِي (ف): «وَسَامَحْنَاكَ».

(٤) فِي (ف): «قَصُرَتْ» بَدَلُ: «قَصَرَ رَأْيُكَ».

(٥) فِي (أ): «فَأَشْهَى»، وَفِي (ف): «فَانْتَهَى».

(٦) رَوَى الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٣٦ / ١٣)، وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٤٠٨٦) عَنْ رِبْعَةِ الْجَرَشِيِّ: =

وأعطى الله تعالى يوسفَ من الحُسْنِ وصفاءِ اللونِ ونقاءِ البشرة ما لم يعطه أحداً؛ إن كان ليأكلُ البقلَ والشَّيءَ الأخضر من الفاكهة فيرى حيث يزدرده^(١) في حلقة وصدرة حتى إلى بطنه^(٢).

فقالَتْ زليخا لهنَّ: وهل عليَّ بعدَ هذا من لومٍ؟! قلنَّ: معاذَ الله، بل أنتِ معذورةٌ مرحومةٌ مظلومةٌ. وقلنَّ ليوسفَ: اتَّقِ اللهَ في ربَّتِكَ^(٣)، واقبلِ كرامتها، وأطعها وأجبها إلى ما دعوتك إليه، ولئن لم تفعل ذلك إنك إذا لمن الظَّالِمين.

وقالت^(٤) امرأةُ العزيز: قد ﴿زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرَأَتِهِ لَيُسَجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ قالتِ النسوةُ: قد استحقَّ ذلك، إنَّ عبداً عصى سيِّدته لأهل أن يُسَجَنَ ويُقتَلَ ويُعَذَّب.

وتمالأن عليه، وأحبيته وشغفهنَّ كما شغفها، وأشرنَ عليها بحبسه رجاء أن يستهوينه حتى يحنَّ^(٥) لهنَّ في السَّجن.

وقلنَّ لسيِّدته: إنَّك متى سجتني قطعِ عنك مقالةَ السُّوءِ التي قد شاعت^(٦) عليك، ورأى النَّاسُ أنَّك تبغضينه وتكرهينَ قربه، ويُعطِّفُ عليك السَّجنُ ويليئه لك.

= قال: «قَسِمَ الحسن نصفين، فأعطي يوسف وأمه سارة نصف الحسن، والنصف الآخر بين سائر الخلق». وكله من مبالغات الإسرائيليات وخرافاتهما.

(١) في (ر) و(ف): «يزدده».

(٢) وهذا في المبالغة والبطلان كسابقه.

(٣) في (أ): «زلتك».

(٤) في (ر) و(ف): «وكانت».

(٥) في (أ): «عاد». وسقطت جملة: «حتى يحنَّ لهنَّ في السَّجن» من (ف).

(٦) في (ر): «مقالة النسوان التي قد أشاعت»، وفي (ف): «مقالة النسوان التي قد شاعت».

ثُمَّ انصرفتِ النِّسوةُ عنها على ذلك وتركناها، وراودته عن نفسه وجهدت عليه، ولم يزد منها إِلَّا بُعْداً، فلمَّا يئست منه قالت لسيِّدها: قد شاع عليّ في أمر هذا العبد مقالةٌ قبيحةٌ، وقد فضحني ذلك، وقد كرهتُ قربَه، وأبغضتُ رؤيته، فائذن لي في سجنه حتى يكونَ سجنه من تحت يدي، فإنه أقطعُ للمقالة، وأبينُ للعدر، فقال لها سيِّدها: قد أذنتُ لك في سجنه.

(٣٣) - ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ﴾: أي: يا ربَّ ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ أضاف الفعل إلى جميع هؤلاء النسوة؛ لما مرَّ أنهنَّ شغفنَّ به، ودعته كلُّ امرأةٍ منهنَّ إلى نفسها.

وقيل: إنهنَّ حرَّضنه على إجابة زليخا، ودعونه إلى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾: أي: أملُ إليهنَّ، وقد صبا يَصْبُو صَبْوَةً، وحذفت الواو من ﴿أَصْبُ﴾ للجزم؛ لأنه جواب الشرط.

﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ باتباع الهوى، وهذا سؤال منه العصمة من ذلك بالطف وجه.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الاختبارُ مقرونٌ بالاختيار، ولو تمنى العافية وسألها^(١) وجد العافية، ولكن أثر السِّجْنِ على ذلك فسُجِنَ.

وقالوا: هذا عينُ التَّوْحِيدِ، حيثُ رأى أنَّ المعصومَ من عصمه الله تعالى، فإنَّ نجاته بصرفِ الله تعالى ذلك لا بتكليفه، ولما أثر تحمُّلُ المشقة في الله تعالى على

(١) في (ر): «فيئالها»، وفي (ف): «ومثالها».

لَذَّةِ نَفْسِهِ آثَرُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى إِخْوَتِهِ وَأَهْلِ عَصْرِهِ، حَتَّى قَالُوا: ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١] ^(١).

وقال الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: قوله: ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾: هي محبة الاختيار والإيثار في الدين، لا محبة النفس واختيارها، بل النفس تهوى ما يدعون إليه، دليله قوله: ﴿أَصَبُّ إِلَيْهِنَّ﴾ ^(٢).

ودلَّ أَنَّ النِّسْوَةَ رَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿إِذْ رَاوَدَتْهُ يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١] ^(٣).

(٣٤) - ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾: ودعاؤه قوله: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: أي: السَّمِيعُ لِلدَّعْوَةِ، الْعَلِيمُ بِالنِّيَّةِ.

(٣٥) - ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَجُتُّهُ حَتَّى حِينٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ﴾: أي: ظهرَ لَهُمْ رَأْيٌ بِخِلَافِ الرَّأْيِ الْأَوَّلِ، وَمَصْدَرُهُ الْبَدَاءُ.

أي: لزلليخا والعزيز وأهل المشورة فيه.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢/ ١٨٣).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٥٤).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٣٧).

﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ﴾؛ أي: العلامات الدلالات على براءة يوسف وصدق مقالته؛ من قد القميص من دُبُرٍ، ومن كلام الطفل وشهادته ببراءته، ومما بين من الاستدلال، ونحو ذلك.

﴿لَيْسَ جُنَّتُهُ﴾: أي: حلفوا ليس جُنَّتُهُ ﴿حَتَّىٰ حِينَ﴾؛ أي: زمان يتقادم العهد فيُنسى هذا الحديث فينقطع.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: لما سجن العزيز يوسف مع ظهور براءته اتقاء على امرأته أن يُنتهك سترها؛ حوّل الله تعالى ملكه^(١) إليه، ثم في آخر الأمر جعلها امرأته، وذلك جزاء الصّابرين^(٢).

(٣٦) - ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَنِیْ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَنِیْ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِیْ خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَثَاتًا وَّيْلَهُ إِنَّا نَرْنٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ﴾: أي: عبدان للملك.

وقال الزجاج: كانوا يسمّون المملوك في ذلك الزّمان - شيخاً كان أو شاباً -: فتى^(٣).

أي: أمضوا رأيهم في سجنه فسجنوه ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾؛ أي: بعده بزمان، و(مع) كلمة قران، وأراد به اجتماعهم في السّجن، لا اقترانهم في الدّخول.
وكان الفتیان أحدهما طبّاخ الملك واسمه مجلث، والآخر ساقٍ واسمه بونا.

(١) بعدها في (أ): «وملكه»، وليست في «اللطائف» لكن لها وجه.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ١٨٤).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣ / ١٠٩).

وقيل - وهو قول ابن عباس -: اسم الطَّبَّاحِ شرها بقم، واسم السَّاقِي شرها سكم^(١). ولمَّا دخل^(٢) يوسفُ السَّجْنَ فتح الله عليه عبارة الرؤيا، فكان يَعْبُرُ لأهل السَّجَنِ رؤياهم، ودخل هذان السَّجَنَ بعده، و﴿مَعَهُ﴾ بمعنى: بعده، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥].

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾؛ أي: السَّاقِي: ﴿إِنِّي أَرَيْتُ﴾ في النَّوْمِ ﴿أَعَصِرُ خَمْرًا﴾؛ أي: عنبًا؛ قاله الضَّحَّاك^(٣).

وقال الزَّجَّاج: أي: عنب الخمر، والعنب يُسَمَّى خمرًا في لغة عُمان^(٤). وحكى الأصمعيُّ عن معتمر بن سليمان أنه رأى أعرابياً معه عنبٌ فقال: ما معك؟ فقال: خمر^(٥).

وقيل: هو على ظاهره مستقيمٌ، معناه: أعصر العنبَ خمرًا؛ كما تقولون: عصرتُ الزَّيتونَ زيتًا، وبسطه: أعصرُ عنبًا ليكونَ عصيره خمرًا. قال عكرمة: قال ذلك الفتى: إِنِّي رَأَيْتُ فيما يرى النَّائمُ أَنِّي غَرَسْتُ حَبَّةً من عنبٍ فنبَتَتْ^(٦)، فخرجَ منها ثلاثةُ عناقيد، فعصرتهنَّ، ثمَّ سقيتهنَّ الملكَ، قال: تمكُّثُ في السَّجَنِ ثلاثةَ أَيَّامٍ، ثمَّ تخرجُ فتسقيهِ خمرًا^(٧).

(١) في (أ): «شرها سلم». وانظر: «تفسير مقاتل» (٢ / ٣٣٣)، وجاء في مطبوعه الاسمان: «شرهم أقم، وشرهم أشم».

(٢) في (ف): «وصل».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ١٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٤٢).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣ / ١٠٩).

(٥) رواه ابن قتيبة في «غريب الحديث» (١ / ٥٤٠)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢٢٢)، والواحدي في «البيسط» (١٢ / ١١٤).

(٦) في (ف): «فيست».

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ١٥٥).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْآخَرُ﴾: أي: الطَّبَّاحُ: ﴿إِنِّي أُرْنِيكَ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾؛ أي: رأيتُ كأنِّي أخرجُ من مطبخٍ وعلى رأسي ثلاث سلالٍ^(١) من خبزٍ، وأرى سباع الطَّيْرِ تأكل من السَّلَّةِ العليا.

وقوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾: أي: بما يؤوُلُ إليه عاقبة المراد بهذه الرؤيا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: أي: تُحَسِّنُ إلى أهل السَّجْنِ؛ لقيامك بأمرهم، وعنايتك بأسبابهم، فأَحْسِنُ إلينا بعبارة الرؤيا، ليزول^(٢) عَنَّا شغل القلب بتأويلها، وتُجْزَى بذلك على إحسانك إلى أهل السَّجْنِ.

قيل: كان يداوي مريضهم، ويعزِّي حزينهم، ويجتهدُ في عبادة ربِّه. وهذا عن قتادة^(٣).

وقيل: كان يعينُ المظلومَ، وينصرُ الضَّعيفَ، ويعودُ المريضَ. وهذا عن الزَّجَّاجِ^(٤).

وقيل: أي: من الْمُعْتَنِينَ^(٥) في عبارة الرؤيا. وهو قول الفراء^(٦).

وقال وهبُ بن منبّه: كان سببُ وقوعهما في السَّجْنِ أَنَّ جماعةً من أهل مصرَ خرجوا على الملك، وأرادوا المكَرَ به واغتياله، فدسُّوا إلى هذين، وضمنوا لهما مالاً لِيَسْمَا طَعَامَ الملكِ وشرابه، فأجاباهم إلى ذلك، ثُمَّ إِنَّ السَّاقِي نكَلَ عنه، وقبلَ الخَبَّازُ الرِّشوةَ فسمَّ الطَّعَامَ، فلَمَّا حضرَ وقتُه وأحضرَ الطَّعَامَ، قال السَّاقِي:

(١) في (أ): «سلات». ولم يبين المؤلف كيف عرف أنها ثلاث وهي لم تذكر في الآية.

(٢) في (ر): «واصرف»، وهي ليست في (ف).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ١٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٤٣).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣ / ١١٠).

(٥) في (أ): «المحسنين».

(٦) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢ / ٤٥)، وفيه: «من العالمين قد أحسنت العلم».

أَيُّهَا الْمَلِكُ، لَا تَأْكُلْ فَإِنَّ الطَّعَامَ مَسْمُومٌ، قَالَ الْخَبَّازُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، لَا تَشْرَبْ، فَإِنَّ الشَّرَابَ مَسْمُومٌ، فَقَالَ الْمَلِكُ لِلسَّاقِي: اشْرَبْ، فَشَرِبَهُ فَلَمْ يَضُرَّهُ، وَقَالَ لِلْخَبَّازِ: كُلْ مِنْ طَعَامِكَ، فَأَبَى، فَجُرِّبْ ذَلِكَ الطَّعَامَ فِي ^(١) دَائِيَّةٍ مِنَ الدَّوَابِّ، فَأَكَلَتْهُ فَهَلَكَتْ، فَأَمَرَ الْمَلِكُ بِهِمَا إِلَى السَّجْنِ، فَكَانَا فِي السَّجْنِ سَنَةً، وَالْفَا يَوْسُفَ وَالْفَهْمَا، إِلَى أَنْ رَأَىا رُؤْيَاهُمَا، كَمَا قَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا ^(٢).

وَقِيلَ: لَمَّا عَبَرَ رُؤْيَا الْخَبَّازِ؛ قَالَ: إِنِّي لَمْ أَرْ شَيْئًا وَكُنْتُ أَلْعَبُ، فَقَالَ يَوْسُفُ: رَأَيْتُمَا رُؤْيَاكُمَا أَوْ لَمْ تَرِيَاهَا، فَإِنَّ مَا قُلْتُ نَازِلٌ بِكُمَا. فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: إِنَّهُمَا تَحَالَمَا لِيَجْرِبَا يَوْسُفَ ^(٣).

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: كَانَ أَحَدُهُمَا صَادِقًا وَالْآخَرُ كَاذِبًا ^(٤).

(٣٧) - ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْرَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِيَوْمِهِ﴾ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيَ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْرَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِيَوْمِهِ﴾ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا: قِيلَ: أَرَادَ أَنْ يَقَرَّرَ عِنْدَهُمَا عِلْمَهُ بِعِبَارَةِ الرُّؤْيَا.

وَقِيلَ: أَسَّسَ لِدَعْوَتِهِمَا إِلَى التَّوْحِيدِ، وَكَذَا يَنْبَغِي لِلْعَالَمِ إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ أَنْ يُؤَسَّسَ ^(٥) لِمَا هُوَ أَهَمُّ مِنْهُ فَيُكْشَفُهُ، ثُمَّ يَجِيبُهُمْ عَمَّا سُئِلَ عَنْهُ.

(١) فِي (ف) وَ (أ): «عَلَى».

(٢) ذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥ / ٢٢١)، وَالبَغْوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤ / ٢٤٠) دُونَ نِسْبَةٍ.

(٣) رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٣ / ١٥٣) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالسَّيِّدِي.

(٤) ذَكَرَهُ الْمَوَارِدِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣ / ٣٦) عَنْ أَبِي مَجْلَزٍ.

(٥) فِي (ف): «أَسَّسَ» بَدَلُ: «أَنْ يُؤَسَّسَ».

فقال: لا يأتيكما من عند الملك أو من عند أهلكما أو أصدقاؤكما ما تحتاجان إليه من الطعام في السجن إلا أخبرتكما به قبل مجيئه، وهو قوله: ﴿لَا تَبْتَئِكُمَا بِلَهٍ﴾ وهو خبرٌ عن الغائب، وذلك كقول عيسى عليه السلام: ﴿وَأَنِيبْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

فكأنهما قالاه: فكيف تعلم ذلك وهو غيب؟ فقال: ﴿ذَلِكُمَا مَعَا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾. فكأنهما قالاه: ولم خصك ربك بالتعليم دوننا؟ فقال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وليس هو تركاً بعد الكون فيها، بل هو الامتناع عنها أصلاً، وإخباراً أنه لم يكن فيها قط، ولا يخص الله تعالى بهذا العلم - الذي هو كرامة - من كفر به وجحدته، بل يكرم به من آمن به وصدقته ووحدته وعبدته.

(٣٨) - ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرِهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

فكأنهما قالاه: إذا لم تكن أنت في هذه الملة؛ فعلى أي ملة أنت؟ فقال: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرِهِيمَ﴾ وهو الجدُّ، جدُّ الأب يسمى أباً؛ لأنه أبو أب الأب، ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ هو أب الأب، ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ هو أبوه حقيقة.

فكأنهما قالاه: وكيف كانت ملتهم؟ فقال: ﴿مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾. فكأنهما قالاه: وكيف اهتديتم إليها؟ فقال: ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لا يشكرون الخالق على نعمه بالطاعة له في أمره ونهيه.

وقيل: لا يعلمون النعم من الله فيشكروا له عليها.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي: يدلُّ على بطلان قول المعتزلة في أن الفاسق يخرج من ملة الإسلام، ولا يدخل في ملة الكفر، فإنه ليس بين الملتين ملة أخرى. ودلت الآية أيضًا أن الكفر كله ملة واحدة.

ثم إنَّما ذكر يوسفُ آباءه في هذه الآية؛ لأنَّ النَّاس كانوا عرفوهم واعتقدوا تعظيمهم، وكانوا لا يعرفون يوسفَ، فبيَّن أنَّه من صلبهم؛ ليعتقدوا كلامه^(١) وقبلوا دعوته إلى الدين الحق.

(٣٩) - ﴿يَصْحَبِي السِّجْنُ ۖ أَبَابٌ مَّتَفَرِّقُونَ خَيْرًا أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَصْحَبِي السِّجْنُ﴾: أي: يا ساكنيه وملازميه، وهو كقوله: ﴿أَصْحَبُ الْجَنَّةِ﴾ و﴿أَصْحَبُ النَّارِ﴾.

﴿أَبَابٌ مَّتَفَرِّقُونَ خَيْرًا أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾: استفهامٌ بمعنى النفي.

ثم لا خيرية في الأرباب المتفرقين، لكن قاله بناءً على زعم الكفرة؛ أي: أنتم تعتقدونه خيرًا، ثم ألزمهم على هذا الوجه: أهذا خيرٌ أم التوحيد، على وجه ظهر بطلان ما يعتقدون، وهو كقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] ونحو ذلك، وقد كشفناه عند قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مُثَوِّبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية [المائدة: ٦٠].

ثم إنَّه دلَّهم بهذا على أنَّ الخالق واحدٌ، وأنَّ الإله^(٢) واحدٌ، وأنَّ الآلهة لا بدَّ أن

(١) في (ف): «ليعتقدوه» بدل من «ليعتقدوا كلامه».

(٢) في (أ): «المعبود».

يكون بينهم تفرُّق في الإرادات؛ فإمَّا أَنْ يُلْزَمَ العجزُ كُلُّهُمْ أو بعضُهم، والعاجزُ لا يجوز أن يكون إلهاً، وهو معنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ولأنَّ الآلهة إذا تفرَّقت لم يمكن إرضاء جميعهم بالعبادة، وإرضاء الواحد أمكن^(١) بالمدامنة على عبادته والعمل بطاعته.

(٤٠) - ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾: لما كانت الأسماء التي سمَّوها لا تصحُّ معانيها؛ صارت كأنها أسماء فارغة يرجعون في عبادتهم إليها، فكأنهم يعبدون الأسماء، إذ لا معاني لها من إله وربٍّ. وقوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾: أي: لم يجعل الله عزَّ وجلَّ دليلاً على جواز عبادتها، ولا أقام حجةً على تعظيمها.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾: أي: ما الحكم في الإلهية والرُّبوبيَّة إلا لله الواحد القهار.

قوله تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾: المستقيم. وقيل: أي: الذي قامَت الدلالة على صحَّته.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: لا

(١) في (أ): «ممكن».

يتفكّرون فيه ولا ينظرون فلا يعلمون، ولو تفكّروا فيه ونظروا لعلموا، وهذا يدلُّ على أنَّ العقوبة تلزُّم وإنَّ جهل إذا أمكن له إنعام نظر فيه^(١)، ولا يُعذر به، أو معناه: لا يتنفعون بعلمهم مع أنَّهم يعلمون به^(٢).

(٤١) - ﴿يَصْحَجِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَصْحَجِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾: أي: سيِّده، وهو الملك، يعني به: السَّاقِي.

﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾: أي: الطَّبَّاحُ ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ﴾: أي: الطُّيُورُ ﴿مِنْ رَأْسِهِ﴾.

﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾: أي: فرغ منه وأتمَّ الأمر^(٣) ﴿الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾: أي: تسألان تأويله.

قال وهب: قال السَّاقِي: إِنِّي رَأَيْتُ حَبَلَةً، فِيهَا ثَلَاثَةُ قَضْبَانٍ جَرْدٍ، فَبَيْنَا أَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهَا إِذَا هِيَ قَدْ أَوْرَقَتْ^(٤) وَأَخْرَجَتْ ثَمَرَتَهَا، وَنَضِجَتْ عَنَاقِيدُهَا، وَإِذَا كَأْسُ فِرْعَوْنَ فِي يَدِي، فَأَخَذْتُ الْعَنَاقِيدَ فَعَصَرْتَهُنَّ فِي الْكَأْسِ، فَنَاولْتُهَا الْمَلِكَ فَشَرِبَهُ.

قال يوسف: ما أحسنَ ما رَأَيْتَ! تَمَكُّتُ فِي السَّجْنِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ يَذْكُرُكَ الْمَلِكُ فَيَدْعُوكَ لِيَعْفُو عَنْكَ، وَيُرَدِّكَ إِلَى عَمَلِكَ فَتَكُونُ كَمَا كُنْتَ، فَادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ - يعني: عِنْدَ الْمَلِكِ - فَإِنِّي سُجِنْتُ مَظْلُومًا، لَعَلَّهُ أَنْ يَنْظُرَ فِي أَمْرِي وَيُخْرِجَنِي مِنَ السَّجْنِ.

(١) في (ر) و(ف): «أمكن له العلم بطريقة».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٤٢).

(٣) «الأمر» من (ر).

(٤) في (أ) و(ر): «افترقت».

قال الخبَّاز: ما أحسنَ ما عَبَّرْتَ! فَإِنِّي رَأَيْتُ كَأَنَّ عَلَى رَأْسِي ثَلَاثَ سِلَالٍ مِنْ خَبِزٍ، فِي السَّلَّةِ الْعُلْيَا مِنْ أَلْوَانِ الْأَطْعِمَةِ، وَإِذَا سَبَّاحُ الطَّيْرِ تَأْكُلُ مِنَ السَّلَّةِ الْعُلْيَا.

قال يوسفُ: أَمَّا السَّلَالُ؛ فَالْأَيَّامُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي السَّجْنِ، ثُمَّ يَدْعُوكَ الْمَلِكُ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ فَيَصْلُبُكَ، فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ لَحْمِكَ.

قال الطَّبَّاخُ: فَإِنِّي لَمْ أَرْ شَيْئًا، إِنَّمَا كُنْتُ أَلْعَبُ.

قال يوسفُ: ﴿فَضَى الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؛ أَي: الَّذِي سَأَلْتُمَانِي^(١) عَنْهُ؛ يَعْنِي: الْأَمْرُ كَمَا حَدَّثْتُكُمَا، رَأَيْتُمَا شَيْئًا أَوْ لَمْ تَرِيَاهُ.

(٤٢) - ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾: قَوْلُهُ: ﴿ظَنَّ﴾ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِعْلًا ﴿لِلَّذِي﴾ وَيَكُونُ عَلَى حَقِيقَةِ الظَّنِّ أَنَّهُ رَجَا بِهَذَا التَّأْوِيلِ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِعْلًا لِيُوسُفَ؛ أَي: لِلَّذِي ظَنَّ يَوْسُفُ أَنَّهُ نَاجٍ، وَيَكُونُ فِي مَعْنَى الْعِلْمِ وَالْيَقِينِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]؛ لِأَنَّهُ عِلْمُ ذَلِكَ بِتَعْلِيمِ اللَّهِ إِيَّاهُ، فَكَانَ لَا يَشْكُ فِيهِ.

وقوله تعالى: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾: أَي: مَلِكِكَ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾: قِيلَ: فَأَنَسَى الشَّيْطَانُ يَوْسُفَ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ رَبَّهُ جَلَّ جَلَّالُهُ فِي سَوْأَلِ هَذَا الْخِلَاصِ، وَرَجَاهُ مِنْ^(٢) عِنْدَ الْمَلِكِ. وَهُوَ بَعِيدٌ مِنْ حَالِ الْأَنْبِيَاءِ.

(١) فِي (أ): «لَا تَسْأَلَانِي» بَدَلُ: «الَّذِي سَأَلْتُمَانِي».

(٢) «مِنْ» لَيْسَتْ فِي (ف).

والصَّحِيحُ قَوْلُ الْجُمْهُورِ: فَأَنسَى الشَّيْطَانُ السَّاقِيَّ ذَكَرَ حَالِهِ لِمَلِكِهِ^(١)، والدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ - يَعْنِي هَذَا -: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ ذَكَرَ بَعْدَ نَسْيَانِهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾: البِضْعُ: قِطْعَةٌ مِنَ الْعَقْدِ، مِنَ الْبِضْعِ؛ وَهُوَ الْقَطْعُ.

قال أبو عبيدة: هو ما بين الواحدِ إلى أربعة^(٢).

وقال قطرب: ما بينَ الثَّلاثِ إلى السَّبعِ^(٣).

وقال الزَّجَّاجُ والقَتَبِيُّ: مِنَ الثَّلاثِ إلى التَّسْعِ^(٤). وهو قول قتادة ومجاهد^(٥).

وعن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: مِنَ الثَّلاثِ إلى العَشْرَةِ^(٦).

قال وهب: لَبَثَ فِي السَّجْنِ بَعْدَ ذَلِكَ ثَلَاثَ سِنِينَ، وَكَانَ لَبَثَ قَبْلَ ذَلِكَ سَبْعَ سِنِينَ^(٧).

وقال قتادة: لَبَثَ بَعْدَ ذَلِكَ سَبْعَ سِنِينَ^(٨).

(١) في (ف): «للملك».

(٢) كذا في «أدب الكاتب» لابن قتيبة (ص: ٤٩)، و«معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٤٣٠)، و«غريب الحديث» لابن قتيبة (ص: ٢١٧)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ١٩٤).

لكن في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ١١٩): العقد: ما بين ثلاث إلى خمس.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٤٣٠)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ١٩٤).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١١٢)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢١٧).

(٥) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٧٦).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٧٦).

(٧) ذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٢٥).

(٨) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣١١)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٧٥).

وروي أَنَّ جبريلَ أتاه في السَّجْنِ فلَمَّا رآه يوسفُ عرفه^(١) فقال: يا أخا المنذرَيْن؛ مالي أراك في منزلِ الخطَّائِن؟ فقال له جبريلُ: يا طاهرُ يا بنَ الطَّاهرين، يقرأ السَّلامُ عليك ربُّ العالمين، ويقول لك^(٢): أما استحييتَ مِنِّي أَن استشفعتَ بالآدميِّينَ، فوعزَّتِي لأُبَشِّكَ في السَّجْنِ بضعَ سنينَ، قال يوسفُ: وهو بعد ذلك راضٍ عني؟ قال: نعم، قال: إِذَا لا أبالي^(٣).

قال كعبُ الأحبار: قال جبريلُ ليوسفَ: إِنَّ الله تعالى يقول لك^(٤): مَنْ خَلَقَكَ؟ قال: الله، قال: فَمَنْ حَبَّبَكَ إِلَى أهلك؟ قال: الله، قال: فَمَنْ أَلْبَسَكَ فِي البُرِّ؟ قال: الله، قال: فَمَنْ نَجَّاكَ مِنْ كَرْبِ البُرِّ؟ قال: الله، قال: فَمَنْ عَلَّمَكَ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا؟ قال: الله، قال: كَيْفَ اسْتَشْفَعْتَ بآدميِّ مِثْلِكَ^(٥)؟

وقال الشَّيْخُ أَبُو الحسَنِ مُحَمَّدُ بنُ يحيى البشَّاعري في «كتاب عصمة الأنبياء»: قال بعض النَّاسِ: إِنَّهُ استعانَ بِغَيْرِ الله فَعُوقِبَ بِمَقَامِهِ فِي الحَبْسِ. وهذا وحشٌ من الكلام.

وقال الشَّيْخُ الإمامُ أَبُو منصورٍ رحمه الله: إِنَّهُ - صلوات الله عليه - لم يستعنْ بِغَيْرِ الله، وَإِنَّمَا استعملَ الأسبابَ، كاستعمالِ العبدِ في معاشِهِ الأسبابَ الَّتِي هُوَ بِهَا مُتَعَبِّدٌ؛ مِنْ نَحْوِ المَكَّاسِبِ، وَأَخْذِ الأَسْلِحَةِ، وَسَائِرِ مَا يَعْتَدُّ المَرْءُ بِإِمْسَاكِ تِلْكَ

(١) «عرفه» ليست في (ر).

(٢) «لك» من (ف).

(٣) رواه الكلَّاباذي في «بحر الفوائد» (ص: ١١٨) عن زهير بن عباد وعبد العزيز بن عمير.

وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٩٤)، والشَّعْلَبِي في «تفسيره» (٥/ ٢٢٦).

(٤) «لك» من (ف).

(٥) ذكره الشَّعْلَبِي في «تفسيره» (٥/ ٢٢٦).

الأسباب، فهو وإن أمره بالذِّكْرِ عند رَبِّهِ - يعني: سيِّدِهِ - وإنَّما رآه سبباً لخروجه من السَّجْنِ، فهو معتقداً بأنَّ الله هو المخرِجُ، لكن ربَّما يجري على يدي مَلِكِهِ، فلذلك قال له: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، ولا بأس^(١) بهذا.

[وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: ربَّما وقع عند يوسف أن سَجَنَهُ من غير علم الملك، فإذا أُخبر بحالِهِ أخرجَهُ، وليس هذا منه استعانةً بغير الله تعالى، ولكنَّه اجتهداً لمصالح النَّاسِ^(٢) كسائر المكاسب^(٣).

والثَّاني: أنَّه كان أظهر رسالته في السَّجْنِ، فأحبَّ رفع أمرِهِ إلى سيِّدِهِ؛ ليتدبَّر أنَّه حابسٌ نبياً رسولاً، فيخرجَهُ حتَّى يبلغَ رسالته إليه رجاءً إجابةً منه، حتَّى إذا أجابَ هو أجابَ أتباعُهُ، ولا تكون رسالته مقصورةً على أصحاب السَّجْنِ، بل تكون نافذةً في القوم كلِّهم^(٤).

وقال البشاغريُّ: ويحتمل قوله: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾؛ أي: اذكرْ علَّمي الَّذي علَّمَنِيه اللهُ من تأويلِ الأحاديثِ وحُكْمِ الرِّسالة^(٥)؛ لعلَّه يرغبُ فيخرجَهُ من السَّجْنِ حتَّى يتخلَّصَ وينجو لشفقةٍ منه عليه؛ إذ هو كان عالماً بالفراغة المتقدِّمين

(١) في (أ): «وما بأس»، وفي (ف): «وما كان بأس».

(٢) في (أ): «لصالح العيش».

(٣) من قوله: «ربَّما وقع عند...» إلى هنا جاء متأخراً في النسخ الخطية بعد قوله: «بل تكون نافذةً في القوم كلِّهم»، فقدماه، وزدنا ما بين معكوفتين ليكون أقرب لكلام الماتريدي، وهو الأنسب بالسياق.

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٤٣ - ٢٤٤)، والكلام فيه بنحوه.

(٥) في (ر): «الرؤيا».

كيف هلكوا بصنيعهم^(١) على الأنبياء عليهم السلام، فأحبَّ أن يقفَ على حاله فيخرجه، فتزول محنته قبل أن^(٢) يهلك كما هلك مَنْ تقدّمه من معذّبي^(٣) الأنبياء.

ودليل أنَّه لا يجوز صرف الآية إلى استعانة يوسف بغير الله: أنَّه لو كان هكذا لم يتكلّف الشَّيْطَانُ إنْساءه؛ إذ الاستعانة بغير الله من غير رؤية سببِ الله شركٌ، والشَّيْطَانُ يعينُ على إقامة الشُّرك، فلمَّا أنْساءه علِمَ أنَّه يذكِّره التَّوحيد، ويجعله رسولاً إلى الملك بإخباره عن دينه الخالص لله، فأحبَّ الشَّيْطَانُ ألاَّ يَعْلَمَ الملكُ من حاله ودينه، فيجيبه، فأنْساءه.

وحقيقة الإنْساء من الله تعالى؛ إذ هو المقدِّر، لكنَّه أُضِيفَ إلى الشَّيْطَانِ على ما قلنا من إضافة القبائح إلى الشَّيْطَانِ؛ لتكليفه^(٤) في تحصيلها، وقد يُضافُ إلى المتكلّف للشيء ذلك الشيء، وإن لم يكن هو المحصِّل في الحقيقة.

وما رُوي في الخبر: أنَّ جبريلَ عليه السلام قال له في السَّجن: يقولُ الله تعالى: أَمَا اسْتَحْيَيْتَ حِينَ اسْتَعَنْتَ بغيري، فقد حكمتُ عليك بالسَّجن بضعَ سنين؟ قال يوسفُ: يا جبريلُ، أهو عني راضٍ؟ فقال: نعم، قال: ما أبالي بالسَّجن بعد أن يكونَ اللهُ عني راضياً.

وما رُوي عن النَّبيِّ عليه السلام: «رَحِمَ اللهُ أَخِي يُوسُفَ، لو لم يستعِنْ بصاحبِ السَّجن ما أُغْلِقَ عليه بابُ السَّجن ساعةً»^(٥) = إنْ صَحَّتْ هذه الأخبار - فإنَّنا لا نشهدُ

(١) في (ر): «بإبائهم».

(٢) في (أ): «فلا» بدل من «قبل أن».

(٣) في (ر): «مكذّبي».

(٤) في (أ): «لتمكنه» وفي (ف): «لتكليفه».

(٥) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣١٠)، والطبري في «تفسيره» (١٧٣/١٣)، عن قتادة قال: بلغني =

على صحتها؛ إذ ليس في القرآن شاهدٌ لهذه الأخبار، فإنَّ صحَّتْ - فمعناها أنَّه عُوتِبَ بالتَّقصير في الدَّعوة، كان الكلام في دعوته قصيرًا لم يقفْ عليه الَّذي نجا من السَّجن وتوهم أنَّه يستعين بسَيِّده، وإنَّ كان هو محملاً إيَّاه رسالته إليه في التَّوحيد، فعُوتِبَ: إنَّك لم تشرِّحْ عليه الكلام، فقصَّرت الدَّعوة؛ لا أنَّها أخطأتْ موقعها، دليله قولُ جبريل عليه السلام بأنَّ الله عنكَ راضٍ؛ لو كان في باطنه وظاهره مستعينًا بغير الله لم يكن الله عنه راضيًا.

وأخبر النَّبي ﷺ أنَّ يوسفَ حمَلَ النَّاجي من السَّجن دعوته، حملها غير مكشوفة، حتَّى فهم النَّاجي الاستعانة بسَيِّده لتخليصه وإخراجه، فعُوتِبَ لقصور الدَّعوة، لا للخطأ من جهة الاستعانة.

ومعنى قوله عليه السَّلام: «لو لم يستعين»؛ يعني: لو لم يكلمه بكلمة الاستعانة،

= أن النَّبي ﷺ قال: «لو لم يستعين يوسف على ربِّه، ما لبث في السَّجن طول ما لبث».

وروى نحوه ابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠٦) من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال: «رَحِمَ اللهُ يوسفَ لولا الكلمةُ التي قالها: ﴿أذْكَرْتَنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ما لَبِثَ في السَّجنِ ما لَبِثَ...» الحديث، وتعقبه ابن كثير في «البداية والنهاية» (٤٧٨/١) بسبب إدراج هذا الحديث في صحيحه، وقال: إنه حديث منكر من هذا الوجه، ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة، وهذه اللفظة من أنكرها وأشدّها.

وبنحو لفظ ابن حبان رواه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١٦٠)، والطبري في «تفسيره» (١٧٣/١٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٦٤٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده ضعيف جدًا كما قال ابن كثير في «تفسيره» عند تفسير هذه الآية؛ قال: لأنَّ سفيان بن وكيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد - هو الخوزي - أضعف منه أيضًا. وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلًا عن كلٍّ منهما، وهذه المرسلات هاهنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم.

وإن لم يكن مستعيناً في الحقيقة؛ إذ الأنبياء كانوا مطالبين بأفضل الأعمال وأشرفها، وأطيب الكلمات وأحلاها. والله الموفق.

(٤٣) - ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّءْيَى بِتَعْبُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾: أي: قال ملك مصر وهو الريان: ﴿إِنِّي أَرَى﴾ في المنام ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ السمن: زيادة البدن من الشحم واللحم.

﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾؛ أي: سبع بقرات مهزلة، جمع أعجف وعجفاء على غير قياس، والعجف: تبين الهزال، وصرفه من حد: علم.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ﴾؛ أي: وأرى سبع سنبلات ﴿خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾؛ أي: سبع سنبلات أخر يابسات.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾: أي: الأشراف الذين يرجع إليهم في الأمور ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ﴾: أخبروني بحكم رؤيائي هذه ﴿إِنْ كُنْتُ لِلرُّءْيَى بِتَعْبُرُونَ﴾؛ أي: إن كنتم أو كان فيكم من يحسن تعبير الرؤيا.

وإدخال اللام في الرؤيا مع أن فعل العبارة متعد؛ لما أن الفعل إذا تقدم عليه المفعول ضعف عمله، فجاز إدخال حرف الإضافة لذلك، فلا يجوز: (تعبرون للرؤيا)؛ لأنه في قوة عمله.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: كان ابتداء بلاء يوسف في رؤيا^(١) رآها

(١) في (ف): «في الرؤيا التي».

وأظهرها، فجعل الله سبب نجاته أيضًا من رؤيا رآها الملك فأظهرها؛ ليعلم الجميع أن الله تعالى يفعل ما يريد^(١).

رُوي أنه لما انتهت مدة اللَّبْثِ في السَّجْنِ ضاقَ عليه وقته ليلةً فبكى، ورفع رأسه إلى السماء وقال: إلهي، أنت الرَّبُّ وأنا العبد، وأنت الخالق وأنا المخلوق، وأنت العزيز وأنا الدليل، أسألك بحق إبراهيم خليلك، وبحق إسحاق ذبيحك، وبحق يعقوب إسرائيلك، أن تغشيني وترحمني يا أرحم الراحمين. فإذا هو بشاب جميل نقي الثياب بين يديه يقول له: السَّلام عليك يا يوسفُ، فقال: ومن أنت؟ ومن أدخلك السَّجْنَ؟! فوالله إنَّ جداره لحصين، وإنَّ بابَه لوثيق^(٢)، وليس ينبغي لمثلِكَ أن يُحبَسَ.

قال: أنا الرُّوح الأمين، ورسولُ ربِّ العالمين.

قال: يا أطيَّب الطَّيِّبينَ، ورأسَ المقرَّبينَ، ورسولُ ربِّ العالمينَ، ما أدخلكَ مدخلَ المذنبينَ، ومنزلَ الخاطئينَ؟

قال: كيف يكونُ منزلُ الخاطئينَ، وأنت فيه يا أظْهر الطَّاهرينَ، وقرَّة عينِ الصَّديقينَ؟

قال يوسف: كيف تشبَّهني بالصَّالحينَ، وتعدُّني مِنَ الصَّديقينَ، وقد أُدخلْتُ مُدخلَ المذنبينَ، وشبَّهت بالطَّالَمينَ، وحُبِسْتُ في سجنِ المجرمينَ؟

قال جبريل: بحبِّكَ ربِّ العالمينَ، وصبرِكَ على كيدِ المفتريينَ^(٣)، سَمَّاكَ اللهُ مِنَ الصَّديقينَ، وألحقَكَ بِأبائِكَ الصَّالحينَ، وأوجبَ لك ثوابَ الصَّابرينَ.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢/ ١٨٧).

(٢) في (ر): «لموثق».

(٣) في (أ): «المضرين».

قال: تعرفُ حالَ أبي وإخوتي؟

قال: أمّا أبوك فباكٍ محزون، وأمّا إخوتك فمخجلون نادمون.

قال: وما بلغَ من حزن أبي؟

قال: حزن مئة ثكلى، وبلغَ من صبره على ذلك ما استحقَّ به أجر مئة شهيد، وهذا وقتُ فكِّ عنقك، وزوالِ رقِّك، ونشرِ حكمتك^(١)، وتصديقِ رؤياك، ويهبُ اللهُ لك مصرَ وعزَّها، ويلقي اللهُ تعالى لك المودةَ في قلوبهم، ويزكِّيكَ ربُّكَ حتَّى يبلغَكَ برحمته ما بلغَ أبائك الصَّالحون، ويرى الملكُ رؤيا يفرِّغُ منها، ويعبِّرُ رؤياه عليه أنت، وأبشرك^(٢) أيُّها الصَّديق بأنَّك صفيُّ الله، وابنُ صفيِّه، وابنُ ذبيحِه، وابنُ خليلِه^(٣).

وبينَ له تمامَ الرؤيا وتأويلها، وانصرفَ عنه، فلم يلبثَ يوسفُ عليه السلام في السَّجن إلَّا ذلك اليوم، فلمَّا جنَّ اللَّيل نامَ الملكُ، فرأى في تلك اللَّيلة الرؤيا، فلمَّا أصبح جمعَ ملاً عظيماً من قومه فقصَّها عليهم.

فقال: إنِّي أرى سبعَ بقراتٍ سمانٍ وسبعَ بقراتٍ عجافٍ، فابتلعتِ العجافُ السَّمانَ وأكلتها، فلم يسمن^(٤) في بطونها شيءٌ، ورأيتُ سبعَ سُنبلاتٍ خضرٍ وسبعَ سُنبلاتٍ يابسات، على ما نبئني كيفيَّةَ حالهما في بيان تفسيرِ هذه الرؤيا إن شاء الله تعالى.

(١) في (ر) و(ف): «حكمتك».

(٢) في (ف): «وأبشرك».

(٣) روى نحوه الدارقطني في «غرائب مالك» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزبيعي (٣/ ١٧٩)، وقال الدارقطني: هذا حديث موضوع باطل، وإسحاق بن وهب الطهرمسي يضع الحديث على ابن وهب وغيره، حدث عنه بهذا الإسناد أحاديث لا أصل لها.

(٤) في (ر) و(ف): «يستمر».

(٤٤) - ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ﴾: الضُّغْتُ: الحزمة من الحشيش المختلف، وجمعه: الأضغاث، أراد بها: أخلاط رؤيا كاذبة لا حقيقة لها.

قال قتادة: أخلاط أحلام^(١).

وقال مجاهد: هذا أهاويل أحلام^(٢).

وقال أبو العالية: أحلامٌ ملتبسة^(٣).

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾: لأنَّ الحُلُمَ^(٤) ما خرج عن الرؤيا، وهو ما لا يصدق ممَّا يرى^(٥) في الخبر^(٦)، وفي الخبر: «الرُّؤْيَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَالْحُلُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ»^(٧).

(٤٥) - ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمَةٍ أَنَا أَنْتُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾: أي: السَّاقِي الَّذِي كَانَ فِي السَّجْنِ ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمَةٍ﴾؛ أي: مدَّة.

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣١٤)، والطبري في «تفسيره» (١٣ / ١٨٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦ / ٢٢٦).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) في (أ): «الحكم».

(٥) في (ف): «لا يرى».

(٦) في (أ): «الخير»، والعبارة قلقة غير واضحة، ولعله أراد ما ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣ / ٢٤٨):

(والمعنى: أن هذا الذي رأيت أيها الملك اختلاط من الأحلام بسبب النوم، ولسنا من أهل العلم

بذلك؛ أي: بما هو مختلط ورديء، فإنما نفوا عن أنفسهم عبر الأحلام لا عبر الرؤيا على الإطلاق).

(٧) رواه البخاري (٥٧٤٧)، ومسلم (٢٢٦١)، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

وقال ابن عباسٍ والحسن ومجاهد وقتادة: أي: بعد حين^(١)؛ كما قال تعالى:
﴿وَلَيْنَ آخِرُنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَّأُمَّةٌ مَّعْدُودَةٌ﴾ [هود: ٨].

وقال الحسن: أي: بعد انقراض أمةٍ من الناس^(٢)؛ أي: قرن.

وروى نوفل بن أبي عقرب عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه قرأ: (بعد أمةٍ)
بفتح الألف وتسكين الميم وخلوصِ الهاء؛ أي: بعد نسيان^(٣)، والفعل من حدّ علم.
وقال أبو الهيثم: فتح الميم خطأ، ذكره في شرح «الغريبين»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾؛ أي: أخبركم بتعبيره بأخذي إياه من عند
مَنْ يَعْلَمُهُ.

﴿فَارْسِلُون﴾؛ أي: فأذنوا لي بالخروج وخلّوني لآتي مَنْ يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ، وأضمر
ها هنا: فأرسلوه، فجاء إلى يوسف وهو في السّجن فسأله معظّمًا، وذلك قوله
تعالى:

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٣١٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما، و(١٣١٦) عن الحسن وقتادة. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ١٨١ - ١٨٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن وقتادة ومجاهد.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٥٢).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ١٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٥٢) من طريق عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه أيضا عن عكرمة والضحاك ومجاهد، وفي جميعها: (أمة) بفتح الميم. وبسكون الميم رواها الطبري (١٣ / ١٨٦) عن مجاهد، وعزاها في «البحر» (١٢ / ٤٩٠) لمجاهد وعكرمة وشبيل بن عذرة.

(٤) انظر: «الغريبين» لأبي عبيد الهروي (١ / ١١١).

(٤٦) - ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَىٰ يَأْتِيَنَّ إِلَىٰ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يُوسُفُ﴾: أي: يا يوسف ﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ وهو الكثير الصِّدْق والدَّائِم عليه، سَمَّاه به لَأنَّه لم يَجْرُب عليه كذِبًا.

وقوله تعالى: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَىٰ يَأْتِيَنَّ﴾: أي: أَجْبِنَا فَأَخْبِرْنَا بِحُكْم رُؤْيَا رَأَاهَا الْمَلِكُ؛ وَهِيَ أَنَّهُ رَأَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ، وَرَأَى سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ أُخْرَىٰ يَأْتِيَنَّ.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: يعني: أَفْتِنَا فِيهِنَّ لِأَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ بِفَتْوَاكَ فِيهِنَّ، فَيَعْلَمُوا تَأْوِيلَ رُؤْيَا الْمَلِكِ، فَإِنَّهُمْ غَيْرُ عَالِمِينَ بِهِ.

وقال وهبٌ: فَلَمَّا لَمْ يَدْرِ الْمَلَأُ تَأْوِيلَهَا وَعَجَزُوا عَنْهَا وَأَعْيَتْهُمْ؛ قَالُوا: يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّ الْأَحْلَامَ لَيْسَتْ تَصْدُقُ كُلَّهَا، وَكَذِبُهَا أَكْثَرُ مِنْ صَدَقِهَا، وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَكُونَ حُلْمُكَ هَذَا أَضْغَاثًا، وَمَنْ ذَا الَّذِي تَخَافُ أَنْ يَدْخَلَ عَلَيْكَ فِي مَلِكِكَ، وَسُلْطَانُكَ أَعَزُّ مِنْ ذَلِكَ، وَحَوْلُكَ أَكْثَرُ، وَرَجَالُكَ أَقْوَى وَأَحْفَظُ^(١) لَهُ عَلَيْكَ.

وذكر غلامُ الملكِ الَّذِي كَانَ مَسْجُونًا مَعَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَمَا كَانَ مِنْ قَوْلِهِمْ بِذَلِكَ فِي أَمْرِ يُوسُفَ، فَقَالَ لَهُ: ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الْمَلِكُ أَدْخُلَ سَجْنَكَ وَأَتَكَ مِنْهُ بِتَأْوِيلِ رُؤْيَاكَ؛ فَإِنَّ فِيهِ رَجُلًا^(٢) حَكِيمًا مِنْ آلِ يَعْقُوبَ، فَإِنْ يَكُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ عِلْمٌ بِرُؤْيَاكَ فَهُوَ عِنْدَهُ، فَإِنَّ النَّاسَ الْيَوْمَ^(٣) يَقُولُونَ: إِنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ عِلْمًا

(١) فِي (ر) وَ(ف): «أَحْوَط».

(٢) فِي (ف): «عَلِيمًا».

(٣) «الْيَوْمَ» مِنْ (أ).

وحلماً وحكماً، وقد كنتُ أنا وصاحبي الذي قتلته يومَ غضبتَ علينا وسجنتنا حلماً في السَّجْنِ حُلْماً، فعبره لنا، فكانَ كما قالَ، أمّا أنا فنَجوتُ، وأمّا صاحبي فقتلَ، وكذلك أخبرنا، فأرسلني إليه آتِكَ بتأويل رؤياكَ، فأفرَّجَ عنكَ هذا الغمَّ.

فقال الملك: لئن فعلتَ ما تقول لأكرمَنَّكَ ولأعظمنَّ حالكَ وشرَّفَكَ^(١)، فانطلقَ فقد أذنتُ لك.

فانطلقَ العبدُ حتَّى دخلَ على يوسفَ في السَّجْنِ، فأخبره خبرَ الملك، وقصَّ عليه رؤياه، فعبرها له يوسفُ عليه السلام.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: إنَّ الله تعالى أفرَدَ يوسفَ عليه السلامَ مِن بينِ أشكالِه بشيئين: بحُسنِ الخلقِ وبزيادةِ العلمِ، فصارَ جماله سببَ بلائِه، وصارَ علمُه سببَ نجاتِه؛ لتعلَّمِ مزيَّةَ العلمِ على غيرِه، ولهذا قيل: العلمُ يُعطي وإن كان يُبطي^(٢). وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله في قوله: ﴿أَرْجِعْ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: يحتملُ وجوهاً:

- يعلمون أنَّ هذه الرؤيا حقٌّ، وأنَّ لها حقيقةً، وليستَ كما قالوا: إنَّها أضغاث أحلام.

- ويحتملُ: يعلمون فضلكَ على غيرِكَ مِنَ النَّاسِ.

- ويحتملُ: يعلمون أنَّكَ تصلحُ لحاجاتهم فيرفعونها إليك، كما صلحتَ لتعبير رؤياهم^(٣).

(١) في (ف): «وأشرفك».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٨٧).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٤٩).

(٤٧) - ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا﴾: عَبَّرَ الرَّؤْيَا لِلسَّاقِي، فَقَالَ: تَحْرَثُونَ سَبْعَ سِنِينَ زِرَاعَةً مُتَوَالِيَةً فِي هَذِهِ السَّنِينَ بِجَدٍّ وَاجْتِهَادٍ عَلَى عَادَتِكُمْ فِي الزَّرَاعَةِ. والدَّأْبُ: العادة، والدَّأْبُ: الجِدُّ والتَّعَبُّ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾: أَي: قَطَعْتُمْ مِنَ الزَّرْعِ ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾؛ أَي: فَاتْرَكُوهُ كَذَلِكَ، وَلَا تَذَرُسُوهُ وَلَا تُذَرُّوهُ لِأَنَّهُ أَبْقَى لَهُ وَأَبْعَدُ مِنْ فُسَادِهِ.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾: فِي الْعَامِ، فَلَا بَدَّ مِنْ دِيَاسَتِهِ وَتَذَرِيَّتِهِ وَتَنْقِيَّتِهِ.

(٤٨) - ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِتُونَ﴾.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾: أَي: بَعْدَ مُضِيِّ سَبْعِ سِنِينَ فِي الْخُصْبِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَبْعُ شِدَادٍ﴾: أَي: سَبْعُ سِنِينَ مُجَدِّبَةٍ، فِيهَا الصِّقُّ وَالشَّدَّةُ.

﴿شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾؛ أَي: يَأْكُلْنَ هَذِهِ السَّنُونَ السَّبْعُ الْمُجَدِّبَةُ مَا كَانَ حَصْلُ فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ فَضْلِ مَا زَرَعْتُمُوهُ فِي السَّبْعِ الْمَوَاضِي.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِتُونَ﴾: أَي: تَحْرِزُونَ فِي الْحَصَنِ؛ أَي: الْحَرْزِ.

وَأَضَافَ الْأَكْلَ إِلَى السَّنِينَ؛ لِأَنَّ أَكْلَ النَّاسِ يَكُونُ فِيهَا؛ وَهُوَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

نَهَارُكَ يَا مَغْرُورٌ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدَى لَكَ لَا زِمٌ^(١)

(١) ينسب لعبد الأعلى القرشي. كما في «الحماسة البصرية» (٢/ ٤٢٧)، ولأبي إسحاق الكادوشي،

كما في «الدر الفريد» للمستعصمي (٩/ ٤٨٤)، ولمسعر بن كدام كما في «أمالى ابن سمعون»

(١/ ١٥٤)، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم (٧/ ٢٢٠)، و«حياة الحيوان الكبرى» للدميري (١/ ٢٣١). =

لأنَّ النّوم يكون فيه.

ووجه آخر: أن معناه: يُفَنِّينَ؛ كقولك: أكلهم الدهر؛ أي: أفناهم.

ووجه آخر: أنه لما كان في الرؤيا سبع بقرات عجافٍ أكلن سبع بقرات سمانٍ، وكانت البقرات مثلاً للسنين؛ أخرج الجواب في العبارة مطابقاً للفظ السؤال مراعاةً للبلاغة.

(٤٩) - ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾: أي: يُعْطَوْنَ الغيث، وقيل: يُعْطَوْنَ الغوث، وقد غيَّث النَّاسُ وغاثهم الله عزَّ وجلَّ؛ أي: أعطاهم الغيث، وهو المطر، وأغيَّث النَّاسُ وأغاثهم الله؛ أي: نجَّاهم وخلصهم.

﴿وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾: قيل^(١): أي: يَعْرِضُونَ الأعنابَ والثمارَ والسَّمِسِمَ والزَّيتونَ، وهو بيان كثرة النعم، وانتفاع النَّاس بها، ومنه: العَصِير والعُصارة والمُعْصِر.

وقيل: أي: يَنْجُونَ، والعُصْرَةُ: الملجأ، والاعتصار: الالتجاء^(٢)، وقال الشاعر:

صَادِيًا يَسْتَغِيثُ غَيْرَ مُغَاثٍ وَلَقَدْ كَانَ عُصْرَةَ الْمَنْجُودِ^(٣)

= وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل به كما روى ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٥٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥ / ٣١٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧ / ٤٠٩).

وانظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٤ / ١١٢)، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة (٢ / ٣٣٣).

(١) «قيل» من (ف).

(٢) في (ف): «المنجا أيضًا».

(٣) لأبي زيد الطائي. انظر: «ديوانه» (ص: ٤٤)، و«جمهرة أشعار العرب» للقرشي (ص: ٥٨٣)،

و«تفسير الطبري» (١٣ / ١٩٧)، و«تفسير الثعلبي» (٥ / ٢٢٨)،

وقال أبو زيد الطائي:

لَوْ بَغِيرَ الْمَاءِ حَلْقِي شَرِقُ كُنْتُ كَالْغَصَّانِ بِالْمَاءِ اغْتَصَارِي^(١)

هذا عن أبي عبيدة والزجاج^(٢)، والأول عن ابن عباس ومجاهد وقتادة^(٣).

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تَعْصِرُونَ﴾ بالتاء على الخطاب^(٤)، ردًا إلى قوله

تعالى: ﴿يَا كُنْ مَا قَدَّمْتُمْ هُنَّ﴾، وقرأ الباقون بياء المغاية، ردًا على قوله تعالى: ﴿يُعَاثُ النَّاسُ﴾، وهم أهل مصر.

قالوا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ مِنْ هَذَا السَّاقِي أَدَبًا، وَمِنْ يَوْسَفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَرَمًا؛ أَمَّا أَدَبُ السَّاقِي فَإِنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى السَّجْنِ لِلسُّؤَالِ إِلَّا بِإِذْنٍ، وَأَمَّا كَرَمُ يَوْسَفَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ عَجَلَ جَوَابَ سُؤَالِهِ وَلَمْ يِعَاتِبْهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ نَسْيَانِهِ، لَمْ يَقُلْ لَهُ: لَمْ تَذَكِّرْنِي بَعْدَمَا قُلْتُ لَكَ: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، حَتَّى وَقَعَتْ لَكُمْ هَذِهِ الْمَهْمَةُ.

وَلَمَّا سَمِعَ السَّاقِي مِنْهُ تَعْبِيرَهُ لِلرُّؤْيَا^(٥)، وَرَجَعَ إِلَى الْمَلِكِ وَأَخْبَرَهُ بِهِ، أَعْجَبَهُ وَانْكَشَفَ عَنْهُ كَرْبُهُ وَحَزْنُهُ^(٦)، وَقَالَ: ائْتُونِي بِهَذَا الرَّجُلِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ أَكْرَمَهُ وَأَشْرَفَهُ وَأَرْفَعَ مَنَزَلَتَهُ وَأَقْرَبَهُ مِنِّي، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِثْلُهُ يُضَيِّعُ وَلَا يُهَانُ وَلَا يُعَذِّبُ^(٧).

(١) البيت لعدي بن زيد التميمي، كما في «ديوانه» (ص: ٩٣)، و«البيان والتبيين» للجاحظ (٢/ ٢٤٢)،

و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة (١/ ٢٢٩)، و«جمهرة اللغة» لابن دريد (٢/ ٧٣١).

(٢) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣١٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١١٤).

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٩٤ - ١٩٥).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٤٩)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٩).

(٥) في (ف) و(أ): «هذه الرؤيا».

(٦) في (ف): «وحزنه قوله تعالى وقال الملك ائتوني به».

(٧) في (ف): «يعذب فلما جاءه الرسول أي».

فعادَ السَّاقِي إلى يوسفَ وأخبره بذلك، وأدَّى رسالةَ الملك، قال: كيف أرجو كرامته، ولقد لبثتُ في سجنه عشرَ سنين، وهو يعرفُ عذري وبراءتي، ولم يرحمني ولم ينصُرني ولم ينصفني ممَّن ظلمني؟ لا آتية أبداً حتَّى يجمعَ النسوةَ اللّاتي كذبنني وافترين عليّ وظلمنني، فيوبّخهنَّ لكيدهنَّ ومكرهنَّ، ويُقررنَّ له بذلك على أنفسهنَّ، ويُبرئنني لبراءتي وعذري.

قال وهبٌ: قال النبيُّ ﷺ: «رحمَ الله أخي يوسفَ؛ إذ دُعِيَ إلى الخروجِ مِنَ السَّجْنِ فلم يفعل، إن كان لحليماً ذا أناةٍ، ولو كنتُ أنا المحبوسَ لبادرتُ البابَ»^(١).

(٥٠) - ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِينِيهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

يعني قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِينِيهِ؟﴾: أي: أحضروه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾: أي: السَّاقِي ﴿قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾؛ أي: عُدْ إلى ملكك ﴿فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فكذبني.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾: أي: خالقي، وقيل: أراد به: سيدي، وهو العزيز؛ أي: هو طاهرٌ عند العزيز، فأحبَّ وضوحَ عذره عند الملكِ الأعظم أيضاً. وكيدهنَّ: مراودتهنَّ إياه عن نفسه.

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٦٤٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٠): رواه الطبراني وفيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي وهو متروك. وهذا معنى حديث رواه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «لو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي».

(٥١) - ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُ حَسْبُ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.
 ﴿قَالَ﴾: فجمعهنَّ الملك، وقال لهنَّ ما ذكر الله تعالى، وهو قوله تعالى: ﴿مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ﴾.

الخطب: الأمر العظيم؛ أي: ما شأنكنَّ إذ راودتنَّ يوسفَ عن نفسه؟
 قال وهب: قال لهنَّ: ما حملكنَّ على ما فعلتنَّ بيوسفَ إذ مآلتنَّ عليه سيّدته، وأمرتنَّها أن تسجنه وتُهينه وتعذّبه، ودعوته إلى أنفسكنَّ، فلما أبى واستعصم قُلتنَّ فيه الكذب والزور؟

﴿قُلْتُ حَسْبُ اللَّهِ﴾: معاذَ الله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ ولقد قلنا فيه الكذب والزور، وإنَّه لهو البريء التقي^(١) النقيّ المكذوبُ عليه المظلومُ.
 و﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾؛ أي: ظهر الحقُّ وخلص، وأزيلتِ الشكوكُ عنه وانقطعت، من قولك: حصَّ شعره؛ أي: قصَّه وقطعه واستأصله، ومنه: الحصّة؛ وهي القطعة من الشيء.

﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾: في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦].

وقال القشيري رحمه الله: إنَّ زليخا لم تكن متناهية في محبة يوسف في الابتداء، فجعلت ذنبها عليه فقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا...﴾، فلما تناهت في محبته أقرت بالذنب على نفسها، فقالت: ﴿الْفَن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾، والمتناهي في الحب لا يبالي بانتهاك السرّ وظهور السر^(٢).

(١) «التقي» من (أ).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٨٩).

(٥٢) - ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾: قيل: هو متّصل بقول يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِمْ عَلِيمٌ﴾ ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾؛ أي: ليعلم العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ بغيبته، فإذا ظهرت براءتي عند العزيز ظهرت عند غيره وعند الملك. وقيل: أي: ليعلم الملك أنني لم أخن الملك؛ لأنّ خيانتني لخازنه وخادمه خيانة له.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾: أي: لا يُفْضِي بِكَيْدِهِمْ إِلَى هَدًى وإصابة، مثلما لم يهد كيد امرأة العزيز والنسوة.

وقال الحسين بن الفضل البجلي رحمه الله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ من قول زليخا، وهو متّصل بكلامها؛ أي: ليعلم يوسف^(١) أنني لم أخنّه بالغيب، لم أكذب عليه بغيبته، ولم أنسبه إلى ما لا يحل، بل أقررت بالذنب على نفسي.

(٥٣) - ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾: أي: لا أزكّي نفسي مع براءتي من هذه الجناية^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ﴾: هي للجنس؛ أي: النفوس البشريّة ﴿لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾؛ أي: كثيرة الدّعوة إلى المعاصي بشهواتها ونهمتها ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾: لكن

(١) «يوسف» ليس في (ف).

(٢) في (أ): «الخيانة».

مَنْ رَحِمَ رَبِّي يَسْلَمْ عَنْ طَاعَتِهَا ﴿إِنْ رَبِّي غَفُورٌ﴾: سَتَّارٌ لِلْعُيُوبِ ﴿رَحِيمٌ﴾ بمواصلة البراهين والبيّنات.

أو يكون لحقيقة الاستثناء^(١)؛ أي: إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي، فرحمه وعصمه من أن تأمره نفسه بسوء، أو تكون أمرته به في بعض الأحوال، لا أَمَّارَةً إذا راضها الإنسان رياضةً بليغةً، فتبقى الخطرَةُ دون العزْمَةِ.

وفي بعض الروايات: أَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿لَعَلَّمَنِي أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال له جبريل: ولا حين هَمَمْتَ؟ قال: ﴿وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي﴾^(٢).

وفي «كتاب عصمة الأنبياء» في قوله: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: أَنَّ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَظْهَرَ السَّكِينَةَ وَالْوَقَارَ فِي الْخُرُوجِ مِنَ السَّجْنِ، لَا كَالضَّجْرِ الْقَلِقِ إِذَا وَجَدَ الْخَلَاصَ بَادِرًا إِلَى الْخُرُوجِ:

لِيَتَمَيَّزَ الرَّاضِي بِالْقَضَاءِ، وَالْمُسَلِّمُ لِلْحُكْمِ، وَالْمَفْوُضُ لِلْقَدَرِ، مِنَ السَّاخِطِ بِالْمَقْسُومِ فِي الْمَكَارِهِ.

وَالثَّانِي: جَرِيٌّ عَلَىٰ انْتِظَارِ الْوَحْيِ؛ لِثَلَا يَكُونُ مُسْتَبَدًّا بِرَأْيِهِ.

وَالثَّلَاثُ: أَنَّهُ عَلِمَ اسْتِخْلَاصَ الْمَلِكِ إِيَّاهُ، فَأَحَبَّ أَلَّا يَبْقَىٰ أَثَرُ تَهْمَةٍ مِنْ تِلْكَ الْحَادِثَةِ الَّتِي كَانَتْ جَرَتْ، حَتَّىٰ يَنْظُرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْأَمَانَةِ، وَيَعِدَّهُ مِنْ أَهْلِ الصِّيَانَةِ، فَيَصِفُو لَهُ اسْتِخْلَاصَهُ.

(١) أي: استثناء متصلاً، والوجه الأول على اعتبار كونه منفصلاً.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢١٤) عن ابن عباس وسعيد بن جبير. ولم يرتضه الزمخشري فقال: ولقد لفقت المبطله روايات مصنوعة، فزعموا أن يوسف حين قال: ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال له جبريل: ولا حين هممت... وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله. انظر: «الكشاف» (٢/ ٤٨١).

وقول النَّبِيِّ ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أَخِي يَوْسُفَ، لو كُنْتُ أَنَا مَكَانَهُ لَبَادَرْتُ الْبَابَ»^(١)؛ أي: ما كُنْتُ مُنْتَظِرًا لِلْعُذْرِ، بل كُنْتُ أَرَى الْإِدْخَالَ وَالْإِخْرَاجَ مِنَ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، فَتَكَلَّمْتُ عَنْ مَقَامِهِ مِنَ الْفَرَاغِ عَنِ الْأَفْكَارِ^(٢) فِي الْمَخْلُوقِينَ مَدْحًا مِنْهُمْ وَذَمًّا، وَإِنْ كَانَ لِيُوسُفُ بِهَذَا الْمَقَامِ، لَكِنَّ مَقَامَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ أَعْلَى وَأَكْمَلَ، فَلَيْسَ هَذَا مِنْهُ عَيْبًا عَلَى يَوْسُفَ، وَإِنَّمَا هُوَ إِبَانَةٌ لِمَقْدَارِ وَسْعِهِ^(٣) عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي التَّسْلِيمِ لِلْحُكْمِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ يَوْسُفَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ أَحَبُّ ظُهُورَ بَرَاءَتِهِ وَنِظَافَتِهِ؛ لِيَكُونَ زَوْجُ الْمَرْأَةِ مَلَا حَظًّا لَهُ بَعِينَ الْإِجْلَالَ، لَا بَعِينَ الْإِسْتِقْلَالَ، كَالْمَسْجُونِ مِنْ جِهَةِ إِنْسَانٍ يَخْرُجُهُ السُّلْطَانُ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ وَخَصْمُهُ كَارُهُ لَخُرُوجِهِ، فَالْخَارِجُ مِنَ السَّجْنِ يَكُونُ قَلْبُهُ مَنْقَسِمًا وَخَاطِرُهُ مُتَوَزِّعًا مِمَّا يَتَفَكَّرُ مِنْ اسْتِثْقَالِ خَصْمِهِ وَكَرَاهَتِهِ لَخُرُوجِهِ، وَاحْتِيَالِهِ ثَانِيًا لِإِعَادَتِهِ إِلَى السَّجْنِ إِذْ أُخْرِجَ بِغَيْرِ رِضَاهِ، فَأَرَادَ أَنْ يَكُونَ خَاطِرُهُ لِإِقَامَةِ مَا يُفَوِّضُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَمَانَةِ مِنْ غَيْرِ تَشْوِيشٍ يَقَعُ فِي فِكْرَتِهِ.

وَلأنَّهُ كَانَ كَرِيمًا ابْنَ الْكَرَامِ فَكَانَ لَا يَنْكِرُ^(٤) صَنَائِعَ زَوْجِ الْمَرْأَةِ، فَأَحَبُّ أَنْ يَصِفَوْ قَلْبُهُ إِذَا خَامَرَهُ شَيْءٌ مِنْ مَقَالَاتِ امْرَأَتِهِ بِظُهُورِ صِفَوْتِهِ مُشَاهِدَةً، وَهَذَا فِي الْمَرْوَةِ وَالْأَمَانَةِ^(٥) مَدْنُوبٌ إِلَيْهِ.

وَمَا قَالَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهُوَ مِنْ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْعِبَادَةِ، وَأَشْرَفِ مَقَامَاتِ الْإِكْتِفَاءِ بِاللَّهِ تَعَالَى بِإِرْضَاءِ عِبَادِهِ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ، وَكُلُّ جَرَى عَلَى مَا كُشِفَ لَهُ.

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) فِي (ف) وَ(ر): «مِنْ فَرَاغِ الْأَفْكَارِ».

(٣) فِي (ف): «وَسَعِ يَوْسُفَ».

(٤) فِي (ر) وَ(ف): «لَا يَكْفُرُ»، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (أ)، وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ، فَمَعْنَى «لَا يَكْفُرُ»؛ أَي: لَا يَجْحَدُ وَلَا يَسْتُرُ.

(٥) فِي (ف) وَ(أ): «وَالْإِنْسَانِيَّةِ».

(٥٢) - ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾: وفيه دليل على أن الخصم يجب إرضاءه وإن كان الله تعالى عنه غير راضي^(١)، وأن رضاه^(٢) بإظهار ما جرى بينه وبين الخصم، فأحب أن يرضي الرجل فلا يداخله شيء من حديثها؛ تكرماً من يوسف عليه السلام واستعظماً لحقه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَتَّبِعُ نَفْسِي﴾ إقرار منه^(٣) أن امتناعه عن إجابتها لم يكن من قوة نفسه، وإنما الحول والقوة لله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا رَجِمَرَيْتُ﴾؛ أي: لو تركت أنا وطبع البشرية لكنت عاملاً بطبعي كما عملت هي، لكن لما أقيم مقام العصمة عامله الله تعالى بالرحمة، فزالت طباع النفس الأمارة بالسوء.

وهو ذكر من الله تعالى عليه في التوفيق والعصمة، وإقامته مقام^(٤) العز الذي يترأى للناس أنه عز دنيوي، ففيه دليل على أن معاملة الناس على الاستقامة تستتبع الرفعة والعز والثناء الجميل، وذلك نعمة من الله تعالى، وليس بنقص في مقام النزاهة والصفوة، وأن الاستقامة في المعاملة أفضل منها في الخلوة.

(٥٤) - ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْتَنِي بِهَذَا اسْتَخْلَصْتُ نَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

(١) في (ر): «عنه راضياً».

(٢) في (ر): «وإن أرضاه».

(٣) في (أ): «لأنه إبانة منه»، وفي (ف): «الآية إبانة» بدل: «إقرار منه».

(٤) في (ر) و(ف): «وإقامته مقام».

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ؟ اسْتَخَضُوهُ لِنَفْسِي﴾: قال ابنُ إسحاق: قال مالك مصر - وهو الوليد بن الرِيَّانَ لَمَّا أَخْبَرَ النِّسَاءَ بِمَا أَخْبَرْنَ -: جيئوني به أَجْعَلُهُ خَالِصًا لِنَفْسِي، أَفْوَضْ إِلَيْهِ أُمُورَ مَمْلَكَتِي؛ لَمَّا ظَهَرَ مِنْ عِلْمِهِ وَصِلَاحِهِ.

وها هنا مضمَّرٌ: فَأَتَيْتُ بِهِ ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾: قَرِيبُ الْمَكَانَةِ ظَاهِرُ الْأَمَانَةِ.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: لَمَّا اتَّضَحَ لِلْمَلِكِ طَهَارَةُ حَسِّهِ وَنَزَاهَةُ عَيْنِهِ، اسْتَحْضَرَهُ لَاسْتِصْفَائِهِ لِنَفْسِهِ، وَاسْتِخْصَارِهِ لَأَنْفُسِهِ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ وَاسْمَعَ بَيَانَهُ رَفَعَ مَحَلَّهُ وَمَكَانَهُ، وَضَمَّنَ بَرَاءَتَهُ وَإِحْسَانَهُ، فَقَالَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ مَكِينٌ^(١) أَمِينٌ عَلَى خَزَائِنِ الْأَمْوَالِ^(٢).

وفي القِصَّةِ: أَنَّهُ بَعَثَ سَبْعِينَ حَاجِبًا وَسَبْعِينَ مَرْكَبًا لَاسْتِحْضَارِهِ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ لِبَاسَ الْمُلُوكِ وَتَاجَ الْمُلُوكِ، فَلَبَسَ الثِّيَابَ وَتَوَّجَ التَّاجَ، وَخَرَجَ لِيَرْكَبَ، وَقَامَ إِلَيْهِ أَهْلُ السَّجَنِ يَكُونُ لِفَقْدِهِ، وَكَانُوا أَنْسُوا بِهِ، وَأَلْفُوا بَرَّهُ وَإِحْسَانَهُ، فَدَعَا لَهُمْ فَقَالَ: أَعْطَاكُمُ اللَّهُ الصَّبْرَ وَالْيَقِينَ وَثَوَابَ الشَّاكِرِينَ، وَطَهَّرَكُمُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَأَمَنَكُمُ مِنَ الْهَوَامِّ وَالْعَقَارِبِ وَالْحَيَّاتِ.

وقَالَ حِينَ خَرَجَ: اللَّهُمَّ عَطِّفْ عَلَيْهِمْ قُلُوبَ الْأَخْيَارِ، وَقَصِّرْ عَلَيْهِمُ النَّهَارَ، وَلَا تَقْطَعْ عَنْهُمْ الْأَخْبَارَ.

وَلَمَّا خَرَجَ كَتَبَ عَلَى بَابِ السَّجَنِ: هَذِهِ مَنَازِلُ الْبُلُوى، وَجَهَنَّمُ الدُّنْيَا، وَقُبُورُ الْأَحْيَاءِ، وَشِمَاتَةُ الْأَعْدَاءِ^(٣).

(١) في (أ) و(ر): «عندنا ذو جاهٍ وحال» بدل «مكين».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١٩٠).

(٣) روى نحوه ابن قتيبة في «عيون الأخبار» (١/ ١٤٨ - ١٤٩) عن وهب.

ولَمَّا دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِخَيْرِكَ عَنْ خَيْرِهِ، وَأَعُوذُ بِعِزَّتِكَ وَقُدْرَتِكَ عَنْ شَرِّهِ.

فَلَمَّا كَلَّمَهُ، وَكَانَ الْمَلِكُ يَتَكَلَّمُ بِسَبْعِينَ لِسَانًا، فَكَلَّمَ يَوْسُفَ بِكُلِّ لِسَانٍ، فَأَجَابَهُ يَوْسُفُ بِكُلِّ ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ دَعَا لَهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَلَمْ يَكُنِ الْمَلِكُ يَحْسُنُهَا، فَقَالَ: مَا هَذَا اللِّسَانُ يَا يَوْسُفُ؟ قَالَ: لِسَانُ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ سَلَّمَ عَلَيْهِ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَلَمْ يَكُنِ الْمَلِكُ يَحْسُنُهَا، فَقَالَ: مَا هَذَا اللِّسَانُ يَا يَوْسُفُ^(١)؟ قَالَ: هَذَا لِسَانُ عَمِّي إِسْمَاعِيلَ. فَازْدَادَ الْمَلِكُ عَجَبًا مِمَّا سَمِعَ مِنْ يَوْسُفَ، وَأَعْجَبَهُ عِلْمُهُ وَحِلْمُهُ وَحُكْمُهُ^(٢).

وَقَالَ لَهُ: اقْصِصْ رُؤْيَايَ^(٣) فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهَا مِنْكَ، قَالَ يَوْسُفُ: رَأَيْتُ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ عِظَامٍ شُهْبٍ غَرٌّ^(٤)، كَشَفَ لَكَ عَنْهُنَّ النَّيْلُ، فَطُلَعْنَ عَلَيْكَ مِنْ شَاطِئِهِ تَشْخَبُ أَخْلَافُهُنَّ لَبْنًا، فَبَيْنَا أَنْتَ تَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ يَعْجَبُكَ حَسَنُهُنَّ إِذْ نَضَبَ النَّيْلُ وَغَارَ مَائُهُ، وَبَدَأَ يَبْسُهُ، فَخَرَجَ مِنْ حِمَاتِهِ وَوَحِلَهُ سَبْعُ بَقَرَاتٍ عَجَافٍ شَعِثٍ غُبُرٍ مَقْلَصَاتٍ الْبَطُونِ، لَيْسَ لَهُنَّ ضُرُوعٌ وَلَا أَخْلَافٌ، وَلَهُنَّ أَنْيَابٌ وَأَضْرَاسٌ، وَأَكْفُ كَأَكْفِ الْكِلَابِ، وَخِرَاطِيمُ كَخِرَاطِيمِ السَّبَاعِ، فَاخْتَلَطْنَ بِالسَّمَانِ، فَافْتَرَسَنَّهُنَّ افْتِرَاسَ السَّبَاعِ، فَأَكَلْنَ لَحُومَهُنَّ، وَمَزَّقْنَ جُلُودَهُنَّ، وَحَطَّمْنَ عِظَامَهُنَّ، وَتَمَشَّشْنَ^(٥) مَخْنُ، فَبَيْنَا أَنْتَ تَنْظُرُ وَتَتَعَجَّبُ إِذَا سَبْعُ سُنْبِلَاتٍ خَضِرٍ، وَسَبْعُ أُخْرُ سَوْدٌ فِي مَنَبِتٍ وَاحِدٍ،

(١) من قوله: «لسان آبائي» ليس في (ف).

(٢) «وحكمه» ليس في (ف). والخبر ذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢٣٠) عن وهب.

(٣) في (أ) و(ف): «رؤياك».

(٤) في (أ) و(ر): «سماناً عظماً شهباً غراً».

(٥) في (ف): «وتمششن». والتمشش: مص أطراف العظام. انظر: «القاموس المحيط» (مادة: مشش).

عروقهِنَّ فِي الثَّرَى وَالْمَاءِ، فَبَيْنَا أَنْتَ تَقُولُ فِي نَفْسِكَ: أَنَّى هَذَا؟! وَهَؤُلَاءِ خَضِرٌ مَثْمِرَاتٍ، وَهَؤُلَاءِ سَوْدٌ يَابَسَاتٍ، وَالْمَنْبِتُ وَاحِدٌ، وَأَصُولُهُنَّ فِي الْمَاءِ؛ إِذْ هَبَّتْ رِيحٌ فَذَرَّتْ مِنَ الْيَابَسَاتِ السُّودَ عَلَى الْخَضِرِ الْمَثْمِرَاتِ، فَاشْتَعَلَتْ فِيهِنَّ النَّارُ فَأَحْرَقَتْهُنَّ، وَصَرَْنَ سَوْدًا مُتَغَيِّرَاتٍ.

فهذا آخر ما رَأَيْتَ مِنَ الرُّؤْيَا، ثُمَّ انْتَبَهْتَ مِنْ نَوْمِكَ مَذْعُورًا مُرْتَاعًا.
فَقَالَ الْمَلِكُ: وَاللَّهِ مَا شَأْنُ هَذِهِ الرُّؤْيَا وَإِنْ كَانَ عَجَبًا بِأَعْجَبَ مِمَّا سَمِعْتُ مِنْكَ، فَمَا تَرَى فِي رُؤْيَايَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ؟

قال يوسف عليه السلام: أرى أن تجمع الطَّعَامَ فِي سِنِي الْخَصْبِ، وَتَبْنِيَ الْأَهْرَاءَ^(١) وَالْخَزَائِنَ، فَتَكْسِيَهُ^(٢) فِيهَا بِقَصَبِهِ وَسُنْبِلِهِ، فَيَكُونُ قَصَبُهُ وَسُنْبِلُهُ عِلْفًا لِلدَّوَابِّ، وَيَكْفِيكَ وَيَكْفِي أَهْلَ مِصْرَ وَمَنْ حَوْلَهَا الطَّعَامُ فِي سِنِي الْجَدْبِ، فَتَأْتِيكَ الْخَلْقُ مِنَ النَّوَاحِي، فَيَمْتَارُونَ مِنْكَ بِحُكْمِكَ، وَيَجْتَمِعُ عِنْدَكَ مِنَ الْكُنُوزِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ.

قال الملك: مَنْ لِي بِهَذَا؟ وَمَنْ يَجْمَعُهُ؟ وَمَنْ يَبِيعُهُ وَيَكْفِي الشُّغْلَ فِيهِ؟
قال يوسف: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ أَنِّي أَقُومُ بِهِ، وَأَكْفِي الشُّغْلَ فِيهِ.
قال الملك: وَمَنْ أَحَقُّ بِهِ مِنْكَ؟ فَدُونَكَ ذَلِكَ^(٣).

(١) الْأَهْرَاءُ: جَمْعُ هُرَيْرٍ، وَهُوَ بَيْتٌ كَبِيرٌ يَجْمَعُ فِيهِ طَعَامُ السُّلْطَانِ. انظر: «القاموس المحيط» (مادة: هري).

(٢) فِي (أ): «فَتَكْسِيهِ».

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥ / ٢٣١).

(٥٥) - ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾: أي: ولّني على خزائن الأطعمة والأقوات والعلوفة التي في أرض مملكتك، وهي مصر، وكانت أربعين فرسخًا في أربعين فرسخًا، وفوض إليّ إحرازها وتفريقها وتقدير ذلك منها، فإنني حفيظ؛ أي: حافظ^(١) لِمَا سبيلُهُ أن يحفظ؛ أي: يجري فيه خيانة أو نسيان، عليمٌ بما سبيلُهُ أن يُعلم وجه التدبير فيه حتّى لا يضيع شيءٌ، ولا يوضع في غير أهله. وقال قتادة وابن إسحاق: حفيظٌ لها ممّن لا يستحقّها، عليمٌ بوجوه التدبير فيها^(٢).

وقال الزجاج: عليمٌ بوجوه متصرفاتها^(٣).

وقيل: حفيظٌ لِمَا استودعته، عليمٌ بما وليّته.

وقيل: حفيظٌ لِمَا استودعته، عليمٌ بسني المجاعة.

وقيل: حفيظٌ للحساب، عليمٌ بالألسنة.

وقيل: كاتبٌ وحاسبٌ.

قال وهبٌ: فقال الملك ليوسف صلوات الله عليه: فدوّنك هذا السّرير والخاتم والتّاج، فقد تخلّيت لك عنهنّ، وأنت أحقُّ بهنّ منّي. قال يوسف: أمّا السّرير فأشدُّ به ملكك، وأمّا الخاتم فأدبّر به أمرك، وأمّا التّاج فليس من لباس آبائي ولا من لباسي.

(١) في (ر) و(ف): «فإنني حفيظ عليم أي حافظ عالم».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٢١٩).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣ / ١١٦).

قال الملك: فقد وضعته عن رأسي إجلالاً لك وإقراراً بفضلك.
قال: فاتخذ الملك الخزائن والأهراء، وأمر بجمع الطعام انتظاراً لِسَيِّ
الخصب، فلَمَّا أَتَتْ جَاءَتْ بِشِيءٍ لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ كَثْرَةً وَسَعَةً، وذلك قوله تعالى:

(٥٦) - ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ
نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾: أي: كالذي التمس يوسف من الملك مَكَّنًا
له في الأرض؛ أي: أرض مصر، والتَّمَكُّينُ: الإقرارُ وإعطاءُ المَكِينَةِ والمكانة.
وقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾: إذ كانت خزائنها في كلِّ بلادها بيده
وتحت حكمه بعد ما كان ضيقاً عليه بالرقِّ والحبس.

وقوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾: أي: بنعمتنا كما أصبناها يوسف.
وقوله تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾: قال ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما:
يعني: الصَّابِرِينَ. قال وهبٌ: وذلك بصره في البئر وفي السِّجْنِ وفي الرِّقِّ وعمَّا
دعته إليه زليخا^(١)، فهذا في الدنيا.

(٥٧) - ﴿وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾.
وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾: أي: الجنة وثوابها
خيرٌ للَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّقُوا معاصي الله تعالى.

(١) ذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢٣٣)، والواحدي في «البيسط» (١٢ / ١٥٩) عن ابن عباس
رضي الله عنهما ووهب.

وقيل في قوله: ﴿وَلَا تُضِيعْ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾: كما لم تُضِعْ أَجْرَ يوسُفَ، وكان يحسِنُ إلى أهل السِّجْنِ، فينظر للضعفاء ويقوم بمصالح المرضى وغير ذلك، وكان يحسِنُ الصَّبْرَ عن المحارم، وإيثَارَ طاعة الله تعالى، والقيام بإحياء دينه والنصح لعباده في كلِّ حالٍ.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: لَمَّا لم يَمَكَّنْ يوسُفُ دواعي الشَّهَوَاتِ من نَفْسِهِ مَكَّنَهُ اللهُ تَعَالَى من مَلِكِهِ، وهو كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَرَفَّحْ سَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُضِيعْ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، ثُمَّ أَخْبَرَ عن حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ، وَبَيَّنَّ أَنَّ مَا يُولِي^(١) عِبَادَهُ مِنْ أَلطَافِهِ فَبِفَضْلِهِ لَا يَفْعَلُهُمْ، وَبِرَحْمَتِهِ لَا يَجِدُّ مِنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾، ثُمَّ رَفَى هَمَمَهُمْ^(٢) عَمَّا أُولَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ، فَقَالَ: ﴿وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾^(٣).

وفيه جَوَازٌ وَصَفِ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ بِمَا هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ - فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿إِنِّي حَفِيفٌ عَلِيمٌ﴾ - إِذَا لم يَكُنْ فِيهِ ثَنَاءٌ عَلَى نَفْسِهِ، بَلْ بَيَّانٌ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ مَصَالِحِ النَّاسِ. وفيه: أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِالْعَمَلِ لِلْكَافِرِ وَالْفَاسِقِ إِذَا أُمَكِّنَ الْعَامِلُ مِنْ وَضْعِ الشَّيْءِ مَوْضِعَهُ، وَإِعْطَاءِ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْعَدْلِ قِسْطَهُ، وَكَانَ فِيهِ صِلَاحُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ.

وقيل في قوله: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾: قَالَ لِلْمَلِكِ: مَا بَالُ الْمَلِكِ يَتَقَلَّدُ بَسِيفٍ لَا يَقْطَعُ، وَمَا بَالُهُ مَمْسِكٌ عَلَى بَابِهِ حِرَاسًا عُمِيًّا بُكْمًا صُمًّا، وَمَا بَالُهُ يَزْرَعُ فِي أَرْضٍ سَبَخَةٍ، أَمَا يَعْلَمُ أَنَّ مَنْ زَرَعَ بِأَرْضٍ سَبَخَةٍ فَقَدْ ضَيَّعَ بَذْرَهُ، وَعَذَّبَ بَقْرَهُ، وَأَبْطَلَ أَيَّامَهُ؟!

(١) في (ر): «يؤتي»، وفي «اللطائف»: (يوفي).

(٢) في (ر) و(ف): «ثم فهمهم» وفي «اللطائف»: «ثم يرفي همهم».

(٣) انظر: «اللطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٩١).

فقال الملك: ما أدري ما تقول.

قال: أَمَّا التَّقْلُدُ بِسَيْفٍ لَا يَقْطَعُ، فَهُوَ الْاعْتِمَادُ فِي الْأَعْمَالِ عَلَى عُمَالٍ لَمْ تَجْرِبْهُمْ، وَأَمَّا إِمْسَاكُ الْعَمِيِّ وَالْبُكْمِ وَالصُّمِّ عَلَى الْبَابِ فَهُوَ اسْتِعْمَالُ قَوْمٍ لَا يَرُونَ عَيْوبَكَ وَلَا يَذْكُرُونَهَا لَكَ، وَأَمَّا الزَّرْعُ فِي السَّبْحَةِ، فَالْبَذَرُ: الْعَمْرُ، وَالسَّبْحَةُ: الدُّنْيَا، وَالثَّوْرَانِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ. فَأَعْجَبَهُ كَلَامُهُ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾^(١).

وقال وهب: وَلَمَّا وُلِّيَ يُوسُفُ مَصْرَ مَاتَ الْعَزِيزُ، فَزَوَّجَهُ الْمَلِكُ امْرَأَةً الْعَزِيزِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا^(٢) وَجَدَهَا عَذْرَاءَ، فَقَالَ: أَلَيْسَ هَذَا خَيْرًا مِمَّا كُنْتَ تَرِيدِينَ؟ فَقَالَتْ لَهُ: لَا تَلْمَنِي يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ كَسَاكَ مِنَ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ مَا لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وَكَانَ صَاحِبِي لَا يَمْسُ النِّسَاءَ، وَكُنْتُ نَاعِمَةً فِي مَلِكِ الدُّنْيَا، وَغَلَبَنِي شَهْوَتِي، يَا يُوسُفُ، إِنَّ الْحَرَصَ وَالشَّهْوَةَ صَيَّرَا الْمُلُوكَ عِبِيدًا، وَإِنَّ الصَّبْرَ وَالتَّقْوَى صَيَّرَا الْعَبِيدَ مُلُوكًا.

وتزوَّجها وهو ابنُ ثلاثين سنةً، فولدت له أفرايم وميشا ابني يوسف في أربع سنين من سني الخصب. هذا القدرُ مذكور من حديث تزوُّجها في «كتاب وهب».

ويذكرُ في القصص زوائد: أَنَّهَا افْتَقَرَتْ وَضَعْفَتْ وَعَمِيَتْ، وَأَتَتْهُ وَهِيَ بِتِلْكَ الْحَالَةِ، فَرَحَمَهَا وَقَالَ: مَا تَشْتَهِينَ؟ قَالَتْ: أَنْ أَفْتَحَ عَيْنِي مَرَّةً فَأَرَاكَ. وَبَكَتْ فَبَكَى يُوسُفُ، وَأَتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرُدُّ إِلَيْهَا بَصَرَهَا وَشَبَابَهَا فَتَزَوَّجَهَا. ففعل، فَأَعَادَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهَا جَمَالَهَا وَشَبَابَهَا.

ويذكر هنا أشياء، ولا ضرورة إلى ذكرها.

ولمَّا مضى تمام سني الخصب أمر الله جلَّ جلاله جبريل عليه السلام سحرًا

(١) «وقال إنك اليوم لدينا مكين أمين» من (ف).

(٢) في (أ): «دخلت» وفي (ف): «دخلت عليه» بدل: «دخل عليها».

فقال: يا جبريل، ألا تنظرُ إلى عبادي وإمائي من أهل مصرَ وغيرهم كيف يأكلون رزقي ويعبدون غيري، اهبط فقد سلَّطْتُ عليهم الجوعَ والقَحْطَ سبعَ سنين، فهبط جبريل وصاح في الهواء: يا أهلَ مصر، جوعوا سبعَ سنين، فانتبه الرِّجَالُ والنِّسَاءُ والصِّبْيَانُ ينادون: الجوع، الجوع^(١).

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: لم يكن في تلك السَّنِينَ اليابسة^(٢) مطرٌ ولا نباتٌ، ولا ريحٌ تهبُّ، ولا حمارٌ ينهقُ، ولا ثورٌ يصيحُ، ولا دابةٌ تحمل، ولا طيرٌ يتخذ عشا ولا فرخ، وجاءت سِنُو الجذبِ بأمرٍ مهولٍ لم يعهد النَّاسُ مثله، وقصد النَّاسُ مصرَ من كلِّ أوبٍ وناحيةٍ يمتارون، فجعل يوسفُ صلوات الله عليه لا يمكنُ أحدًا منهم وإن كان عظيمًا أكثرَ من حملٍ بعير.

وتزاحم عليه أهلُ مصرَ، فباعهم أوَّل سنةٍ بالدَّراهم والدنانير، حتَّى لم يبقَ بمصرَ دينارٌ ولا درهمٌ إلَّا قبض عليه، وباعهم السَّنةُ الثَّانيةُ بالحليِّ والجواهر حتَّى لم يبقَ بمصرَ في أيدي النَّاس منها شيءٌ، وباعهم السَّنةُ الثَّالثةُ بالمواشي والدَّوابِّ والأنعام حتَّى احتوى عليها أجمع، وباعهم السَّنةُ الرَّابعةُ بالعبيد والإماء حتَّى لم يبقَ عبدٌ ولا أمةٌ في يد أحد، وباعهم في السَّنةِ الخامسة بالضياع والعقار والدُّور حتَّى احتوى عليها، وباعهم السَّنةُ السَّادسةُ بأولادهم حتَّى استرقَّهم^(٣)، وباعهم السَّنةُ السَّابعةُ برقابهم حتَّى لم يبقَ بمصرَ حرٌّ ولا حرةٌ إلَّا صار عبدًا له.

فقال النَّاسُ: بالله ما رأينا كالיום ملكًا أجَلَّ ولا أعظمَ من هذا!

(١) ولعل هذا يكون منظوراً فيه بأن القحط كان عاماً لأهل مصر وغيرهم، وللبلاد المؤمنة والكافرة، بدليل قول إخوة يوسف: ﴿مَسْنَاوَأَهْلَنَا الضَّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨].

(٢) في (أ): «اليابسة ولا نهر يجري».

(٣) في (ف): «اشتراهم».

فقال يوسفُ صلوات الله عليه للملك: كيف رأيتَ صنْعَ الله عزَّ وجلَّ بي، وما خَوَّلني من الملك؟ فما ترى لي؟

قال الملك: الرَّأْيُ رَأْيُكَ، ونحن لك ^(١) تَبِعٌ، وأنا خَوْلُكَ.

فقال يوسفُ: إِنِّي لم أملكُ مصرَ بأهلها لأخربها وأهلكهم، ولم أوسع عليهم الطَّعامَ لأضيِّقه، ولم أمرهم لأجفَوْهم، أَوْ تُقَرُّ لي بَأَنَّ ^(٢) لي عبيدًا وخولًا ^(٣)؟ قال: نعم. قال: فَإِنِّي أشهدُ الله وأشهدُكَ أَنِّي أعتقتُ أهلَ مصر عن آخرهم، ورددتُ إليهم أموالهم وأملاكهم، ورددتُ عليك ملكك على شريطة ألا تخالفني وتستنَّ بسُتِّي. قال الملك: فَاذْنُ لَكَ.

(٥٨) - ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾: قال وهبٌ: وكان اشتدَّ على يعقوبَ وولده وأهل الشَّام القحطُ، فقال يعقوبُ لأولاده: إِنَّ بِمِصْرَ طَعَامًا يَبَاعُ، وَإِنَّ هَذَا الرَّجُلَ الصَّالِحَ الَّذِي هُوَ مَلِكُهُمْ بَلَّغَنِي عَنْهُ خَيْرٌ وَصْلَاحٌ وَحَسَنُ سِيرَةٍ، فامتاروا؛ فَإِنَّ لَهُ سِيرَةً تُشَبِّهُ سِيرَةَ آلِ يَعْقُوبَ، وسيُحْسِنُ إليكم إن شاء الله عزَّ وجلَّ، فانطلقوا فامتاروا منه، فانطلقوا، فلَمَّا دخلوا على يوسفَ مع النَّاسِ، وكان يوسفُ صلوات الله عليه يحسِنُ إلى مَنْ أَتَاهُ، ويعطيه قَدْرَ ما يكفي عياله على عددهم، فلَمَّا دخلوا عليه عرفهم وهم له منكرون.

(١) في (أ): «له».

(٢) في (ف): «بأنك».

(٣) في (أ) و(ف): «بأنك لي عبد ولي خول» بدل: «بأن لي عبيدًا وخولًا».

وكان الله تعالى عَمَى عليهم خبرَ يوسف وما صار إليه من الملك، ولتغيرِ لونه وكلامه وهيئته، ولتقادم العهد وتطول المدة.

وقيل: إنما لم يعرفوه لأنه كان متنقباً.

وقيل: لم يعرفوه لأنهم كانوا جوعاً، وعينُ الجائع تحارُّ فلا تعرف ما تبصر^(١).

وقيل: لأنهم جاؤوا طامعين، والطَّمْعُ يغطي العين.

وقيل: لأنهم كانوا جَفَوهُ، والجفاءُ يزيلُ المعرفة.

وقيل: لأنَّ الله تعالى أخفى عليهم ذلك بلطفه، وكان له فيه سرٌّ.

وقيل: لأنهم نكسوا رؤوسهم محترمين فلم ينظروا إليه؛ فلذلك لم يعرفوه.

قال وهبٌ: ولمَّا عرفهم أمرَ فتَيانَه بإنزالهم في منزلٍ، أكرمهم، ومكثَ ثلاثاً لا يكلمهم، ثمَّ قال لهم بعدَ ثلاثة أيَّامٍ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قالوا: نحنُ أولادُ يعقوبَ بنِ إسحاق بن إبراهيم من أهل كنعان. فنظرَ إليهم فأكثرَ، وأدامَ فيهم النَّظَرَ، وصعدَ وصوبَ فيهم البصرَ، ونظرَ إليهم جميعاً وأشتاتاً^(٢) كلَّما فرغ من واحدٍ نظرَ إلى الذي يليه، ثمَّ قال: اعتزلوني حتَّى أفرغَ لكم.

وكان لا يصنعُ ذلك بأحدٍ^(٣)، وكان يعجِّلُ سراحَ الممتارين، فلمَّا اعتزلوا عنه استرابوا من نظره إليهم، وقال بعضهم لبعضٍ: لقد نظرَ إلينا هذا الملكُ نظراً ما نظره إلى غيرنا، لذلك فإمَّا أن يكونَ نظره إلينا على وجه الغبطة لنا؛ لنبوةِ آبائنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أو الغبطةِ لأبينا بما رأى من عددنا وجلدنا وقوتنا وجماعتنا،

(١) في (ف): «تنظر».

(٢) في (ر) و(ف): «وأنشأ».

(٣) في (ر): «بأحد من الممتارين».

وإِذَا أَن يَكُون تَفَرَّسَ فِينَا النَّبُوءَةُ مِن بَعْدِ آبَائِنَا، وَالْوَرَاثَةُ لَهُمْ مِن بَعْدِهِمْ، وَإِذَا أَن يَكُون بَلَغُهُ فِعْلَتُنَا بِأَخِينَا، وَتِلْكَ قَاصِمَةُ ظَهْوِرِنَا وَسَبَبُ حَزِينَتِنَا^(١).

وَتَشَاغَلَ عَنْهُمْ يَوْسُفُ يَوْمَهُ ذَلِكَ، فَأَمَرَ لَهُمْ فَأَنْزِلُوا فِي ضِيَاغَتِهِ، وَأَوْصَى بِهِمْ خِدْمَتَهُ، وَهُمْ يَغْدُونَ عَلَيْهِ وَيُرْوَحُونَ^(٢)، وَهُوَ كَالْمَعْرِضِ عَنْهُمْ وَالْمَتَجَهِّمِ لَهُمْ، فَإِذَا صَارُوا إِلَى ضِيَاغَتِهِ أَكْرِمُوا، وَإِذَا دَخَلُوا إِلَيْهِ أَعْرَضَ عَنْهُمْ، فَيَقُولُونَ: وَمِنْ الْعَجَبِ شَأْنُ هَذَا الْمَلِكِ وَعَمَلُهُ بِنَا، إِذَا حَضَرْنَاهُ تَجَهَّمْ لَنَا وَأَعْرَضَ عَنَّا، وَإِذَا صَرُنَا إِلَى مَنْزِلِهِ أَوْصَى بِنَا فِي الْغَيْبِ، فَلَبِثُوا بِذَلِكَ حِينًا، ثُمَّ إِنَّهُمْ دَخَلُوا عَلَى يَوْسُفَ يَوْمًا فَقَالَ لَهُمْ: مِمَّنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: قَدْ أَخْبَرْنَاكَ أَوَّلَ يَوْمٍ سَأَلْتَنَا، إِنَّا وَلَدِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ. فَقَالَ يَوْسُفُ: وَلَكُذِكُمْ ثَلَاثَةُ أَنْبِيَاءٍ؛ الْخَلِيلُ وَالذَّبِيحُ وَالصَّدِيقُ؟ قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: مَا أَنْتُمْ لَذَلِكَ أَشْبَاهُ، وَلَا لَذَلِكَ بَخْلَفَاءَ، وَمَا أَنْتُمْ مُوسُومُونَ بِسِيْمَاهُمْ، وَلَا أَرَى مِنْ أَحْلَامٍ وَلَا وَقَارٍ وَلَا سَكِينَةٍ ظَاهِرَةٍ وَلَا خُشُوعٍ، وَلَا أَنْتُمْ بِأَنْ تَكُونُوا لَصُوصًا أَشْبَهُ، أَوْ تَكُونُوا جَوَاسِيسَ دَسَّكُمْ بَعْضُ الْمُلُوكِ، فَجِئْتُمْ مَرْتَادِينَ^(٣) تَنْظُرُونَ لَهُمْ فِي الْعُدَّةِ وَالْقُوَّةِ، ثُمَّ تَأْتُونَهُمْ بِخَبَرِ ذَلِكَ، فَيَسِيرُونَ إِلَيْنَا لِيَقَاتِلُونَا حَسَدًا لِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا وَأَحْيَانَا وَأَحْيَا بِنَا، وَلَأَنْتُمْ بِهَذَا أَشْبَهُ، وَلَا يُمْ^(٤) اللَّهُ لَا تَنْفَكُونَ مِنْ حَبْسِي أَبَدًا حَتَّى أَعْلَمَ عَلَيْكُمْ.

فَأَشْفَقُوا^(٥) أَنْ يَبْحَثَ عَنْهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ بِهِ الْبَحْثُ فِعْلَتَهُمُ الَّتِي فَعَلُوا بِأَبِيهِمْ،

(١) فِي (ف): «حَزْنُنَا».

(٢) فِي (ف): «وَيُرْجَعُونَ».

(٣) فِي (ر): «مَمْتَارِينَ».

(٤) فِي (ر) وَ(ف): «وَايْمُ».

(٥) فِي (ر) وَ(ف): «فَانْتَفَعُوا».

فقالوا: إِنَّا نَسْأَلُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ بِالَّذِي بَلَغَكَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ، وَفَضَّلَكَ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ، وَأَكْرَمَكَ هَذِهِ الْكِرَامَةَ، وَأَنْعَمَ عَلَيْكَ هَذِهِ النِّعْمَةَ، لَمَّا عَجَّلْتَ سِرَاحَنَا إِلَى أَيْبِنَا، فَإِنَّهُ الْيَوْمَ أَعْظَمُ أَهْلِ الْأَرْضِ حَقًّا، وَأَعْلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ؛ لِأَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ، وَابْنُ ذُبَيْحِهِ^(١)، وَابْنُ خَلِيلِهِ، فَلَا تَسْتَخَفَّ بِحَقِّهِ، وَلَا تَقْصُرْ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ، فَإِنَّكَ لَوْ تَعْلَمُ عِلْمَهُ وَعِلْمَ كَبَرِهِ وَضَعْفِهِ وَحُزْنَ لَهُ عَلَى ابْنِ لَهُ هَلْكَ مِنْذُ حِينٍ، وَكَانَ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْهِ وَأَقْرَبَهُمْ لَعَيْنِهِ، وَعِلْمَ مَا يَمُونُ وَيَعُولُ وَيَتَصَدَّقُ وَيُضِيفُ = إِذَا لَاشْتَدَّتْ لَهُ رَحْمَتُكَ، وَلَدَمَعَتْ لَهُ عَيْنُكَ، وَحُزْنَ لَهُ قَلْبُكَ.

قال يوسف عليه السلام: مَا أَحَدُ الْيَوْمِ^(٢) أَعْظَمَ حَقًّا عَلَيَّ وَعَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ يَعْقُوبَ، وَلَوْ مِرْثُهُ عَلَيَّ^(٣) ظَهَرِي مُقْبَلًا وَمُدْبِرًا حَتَّى أُعِينَهُ^(٤) وَعِيَالَهُ مَا بَلَغْتُ بِذَلِكَ حَقَّهُ، وَلَا حَقَّ آبَائِهِ عَلَيَّ، فَحَدِّثُونِي مَا الَّذِي أَحْزَنَهُ وَهُوَ فِي مَنْزِلِ الْفَرَحِ وَالْغِبْطَةِ؟ أَلَيْسَ نَبِيُّ اللَّهِ وَابْنُ أَنْبِيَائِهِ؟ أَوَلَيْسَ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ فِي مِثْلِ عِدَدِكُمْ وَجَمَالِكُمْ وَجَلَدِكُمْ؟ أَلَيْسَ الْجَنَّةُ مَعَ ذَلِكَ بُشْرَاهُ، وَنَصَبُ عَيْنِهِ يَأْمُلُهَا؟ فَمَا الَّذِي يَحْزَنُهُ بَعْدَ هَذَا؟ وَلَعَلَّ حُزْنَهُ إِنَّمَا كَانَ مِنْ قَبْلِ سَفْهِكُمْ وَجَفَائِكُمْ وَكَذِبِكُمْ؟

قالوا: حَاشَ لِلَّهِ، مَا نَحْنُ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ كَانَ لَهُ ابْنٌ وَكَانَ أَصْغَرَنَا وَأَحَبَّنَا إِلَيْهِ فَهَلْكَ، فَلَمْ يَزَلْ بَعْدَهُ وَاهِنَ الْعِظَمِ بَاكِيًا مُحْزُونًا.

قال يوسف عليه السلام: أَوْكُلُّكُمْ لَأُمٌّ وَاحِدَةٍ؟ قالوا: لَا.

قال: فَمَا الَّذِي حَمَلَ أَبَاكُمْ عَلَى أَنْ أَرْسَلَ كُلَّكُمْ؟ هَلَّا احْتَبَسَ رَجُلًا مِنْكُمْ

(١) الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، على الصحيح.

(٢) في (ف): «ما أجد القوم».

(٣) بعدها في (ف): «مر السنين».

(٤) في (ر): «أعنيه».

يسكنُ إليه ويأنسُ به؟ قالوا: قد فعل، قد احتبسَ منا ولدًا هو أصغرُ ولده، وأحبُّهم إليه بعد الأول.

قال يوسفُ: لولا مخافةُ أن تكونوا صادقين لحبستكم حبسًا أطول من هذا، ولعذبتكم عذابًا شديدًا، فإن كنتم صادقين فارجعوا إلى أبيكم، فبلغوه مني السَّلام، وقولوا له: فليخبرني ما الَّذي أحزنه وأبكاه وأوهنَ عظمه؟ وما الَّذي شَبَّهَ قبلَ أو أن شَبَّهَ؟ وليعْثَ إليَّ بجواب هذه الرِّسالة مع ابنه الأصغر الَّذي احتبسَه.

(٥٩) - ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَيْكُمُ الْأَتَرُونَ أَتَىٰ أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾: أي: هيَّا أسبابهم فأعطى كلَّ واحدٍ وقرَّ بعيرٍ، وكذلك يبيع ولا يزيد لكلِّ قادمٍ على وقرٍ؛ لئلا يضرَّ بالآخرين.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَيْكُمُ﴾: عنى: بنيامين الَّذي ذكره له.

وقوله تعالى: ﴿الْآتَرُونَ أَتَىٰ أَوْفَى الْكَيْلِ﴾: أتمه، ولا أنقصُ منه شيئًا ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾؛ أي: المضيفين.

(٦٠) - ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ﴾: أي: بالأخ الَّذي قلتم^(١) ﴿فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي﴾؛ أي: فلا طعامَ لكم عندي يُكَّال ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾؛ أي: لا تقربوا بلادي.

(١) «الذي قلتم» من (ف).

تَلَطَّفَ يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي اسْتِحْضَارِ بَنِيَامِينَ بِالْتَّرْهِيْبِ وَالتَّرْغِيْبِ،
أَمَّا التَّرْغِيْبُ فَفِي الَّذِي فَصَّلَ ^(١) لَهُمْ قَالَ: ﴿الْأَتْرُونَ أَتِيَّ أَوْ فِي الْكَيْلِ﴾، وَفِي إِنْزَالِهِمْ
بِحَسَنِ الضِّيَافَةِ، قَالَ: ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، وَأَمَّا التَّرْهِيْبُ؛ فَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي
وَلَا نَقْرُبُونَ﴾.

(٦١) - ﴿قَالُوا سَرُّوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَرُّوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾: أي: ستتلطف لأبيه في طلبه منه وإخراجه
معنا كما أمرت ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ بما أمرت به غير مخالفين لك، ولم يريدوا أنهم
يفعلون ذلك بغير إذن أبيهم، ولكن أرادوا ما قلنا.

(٦٢) - ﴿وَقَالَ لِفَتْنَيْنِهِ أَجْعَلُوا بِضَعَنَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفَتْنَيْنِهِ أَجْعَلُوا﴾: قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية
حفص: ﴿لِفَتْنَيْنِهِ﴾، والباقون: ﴿لِفَتْنَيْتِهِ﴾ ^(٢)، وهما لغتان في جمع الفتى؛ كالْعُلَمَانِ
وَالْعِلْمَةِ.

والفتى: اسمٌ للملوك شاباً كان أو شيخاً.

وقوله تعالى: ﴿أَجْعَلُوا بِضَعَنَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾: وهي دراهمهم التي هي أثمان ما
امتاروه من عنده ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾: وأدخل كلمة (لعل) في

(١) في (ف): «فضل»، وفي (أ): «أفضل».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٤٩)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٩).

معرفتهم ذلك، بمعنى أنهم عسى أن ينظروا في رحالهم لشيء فيجدونها، ويجوز ألا يحتاجوا إلى النظر فيها، فيخفى عليهم ذلك، على معنى أنهم عسى أن ينظروا في رحالهم ووقفهم على ذلك.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ هذا يصلح للآزم والمتعدي؛ أي: يعودون إلينا ويردّون البضاعة علينا، وقد رجّعته رجّعا، فرجع رجوعا، فتكلّموا في معنى رجاء الرجوع بذلك:

قيل: معناه: إنهم إذا عرفوا أنها بضاعتهم؛ تحرّجوا عن إمساكها، وتوهّموا أن فتیان يوسف وضعوها في رحالهم غلطاً، فعادوا لردّها.

وقيل: إنّما فعل ذلك ليستعينوا بها على الرجوع لابتیاع الميرة مرةً أخرى، لرجائه أن لا يكون عند أبيهم غير ذلك.

وقيل - وهو أحسن الوجوه في ردّ بضاعتهم إليهم -: لأنّ يوسف عليه السلام لم يستجز أن يأخذ من إخوته ثمن طعام تجشّموا في طلبه السّفر، وإنما يصل قوّته^(١) إلى أبيه وإخوته ومن يلزمه في الحرية تحمل مؤنة^(٢) في تلك الحالة، فأمر بجعلها في رحالهم، ولم يحب أن يصرّح لهم بسبب الردّ.

وقيل: ليرجعوا إليه بما يظهر لهم من كرمه في ردّها عليهم في زمان الجذب، فيكون ذلك أدعى لهم في الرجوع.

وفي «كتاب عصمة الأنبياء» قال: هَلَّا أَخْبَرَهُمْ بِحَالِهِ وَعَرَفَهُمْ عَنْ نَفْسِهِ؛ لِعِظَمِ

(١) في (أ): «وإنما يعرفونه».

(٢) في (ف): ومن يلزمه عن طعام، ومن قوله: «تجشّموا» إلى هنا ليس في (ر).

سرورهم بوجوده، وقد علمَ أنَّ إدخالَ السُّرورِ في قلبِ المؤمنِ ما محلُّه^(١) من الثَّوابِ عندَ اللهِ خصوصًا في قلبِ إخوته، وفي ذلك صلَّةُ الرَّحمِ، وإيصالُ الخبرِ لأبيه ليتفرَّغَ من حزنه؟

فالجواب عنه: أنَّه لم يقدرْ أن يفعلَ مِن غيرِ وحيٍ.

ولأنَّه علِمَ أنَّ انقضاءَ المحنةِ بعدُ لم يأتِ وقته، فلذلك تربَّصَ وتأخَّرَ إلى وقته، وقال في وقته: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَافَعَلْتُ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٩].

والثَّالث: أنَّه لو أخبرهم ساعةَ دخولهم عليه وهو كان يلاطفهم في المعاملةِ ويسامحهم في تلكِ المِيرةِ، ويردُّ عليهم بضائعهم؛ ربَّما لم يستظرفوا صنيعةَ بمكانهم، متعلِّلين^(٢) بالأخوةِ أنَّها موجبةٌ لخصائصِ المعاملةِ، أحبَّ أن ينصرفوا وألستهم رطبةً بالثناءِ عليه، متعجِّبين من حسنِ معاملتهِ في عامِ السَّنةِ خصوصًا؛ ليعلموا منه السَّخاوةَ بما يحملونه من الطَّعامِ بالبدلِ لغيرهم، ويستعطفوا غيرهم بالرَّغبةِ إليه للامتيار.

والرَّابع: أنَّ عامِ السَّنةِ لم يكن منقضيًا بعدُ، وحوائجُ النَّاسِ إلى الطَّعامِ قائمةٌ، فلو أحسُّوا بمكانه ورجعوا يبشرون^(٣) الخبرَ إلى أبيهم، فكانتْ تنقطعُ المعاملةُ، فلغلبةِ الإشفاقِ على النَّاسِ أحبَّ ألاَّ يُحسَّ بمكانه حتَّى تنقضيَ السَّنةُ ويتفرَّغَ قلبه عن همومِ الجائعين، ثمَّ يستوفيَ حظَّه من السُّرورِ في الاجتماعِ مع أبيه وإخوته.

وقالوا في قوله: ﴿أَتُوفِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَيْكُمُ﴾: كيف استجازَ زيادةَ الحزنِ لأبيه وشغلَ قلبه بسببه، وهو عالمٌ أنَّه ممتحنٌ بفراقه مهتمٌّ لفقدِهِ؟

(١) في (ف): «مما يجله».

(٢) في (أ): «معتلين».

(٣) في (أ): «وجعلوا تبشير».

قيل: بأنه قال ذلك عن وحي من الله تعالى، لم يفعله جزافاً، وعلم أن الله جلّ جلاله أراد استكمال صفاء يعقوب عن ميل الطبع إلى أخيه^(١)، فعامله على ما علم من الله تعالى.

(٦٣) - ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكَتْلُ وَإِنَّا لَاحْفَظُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكَتْلُ﴾: قرأ حمزة والكسائي: ﴿يكتل﴾ بالياء؛ أي: يكتل بنيامين لنفسه، وقرأ الباقون بالنون^(٢)؛ أي: نكتل^(٣) نحن له وقر بعير؛ أي: لأجله.

وقيل: معناه: إن الإخوة لما رجعوا إلى يعقوب عليه السلام قالوا: ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾، لم يريدوا أنه منع ما جاؤوا يشترونه، فقد قال: ﴿الْآتَرُونَ أَتَىٰ أَوْ فِي الْكَيْلِ﴾، بل أرادوا أنه قال لنا: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا نَقْرُبُونَ﴾، فتقدير قوله: ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾: ذكر لنا منع الكيل^(٤) إن أتينا نحن بلا أخ. ولما شق عليه ذلك وخاف ضياعه؛ قالوا: ﴿وَإِنَّا لَاحْفَظُونَ﴾.

(٦٤) - ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

(١) في (ر): «إلى حبه».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٥٠)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٩).

(٣) في (أ): «نكيل».

(٤) «ذكر لنا منع الكيل» ليس في (ف).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾: استفهامٌ بمعنى النفي؛ أي: لا أَتَّكِلُ على ضمانكم حفظه، وإن قُلْتُمْ: ﴿وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، فقد كنتم قُلْتُمْ في أخيه يوسف: ﴿أَرْسَلَهُ مَعَا غَدَا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، ولكنِّي أَتَّكِلُ على الله جلَّ جلاله.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرُ حَافِظًا﴾: قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: ﴿حَافِظًا﴾ على الحال، وقرأ الباقر: ﴿حِفْظًا﴾ على التفسير والتَّيْمِيز^(١).

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾: يرحمُنِي فيردُّ عليَّ ولدي؛ لعلمه بوجدي به بعد فقدي يوسف.

قال وهبٌ: فلمَّا رجعوا إلى أبيهم قالوا: يا أبانا جئناك من عند أعظم ملكٍ على وجه الأرض رأيناه أو سمعنا به، لا يُرى أنَّه كان في الأرض أعظمُ منه حلمًا وعلماً، وأشدُّ هيبةً، وأرهَبُ درعاً، وأعظمُ سلطاناً، وأرقُّ قلباً، وأكرمُ أخلاقاً، وأكثرُ رفقاءً، وأجملُ نائلاً.

لقد نظرنا في حكمه فما شبَّهناه إلا بحكمك، وفي وقاره فما شبَّهناه إلا بوقارك، وفي حلمه فما شبَّهناه إلا بحلمك، ولكنَّا أهلُ بيتٍ خُلِقنا للبلاء فابتُلينا، فاتَّهَمنا وكُذِّبنا، ومُنِعَ مِنَّا الكيل، وزعم أنَّه لا يصدِّقنا حتَّى ترسلَ معنا أخانا برسالةٍ منك تخبره فيها عن حزنك ووهنِ عظيمك، وعن سرعة الكبرِ إليك قبلَ أوانه، وما الَّذي أورتكَ ذلك؟

فحزنَ يعقوبُ عليه السلام حين سمعَ^(٢) هذا منهم، واتَّهَمهم وكذَّبهم، وظنَّ أنَّه مكرٌّ منهم ليفعلوا به مثل ما فعلوا بأخيه، فقال: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية.

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٥٠)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٩).

(٢) في (ر): «علم».

(٦٥) - ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَانَا مَا نَبِغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ﴾.
 وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾: أي: ووضعت في رحالهم.

﴿قَالُوا يَا بَانَا مَا نَبِغِي﴾: قال قتادة: أي: أي شيء نطلب؟ على الاستفهام؛ أي: أي عذر لنا في ترك الرجوع إليه مع أنه رد بضاعتنا وفعل ما ينبغي^(١)؟
 أو^(٢): لا نظلم فيما نقول ولا نكذب.
 وأجاز الفراء والزجاج الوجهين^(٣).

﴿هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾: فحصل الطعام لنا مجاناً ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾: نجلب لهم الطعام في هذه الكرة بهذه البضاعة ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾: من أن يناله سوء في سفره.
 وقوله تعالى: ﴿وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾: لأجل بنيامين، وعده لنا الملك.
 وقيل: كان وعد ذلك بغير ثمن.

﴿ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ﴾: أي: سهل؛ لأنه مجاناً، أو لأن ثمنه ممكن من هذه البضاعة، أو لأنه وعد لنا تعجيل التسريح بسبب أخينا، وفي حق سائر الناس حبس المدة وتأخير تسريح^(٤).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣٣ / ١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٦٦).

(٢) في النسخ: «أي»، والصواب المثبت.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣ / ١١٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٢ / ١٦٨).

(٤) في (ر) و(ف): «ترويح».

(٦٦) - ﴿ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾: قال يعقوبُ صلوات الله عليه: لن أبعثه معكم حتى تؤتوني عهدًا تجعلونه لله على أنفسكم لترجعنَّ به إليَّ، إلا أن يردَّ عليكم أمرٌ يُحال بينكم وبينه، وتُشرفوا على الهلكة إن حاولتم رده.

فلَمَّا أعطوه هذا العهد قال: الله مطالبٌ لكم بالخروج عن هذا الضَّمان، شاهدٌ على هذه الموائقة.

قال كعبٌ وهبٌ: ردَّهم في الكرَّة الأولى بغير ميرة، ولذلك قالوا: ﴿مَنْعَ مَنْ أَلْكَئِلْ﴾، ولذلك ردَّ البضاعة لِتَوْهُمْ أن لا^(١) يرجعوا لطلب الميرة، فيبقى عنده الثَّمن بغير تسليم المبيع.

وقال الجمهورُ: أعطاهم الميرة^(٢)، وتأويلُ كلمة المنع وردَّ البضاعة ما مرَّ.

قال وهب: ولمَّا وجدوا بضاعتهم؛ قالوا لأبيهم: ألا يدلُّك على عدلِ هذا الملك وورعه أنَّه دسَّ بضاعتنا في رحالنا مخافةً ألا نرجع إليه لِمَا رأى من خوفنا، فتبقى البضاعة في يده بغير حلِّها.

فاطمأنَّ قلبُ يعقوب بهذه الدلالة، وقال: إن كان لا بدَّ لكم من أن تذهبوا بأخيكم، فإنِّي لن أرسله معكم حتى تعاهدوني لتأتني به إلا أن يُحَاطَ بكم، فضمن ذلك يهوذا، وكان أراجاهم عنده، وهو الذي قال تعالى: ﴿قَالَ كَيْفَ يُهْمُ﴾، ولم يكن أسنهم، لكنَّه أعقلهم وأوثقهم، فدفعه إليه، فخرجوا.

(١) «لا» ليست في (ر) و(ف).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ٢٢٩).

(٦٧) - ﴿وَقَالَ يَبْنَئِ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَبْنَئِ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾: وكان بمصر أربعة أبواب.

قال ابن عباس والضحاك والسدي وقتادة: خاف عليهم لِمَا كان لهم من حُسن الصورة وجمال الهيئة وتمام القوة^(١).

وقيل: كان عام الجذب، فلو دخلوا من بابٍ واحدٍ مع الرّواحل ممتارين شقّ على أهل البلد إذا رأوهم مجتمعين، فأمرهم بذلك شفقةً عليهم لئلا تدخل وحشة في قلوب النّاس بسببهم.

وقيل: أحبّ ألا يفطنَ بهم أعداؤهم، فلا يحتالون لإهلاكهم. وهو دليل عطفه على كلّ أولاده، وأنّه لم يكن له حقدٌ عليهم بما سبقَ منهم في حقّه.

وهو مع هذا كلّهُ كان ناظرًا إلى حُكم الله تعالى فيه، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾: أي: لا أُنصّر ولا أدفع إن كان الله أراد بكم شيئًا من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ أي: ما الحكم إلاّ له ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

ومن الجائز أن يكونَ أمرٌ بذلك لئلا تظهر حاجتهم في أهل تلك البلدة، وتنتشر حالة اضطرابهم، وهو أمرٌ بالصيانة وكتمان الفاقة.

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٢٣٧ - ٢٣٨).

ويحتَمِلُ أَنَّهُ أَمْرٌ بِذَلِكَ لثَلَا يَقَعُ فِي أَوْهَامِ أَهْلِ تِلْكَ الْبَلَدَةِ أَنَّهُمْ حَضَرُوا الْمَقَاتِلَةَ^(١) الْمَلِكُ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ مَنَاطِرَ وَعَدَدٍ، وَكَانَ بَلَّغَتْهُمْ دَعْوَةُ يَعْقُوبَ. وَيَحْتَمِلُ غَيْرَ مَا قُلْنَاهُ، وَإِلَيْهِ إِشَارَةٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾.

وَاللَّابَاءُ وَصَايَا فِي حَقِّ الْأَوْلَادِ مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى الْإِحْتِيَاظِ، وَيَعْقُوبُ فِي كُلِّ ذَلِكَ مَنَزَّةٌ سَرَّهُ عَنِ الْإِعْتِمَادِ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، مَفَكَّرٌ فِيْمَا يَكُونُ. وَقِيلَ: لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِمُ الْهَلَكَةُ، لَكِنْ خَافَ عَلَيْهِمُ النَّكْبَةُ.

(٦٨) - ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾؛ أَي: مِنْ أَبْوَابٍ شَتَّى ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أَي: مَا كَانَ دُخُولُهُمْ مَتَفَرِّقِينَ مَغْنِيًا عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا؛ أَي: دَافِعًا لِقَضَائِهِ.

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾: أَي: لَكِنْ كَانَ ذَلِكَ اضْطِرَابًا فِي قَلْبِهِ، أَزَالَ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ بِوَصِيَّتِهِ؛ لثَلَا يَقُولُ: قَصَرْتُ فَلَمْ أَنْصَحْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾: أَي: وَإِنَّ يَعْقُوبَ لِعَالِمٌ بِاللَّهِ وَأَقْضِيَّتِهِ؛ لِتَعْلِيمِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أَي: مَا يَعْلَمُ يَعْقُوبَ.

(٦٩) - ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾: قال الحسن وقتادة: أي: ضمَّ إلى نفسه أخاه بنيامين، وأنزله معه^(١).

وقيل: أجلسه معه على سريريه.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: تعرَّفَ إليه وأخبره أنه يوسف أخوه^(٢).

قال وهبٌ والسُّدِّيُّ: لم يقل له: أنا يوسف، ولكن طيَّبَ نفسه وقال: أنا أخوك؛ أي: بدل أخيك المفقود^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلا تحزن^(٤). وقال الضَّحَّاك: فلا تبال.

وقال قتادة: لا تكثر^(٥).

وحقيقته: لا تُظْهِرِ من نفسك البؤس بما نالك.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٢٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٧٠) عن قتادة،

وذكره الواحدي في «السيط» (١٢ / ١٧٦) عن الحسن وقتادة.

(٢) ذكره الواحدي في «السيط» (١٢ / ١٧٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٢٤٢) عن وهب.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ٢٠٢٥).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٧٠)، ولفظ الطبري:

«لا تأس ولا تحزن».

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: من الجفاء، وذكرى بغير الجميل عندك مغايظة لك.

وقال وهب: قال لهم يوسف صلوات الله عليه: هل بلغتم أباكم ما قلت لكم؟ قالوا: نعم، وقد ردَّ إليك الجواب مع ابنه هذا.

قال يوسف: بماذا أرسلك أبوك؟ قال: إنَّه يقرأ عليك السَّلام، ويقول لك: إنَّك سألتني عن خوفي وحزني وكبري وشيبي ووهن عظمي، وإنِّي أطول النَّاس حزنًا، وأحقُّهم بذلك، وأخوفُّهم لديهم، وأذكرُّهم لمعادِهِ، وأكبرُّني قبلَ أوان الكبرِ تذكُّرُ يوم القيامة، وشيبي قبلَ أوان الشَّيب تذكُّرُ النَّار، وأوهن عظمي قبلَ أوان الضَّعف الحزنُ على يوسف، وأعمى بصري البكاء^(١).

وإنَّا أهل بيتٍ أكرمنا اللهُ تعالى بالبلاء، وشرفنا ورفعنا به، فنحنُ مخصوصون بعظيمه^(٢)، فلا تصفو لنا الدُّنيا، ولا نزالُ فيها مفجَّعين مرَّوعين، وقد بلغني تحزُّنك بي واهتمامك بأمرِي، وعرفتُ حقيقة ذلك حين سألتني عن حالي، وسألت عني، وكفى بالله مجازيًا ومثيًّا، واعلم أنَّك لن تكرمني بكرامةٍ أعظم في صدري وأبلغ في سروري من أن تعجلَّ لي ما يَشيعُ عيالي به، ثمَّ عجلَّ إلى سراح ولدي، فتصلَّ بهم وحدتي، وتونسَ بهم وحشتي.

فلَمَّا سمِعَ يوسف عليه السَّلام قول أبيه ورسالته بكى سرًّا فاشتدَّ بكاؤه، وحزنَ فاشتدَّ حزنُهُ.

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أنَّ بنيامين كتبَ على ثوبه في مواضع: يوسف

(١) في (أ): «بكائي».

(٢) في (أ) و(ف): «بعظمه» والمعنى متقارب.

يوسف يوسف، شوقاً إليه وتسلياً بالنظر إلى اسمه مكتوباً في ثوبه، فقال له يوسف: ما هذا؟ فقال: هو اسم أخٍ لي أكله الذئب وفُجئتُ به، فجعلتُ اسمه تذكراً لي وتسكيناً لقلبي.

فقال: هل كنتَ هناك إذ أكله الذئب؟ قال: لا، ولكن هؤلاء الإخوة ذكروا لي ذلك. فقال لهم: أهو كذلك؟ قالوا: نعم.

قال: سمعتُ أن فيكم من يقطع الشجرة بأصلها، ثم يضربها برجله فيجعلها قطعاً قطعاً، أهو كما سمعتُ؟ قالوا: نعم، هو هذا. وأشاروا إلى روبيل، فقال يوسف: أكله الذئب وأنتَ فيهم؟ هذا محالٌ.

ثم قال: سمعتُ أن فيكم من يدرك الأسد بعدوه، فيشق لحيته، أهو كما سمعتُ؟ قالوا: نعم، هو هذا. وأشاروا إلى شمعون، قال: أكله الذئب وأنتَ فيهم؟ هذا محالٌ.

ثم قال: سمعتُ أن فيكم من لو صاح على باب مدينة وضعت كل ذات حمل حملها، ولو صاح أخرى وضعت كل بهيمة حملها، أهو كما سمعتُ؟ قالوا: نعم، هو هذا. وأشاروا إلى يهوذا، قال: أكله الذئب وأنتَ فيهم؟ هذا محالٌ. فسكتوا وخجلوا، وكذلك العاصي في القيامة إذا لزمته الحجة.

وفي القصة: أنه دعا لهم بموائد وقصاع، فجلس كل اثنين منهم على مائدة صغيرة، وبقي بنيامين وحده، فجعل يبكي، فقال له يوسف: لم تبكي؟ قال: لو كان معي أخي يوسف لم أبق منفرداً، قال: أترضى أن أكون لك أخاً؟ قال: لا يقوم لي أحدٌ مقام أخي. فقال: أترضى أن أكون لك في الأكل صاحباً؟ فقال: ومن يجد ذلك؟ فضمّه إلى نفسه، وجلس يأكل معه.

فلَمَّا أخرج يده ليأكل بكي بنيامين؛ فقال له يوسف: لِمَ تبكي؟ قال: ما أشبه هذه اليد بيد يوسف! فقال: هذه يدُ يوسف، وأنا يوسف. فذلك قوله: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾، فقال بنيامين: وإذ وجدتُكَ فلا أفارقُكَ، ولا أرجعُ مع أصحابي.

فقال: لقد علمتُ اغتمامَ الوالد بك، وإن حبستُكَ ازدادَ غمُّهُ، ولا يتهيأ لي وجهٌ صالحٌ إلَّا بعد أن اتَّهَمَكَ^(١) بأمرٍ فظيعٍ، وأنسبك إلى ما لا يَجْمَلُ بك بحالٍ^(٢). قال: لا أبالي، فافعل ما بدا لك، فإنِّي لا أفارقُكَ.

قال: فإنِّي أدسُّ صاعِي هذا في رحلك، ثم أنادي عليك بالسَّرقة ليتهيأ لي ردُّكَ بعد تسريحك. قال: فافعل.

(٧٠) - ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ﴾: فسَرَّناه مرَّةً.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾: السَّقَايَةُ: هي الإناء الذي يُسقى فيه، وهي هاهنا صاع الملك، فكان يشربُ منه. وقيل: كان من فضة.

وقال ابن زيد: كان من ذهب^(٣).

وقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: كان من نحاسٍ^(٤).

(١) في (ف) و(أ): «أشهرك».

(٢) «بحالٍ» ليس في (ف).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٢٤٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٧١).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٢٥١).

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ﴾ يحتمل أن يوسف وضعها بنفسه وأخفاها عن الكل، فلما افتقدوا طلبوا، وبما ظنوا اتهموا، ويحتمل أنه أمر بعض خواصه بذلك. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذِنَ مُؤَدِّنٌ﴾: أي: نادى منادٍ مُعلِّماً مُسمِعاً: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ قال الفراء: هم ركاب الإبل^(١).

﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾: أي: فيكم سارق، أو جماعة اشتركوا في السرقة. وقال الإمام القشيري رحمه الله: هان على بنيامين ما قيل فيه من السرقة بعدما بقي مع يوسف.

وقيل: لئن نسب يوسف أخاه إلى السرقة جهراً فقد تعرّف إليه بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ سرّاً، فكان متحملاً لأعباء الملامة ظاهراً، محمولاً بوجدان الكرامة باطناً، وأنشد:

أجد الملامة في هواك لذيدةً حباً لذكرِكَ فليُلمني اللوم^(٢)
قال وهب: وأمر يوسف بالصواع فُدس في رحل بنيامين، وكان إناءه الذي يشرب فيه، وكان من نحاسٍ، فلما فصلت العير وأمعنوا أرسل الطلب في أثرهم، فلم يشعروا حتّى أخذ^(٣) بخطم رواحلهم، فقالوا: ما خطبكم؟ فأذن مؤذن الملك: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾.

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥ / ٢٣٩)، و«زاد المسير» (٤ / ٢٥٧).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ١٩٥). والبيت لأبي شيبه محمد بن عبد الله بن رزين.

كما في «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (٢ / ٨٣٢)، و«العقد» لابن عبد ربه (٦ / ٢٢٠).

(٣) في (ف): «أخذوا».

(٧١) - ﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾: أي: إخوة يوسف ﴿وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: توجَّهوا إلى مَنْ أرسلهم يوسف: ﴿مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾؛ أي: أي شيءٍ فقدتم فجتتم تطلبونه؟

(٧٢) - ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلَمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ﴾: هو اسمُ تلك السَّقَاية، وكان صاعاً يُكَالُ به الطَّعام ﴿وَلَمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾؛ أي: وَلَمَن رَدَّه علينا حِمْلُ بَعِيرٍ طعاماً ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾؛ أي: كفيلٌ بتسليمه إليه، والزَّعَامَةُ: الكفالة، مِنْ حَدِّ دَخَلَ.

وقال في «كتاب عصمة الأنبياء» في قوله: ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِي﴾: فَإِنْ قَالُوا: لِمَ استَجَارَ يوسفُ هذا، وهذا يُعَدُّ فيما بينَ النَّاسِ مِنْ أسبابِ الخيانة والخديعة؟

قلنا: إِنَّه فعلٌ ذلك بالوحي؛ قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ والله تعالى أجرى في أحوال يوسف وإخوته وأبيه من الأعجوبات ما تنقطعُ عنه علومُ العباد، ولا تقفُ على كُنْه معانيه، حتَّى يرجعوا إلى تسليم القدرة.

وكان قصده بوضعه ذلك في رحل أخيه^(١) ابتداءً إمساكاً، وله ذلك لأنَّه أخوه، ولو حبسه من غير علَّة ربَّما كانت تقع المماسكة^(٢) بين الإخوة، ولم يكن وقت إظهار حقيقة الحال، ففعل ما لا يجدون السَّبِيلَ إلى منعه إلى أن ينقضي الأمر في حكم الله تعالى.

(١) في (ف) و(أ): «رحله».

(٢) في (ف): «المماسكة».

وقول المنادي: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ له وجوه:

أحدها: ما قال الإمام أبو منصور رحمه الله: إِنَّ المنادي به لَمْ يكن يوسف، وإنَّما كان مِنْ خَدَمِهِ، أو مِنَ الْقَوْمِ^(١) على أسبابِ مملكته، وهم قَلَمَّا يراعون حدودَ الكلامِ حتَّى يُتَكَلَّفَ لتحسين كلامهم^(٢).

وقال الإمام البشاغري: إِنَّ وضعَه في رحلِه كان في منزلِ يوسف، بحيث حملوا وصاروا هم مخرجين ذلك الوعاء فعلاً، وإنْ لم يشعروا به، فَمِنْ جهةِ عينِ الفعل بحملِ ذلك الوعاء سُمُّوا سارقين؛ لاجتماعهم على إخراج الرِّحالِ مِنْ دارِه، ألا ترى في الأحكام: مَنْ حَلَفَ لا يحملُ مِنْ منزله ثوباً، وقد كان الثوبُ في ظرفٍ وحمله به = أَنَّهُ يحنث في يمينه وإنْ لم يشعر به، وهو موجبٌ للضَّمانِ إذا حمَلَه إنسانٌ.

ويوسفُ عليه السلام وإنْ^(٣) جعلَه في وعاءٍ أخيه لم يأمرُ بإخراجه من الدَّارِ، ولا برفعِ الرِّحلِ، فما فعلوا فعلوا بغير أمرِه، وَمَنْ أخرجَ متاعاً مِنْ دارِ إنسانٍ فهو في ضمانِ المخرجِ إذا كان بغير أمرِه؛ فلذلك سُمُّوا سارقين على هذا التَّأويلِ.

وقيل: هو على الاستفهام؛ أي: أأنَّكم لسارقون؟ لأنَّ مِنَ الجائزِ أن يكونَ ظهَرَ منهم عند يوسف مِنْ بدء أمرهم إلى اليوم ما يُطلقُ لهم تسميتُهم به، وإنْ لم يكونوا سارقين هذا الوعاء.

وقيل: كان تعريضاً بإخراجهم^(٤) يوسفٌ مِنْ عندِ أبيه، كاتمينَ ما قصدوا أن يفعلوا به من تغيبه عنه.

(١) في (أ): «القوام».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٦٦).

(٣) في (أ): «فيما» وفي (ف): «فلما».

(٤) في (ر): «بإخراج».

(٧٣) - ﴿قَالُوا تَأَلَّهَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَاجِئَنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَأَلَّهَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَاجِئَنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾:

أرادوا به ما انتشر به الخبر عنهم في طريقهم من جهة من صحبهم بصلاحيهم وظهور أعمال الخير منهم ومعاملتهم الناس بالإنصاف والإحسان.

وروي أنهم كانوا في طريقهم لا ينزلون أرضاً هي ملك الغير، ولا يرعون لأحد زرعاً، وكانوا جعلوا على أفواه دوابهم الألجمة^(١) لئلا تتناول الزرع، ولأنهم ردوا البضاعة التي جُعِلَتْ في رحالهم.

قال وهبٌ: قالوا الأولاد يعقوب: ما هكذا كان جزاؤنا منكم، ألم نكرم ضيافتكم، ونوفَّ كيلكم، ونحسن نُزْلَكُمْ، ونفعل بكم ما لم نفعله^(٢) بغيركم؟ ألم ندخلكم في منازلنا وبيوتنا؟

فقالوا: ما نعرف بهذا، ولا نُوصِفُ به، ﴿تَأَلَّهَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَاجِئَنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾.

(٧٤ - ٧٥) - ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾^(٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ

فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾^(٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ

كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ: قال: فأنىخوا نفثس رحالكم، فأنىخوا واثقين^(٣) بما يقولون

(١) في (أ): «الأكمة». الأكمة: جمع الكمامة بالكسر، وهو ما يوضع على فم البعير لئلا يعض.

(٢) في (ف): «نفعل».

(٣) في (ر): «وأيقنوا».

مِنْ بَرَاءَتِهِمْ، شَدِيدَةً أَلَسْتُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ، فَبَدَأَ بِرَحْلِ أَخِيهِمِ الْكَبِيرِ، ثُمَّ بِالَّذِي يَلِيهِ، حَتَّى بَلَغَ رَحْلَ بَنِيَامِينَ، فَوَجَدَ الصُّوَاعَ مَدْسُوسًا، فَلَمَّا اسْتَخْرَجَهُ مِنْهُ نَكَسُوا رُءُوسَهُمْ، وَانْكَسَرَتْ قُلُوبُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ أَلَسْتُهُمْ، وَخَلَوْا بِأَخِيهِمْ، وَقَالُوا: يَا ابْنَ الْمَشْؤُومَةِ، وَأَخَا الْمَشْؤُومِ، مَا هَذَا إِلَّا مِنْ شُؤْمٍ أَمَّاكَ، وَشُؤْمٍ وَلَدِهَا^(١)، وَلَوْلَا ائْتَمَرْنَا فِي أَخِيكَ أَمْرًا جَازِمًا لَجَرَّ عَلَيْنَا^(٢) أَعْظَمَ مِنْ جَرِيرَتِكَ، فَمَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَسْرِقَ صُوعَ الْمَلِكِ فَتَفْضَحَنَا وَتَفْضَحَ نَفْسَكَ، وَتُزِيرَ بِأَيْبِكَ الصَّدِّيقَ؟ وَلَيْسَ هَذَا بِأَوَّلِ مَا سَاءَتْنَا أَمَّاكَ بَوْلَدِهَا، حَتَّى فِي يَوْسُفَ حِينَ صَرَفَ وَجْهَ أَبِينَا عَنَّا، فَحَمَلْنَا شُؤْمَكُمْ عَلَى أَنْ أَحْزَنَّا أَبَانَا، وَبَغَيْنَا أَخَانَا، وَلَوْ كُنَّا فَعَلْنَا ذَلِكَ بِكَ لَاسْتَرَحْنَا^(٣)، وَلَخَلَا لَنَا وَجْهٌ أَبِينَا.

فَقَالَ لَهُمْ بَنِيَامِينَ: اسْمَعُوا مِنِّي^(٤) يَا إِخْوَتَاهُ، لَا تَعْجَلُوا عَلَيَّ وَلَا تَشْتُمُونِي، فَإِنِّي سَأَتِيَكُم بِوَجْهِ مِنَ الْحَقِّ تَعْرِفُونَهُ وَتَعْرِفُونَ بِهِ بَرَاءَتِي وَعُذْرِي، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ بَضَائِعَكُمْ قَدْ دُسَّتْ فِي رِحَالِكُمْ يَوْمَ صَدَرْتُمْ مِنْ عِنْدِ هَذَا الْمَلِكِ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْكُمْ؟ فَإِنْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ سَرَقْتُمُوهَا وَدَسَّيْتُمُوهَا فِي رِحَالِكُمْ كُنْتُ أَنَا سَرَقْتُ الصُّوَاعَ وَدَسَّيْتُهُ فِي رَحْلِي، وَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَدْرُونَ مَنْ دَسَّ الْبَضَائِعَ فِي رِحَالِكُمْ فَكَذَلِكَ لَسْتُ أَدْرِي مَنْ دَسَّ الصُّوَاعَ فِي رَحْلِي، وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْمَلِكَ يَرِيدُ بِكُمْ أَمْرًا، فَهُوَ يَمْكُرُ بِكُمْ مِنْ أَجْلِهِ.

فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ هَذَا نَظَرُوا فِيْمَا قَالَ، فَأَخَذَ بِأَنْفُسِهِمْ وَتَعَلَّقَ بِقُلُوبِهِمْ وَصَدَّقُوهُ،

(١) بعدها في (أ): «يندفع»، وفي: «تترفع».

(٢) في (أ) و(ر): «ولولا أنتم ما في أخيك أمرًا حارمًا لجر علينا» وفي (ر): «ولولا أنتم ما في أخيك أمرًا جازمًا تجرأ علينا»، وفي (ف): «ولولا أنتم ما جرى علينا». وكلها كما ترى.

(٣) «ولو كنا ما فعلنا ذلك لاسترحنا».

(٤) «اسمعوا مِنِّي» ليس في (ف).

فلَمَّا رَجَعُوا إِلَى يُوسُفَ وَدَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ: كَيْفَ رَأَيْتُمْ فِرَاسَتِي فِيكُمْ، وَعَلِمِي بِأَمْرِكُمْ، أَلَيْسَ قَدْ أَخْبَرْتُكُمْ أَوَّلَ يَوْمٍ رَأَيْتُكُمْ أَنَّكُمْ سَرَّاقٌ فَأَنْكَرْتُمْ وَحَلَفْتُمْ؟ وَإِيْمَ اللَّهِ، لَا تَبْرَحُونَ حَتَّى أَسْأَلَ الصُّوَاعَ عَنْكُمْ، فَيُخْبِرَنِي بِخَبْرِكُمْ، فَإِنَّهُ غَضَبَانِ عَلَيْكُمْ مِنْ أَجْلِ أَنَّكُمْ سَرَقْتُمُوهُ، فَهُوَ خَلِيقٌ أَنْ يَفْضَحَكُمْ، وَأَلَّا يَسْتَرَّ شَيْئًا مِنْ مَسَاوِيكُمْ.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ، وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾: يعني: أسوأ صنيعة بما صنعتُم بيوسف ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾: بما تقولون من الكذب بأن أخاه يوسف سرق.

وإنما عيروا يوسف^(١) بالسرقة؛ لأنه كان لجدِّ يوسف أبي أمه صنمٌ يعبده، فقالت أم يوسف ليوسف: خذ هذا الصنم الذي يعبده جدُّك فغيِّبه؛ لعلَّه يترك عبادة الأصنام، وكان صنمًا من ذهب، فغيِّبه يوسف، فلم يقدروا عليه، فمن أجل الصنم قالوا: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

ثم قال يوسف لأمينه: سل هذا الصُّوَاعَ عن خبر هؤلاء القوم، وحذِّره أن يكتُم شيئًا من أمرهم.

فنقره الأمين^(٢)، ثم قال: أخبر الملك بالذي سألك عنه، فطن الصُّوَاعُ ساعةً، والأمينُ مصغٍ إليه بأذنه، فلَمَّا سَكَتَ الصُّوَاعُ قال الأمين: إنه يقول لك: أيُّها الملك، إن هؤلاء القوم ليس هذا بأوَّلَ ما سرقوا، إنهم سرقوا قبل صُواعك هذا غلامًا حرًّا فباعوه.

قال: زد فسَلَّه عنهم، وقُلْ له: يخبرني من أخبارهم، فنقر الصُّوَاعُ، فطن وهو مصغٍ إليه بأذنه، فلَمَّا سَكَتَ الصُّوَاعُ قال الأمين: إنه يقول: إن أخاهم الذي أخبروك

(١) في (ر) و(ف): «عيروه».

(٢) في (ف): «فنقر الأمين الصُّوَاعَ».

أَنَّهُ قَدْ مَاتَ حَيٌّ، وَلَكِنَّهُ مَغْتَرَبٌ بِأَرْضٍ بَعِيدَةٍ، وَهُوَ بِهَا حَيٌّ سَلِيمٌ، وَزَعَمَ الصُّوَاعُ أَنَّهُمْ لَمْ يَصْدُقُوا.

قال: زِدْ فَسَلُهُ عَنْهُمْ، وَقُلْ لَهُ: أَخْبِرْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ، فَنَقَرَ الْأَمِينُ فُطْنٌ وَهُوَ مَصْنَعٌ إِلَيْهِ بِأُذُنِهِ، فَلَمَّا سَكَتَ الصُّوَاعُ قَالَ الْأَمِينُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ أَخْبَرُواكَ أَنَّهُمْ لَا مَّ وَاحِدَةٍ، وَقَدْ كَذَبُوا، وَلَكِنَّهُمْ لَعَلَّاتٍ، وَإِنَّمَا جَمَعَ الْفَتَاهُ غَدْرَةً غَدَرُوا بِأَبِيهِمْ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ بَيْنَهُمْ مَا يَكُونُ بَيْنَ أَوْلَادِ عِلَّاتٍ.

قال: فَزِدْهُ فَسَلُهُ عَنْهُمْ، وَقُلْ لَهُ يَخْبِرُنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ، فَنَقَرَهُ فُطْنٌ وَهُوَ مَصْنَعٌ إِلَيْهِ بِأُذُنِهِ، فَلَمَّا سَكَتَ قَالَ الْأَمِينُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّ الصُّوَاعَ يَقُولُ لَكَ: مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ عَصَابَةٍ هِيَ أَكْذَبُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، لَقَدْ كَذَبُوا أَبَاهُمْ كَذِبَةً مَا اسْتَقَالُوهَا بَعْدُ، وَلَا غُفِرَتْ لَهُمْ.

قال: فَزِدْ فَسَلُهُ عَنْهُمْ، وَقُلْ لَهُ يَخْبِرُنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ، فَنَقَرَهُ فُطْنٌ وَهُوَ مَصْنَعٌ إِلَيْهِ بِأُذُنِهِ، فَلَمَّا سَكَتَ قَالَ الْأَمِينُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّ الصُّوَاعَ يَقُولُ: مَا دَخَلَ عَلَى أَبِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَذْعَلُواهُمْ وَلَا حَزَنٌ وَلَا بَلَاءٌ وَلَا بَكَاءٌ إِلَّا مِنْ جَهْتِهِمْ وَسَبَبِهِمْ وَعَلَى أَيْدِيهِمْ وَبِجَرَائِهِمْ. فَلَمَّا خَافُوا أَنْ يَبْلُغَ بِهِمُ الْخَبْرُ وَالْمَسَائِلُ شَأْنَ يُوسُفَ وَفَعَلَهُمُ الَّذِي فَعَلُوهُ بِهِ وَبِأَبِيهِمْ^(١) أَكْبُوا عَلَى يُوسُفَ فَالْتَزَمُوهُ يَقْبَلُونَ رَأْسَهُ وَقَدَمَيْهِ، وَيَسْأَلُونَهُ بِاللَّهِ، وَيَذْكُرُونَهُ وَيَقُولُونَ لَهُ: نَسَأُكَ بِالَّذِي فَضَّلَكَ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَشَبَّهَكَ بِالنَّبِيِّينَ لَمَّا سَتَرْتَ الْعَوْرَةَ، وَأَقْلَتِ الْعَثْرَةَ، وَكُنْتَ عِنْدَ حَسَنِ الظَّنِّ بِكَ، وَالرَّجَاءِ فِيكَ، وَإِلَّا مَا حَفِظْتُ^(٢) رِسَالَةَ أَبِينَا يَعْقُوبَ إِلَيْكَ، وَوَصِيَّتَهُ فِينَا، وَرَحِمْتَ ضَعْفَهُ وَكَبَرَهُ وَوَحَدَتَهُ بَعْدَنَا، وَوَحْشَتَهُ بَغِيَّتِنَا.

(١) «وبأبيهم» ليس في (ف).

(٢) في (أ) و(ر): «وحفظت» بدل «وإلا ما حفظت».

فرَّق حين ذكروا أباه، وأدرَكته الرَّحمةُ لهم فقال: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ لَا حَرَمَةُ يَعْقُوبَ وَحَقُّهُ وَوَصِيَّتُهُ وَرِسَالَتُهُ لَنَكَلْتُ بِكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ، وَلَشَرَكْتُ^(١) بِكُمْ السَّرَّاقَ وَاللُّصُوصَ، فَانْطَلِقُوا فَقَدْ عَفَوْتُ عَنْكُمْ، فَاغْرِبُوا^(٢) فَلَا حَاجَةَ لِي فِيكُمْ، وَعَجَّلُوا بِمِيرَ تَكُمْ إِلَى أَبِييْكُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ أَوْعَزَ إِلَيَّ أَنْ أَعْجَلَكُمْ.

قالوا: فَا رَحِمُ كَبْرَهُ بَابِنِهِ هَذَا الَّذِي تَرِيدُ أَنْ تَحْبِسَهُ، فَإِنَّكَ لَنْ تَصْلَحَ بِصَلَةِ أُبْلَغَ مِنْهَا، وَإِنَّكَ إِنْ حَبَسْتَهُ ضَاعَفْتَ عَلَيْهِ الْبَلَاءَ.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾: أي: قال طالبو الصَّوَاع: فما مكافأة السَّارِق؟

وقيل: فما عوض الصَّوَاع إِنْ ظَهَرَ كَذِبُكُمْ بِوُجُودِ الصَّوَاع مَعَكُمْ؟

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾: أي: قال إخوة يوسف:

﴿جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ...﴾.

قيل: ﴿جَزَاؤُهُ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ خبره، ومعناه: عوض المسروق سارقه؛ أي: فيؤخذ فيُملَك ويُستعبد، وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ تأكيدٌ للتكرير، ومعناه: إنَّه الجزاء لا غير.

وقيل: ﴿مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ شرط، وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ خبره، وهذه الجملة

خبرُ قوله: ﴿جَزَاؤُهُ﴾ في الابتداء.

وقيل: كان هذا حكم يعقوب في السَّراق، فأخبروا بما هو حكم بلادهم،

ولذلك قال:

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾: أي: السَّراق؛ أي: هو حكم شريعتنا.

(١) في (أ): «ولشدت»، وفي (ر): «ولشردت».

(٢) في (ف): «فاعزموا».

وقيل: لم يكن ذلك حكمَ يعقوب، بل كان ذلك^(١) حكمَ أهلِ مصر، فبادروا بالتزام هذا الحكم قبل أن يُجبروا عليه.

وقيل: لم يكن ذلك حكمَ أحدِ الفريقين، وإنما هو شيءٌ اتَّفَقَ لهم القولُ به ثقةً منهم بأنَّهم لم يسرقوا، فنَفَوْا التُّهْمَةَ عن أنفسهم بالتزامهم أغلظَ ما يكون رسمًا^(٢) وحكمًا في السَّرَّاق، فكان ذلك أمرًا أَرَادَهُ اللهُ تعالى إتمامًا لمرادِ يوسفَ من احتباس أخيه عنده، فأجرى هذا القول على ألسنتهم.

وقيل: معنى قوله: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾؛ أي: هو الَّذِي يُجْزَى جزاءَ السَّرَّاقِ دون غيره.

(٧٦) - ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾؛ أي: بدأ المؤذن برحال الإخوة قبل رحل أخِي يوسف وهو بنيامين، والوعاءُ: الطَّرْفُ الَّذِي يُوعَى فِيهِ الشَّيْءُ؛ أي: يُحْفَظُ.

﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾؛ أي: أخرج السَّقَايَةَ، وقال الزَّجَّاجُ: أي: الصُّوَاعَ، ويذكر ويؤنَّث، فلذلك قال: ﴿وَلَمَن جَاءَ بِهِ﴾، ثُمَّ قال: ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾؛ أي: كدنا إخوة يوسف ليوسف^(٤)،

(١) في (أ) و(ر): «هو».

(٢) في (أ): «وسمًا».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٢٢).

(٤) «ليوسف» ليس في (أ).

والكيْدُ: التَّعْرِضُ لِلضَّرَرِ فِي خَفَاءٍ؛ أَي: أَوْقَعْنَا هَذَا النَّوعَ مِنَ الْحَالِ عَلَى إِخْوَةِ يَوْسُفَ لِأَجْلِ يَوْسُفَ^(١)؛ لِيَتَهَيَّأَ لَهُ حَبْسُ أَخِيهِ بِهَذَا النَّوعِ مِنَ السَّبَبِ.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾: أَي: لَمْ يَكُنْ يَوْسُفَ لِيَأْخُذْ أَخَاهُ فِي حَكْمِ مَلِكٍ مِصْرَ، وَعَادَةِ مَلِكٍ مِصْرَ - فَالَّذِينَ اسْمُ لِهَمَا - بِتَهْمَةِ السَّرْقَةِ، وَبِحَبْسِهِ، إِلَّا أَنْ يَسْبَبَ^(٢) اللَّهُ لَهُ التَّزَامَ الْإِخْوَةَ فِي ذَلِكَ حَكْمَ شَرِيعَةِ أَبِيهِمْ، وَهَذَا عَلَى قَوْل مَنْ جَعَلَ اسْتِرْقَاقَ السَّارِقِ^(٣) حَكْمَ يَعْقُوبَ دُونَ أَهْلِ مِصْرَ.

وَأَمَّا عَلَى قَوْل مَنْ عَكَسَ هَذَا الْقَوْلَ فَتَأْوِيلُهُ: كَذَلِكَ كِدْنَا لِيَوْسُفَ فِي إِظْهَارِ السَّرْقَةِ عَلَى أَخِيهِ، وَمَا كَانَ لَهُ أَخْذُهُ فِي حَكْمِ مَلِكٍ مِصْرَ إِلَّا بِالسَّرْقَةِ. فَالْمَشِيئَةُ عَلَى هَذَا وَاقِعَةٌ عَلَى وَقُوعِ السَّرْقَةِ مِنْهُ.

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ حَسَنَهَا وَقَبِيحَهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾؛ أَي: صَنَعْنَا^(٤).

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: أَي: أَلْهَمْنَا^(٥).

وَقِيلَ: قَوْلُهُ: ﴿كَدْنَا﴾؛ أَي: كَمَا فَعَلُوا فِي الْإِبْتِدَاءِ بِيَوْسُفَ فَعَلْنَا بِهِمْ، قَالَ تَعَالَى خَبَرًا عَنْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾، وَكَانَ هَذَا جِزَاءَ كَيْدِهِمْ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَي: فِي سُلْطَانِ الْمَلِكِ^(٦).

(١) فِي (ر): «لِيَوْسُفَ؛ لِأَجْلِ يَوْسُفَ»، وَكُلُّهَا لَيْسَتْ فِي (أ).

(٢) فِي (أ): «يَشَاءَ».

(٣) فِي (ر) وَ(ف): «جَعَلَ الْاسْتِرْقَاقَ».

(٤) ذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥ / ٢٤٢).

(٥) ذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥ / ٢٤٢)، وَالْوَاهِدِيُّ فِي «الْبَسِيطِ» (١٢ / ١٨٨).

(٦) رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٣ / ٢٦٤)، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٧ / ٢١٧٦).

وقال قتادة: في قضاء الملك^(١).

وقال مجاهد: في سنة الملك^(٢).

وقوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾: أي: بتعليم العلم في كل باب، والإيصال به إلى المحابِّ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى، فلا يكون فوقه عليمٌ.

(٧٧) - ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾: أي: قال الإخوة: إن سرق هذا الأخ فقد سرق أخ له من قبل، وهو يوسف^(٣)، وهذا اقتداءً بأخيه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾: أي: فأخفى هذه المقالة يوسف في قلبه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾؛ أي: لم يُظهرها لهم؛ أي: لم يقل: أنا يوسف وما سرقْتُ قطُّ، فلمْ كذبتُم عليَّ؟

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا﴾: أي: قال في نفسه: أنتم أسوأ حالاً منه إن ثبتَ منه ما تقولون عليه، فأنتم جفوتُم أباكم، وبعثتُم أخاكم، وقصدتُم قتله أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾: أي: بما تصفونه به من السرقة.

واختلف في وجه إضافتهم السرقة إليه:

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٢٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٧٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٢٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٧٦) بلفظ: ﴿مَا كَانَ

لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ إلا فعله كادها الله له، فاعتل بها يوسف.

(٣) «وهو يوسف» ليس في (ف).

قال ابن عباسٍ ومجاهد: كان لإبراهيم منطقةً كانوا يتوارثونها الكُبر من أولاده، فورثها ابنه إسحاق، ثم وقعت إلى رحمة بنت إسحاق أخت يعقوب، وكانت أكبر أولاد إسحاق، وماتت أم يوسف راحيل، فحضنت رحمة يوسف، وكانت تربيته إلى أن شب، وكانت لا تصبر عنه ساعة، فلما شب أراد يعقوب أن ينزعه منها ويرده إلى منزله، فعلمت بذلك أخته، فشددت المنطقة على وسط يوسف، وبعثت به إلى يعقوب، ثم أتت على إثره فقالت: فقدت المنطقة، ولم أجدها في بيتي، ففتشوا ثياب يوسف، فإذا المنطقة على وسطه، وكانت سنة آل يعقوب استرقاق اللصوص والسراق ثلاثة أشهر، فردت يوسف إلى منزلها ثلاثة أشهر، فذلك قولهم: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنون: أن يوسف سرق المنطقة^(١).

وقال وهب: كان يخبئ الطعام من المائدة للفقراء^(٢).

وقال كعب: كان يوسف في المنزل وحده، فأتى يوسف سائل، وكان في المنزل عناق - وهو الأثني من الجدي - فدفعها إلى السائل من غير أمر أبيه^(٣).

وقال ابن إسحاق: كان في منزل يعقوب جوبة^(٤) فيها صنمٌ لجد أم يوسف، فحمله يوسف فألقاه فيما نتن من الجيف، وغطاه بالتراب^(٥).

وقد حكيانه عن وهب في سياق القصة أتم من هذا.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٢٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٧٨) عن مجاهد.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢٤٣). وذكره الواحدي في «البيسط» (١٢ / ١٩٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما ووهب.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢٤٣).

(٤) في (ف): «جونة». والجوبة: الحفرة، وفجوة ما بين البيوت، أو فضاء أملتس بين أرضين. انظر: «القاموس» (مادة جوب).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٢٧٢ - ٢٧٣) عن سعيد بن جبيرة وقتادة وابن جريج.

وقال سفيان بن عيينة: سرق يوسف دجاجة كانت في بيت يعقوب، وأعطاهها سائلاً^(١).

(٧٨) - ﴿قَالُوا يَتَّيْنَهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَتَّيْنَهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾: العزيز: المنيع.

وقوله: ﴿كَبِيرًا﴾؛ أي: في السن، والكبير في القرآن لمعانٍ: أحدها: هذا.

والثاني: الكثير: ﴿وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ يعني: قليلاً أو كثيراً.

والثالث: العظيم؛ قال تعالى: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

والرابع: الطويل؛ قال تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٩]؛ أي: شقاءً طويلاً.

والخامس: الشديد؛ قال تعالى: ﴿نَذَقَهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩].

والسادس: الأعلم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُم﴾ [طه: ٧١].

والسابع: الأعقل؛ قال تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وهو يهوذا، وكان روبيل أكبرهم سنًا.

وإنما استشفعوا بكون أبيهم شيخاً كبيراً، ولم يقولوا: رسولاً نبياً؛ لأنَّ الشُّيوخ

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢٤٣).

لهم حرمة، والكبر في السنّ داع إلى المرحمة، فقالوا ذلك استعطافاً؛ كما قال في قصة شعيب: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣]، وفي قصة زكريّا: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨].

وقوله تعالى: ﴿فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ﴾: أي: خذ واحداً منّا عبداً بدله ﴿إِنَّا نَزَّلَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: أحسنت إلينا في الإنزال والكيل وفي ردّ البضاعة، وتحسن في معاملات النّاس، فأحسن إلى ^(١) أبينا برّد هذا الولد إليه، وأحسن إلينا بصرفه معنا، فتزول وحدة أبينا عنّا.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ظنّوا أنّ واحداً منهم يقوم مقامه فيما هو مقصوده، ولا بدل عن المحبوب، قال قائلهم:

أبى القلبُ إلّا حبّ ليلي وبغضتُ
إليّ نساءً مالهنّ ذنوبٌ ^(٢)

(٧٩) - ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا الظَّالِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عَنْدَهُ﴾: أي: نعوذُ بالله أن نأخذ غير الجاني في حقّنا، ولم يكن العوذ من ترك أخذ بنيامين، بل من أخذ غيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا إِذَا الظَّالِمُونَ﴾: لو فعلنا ذلك.

(١) في (ف): «فأحسن إلينا وإلى أبينا».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٩٨). ونسب البيت للأقرع بن معاذ القشيري كما في

«الأمالي» للقالبي (٢/ ٤٣)، وكثير عزة كما في «خزانة الأدب» للبغدادي (٣/ ٢٠٧)، وفيه عندهما

بعض اختلاف.

قال وهبٌ: قال لهم يوسف: تزعمون أنكم أولاد الأنبياء، أفتجدون في حكم النبوة أن يؤخذ البريء ويُترك المذنب؟ أهكذا حكم يعقوب؟

فغضب يهوذا حتى قامت شعرة في ظهره كانت تقوم إذا غضب^(١)، فلا تسكن تلك الشعرة حتى يمسه بعض ولد يعقوب، فقال: والله لترسلنه أو لأصيحن صيحة لا تبقى حبل في ملكك إلا وضعت ما في بطنها، فلما هم أن يصيح قال يوسف لابنه: اذهب فخذ بيده فائتني به، فأخذ بيده فجاء به إلى أبيه، فسكت غضب يهوذا، قال: والله لقد أصابتني كفُّ إنَّها من ولد يعقوب، فكفُّ من هي؟ قال: كفُّ ابن الملك، قال: فوالله إنَّه لينبغي أن يكون من ولد يعقوب.

(٨٠) - ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنَ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِـ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ﴾: أي: يسوا من ردِّ أخيههم ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾؛ أي: خرجوا من بين الناس، فخلصوا منهم نجيًّا؛ أي: متناجين، وهو مصدرٌ في الأصل؛ يصلح للواحد كما في قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، وللجمع كما في هذه الآية؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذْهُمْ نَجْوَى﴾ [الإسراء: ٤٧].

وقيل: التَّجِيُّ: جمع النَّاجِي، كالنَّديِّ جمع النَّادي^(٢)، والغزِّي جمع الغازي، والحجيج جمع الحاج.

(١) «كانت تقوم إذا غضب» ليس في (ف).

(٢) «جمع النّادي» من (أ).

و﴿حَکَصُوا نَحِيًّا﴾ مِنْ فَصِيحَاتِ الْقُرْآنِ، وَ﴿حَکَصُوا﴾ انْفَرَدُوا، وَأَصْلُهُ: الصَّفَاءُ عَنْ الشُّوبِ؛ أَي: لَمْ يَبْقَ مَعَهُمْ غَيْرُهُمْ.

وَالنَّجِيُّ يَجْمَعُ عَلَى الْأَنْجِيَةِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنِّي إِذَا مَا الْقَوْمُ كَانُوا أَنْجِيَةً وَاخْتَلَفَ الْقَوْمُ اخْتِلَافَ الْأَرْضِيَةِ

هَنَّاكَ أَوْصِيَنِي وَلَا تُوصِي بِيَهُ^(١)

يَقُولُ: لَمَّا قَنَطُوا مِنْ رَدِّهِ إِلَيْهِمْ انْفَرَدُوا خَالِصِينَ لَا يَخْتَلِطُ غَيْرُهُمْ بِهِمْ يَتَنَاجَوْنَ؛ أَي: يَتَسَارَّوْنَ^(٢) فِي الْأَمْرِ الَّذِي عَرَضَ لَهُمْ مَاذَا يَصْنَعُونَ؛ أَيْرَجِعُونَ إِلَى آبِيهِمْ، أَمْ يَقِيمُونَ بِمِصْرَ إِلَى أَنْ يُعْلِمُوهُ خَبَرَ أَخِيهِمْ، أَوْ يِقَاتِلُوا يَوْسُفَ فِي اسْتِنْقَاذِ أَخِيهِمْ؟

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ كَبِئْرُهُمْ﴾: قِيلَ: أَكْبَرُهُمْ سَنًا، وَهُوَ رُوَيْلٌ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ شَمْعُونُ، وَلَمْ يَكُنْ أَكْبَرُهُمْ فِي السَّنِّ، بَلْ كَانَ أَكْبَرُهُمْ فِي الْعَقْلِ^(٣).

وَقَالَ الْكَلْبِيُّ وَوَهْبٌ: هُوَ يَهُوذَا^(٤).

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: هُوَ لَاوِي^(٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَافِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾: هُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾.

(١) الرجز لسحيم بن وثيل اليربوعي كما في «لسان العرب» لابن منظور (مادة: نجا)، ودون نسبة في «العين» (٢٨١/٦)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٢٠)، و«جمهرة اللغة» (٢٣٥/١)، وغيرها.

(٢) في (ف): «يتساورون».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٨٣/١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢١٨١/٧).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤٥/٥)، والواحدي في «البيضا» (٢٠٣/١٢).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤٥/٥).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾: ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ رفعٌ على الغاية.

و﴿مَا فَرَّطْتُمْ﴾ له ثلاثة أوجه:

أحدها: ﴿مَا﴾ مع الفعل مصدرٌ، وإعرابه الرفع، وهو خبر ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: ومن قبل هذا تفريطكم.

وقيل: نصبٌ بوقوع ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ عليه؛ أي: ألم تعلموا تفريطكم في أمر يوسف.

وقيل: ﴿مَا﴾ صلةٌ زائدة، وتقديره: ومن قبل هذا فرطتم^(١) في يوسف؛ أي: قصرتم في أمره وضيعتموه.

وقوله: ﴿فَلَنْ أُبْرِحَ الْأَرْضَ﴾: وقوله: ﴿لَا أُبْرِحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الكهف: ٦٠] هما متقابلان في التفسير؛ فلن أبرح الإقامة من غير ذهابٍ، ولا أبرح للمسير بدون المقام، وإنما صحَّ ذلك مع أنَّهما متضادَّان؛ لأنَّ المعنى فيها: لا أزول، فمعنى ﴿فَلَنْ أُبْرِحَ﴾: فلن أزايلَ المقام، ومعنى (لا أبرح): لا أزايل^(٢) المسير.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ آتِىَ﴾: أي: في الرجوع إليه، وقيل: في القتال.

﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لى﴾: بالرجوع بأن يظهر عذري عند أبي، فحينئذ أرجع، أو يصل إلينا أخونا، أو يحكم الله لي بالسيف أن أحاربهم وأخذ الأخ منهم.
﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾: لا خطأ في حكمه، ولا زلل، ولا رشوة^(٣).

(١) في النسخ: «ومن قبل ما فرطتم»، والصواب المثبت. انظر: «البحر المحيط» (١٢/٥٣٦).

(٢) في (أ): «أزايل» في الموضعين.

(٣) بعدها في (أ) و(ر): «ولا حشمة»، ولعل المراد بها هنا: الانقباض. انظر: «مقاييس اللغة» (٢/٦٣).

وفي «العين» (٣/٩٩): الحشمة: الانقباض عن أخيك في المطعم وطلب الحاجة.

(٨١) - ﴿أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ﴾: قال هذا الكبير لإخوته: ارجعوا إلى آبائكم، فأنا مقيمٌ بمصر، وأوضحوا له عذرهم ﴿فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾؛ أي: حُكِمَ عليه بالسَّرقة ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾؛ أي: عليه بالسَّرقة عندك ﴿إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا﴾ من الأمر الظاهر بوجود المسروق في رحله.

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾: أي: ولم نكن نحفظ الغيب، فندفع عنه، فنقول: إِنَّهُ لم يسرق؛ أو^(١) لم نعلم أَنَّ الأمر في الباطن بخلاف الظاهر^(٢)، فسلمنا لِمَا حُكِمَ عليه بالسَّرقة على الظاهر.

وقيل: وما كنا نحفظ الغيب فنعلم أَنَّهُ سيسرق، ولو علمنا ذلك لكنَّا لا^(٣) نخرج به، وكنا ضمنَّا لك حفظه ممَّا يمكننا أن نحفظه عنه من الآفات في الطريق، فأما السَّرقة فممَّا لا يكون لنا إلى حفظه منها سبيل.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا﴾؛ أي: ما شهدنا عند الملك^(٤) أَنَّ السَّارِقَ يُسْتَرَقُّ إِلَّا بما علمنا من أن ذلك هو الواجب في الحكم، ولم نعلم في الحقيقة هل سرق ابنك أم لا؟ إِلَّا أَنَّهُ وُجِدَ الصُّوَاعُ في متاعه^(٥).

(١) في (ر) و(ف): «إذ».

(٢) في (ف): «الظاهر ذلك».

(٣) في (ف): «ما كنا» بدل: «لكننا لا».

(٤) في (ر): «يوسف».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٨٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٢).

وقرأ الضَّحَّاك: (إِنَّ ابْنَكَ سُرَّقَ) بضم السَّين وتشديد الرَّاء على ما لم يسمَّ فاعله^(١)؛ أي: نُسِبَ إلى السَّرقة، كقولك: صُدِّقَ وكُذِّبَ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾؛ أي: لم نعلم ما كان يصنع في ليله ونهاره، ومجيئه وذهابه.

وقال ابن كيسان: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾؛ أي: لم نعلم أنك تُصابُ به كما أُصِبْتُ بيوسف، ولو علمنا ذلك لم نحرِّق قلبك، ولم نذهب به.

وقال عكرمة: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾: فلعلَّها دُسَّتْ بالليل في رحله، ولا علم لنا به.

وقال محمد بن إسحاق: أي: لم نطلع على أنه سرق، ولكنَّهم سرَّقوه^(٢).

(٨٢) - ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾؛ أي: وسلِّ أهل القرية، أضمر الأهل لدلالة الحال ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ ومعناه: وسلِّ أهلها؛ فإنَّ العير اسمٌ للإبل والحمير التي تحمل الأحمال في المسير.

﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾: فيما نخبرُك به أنَّه سرق.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤٦ / ٥)، ونسبت هذه القراءة لابن عباس رضي الله عنه. انظر: «تفسير

الطبري» (٢٨٧ / ١٣)، و«تفسير الثعلبي» (٢٤٦ / ٥)، و«المحرر الوجيز» (٢٧٠ / ٣).

وذكرت بعض كتب التفسير عن الضحاك أنه قرأ: (سارق) اسم فاعل. انظر: «المحرر الوجيز»

(٢٧٠ / ٣)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (١٢ / ٥٣٩)، و«الدر المصون» للسمين الحلبي

(٥٤٣ / ٦).

(٢) ذكر هذه الأقوال الثعلبي في «تفسيره» (٢٤٦ / ٥)، والواحد في «البيسط» (١٢ / ٢٠٧).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿الْقَرْيَةُ﴾: هي مصر، ﴿وَالْعِيرَ﴾: القافلة الخارجة^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية: أنها قرية من قرى مصر^(٢)، كانوا خرجوا مع الميرة إليها، فلحقهم المنادي بها.

ثم بعد هذه الآية مُضْمَرٌ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؛ أي: فرجعوا وقالوا له ذلك، فقال هو ذلك.

قال وهب: فلما رجعوا إلى أبيهم فأخبروه الخبر كذبهم واتَّهَمَهُمْ، وساء ظنُّهم بهم، وقال لهم ذلك: كلما توجَّهتُم وجهًا نقص منكم واحدٌ، توشكون أن لا يبقى منكم أحدٌ. وظنَّ أنَّ يهوذا إنَّما تخلف عنه مكرًا وحيلة ليصدِّقهم، فقال - وهو قوله تعالى -:

(٨٣) - ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، قال قتادة: أي: زينت^(٣).

وقيل: سهَّلت؛ أي: ما هو عندي كما تقولون، وإنَّما زين لكم هوى أنفسكم أمرًا هممتم به في هذا الأمر، كما فعلتموه بيوسف.

وقوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: أي: فلا أرجع إلَّا إلى الصَّبر الجميل الذي أكظم عليه ولا أبثُّه إلى مخلوق.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٢٩١).

(٢) رواه الكلبي عن ابن عباس. انظر: «البيسط» (١٢ / ٢٠٨).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٢٩٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١١١).

قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾: يوسف وأخويه بنيامين ويهوذا. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾: بحالي وبوجدي وبصبري، وبصدقكم وكذبكم، وهو ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما يدبره في أمور عبادِه، فليس يدبرُ أمري إلا بما هو صلاحٌ لي، ونفعٌ في دنياي وديني، فأنا مسلمٌ لتدبيره.

وقيل: المؤمنُ المحققُ كلما ازدادَ بلاءً ازدادَ رجاءً.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: لَمَّا وَعَدَ مِنْ نَفْسِهِ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ لَمْ يَمْضِ عَلَيْهِ يَوْمُهُ حَتَّى قَالَ: ﴿يَأْسَفُنِي عَلَى يُوسُفَ﴾؛ ليعلم أنَّ عَزَمَ الْأَحْبَابِ عَلَى الصَّبْرِ منقوَضٌ غيرُ محفوظٍ^(١).

(٨٤) - ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُنِي عَلَى يُوسُفَ وَأَيُّضْتُ عَلَيْهِ مِنْ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾: قالوا: كان يعقوبُ صلوات الله عليه في حال توجُّههِ إلى الأولادِ يفقدُ في كُلِّ سفرٍ منهم ولدًا، فلمَّا تولى عنهم وجدَ المفقودين كلَّهم؛ ليعلمَ العبدُ أنَّ في توجُّههِ إلى الخلقِ قطعَ نفعِ الخلقِ، وفي التَّوجُّهِ إلى الله تعالى الوصولُ إلى كُلِّ شيءٍ.

يقول: أعرَضَ عن بنيهِ وأقبلَ على بَثِّ نَفْسِهِ ﴿وَقَالَ يَأْسَفُنِي عَلَى يُوسُفَ﴾: قال الحسن وقتادة والضحاك: يا حُزْناهُ^(٢).

وقال مجاهد: يا جَزَعاهُ^(٣).

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٩٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٩٤ - ٢٩٥) عن قتادة والضحاك.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٩٤)،

قال الشاعر:

فيا أسفا على سلم بن عمرو ويا حزنا عليه ولهف نفسي^(١)
والأسف: أشدُّ الحزن على الغائب، وهو أشدُّ الغضب أيضًا، ويجوز أن يكون
اجتمع له المعنيان؛ الحزن على فقد يوسف، والغضب على إخوة يوسف، أو على
نفسه ببعث بنيامين معهم.

والصَّيغَةُ صيغَةُ نداء^(٢)، ومعناها: يا حزن هذا وقتك فاحضر. والألف في آخره
للندبة، وأصله: واأسفاه، مع هاء الاستراحة، ثم حذفت الهاء للتخفيف^(٣).
وقوله تعالى: ﴿وَأَبْيَضَ عَيْنَاهُ﴾: قيل: هو ذهاب بصره؛ قال مقاتل: لم يبصر
ست سنين^(٤).

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق: لم يقل: عمي؛ لأنه لم يذهب بصره ذهاب
فوات، لكن كان حجابًا عن رؤية غير يوسف.

وكان إخوته غيَّوه ليخلو لهم وجه أبيهم، فيخلص لهم نظره، فلم يرضوا بنظره
إليهم مع يوسف، ففاتهم أصلاً، وكذلك من طلب الكلَّ فاتَه الكلُّ^(٥).

(١) البيت لعمر بن معدى كرب قاله في ابنه حُزَرَ، وكان قتله في بعض حروبه وهو لا يشعر أنه ابنه، فلما
عرفه قال فيه أبياتاً هذا منها. انظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤٦ / ٣٩٦)، و«توضيح المشتبه»
(٣ / ١٧٥)، وروايته فيهما:

يا أسفا على حُزَرَ بن عمرو فيا ندمي عليه ولهف نفسي

(٢) في (ف): «نداء ونعت».

(٣) «للتخفيف» ليس في (ف).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢٤٧)، والواحدي في «البيضا» (١٢ / ٢١٤).

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢ / ١٩٩ - ٢٠٠).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: كان ذهابُ بصر يعقوب في غيبة يوسف لطفًا من الله تعالى بـيعقوب، حتَّى لا يحتاج إلى رؤية غيره؛ إذ لا شيء على الأحاب أشدُّ من رؤية الأغيار، قال قائلهم:

لَمَّا تَيَقَّنْتُ أَنِّي لَسْتُ مُبْصِرُكُمْ غَمَضْتُ عَيْنِي فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ^(١)
وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْحُزَنِ﴾: أي: الهم الغليظ على النفس، من الأرض الحزن - بفتح الحاء: الغليظة.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾: أي: مملوءٌ كربًا، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] الكِظَامُ: القناة والسَّقَايَةُ المملوءة ماءً.

وقيل: ﴿كَظِيمٌ﴾؛ أي: ممسكٌ على غيظٍ على أولاده بما فعلوا به، أو على نفسه بما فعلَ من إرسال بنيامين معهم، هذا فعيل بمعنى فاعل؛ كقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، والأوّل فعيل بمعنى مفعول.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿كَظِيمٌ﴾: مهموم^(٢).

وقال مقاتل: مكروب يتردد الحزن في جوفه^(٣).

وقال مجاهد: ساكت^(٤).

وقال قتادة: كظيم على الحزن؛ أي: لم يتكلّم بسوء^(٥).

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٠٠)، والبيت ينسب لأبي بكر الشبلي. انظر: «الأمالي»

للجرجاني (٢/ ٩٣)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٣٢/ ٣٩٢).

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٥٦).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٤٨).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٣٤)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٩٦).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٩٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٧).

وقال عكرمة: ممتلىء حزناً^(١).

(٨٥) - ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ﴾: أي: لا تفتأ، ومعناه: لا تزال. قاله ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد وقتادة والسدي^(٢).
وصرفه من حدّ (علم)، ومصدره: الفتأ والفتوء على الفعل والفُعول، قال
أوس بن حجر:

فما فتئت خيلٌ تثوبٌ وتدعي
ويلحقُ منها لاحقٌ وتقطعُ^(٣)
أي: فما زالت.

وحذفت (لا) من (تفتأ) لأنه جواب القسم المنفي، ولو كان إثباتاً لكان باللام والنون^(٤)؛ قال امرؤ القيس:

فقلتُ يمينُ الله أبرحُ قاعدًا
ولو قطعوا^(٥) رأسي لَدَيْكَ وأوصالي^(٦)

(١) ذكر نحوه الماوردي في «النكت والعيون» (٥ / ٢١٩). وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤ / ٥٦٩) إلى ابن أبي حاتم بلفظ: ﴿كَطِيمٌ﴾: مكروب.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٢٩٨ - ٢٩٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة. ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٨٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والسدي.

(٣) انظر: «ديوان أوس» (ص: ٥٨)، و«مجاز القرآن» (١ / ٣١٦)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٢١).

(٤) يعني: جاز حذفها هنا لأنها لا تلتبس بالإثبات؛ إذ لو كان إثباتاً بعد القسم لقل: لَتَفْتَأُ؛ إذ لا بد في الإثبات من اللام والنون، فقريئة النفي خلوه عن علامة الإثبات.

(٥) في (ر) و(ف): «قلصوا».

(٦) انظر: «ديوان امرئ القيس» (ص: ١٠٨).

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾: قال ابن عباس ومجاهد: أي: باليًا من المرض ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾: أي: الميتين^(١).

وقال الحسن وقتادة: حتى تكون هرمًا^(٢).

وأصل الحرَض: فسادُ العقل والجسم من الحزن والحب، وقال العرجي: إني امرؤ لَجَّ بي حُبٌّ فَأَحْرَضَنِي حَتَّى بَلَيْتُ وَحَتَّى شَفَّنِي السَّقَمُ^(٣)

و﴿حَرَضًا﴾: مصدرٌ أريد به النَّعْتُ، ولا يثنى ولا يجمع.

وقال الربيع بن أنس: ﴿حَرَضًا﴾ يابسُ الجلد على العظم.

وقال الكسائي: فاسدًا لا خير فيه.

وقال الحسن: أي: كالشيء المدقوق المكسور^(٤).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: هَدَّوْهُ بِأَنْ يَصِيرَ حَرَضًا، وقد كان حَرَضًا، وخَوْفُوهُ بِمَا كَانَ لَا يَبَالِي أَنْ يَصِيْبَهُ فِي حَكْمِ الْهَوَى، حيث قالوا: ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾، وقيل: أُلْذُ الْأَشْيَاءُ فِي حَكْمِ الْهَوَى التَّهَالُكُ فِي حُبِّ مَنْ تَهَوَى^(٥).

(٨٦) - ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرَفِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(١) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٣٠١ و ٣٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٨٧ و ٢١٨٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٣٠٣).

(٣) انظر: «ديوان العرجي» (ص: ٥).

(٤) ذكر الأقوال الثلاثة السابقة الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢٤٨).

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ٢٠٠).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: همِّي^(١). وهو الَّذِي يُبِثُّ وَإِنْ كُتِمَ؛ أي: ينتشر بإثارة.

والحزنُ: ما يغلظُ على النَّفسِ احتماله.

وقيل: البثُّ: الهمُّ الَّذِي يظهرُه صاحبه، والحزنُ: الَّذِي يضمُرُه.

وقيل: البثُّ ابتداؤه، والحزن انتهاؤه.

يقول: أشكو ذلك كله إلى الله، لا إلى خلقه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْكَ اللَّهُ﴾: أي: مِنْ سَعَةِ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِ تَدْبِيرِهِ بَعَادَهُ ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنتم، يشيرُ إلى حَسَنِ ظَنِّهِ وَقُوَّةِ رَجَائِهِ بِرَبِّهِ جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ يُعِيدَ إِلَيْهِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قيل: إِنَّمَا رَجَا ذَلِكَ لِمَا قَصَّ عَلَيْهِ يَوْسُفُ مِنْ رُؤْيَاهُ وَعِلْمِ تَأْوِيلِهِ.

وقيل: أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ مَلِكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقيل: أَخْبَرَهُ جَبْرِيلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ.

وقيل: رَأَاهُ فِي الْمَنَامِ.

قال وهبٌ: وَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُرَفِّهَ^(٢) عَنْهُ وَيَرْحَمَهُ وَيَبْلُغَهُ إِلَى بَنِيهِ أَرْسَلَ إِلَيْهِ مَلِكَ الْمَوْتِ قَالَ: إِنِّي كُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ أَلْقَاكَ مِنْذُ حِينٍ، قَالَ لَهُ: لِمَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لِأَسْأَلَكَ عَنْ شَأْنِ يَوْسُفَ، قَالَ: وَعَنْ أَيِّ شَأْنٍ تَسْأَلُنِي؟

قال: أَنَشِدُكَ وَأَسْأَلُكَ بِالَّذِي مَلَكَكَ الْإِنْفَسَ، وَسَلَّطَكَ عَلَى الْأَرْوَاحِ، وَأَعْطَاكَ الْقُوَّةَ فِي الْأَجْسَادِ، هَلْ قَبِضْتَ رُوحَ يَوْسُفَ؟

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٣٠٦).

(٢) في (ف): «يخفف».

قال: لا، والذي نَسَدْتَنِي به ما قبضْتُ روحَه، فاطلُبْ ابنك فَإِنَّه حيٌّ سالمٌ.
فانتبه وأصبح وقال لبنيه: ﴿أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

وروى أنس عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «كان ليعقوبَ أخٌ مؤاخ له، فقال له ذاتَ يومٍ: يا يعقوبُ، ما الَّذي أذهبَ بصرَكَ؟ وما الَّذي قوَّسَ ظهركَ؟ قال: أمَّا الَّذي أذهبَ بصري فالبكاء على يوسفَ، وأمَّا الَّذي قوَّسَ ظهري فالحزنُ على بنيامينَ، فأتاه جبريلُ فقال: يا يعقوبُ، إِنَّ اللَّهَ يُقَرِّتُكَ السَّلامَ، ويقولُ لك: أمَّا تستحي أن تشكوني إلى غيري، فقال يعقوبُ: إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وحزني إلى الله، فقال جبريلُ: أعلم بما تشكو يا يعقوبُ، ثمَّ قالَ يعقوبُ: يا ربِّ، أمَّا ترَحَّمُ الشَّيخَ الكبيرَ؟ أذهبتَ بصري، وقوَّستَ ظهري، فاردُّ عليَّ ريحانتي أَشْمُهُ شَمَّةً قَبْلَ الموتِ، ثمَّ اصنَعْ بي يا ربِّ ما شئتَ. فأتاه جبريلُ وقال له: يا يعقوبُ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقَرِّتُكَ السَّلامَ، ويقولُ لك: أَبَشِّرْ، وَلْيَفْرَحْ قَلْبُكَ، فوعزَّتِي لو كانا مَيِّتَيْنِ لَنَشَرْتُهُمَا^(١) لك، فاصنَعْ طعامًا للمساكينَ، فَإِنَّ أَحَبَّ عبادي إِلَيَّ المساكينَ، وتدرِي لم أذهبتُ بصرَكَ، وقوَّستَ ظهركَ، وصنَعَ إِخْوَةُ يوسفَ بيوسفَ ما صنعوا؟ لَأَنكُم ذُبَحْتُم شاةً، فَأَتَاكُم فَلَانُ الْمَسْكِينِ وهو صائمٌ، فلم تطعموه منها، فكان يعقوبُ بعدَ ذلك إذا أَرَادَ الغداءَ^(٢) أَمَرَ منادياً فنَادى: أَلَا مَنْ أَرَادَ الغداءَ مِنَ الْمَسَاكِينِ فَلْيَتَغَدَّ^(٣) مع يعقوبَ، وإذا كان صائماً أَمَرَ منادياً فنَادى: أَلَا مَنْ كان صائماً مِنَ الْمَسَاكِينِ فَلْيَفْطَرْ مع يعقوبَ»^(٤).

(١) في (ف): «لَأَنَشَرْتُهُمَا».

(٢) في (ر) و(ف): «الغداء».

(٣) في (أ): «فليحضر».

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦١٠٥)، و«المعجم الصغير» (٨٥٧)، والحاكم في

«المستدرک» (٣٣٢٨). قال ابن كثير في «تفسيره»: حديث غريب فيه نكارة. =

وقيل: كان فَصَلَ عَجَّوْلًا عَنْ أُمِّهِ أَيَّامًا.

وقيل غير ذلك من الأسباب، والصَّحِيح أَنَّهُ غَيْرُ مَبْنِيٍّ عَلَى سَبَبٍ، وَاللَّهُ أَنْ يَمْتَحَنَ عِبَادَهُ وَخَوَاصَّهُ بِمَا شَاءَ؛ لِيَرْفَعَ لَهُمْ بِذَلِكَ دَرَجَاتِهِمْ، وَيُظْهِرَ صِدْقَهُمْ وَإِخْلَاصَهُمْ.

(٨٧) - ﴿يَبْنِيْ اٰذْهَبُوْا فَتَحَسَّسُوْا مِنْ يُوسُفَ وَاَخِيْهِ وَلَا تَاْتَسُوْا مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ اِنَّهٗ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ اِلَّا الْكٰفِرُوْنَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَبْنِيْ اٰذْهَبُوْا فَتَحَسَّسُوْا مِنْ يُوسُفَ﴾: أي: اطلبوا خبره، من الحسن، وهو العلم بالحاشية، والتجسس - بالجيم - قريب منه. وقيل: هما واحد.

وقيل: بالحاء في الخير، وبالجيم في الشر.

وقيل: التَّحَسُّسُ بالحاء: الطَّلَبُ لِنَفْسِهِ، وبالجيم: الطَّلَبُ لغيره، ومنه: الجاسوس. وقال الإمام القشيري رحمه الله: أمرهم بطلب يوسف بجميع حواسهم، يطلبونه بالبصر لعلهم يروونه، وبالأذن لعلهم يسمعون ذكره، وبالشَّم لعلهم يجدون ريحَه، توهم أنهم مثله في الإرادة^(١).

قال تعالى خبراً عنه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال أهل التَّأْوِيل: استخبروا عنه واطلبوا، والأقرب أن يكون معناه: اذهبوا من هذا الجانب الذي كنتم فيه، فانظروا إليه وإلى

= وقوله: «وإذا كان صائماً أمر منادياً فنادى ألا من كان صائماً من المساكين فليفطر مع يعقوب» ليس في (أ).

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٠١).

أخيه، فَإِنْ حُمِلَ عَلَى الاستخبار فِي حَقِّ يَوْسُفَ، لَا يَسْتَقِيم فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَخِيهِ﴾، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَيْنَ هُوَ، فَمَعْنَاهُ: إِيقَاعُ حَاسَّةِ الْبَصَرِ عَلَى الَّذِي رَأَوْهُ^(١)، وَهُوَ لَوْ قَوَّعَ الرَّجَاءَ لَهُ أَنَّ يَوْسُفَ بِمِصْرَ، لَكِنْ لَمْ يَخْبُرْ بَنِيهِ بِذَلِكَ أَنَّهُ هُنَاكَ؛ لِمَا عَلِمَ أَنَّهُمْ يَتَكَاسِلُونَ وَيَتَنَاقِلُونَ عَنِ الدَّهَابِ إِلَيْهِ، فَقَالَ ذَلِكَ تَعْرِضًا لَا تَصْرِيحًا^(٢).

وَقَالَ الْإِمَامُ الْقَشِيرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ يَعْقُوبُ فِي حَقِّ يَوْسُفَ: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾، وَقَالَ فِي حَقِّ سَائِرِ أَوْلَادِهِ: ﴿أَذْهَبُوا﴾؛ لِيَعْلَمَ بَنُوهُ مَا بَيْنَهُمْ فِي الْمَحَلِّ عِنْدَهُ^(٣).

وَقَالَ وَهَبٌ: لَمَّا قَالَ لَبْنِيهِ ذَلِكَ، قَالُوا: كَيْفَ تَكَلَّفْنَا أَنْ نَتَحَسَّسَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ، أَمَّا يَوْسُفَ فَقَدْ أَخْبَرْنَاكَ خَبْرَهُ أَوَّلَ يَوْمٍ أَنَّهُ أَكَلَهُ الذُّئْبُ، وَلَا نَحْسِبُهُ الْيَوْمَ إِلَّا رَمِيمًا تَحْتَ التُّرَابِ، وَأَمَّا ابْنَاكَ اللَّذَانِ ذَهَبَا مَعَنَا فَقَدْ أَخْبَرْنَاكَ أَنَّ أَحَدَهُمَا سَرَقَ فَارْتَهَنَ بِسَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَمَقِيمٌ لَطَلَبِ فَكَاكِهِ، قَدْ أَقْسَمَ بِاللَّهِ جَهْدَ يَمِينِهِ وَأَلَى عَلَى نَفْسِهِ أَلَّا يَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى تَأْذَنَ لَهُ، أَوْ يَفِيَّ ذَلِكَ بِمَوْتِكَ، أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ بِمَا شَاءَ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، وَنَحْنُ رَاجِعُونَ وَمَتَحَسِّسُونَ عَنْ أَخَوَيْنَا^(٤)، وَمَتَعَرِّضُونَ لِلْمَلِكِ، إِنَّا قَدْ عَاهَدْنَاهُ بِكَ رَحِيمًا، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَحْدَثَ لَهُ رَأْيًا، وَزَادَهُ لَكَ رَحْمَةً.

قَالَ يَعْقُوبُ: فَبَلَّغُوهُ عَنِّي السَّلَامَ، وَقُولُوا لَهُ: إِنَّ أَبَانَا يَعْقُوبَ يَقُولُ لَكَ: بَيْنَا أَنْتَ مَهْتَمٌّ بِمُصِيبَتِهِ مُحْزُونٌ عَلَيْهِ مُعْنَى بِأَمْرِهِ، تَبْكِي مَعَهُ، وَتَدْعُو لَهُ = إِذْ فَجَعَلْتَهُ بَابِنِهِ، مَا هَذَا مِنْكَ بِمُشْبِهِ أَوَّلِ فَعْلِكَ، فَارْحَمْ تَرْحَمَ.

(١) قَوْلُهُ: «إِيقَاعُ حَاسَّةِ الْبَصَرِ عَلَى الَّذِي رَأَوْهُ»، كَذَا قَالَ الْمُؤَلِّفُ، وَعِبَارَةُ «التَّأْوِيلَاتِ»: (وَقَوَّعَ الْحَسَّ وَالْبَصَرَ عَلَيْهِمَا).

(٢) انْظُرْ: «تَأْوِيلَاتُ أَهْلِ السَّنَةِ» لِلْمَاتَرِيدِيِّ (٦/ ٢٧٨).

(٣) انْظُرْ: «لَطَائِفُ الْإِشَارَاتِ» لِلْقَشِيرِيِّ (٢/ ٢٠١).

(٤) فِي (أ): «إِخْوَتَنَا».

وقيل: إنَّهم قالوا له: اكتب إليه بشيء، فأمر فكتب إليه:

بسم الله، هذا كتابٌ من يعقوبَ إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى ملك مصر عبد الله.

أمَّا بعد: فإنَّا أهلُ بيتٍ مُوَكَّلٌ بنا أسبابُ البلاء، أمَّا جدِّي إبراهيم فألقي في النَّارِ فصبرَ لأمر الله، وأمَّا عمِّي إسماعيل فابتليَ بالغرابة في صغره فصبرَ لأمر الله، وأمَّا أبي إسحاق فابتليَ بالذَّبْحِ فصبرَ لأمر الله^(١)، وأمَّا أنا فأضعفُهم ركنًا وأقلُّهم حيلةً وأعظمُهم مصيبةً، بكيْتُ على فراق ولدي يوسف حتَّى عمي بصري، والذي أخذتهُ سارقًا فليس بسارقٍ، والله ما ولدتُ سارقًا، فامننْ عليَّ برده، وخلِّ سبيله، واحذرْ دعوةَ المظلوم، والسَّلام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾: أي: رحمة الله، وقيل: أي: من ترويح الله؛ أي: تفريح الله^(٢) من الحزن.

﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾: أي: من تفريح الله عن المكروبين ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾: الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى مَا يَشَاءُ.

ثمَّ إنَّهم توجَّهوا إلى مصر، فلمَّا انتهوا إليها دخلوا عليه، وذلك قوله تعالى:

(٨٨) - ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَاؤْفَ لَنَا الْكِيلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾: أي: أصابنا ونساءنا وأولادنا الضَّيْقُ وَالْقَحْطُ.

(١) الصحيح المقطوع به عند العلماء أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

(٢) «أي تفريح الله» من (أ).

وقوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا﴾: أي: وقد جئناك ﴿بِضَعَةِ مُزْنَةٍ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير؛ أي: رديئة لا تؤخذ إلا بوكس.

وقال الحسن ومجاهد وإبراهيم وقتادة وابن زيد: أي: قليلة.

وقال الضحاك: أي: كاسدة غير نافقة في ثمن الطعام^(١).

وقال وهب: كانت دراهم نفاية^(٢).

وقيل: كانت صوفاً وسمناً وأقطاً. قاله الحسن^(٣).

وأصل الإزجاء: السَّوق والدَّفْع؛ قال تعالى: ﴿يُزْجَى لَكُمْ الْفُلُكُ﴾ [الإسراء: ٦٦]، ومنه تزجية العمر، كأنها بضاعة تُدفع ولا تُقبل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾: أي: لا تنظر إلى نقصان بضاعتنا وأتمم بإحسانك كيِّلنا.

وقوله تعالى: ﴿وَنَصَّدَّقْ عَلَيْكَ﴾: أي: أسقط ما بين الجياد والرديئة من التفاوت؛ قال وهب: كأن دراهمنا جياد؛ تفضلاً منك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

وقيل: كانت بضاعتهم حبة الخضراء.

وقيل: كانت خلق الغرارة^(٤) والحبل.

(١) روى هذه الأقوال الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٣٢٧ - ٣٢٢).

(٢) وكذا فسر مقاتل في «تفسيره» (٢ / ٣٤٩). والنفاية: القليل أو الرديء. انظر: «لسان العرب» لابن منظور (مادة: نفى).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٣١٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٩١)، كلاهما عن عبد الله بن الحارث.

(٤) في (ف) و(أ): «خلق الغرارة». والغرارة: وعاء من صوف أو شعر لنقل التبن وما أشبهه. انظر: «معجم ديوان الأدب» للفارابي (٣ / ٩٦).

وقيل: تصدَّق علينا برِّدٍ أخينا علينا.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: لَمَّا طَالَعُوا فَقَرَهُمْ نَطَقُوا بِقَدْرِهِمْ^(١)، فقالوا: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَنَةٍ﴾، وَلَمَّا شَاهَدُوا^(٢) قَدَرَ يَوْسُفَ سَأَلُوا عَلَى قَدْرِهِ، فقالوا: ﴿فَأَوْفٍ لَّنَا الْكَيْلَ﴾، كَانَتْهُمْ قَالُوا: جِئْنَا بِبِضَاعَةٍ لَا تَنْفُقُ إِلَّا بِهَذِهِ الْحَضْرَةِ، فَأَوْفٍ لَّنَا^(٣) كَيْلًا يَلِيقُ بِفَضْلِكَ لَا بِفَقْرِنَا، وَبِكْرَمِكَ لَا بَعْدَمِنَا، ثُمَّ تَرَكُوا هَذَا اللَّسَانَ فَقَالُوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾، نَزَلُوا أَوْضَعَ مَنْزِلٍ، كَانَتْهُمْ قَالُوا: إِنْ لَمْ نَسْتَوْجِبْ مُعَامَلَةَ الْبَيْعِ وَالشَّرَاءِ فَقَدْ اسْتَوْجَبْنَا بِذَلِكَ الْعَطَاءِ، وَعَلَى اللَّهِ الْمَكَافَأَةُ وَالْجَزَاءُ^(٤).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ سَمَّوْهُ عَزِيزًا لِأَنَّهُ كَانَ أَمِينُ الْمَلِكِ، وَهُوَ اسْمُ لَأَمِينِ مَلِكِ مِصْرَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَنْهَى﴾، وَلَا تَنْهَى كَانُوا مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ، وَكَانَ هُوَ غَنِيًّا عَمَّا فِي أَيْدِيهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾؛ أَي: بِفَضْلِ مَا بَيْنَ الثَّمَنِ^(٥)، وَقِيلَ: مَا بَيْنَ الْكَيْلَيْنِ. وَالصَّحِيحُ: أَنَّهُمْ طَلَبُوا حَطَّ الثَّمَنِ؛ لِأَنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحُلُّ لِلْأَنْبِيَاءِ، وَيَجُوزُ الْحَطُّ لَهُمْ، وَيَجُوزُ حَطُّ مَنْ لَا تَجُوزُ صَدَقَتُهُ، كَالْعَبْدِ الْمَأْذُونِ لَهُ فِي التَّجَارَةِ، وَكَانَ نَبِيُّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَجُوزُ لَهُ الشَّرَاءُ بِدُونِ ثَمَنِهِ، وَلَا تَحُلُّ لَهُ الصَّدَقَةُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: رَدَّ عَلَيْنَا أَخَانًا^(٦).

(١) فِي (أ): «بَعْدَرَهُمْ».

(٢) فِي (أ): «شَاهَدُوا».

(٣) فِي (ف): «لَنَا الْكَيْلُ أَي».

(٤) انْظُرْ: «لَطَائِفُ الْإِشَارَاتِ» لِلْقَشِيرِيِّ (٢/ ٢٠٢).

(٥) فِي (أ): «الْمُثْمَنِ».

(٦) انْظُرْ: «تَأْوِيلَاتُ أَهْلِ السَّنَةِ» لِلْمَاتَرِيدِيِّ (٦/ ٢٨٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾: ولم يقولوا: إن الله يجزيك؛ لأنهم لم يعلموا بحال الملك ودينه، فتجرّدوا وأطلقوا فقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾، وهم المؤمنون^(١).

وقال وهب رحمه الله: وخافوا أن يذكروا في أوّل ما لقوه حديث أخيه؛ مخافة أن يعيد لهم التوبيخ والتّقرّيع، وقالوا: إن كان في نفسه لأبينا رقّة فقد أخبرناه أننا مضرورون محزونون مجهودون، وعرضنا له إن كان يريد أن يخلي سبيل الغلام. وكان يوسف عليه السّلام سأل أخاه بنيامين عن عدد ولده، فقال: هم ثلاثة، اسم الأكبر يوسف، فقال: ولم سمّيته يوسف؟ قال: أردت أن لا يذهب ذكرك من قلبي كلّما دُعِيَ تحرّك لذلك قلبي.

قال: وسمّيت الآخر ذئبًا، قال: ولم سمّيته ذئبًا؟ قال: أردت أن لا يذهب ذكرك من قلبي، فقد زعم إخوتي أن الذئب أكلك.

قال^(٢): وسمّيت الآخر دما، قال: ولم سمّيته دما؟ فقال: أردت أن لا يذهب ذكرك من قلبي لَمَّا جاؤوا بالدم في قميصك^(٣)، فكلمّا دُعِيَ ذكرك.

فبكى يوسف عند ذلك حتّى كاد يتصدّع قلبه من البكاء، ثم رفع يديه ودعا ربّه أن يجمع إليه أباه وخالته وإخوته، فاستجاب الله له.

وقال لإخوته - بعد ما قالوا: ﴿يَأْتِيهَا الْعَزِيزُ﴾ إلى آخره -: كيف تركتُم يعقوب؟ قالوا: تركناه باكيًا محزونًا كظيمًا.

(١) «وهم المؤمنون» ليس في (ف).

(٢) في (ف): «وقد».

(٣) «لما جاؤوا بالدم في قميصك» من (ف).

فقال يوسف: على أيّ ابنه حزئه وبكاؤه أشد؛ أعلى هذا السارق المرتهن بسرقة أم على الأول الذي أخبرنا الصّواع خبره.

فقالوا: أمّا الأول فقد يسّ منه ونسيه وذهب عنه حزئه، ولكننا بكأؤه على هذا المحبوس عندك، وقد أرسلنا فيه إليك رسالة، لولا مهابتك ومخافة ألا تصدّقنا لبلّغناك قوله.

قال: فأخبروني، فإنّكم آمنون إن صدّقتموني.
فلما بلّغوه رسالة أبيه لم يملك^(١) نفسه بكاء وحزناً، وبكى بأعلى صوته، وعندها باح لهم بحاله، وذلك قوله تعالى:

(٨٩) - ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾.

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾: قال صاحب «كتاب عصمة الأنبياء»: هذا من يوسف تذكير لهم بما سبق من فعلهم بمكانه؛ ليجددوا الانتباه والاهتمام، وذكر أخاه وما فعلوا بمكانه، كأن أخاه شكاه إليه من سوء معاملتهم معه كمعاداة^(٢) الإخوة، وقلة شفقتهم بمكان أخيه.

أو كما رأى منهم تقريباً لأخيه عند استخراج الصّواع من وعائه حساباً منهم أن أخاه كان قد سرق المتاع، فاستقبلهم المكروه من سببه، فعنفوا عليه، دليله قوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾؛ أي: لم تعلموا بحاله^(٣)،

(١) «يملك» من (أ) و(ف).

(٢) في (ر): «لعادات»، وفي (ف): «كعادات».

(٣) في (أ) و(ف): «الحالة».

فبنيتم المعاملة على ظاهر^(١) ما بدا لكم من حاله.

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: مَذْنِبُونَ، وَيَجُوزُ: أَي: أَنْتُمْ جَاهِلُونَ قَدَرَ يَوْسُفَ وَمَنْزِلَتِهِ؛ إِذْ لَوْ عَلِمُوا ذَلِكَ لَمَا قَالُوا: ﴿لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا﴾^(٢).

وقيل: هو تلقينُ العُذْرِ، وهو غايةُ الكرمِ والفضلِ، وعلى هذا قولُ الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧].

وقالوا: الكريمُ لا يعاتبُ، ولو عاتبَ لا يستقصي^(٣)، وكذلك فعلَ يوسفُ، لم يعاتبهم في المرّة الأولى والثانية، وعاتبهم في الثالثة على خفاءٍ ولم يستقصِ. وقيل: الكرمُ تركُ العتاب، وتركُ الاستقصاء في العتاب، وتلقين العُذْرِ في العتاب، والعفوُ بعد العتاب، وقد فعل ذلك كلُّه يوسفُ في هذه المرّة.

وبيانه في الآية وفي بعض القصص: أنَّ يوسف صلوات الله عليه أخرجَ لهم كتابًا، وقال: هذا كتابٌ بالعبرانيّة، فهل أحدٌ منكم يحسن قراءتها؟ قالوا: نعم.

فأخرج كتابَ بيعه من مالك بن دُعر، فنظروا فيه فبهتوا، فقالوا في أنفسهم: كنّا بذلناه عند بيعه لمشتريه، وهو من أهل مصر، فلعلّه وقعَ عند الملك، فقالوا: هذا كتابٌ كتبناه في بيع عبدٍ لنا بعناه، فقال: اقروا.

فقرؤوا: بِسْمِ إِلَهِ إِبْرَاهِيمَ، هذا ما اشترى مالك بن دُعر الخزاعيُّ من آل يعقوب غلامًا، يُقالُ له: يوسف، بعشرين درهمًا، ونقدَ لهم الثمنَ، وضمنوا الدَّركَ، وأشهدوا الله تعالى بذلك على أنفسهم، وكفى بالله شهيدًا.

(١) في (ر) و(ف): «ظاهرها».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٨٢).

(٣) في (ر) و(ف): «لا يعاتب ولا يستقصي، ولو عاتب لاستقصى»، ولا يستقيم هذا مع ما سيأتي بعده.

فقال لهم يوسف: كنتم تقولون: إنَّ يوسفَ أخونا وقد أكله الذئبُ، وقد كتبتم في هذا: إنَّه غلامنا وقد بعناه، فقد ظهر لي أنَّكم استرققتُم أخاكم، وعققتُم أباكم، واستوجبتم عقوبةً شديدةً، وأنا معاقبكم على ذلك، ومنتقمٌ منكم لأبيكم. ودعا بالسَّيَّافِ، فصاحوا بأجمعهم يتضرَّعون ويبكون، ويقولون له: إنَّ كُنْتَ قَاتِلَنَا لا محالة فلطخْ ثيابنا بدمائنا، وابعثها إلى أبينا، فلا حظَّ له من الأولادِ إِلَّا الثوبُ الملطخُ بالدم.

ورقٌ لذلك يوسفُ، واضطربَ النَّاسُ، وجاء جبريلُ وقال: يا يوسفُ، قد بلغ التَّخْوِيفُ النِّهَايَةَ في حقِّ هؤلاء، فحسبك، فقد انقضتْ مدَّةُ المحنة، فأظهر لهم نفسك، فقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾، فنظروا فيه لِمَا كان قال لهم أبوهم: ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فعرفوه.

(٩٠) - ﴿قَالُوا أَتَاكَ لَانْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا^(١) إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَبَصِيرَاتٍ اللَّهُ لَا يَضِيعُ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ﴾. ﴿قَالُوا أَتَاكَ لَانْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ بنيامين، لا عبدي، تظنوني قد^(١) اتخذته عبداً، وليس كذلك، بل هو أخي وعزيزي.

﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾: قيل: أي: جمع ما فرقتم، ووصل^(٢) ما قطعتم. وقيل: أي: منَّ الله عليَّ بإنجائي من البئر، والعصمة من الهم، والتَّخْلِيسِ مِنَ السَّجْنِ، وتمليك مصر، ذلك فضل الله^(٣).

(١) في (أ): «أنِّي».

(٢) في (ف): «بجمع ما فرقتم وصلة».

(٣) «ذلك فضل الله» من (ف).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾: فالتَّقوى: العمل بالطاعات وترك السيئات، والصَّبْرُ: تحمُّلُ المكروهات. وكان ذلك كله ليوسف.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مَنْ يَتَّقِ الزَّنى، ويصبر على العزوبة^(١). وتقديره: فهو محسنٌ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: قالوا في خطابه قبل أن يعرفوه: ﴿يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ﴾، فلمَّا عَرَفُوهُ قالوا: ﴿أَءَنْتَ لَا أَنْتَ يُوسُفُ﴾؛ لأنَّ الأجنبيَّة إذا ارتفعت سقطت تكلفُ المخاطبة.

وأنشدوا فيه:

إِذَا صَفَّتِ الْمَوَدَّةُ بَيْنَ قَوْمٍ وَدَامَ وَلَاؤُهُمْ سَمِجَ الشَّاءِ^(٢)

وقال الشيخ أبو علي الدِّقَاق: لَمَّا قَالَ يوسُفُ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وأحَالَ استحقاقَ الأجر على عملٍ من التَّقوى والصَّبْرِ، أنطقهم الله تعالى حتَّى أجابوه بلسان التَّوْحِيد فقالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾؛ يعني: أن هذا ليس بتقواك وصبرك، إِنَّمَا بِإِثَارِ اللَّهِ إِلَيْنَا، فِيهِ تَقَدَّمَتْ عَلَيْنَا لَا بِجَهْدِكَ، فقال يوسف صلوات الله عليه على جهة الانقياد للحقِّ: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّوْمَ﴾، فأسقط عنهم اللُّوم؛ لأنَّه كما لم ير تقواه وصبره من نفسه حيث نبهوه عليه، لم ير جفاءهم منهم^(٣)، فنطقَ عن عين التَّوْحِيد، وأخبر عن شهود التَّقدير^(٤).

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩٤) عن إبراهيم.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٠٣).

(٣) «منهم» ليس في (أ) وفي (ف): «منه».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٠٤).

(٩١) - ﴿قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾: أي: اختارك وقدمك علينا ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾؛ أي: ما كنا إلا خاطئين؛ أي: مذنبين بما صنعنا في حقك.

يُقَالُ^(١): خَطِيءٌ يَخْطِئُ خَطَأً، مِنْ حَدِّ عِلْمٍ؛ أَي: تَعَمَّدَ مَا يَخَالِفُ الصَّوَابَ، وَأَخْطَأَ يَخْطِئُ إِخْطَاءً: إِذَا تَعَمَّدَ شَيْئًا فَأَصَابَ غَيْرَهُ. وفيه سؤال الصَّفْحِ والعفو عنه.

(٩٢) - ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما وسفيان: لا تعيرَ عليكم^(٢).

وقال الأخفش: لا ملامةَ عليكم.

وقال أبو عمرو بن العلاء: لا تقريرَ عليكم.

وقال الكسائي: لا تقريرَ عليكم اليوم؛ أي: لا أقرركم بذنبكم.

وقال السدي: لا أذكر لكم ذنبكم^(٣).

(١) «يقال» ليس في (أ) و(ف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٣٣٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٩٥) عن سفيان. وذكر نحوه الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦ / ٢٨٤)، والواحدي في «البيسط» (١٢ / ٢٣٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٣٣١).

وقيل: لا إفساد عليكم^(١).

وقال ابن كيسان: لا أعيدُ عليكم ما فعلتم.

وقال النَّضر بن شُمَيْل: لا تخليطُ عليكم^(٢).

وقيل: لا توبخَ عليكم.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ﴾: ليس هذا للقصرِ عليه، لكن إذا لم يوبَّخهم في أوَّل الصَّدمة فما بعدَ ذلك أولى ألا يوبَّخهم فيه.

وقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾: هذا منه دعاء لهم بالمغفرة، عفا بنفسه، وطلب لهم عفو ربِّه، وهو كمال المروءة والديانة؛ قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ أي: ﴿عَفَا﴾ عن حقِّ نفسه، ﴿وَأَصْلَحَ﴾: سأل الله العفو عن ظالمه.

وقيل: إنَّه قطعُ منه بأنَّ الله غفرَ لهم بصدق توبيخهم، وهو إنَّ كانَ حُكْمًا فهو عن وحيٍ إليه به.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾: إذ كلُّ راحمٍ يرحمُ برحمته.

(٩٣) - ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ

أَجْمَعِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾: أمر إخوته أن يرجعوا إلى أبيهم ليحملوه إليه مع أهاليهم، وأصحابهم قميصَه، وهو الَّذي جاء به جبريل عليه السلام

(١) قاله الزجاج في «معاني القرآن» (٣ / ١٢٨).

(٢) لم أقف على هذه الأقوال منسوبة لأصحابها. وقال أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١ / ٣١٨): ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾؛ أي: لا تخليط ولا شغب ولا إفساد ولا معاقبة.

إلى إبراهيم يوم أُلقي في نار نمرود وألبسه، ثم كان بعده لإسحاق، ثم كساه إسحاق يعقوب في قصبة فعلقها في عنق يوسف، فلما أُلقي في الجب جاء جبريل عليه السلام وأخرجَه منها فألبسه، فكان معه إلى أن قال: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾.

﴿فَالْقُوَّةُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾: وقال الإمام القشيري رحمه الله: قيل: عَلِمَ يوسفُ أَنَّ يعقوبَ لِمَا يَلْحَقُهُ مِنْ فِرطِ الشُّرُورِ لَا تَطَاوَعُهُ يَدُهُ فِي أَخْذِ الْقَمِيصِ، فقال: أَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي^(١).

﴿يَأْتِ بِبَصِيرَا﴾: قيل: يَعُدُّ بَصِيرًا، وقيل: يَأْتِنِي بَصِيرًا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَوْنِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: مِنَ النِّسَاءِ وَالْأَوْلَادِ.

وإنما دعا يعقوب وإخوته وأهاليهم إلى نفسه، ولم يأت أباه، لا إخلالاً بإجلاله، بل إبقاءً على حاله؛ لأنَّه عَلِمَ أَنَّ يعقوبَ لَا يَقُومُ بِكَفَايَةِ أَمْرِ يَوْسُفَ، وتَقْصُرُ ذَاتُ يَدِهِ عَنْهُ، فحَمَلَهُمْ تَخْفِيفًا عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ.

وإنما قال: ﴿يَأْتِ بِبَصِيرَا﴾ بالوحي، وكان كذلك، وكان معجزةً له.

وقال وهب: ثُمَّ كَسَا يَوْسُفُ إِخْوَتَهُ وَأَجَازَهُمْ وَحَمَلَهُمْ، وَبَعَثَ إِلَى أَبِيهِ بِجَائِزَةٍ وَكِسْوَةٍ، وَمِئْتِي رَاحِلَةٍ وَجِهَازَهَا، وَجِهَازَ أَهْلِيهِمْ، لِنَقْلِهِمْ إِلَيْهِ، وَقَالَ لِإِخْوَتِهِ: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِبَصِيرَا وَأَنْتَوْنِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وَكَانُوا سَبْعِينَ إِنْسَانًا، وَعَجَّلَ سَرَاحَهُمْ وَحَمَلَهُمْ.

وخرج يهوذا مبشراً مسرعاً بالقميص حافياً راجلاً شاكرًا لله تعالى بالمشي والحفي، والرَّحْلَةَ مَا بَيْنَ مِصْرَ وَالشَّامَ وَبَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ، وَمَعَ يَهُوذَا الْقَمِيصُ

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٠٥).

وسبعة أرغفة ترودها، فلم يأكلها حتى ورد على أبيه، ولما فصل من مصر استروح يعقوب ريح القميص، وذلك قوله تعالى:

(٩٤) - ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾: أي: خرجت من مصر، ومصدره: الفصول، والفصال: الفطام، والفصل: التمييز، والفصل: الحكم، وصرف كله من باب (ضرب).
وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾: أي: يعقوب: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ قال الحسن: وجدها من مسيرة شهر^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من ثماني ليال^(٢).
وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾: التَّفْنِيدُ: تضعيف الرأي، والفند: ضعف الرأي؛ قال الشاعر:

يا صاحبي دعا لومي وتَفْنِيدِي فليس ما فات من أمري بِمَرْدُودِ^(٣)
وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لولا أن تسفهون^(٤).

وقال الحسن ومجاهد: تهرمون.

وقال ابن إسحاق: تضعفون.

(١) رواه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٤ / ٥٨١).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٤٣)، والطبري في «تفسيره» (١٣ / ٣٣٣).

(٣) البيت لهانئ بن شكيم العدوي، كما في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١ / ٣١٨).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٤٣)، والطبري في «تفسيره» (١٣ / ٣٣٦).

وقال الضَّحَّاك: تكذَّبون^(١).

وقيل: تنسبونني إلى الخرف، وقد أفنَّده الشَّيْبُ؛ أي: جعله كثير الكلام من الخرف.

قال يعقوبُ عليه السلام هذا الكلام لمن حضره من أهله وقرايته دون ولده؛ لأنَّهم كانوا غُيَّبًا عنه بمصر، تفرَّس فيهم أنَّهم يلومونه فقال ذلك، وهو مختصر، وتقديره: إني لأجد ريحًا يشبه ريح يوسف، وأريد أن أقول: هي ريح يوسف، لولا كراهية أن تفنَّدون.

وهو كمن وجد شيئًا يبعُد في العرف وجوده، فيقول: إنِّي وجدتُ شيئًا أريد أن أخبركم به لولا أنَّكم تكذَّبونني.

قال الإمام القشيري رحمه الله: العجبُ أنَّه كان عند إقبال المحنة ويوسفُ منه على أقلِّ من مرحلة حيث ألَّقه في الجبِّ لا يجد ريحَه، واستتر عليه حاله وخبره، ولمَّا أدبرت أيام المحنة وجد ريحَه وبينهما مسيرة شهر، أو مسيرة ثمانين فرسخًا.

وقيل: انفرد يعقوبُ بريح يوسف ووجدانها؛ لانفراده بمقاساة المحنِّ على فقد يوسف، وإنَّما يجد ريح يوسف من وجدَّ على فراق^(٢) يوسف، ويُقال: لا يعرف ريح الأحابِ إلاَّ الأحاب^(٣).

(٩٥) - ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾.

(١) روى هذه الأقوال الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٣٣٩ - ٣٤١).

(٢) في (ف): «فوات».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢ / ٢٠٦).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾: أي: قال من حضره: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾؛ أي: في خطئك القديم، قاله ابن عباس^(١) رضي الله عنهما، وهو يرجع إلى قول بنيه في الابتداء: ﴿إِنَّا نَالِفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨].

وقال مجاهد: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾؛ أي: جبك القديم^(٢). وكذلك الأول، وعلى هذا قول الله تعالى: ﴿وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧]؛ أي: محببًا فهداك إلى شرائطه وطرائقه.

وقال الحسن: إنك لذهاب عن الصواب في أمره، ترجو لقاءه وقد مات من زمن طويل^(٣)!

وفي «كتاب عصمة الأنبياء»: ليس هذا من حادثة قصده إيدائه، وإنما هو التسلية لهم، لم يحسنوا نظم الكلام على ما كان يجب مقابلته به.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إنَّ البلاء إذا هجم هجمَ بمرّة، وإذا زال زال بتدريج، حلَّ البلاء يعقوبَ بمرّة حيث قالوا: أكله الذئب، ولمَّا زال البلاء وجدَّ ريح يوسف أوَّلاً، ثمَّ قميص يوسف، ثمَّ يوم الوصول رأى سبعين حاجبًا بين يدي يوسف قبل أن رأى يوسف.

ولمَّا كان سببُ حزن يعقوبَ قميصه كان فرحه أيضًا بقميصه.

(١) في جميع النسخ: قال ابن عباس، والصواب المثبت، فقد روى الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٣٤٢)،

وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢١٩٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما: قوله: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ

الْقَدِيمِ﴾ يقول: «خطئك القديم». وكذا ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣ / ٧٨)

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٣٤٣) عن ابن جريج. وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤ /

٥٨٣) إلى الطبري عن مجاهد.

(٣) ذكره الواحدي في «البيسط» (١٢ / ٢٤٥).

قال: وقيل: إِنَّ جُودَ الرِّيحِ مجازٌ عن وجود دلائل الوصال وأمارته، وهو كما يُقال: إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ الفتنَةِ، وقد هَبَّتْ لفلانٍ رِيحٌ^(١).

وقال الشَّاعرُ:

ولقد تنسَّمتُ الرِّياحَ لحاجتي فإذا لها مِن راحتيكَ نسيمٌ^(٢)

وكأنَّه علمَ بمكان يوسف بوحىٍ مِن الله بقصد حامل القميص.

وروي أَنَّهُ لَمَّا أُخْرِجَ قَمِيصُهُ قال: مَنْ يَحْمِلُهُ؟ قال يهوذا: أَنَا أُولَى بِحَمْلِهِ؛ لَأَنِّي حَمَلْتُ إِلَيْهِ قَمِيصَهُ الْمَلْطَخَ بِالْدَّمِ، وأخبرتهُ بأنَّ الذُّبَّ أَكَلَهُ، فَكُنْتُ سَبَبَ حَزَنِهِ، فَأَحْمَلُ إِلَيْهِ هَذَا الْقَمِيصَ فَأَكُونُ سَبَبَ سُرُورِهِ.

وقيل: إِنَّ يَعْقُوبَ كان يَتَعَرَّفُ خَبَرَ يَوْسُفَ مِنَ الرِّياحِ كَثِيرًا، حَتَّى جَاءَ الْإِذْنَ لِلرِّياحِ بِحَمْلِ رِيحِهِ إِلَيْهِ، وَسُنَّةُ الْأَحْبَابِ مَسائِلَةُ الدِّيارِ وَمَخاطِبَةُ الْأَطْلالِ وَمراسِلَةُ الرِّياحِ. قال قائلُهُم:

وإِنِّي لأَسْتَهْدِي الرِّياحَ نَسِيمَكُم إذا أَقْبَلَتْ مِن نَحْوِكُم بِهَبوبٍ
وَأَسأَلُها حَمَلَ السَّلامِ إِلَيْكُم فَإِنَّ هِيَ يَوْمًا بَلَّغَتْ فَأَجِيبُوا^(٣)

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقسيري (٢/ ٢٠٥-٢٠٦).

(٢) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص: ٣٢٢)، و«زهر الآداب» للقيرواني (٢/ ٣٨١)، و«الحماسة البصرية» (١/ ١٧٢)، و«نهاية الأرب» للنويري (٤/ ٣٢٥).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٠٦ - ٢٠٧). ونسب لمحمد بن رزق القرطبي في «جذوة المقتبس» لابن أبي نصر (ص: ٥٦)، و«المحمودون من الشعراء» للقفطي (ص: ٣٥٢)، بيتان قريبان من هذين البيتين، وهما:

وإني لأستهدي الرياح سلامكم إذا ما نسيمٌ من بلادكم هبًا
وأسألكم حمل السلام إليكم لتعلم أني لا أزال بكم صبا

وقالوا: من العجب أن يعقوب وجد ريح يوسف، والذين حضروه لم يجدوا، وأعجب منه أن يهوذا الذي كان يحملُه وهو في رحله كان لا يجد ريحَه، وكذا المؤمن يوم القيامة يجد ريح الجنة من مسيرة خمس مئة عام، والكافر لا يجد ريحها.

(٩٦) - ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾: أي: جاء يهوذا بالقميص فألقاه على وجه أبيه يعقوب فردَّ بصيرًا؛ أي: صار بصيرًا كما كان. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: أي: قال للذين حضروه ممن كانوا ينفذونه، ويقولون: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ مُكْدِرٍ﴾: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾، وهو ما مرَّ في قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وهو علمه بما يتلى الله به عبادَه الأنبياء من المحن التي تنكشف عن حميد العاقبة.

قال كعب ووهب: فألقى يهوذا القميص على وجه أبيه فعاد بصيرًا للحال. وقال يهوذا: البشارة يا أبتاه، إنَّ الملك العزيز الذي ملك مصر وأهلها هو ابنتك يوسف، وقد بعث إليك جهازًا ومثني راحلة، ويسألك أن تخرج أنتَ ومن معك إليه، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

فتهيأ يعقوب للخروج، وخرج معه اثنان وسبعون من آله^(١)، فبلغ يوسف انزعاجه وقربه من مصر، فتلقاه في مواكبه، وتلقاه فرعون في جنوده، ووصل يعقوب بصلاتٍ فاخرة وجوائزٍ سنّية.

(١) في (أ): «اثنان وسبعون من ذكر»، وفي (ر): «اثنان وتسعون من ذلك»، وفي (ف): «اثنان وتسعون من آله». والصواب المثبت: انظر: «الكشاف» (٢/ ٥٠٥).

(٩٧) - ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: قال إخوة يوسف لأبيهم: اشفع لنا إلى يوسف ليعفو عنا، وقيل: استغفر الله لنا ذنوبنا.
﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾: مذنبين مسيئين إليك وإلى يوسف، وعاصين لله بذلك.

(٩٨) - ﴿قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: قيل: آخر يعقوب ذلك إلى أن ينظر ما يقضي الله في أمرهم، وماذا يقول يوسف، والحق لم يكن ليعقوب خاصّة، فأخر إلى أن يترضاه، ثم يستغفر لهم.
وقيل: أخر ذلك إلى أن يقوم للصلاة، فيستغفر فيها أو بعدها.

وقيل: إلى وقت السحر.

وقيل: إلى ليلة الجمعة.

وقال وهب: كان يستغفر لهم كلّ ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة.

وفي بعض القصص: أن يعقوب وأولاده وأهاليهم توجهوا إلى مصر على رواحلهم، فلما قربوا من مصر، وأخبر بذلك يوسف، تلقاه معه ثلاث مئة ألف فارس، كلّ واحد منهم معه حربّة من فضّة وراية من ذهب، الأفراس مراكبه، والفرسان غلمانهم، فتزيّنت الصحراء بهم واصطفوا صفوفًا.

ولما صعد يعقوب تلاً ومعه أولاده وحفدته، ونظر إلى الصحراء مملوءة من الفرسان مزينة بالألوان، نظر إليهم متعجبًا، فقال له جبريل: انظر إلى الهواء، فإنّ الملائكة قد حضرت سرورًا لحالك، كما كانوا باكين محزونين مدّة لأجلك.

ثم نظر يعقوبُ إلى الفرسان فقال: أَيُّهُمْ ولدي يوسف؟ فقال له جبريل: هو ذلك الذي فوق رأسه طُلَّةٌ. فلم يتمالك أن أوقع نفسه من البعير.

فقال جبريلُ: يا يوسفُ، إنَّ أباك يعقوب قد نزل إليك^(١) فانزل له، فنزل عن فرسه، وجعل كل واحدٍ منهما يعدو إلى الآخر حتَّى التَفَيَّا، فاعتنقا، وبكيا سرورًا، وماج الفرسانُ بعضُهم في بعضٍ، وصهلت الخيولُ، وسبَّحت الملائكةُ، وضربَ بالطُّبول والبوقات، فصارَ كأنَّه يوم القيامة.

وفي «كتاب عصمة الأنبياء»: وما رُوي أنَّه لم ينزل من السَّرير لأبويه أو عن الدَّابة كلامٌ لا معنى له؛ لأنَّه قد تلقَّاهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾، ولذلك نزل عن الدَّابة على ما حكينا^(٢).

وما رُوي أنَّ جبريل قال ليوسف: إنَّك لم تنزل^(٣) لأبيك، فقطعَ نسلُ النُّبوة منك = فإنَّه كلامٌ باطلٌ لا يجوز أن يُذكر ويُعتقد؛ فإنَّ الأنبياء لم يكن من صفتهم التَّعْظُم على أحدٍ، فضلًا على الأب.

وعلى أنَّ الأنبياء من بعده كانوا من نسله، كموسى وداود وسليمان.

ثم لَمَّا انتهوا إلى السَّرير رفعَ أبويه مكرَّمًا لهما، آخذًا بأيديهما، مُعلِّيًا لهما على السَّرير، ثمَّ إنه جلسَ هو معهما، وهو على الجلوس كما يجلسُ^(٤) الولد بين يدي والده، ولا يُعدُّ ذلك تركًا للحُرمة، خصوصًا إذا كان ولده نبيًّا مرسلًا.

(١) في (ف): «لك».

(٢) في (أ): «بيننا».

(٣) في (ف) و(أ): «تحتزم».

(٤) في (أ): «ثمَّ إن جلسَ هو معهما فهو على الجلوس كما يجلسُ»، وفي (ف): «ثمَّ إنه جلس هو معهما وهو كما يجلس».

فإن قالوا: هَلَا سَارَ^(١) إِلَى أَبَوَيْهِ لِقَضَاءِ حَقَّقِهِمَا، وَمَا يَحْمِلُ أَبُوهُ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزَنِ فِي أَمْرِهِ، حَتَّى اسْتَدْعَاهُمْ إِلَى حَضْرَتِهِ.

قلنا: إِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ وَحْيٍ.

وَالثَّانِي: إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَأْتُوهُ جَمِيعًا، فَيَعْرِفَ أَهْلَ مِصْرَ وَجَاهَتَهُ وَأَبَوَيْهِ وَمَنْزِلَتَهُ، وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَصِرْ مُلْكًا مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ، بَلْ لَهُ أَصْلٌ صَمِيمٌ^(٢)، وَلِيُعَايِنَ أَهْلُهُ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْمَحَنَةِ مِنْ إِعْطَاءِ الْمُلْكِ، وَلَوْ كَانَ تَرَكَ الْمُلْكَ وَسَارَ^(٣) إِلَيْهِمْ لَمْ يَقَعْ مَوْقِعَ الْإِعْظَامِ فِي الْإِخْبَارِ؛ إِذْ لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمَعَايِنَةِ.

(٩٩) - ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾: أَي: يَوْمَ عَاشُورَاءَ ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾: أَي: ضَمَّ إِلَى نَفْسِهِ أَبَاهُ وَخَالَتَهُ رَاحِيلَ^(٤)؛ لِأَنَّ أُمَّهُ كَانَتْ مَاتَتْ، وَتَزَوَّجَهَا يَعْقُوبُ، وَالْخَالََةُ أُمُّ.

وَالْأَبَوَانِ: اسْمٌ لِلْأَبِ وَالْأُمِّ، تَغْلِيظًا لِلذِّكْرِ عَلَى الْأُنْثَى، قَالَ السُّدِّيُّ^(٥).

وَقَالَ الْحَسَنُ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: كَانَتْ أُمُّهُ فِي الْأَحْيَاءِ^(٦).

(١) فِي (ف): «صَارَ».

(٢) فِي (ر): «بَلْ لَهُ مِنْهُمْ»، وَهِيَ لَيْسَتْ فِي (ف).

(٣) فِي (ف) وَ (أ): «وَصَارَ».

(٤) ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ أَوَّلَ السُّورَةِ أَنَّ اسْمَ أُمِّ يُوسُفَ: رَاحِيلَ، وَأَنَّ اسْمَ خَالَتِهِ: لَايَا.

(٥) رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٣ / ٣٥٢)، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٧ / ٢٢٠١).

(٦) رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٣ / ٣٥٢) عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ، وَذَكَرَهُ الْمَاورِدِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣ / ٨٢) =

وقد آواهما جميعاً؛ أي: ضمَّهما إلى نفسه وأنزلَهما عنده ومعه في موضعٍ أعدَّه لنزولِ ساعةٍ خارجِ المصر.

﴿وَقَالَ أَدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾: والاستثناءُ داخلٌ في الأمان لا في الدُّخول؛ لأنَّه أمرٌ بالدُّخول، ووعدٌ بالأمان، والاستثناءُ يدخلُ في الوعدِ لا في الأمرِ.

وكذا كانت مواعيدُ الأنبياء عليهم السلام، قال الله تعالى لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِسَائِيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

وإنَّما وعدَ الأمانَ لأنَّه كان بلدًا فيه كفار، وملِكُهم الَّذي أقامَ يوسفَ مقامَ نفسه كان كافرًا أيضًا، فوعدَ لهم الأمانَ معلقًا بالمشيئة رجاءً لذلك من فضلِ الله.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا﴾: كان دخولُهم عليه مصرَ أربعَ مرَّاتٍ:

الأوَّل: ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَّفَهُمْ﴾ [يوسف: ٥٨].

والثاني: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: ٦٩].

والثالث: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ [يوسف: ٨٨].

والرَّابع: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾.

﴿وَقَالَ أَدْخُلُوا﴾: أي: قال لأبويه ولمن معهما.

قال الإمام القشيري رحمه الله: اشترك القومُ في الدُّخول، ولكن تباينوا في الإيواء، فانفرد الأبوان به لُبُعِهما عن الجفاء، كذا غداً إذا وصلوا إلى الغفران يشتركون فيه وفي دخول الجنة، ولكنَّهم يتباينون في بساط القربة، فيختصُّ به أهل الصِّفاءِ دونَ مَنْ اتَّصفَ اليومَ بالجفاء^(١).

= عن الحسن وابن إسحاق.

(١) في (ف) و(أ): «بالالتواء». انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٠٨).

(١٠٠) - ﴿ وَرَفَعَ أَبُوبَيْهَ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِيَتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبُوبَيْهَ عَلَى الْعَرْشِ ﴾: أي: لَمَّا دخلوا مصرَ ودخلوا داره رفع والدّه وخالته راحيل إلى سرير الملك.

﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾: وقال وهبٌ: انحنوا له كما تفعل الأعاجم، ولم يضعوا جباههم، وإنما تُوضَعُ الجباهُ بالسُّجودِ لله، وهذا كان تحيةً منهم له، وكذلك فعلت الملائكة حين أمروا بالسُّجودِ لآدم، ولم تزل تحيةُ النَّاسِ السُّجودَ حتّى جاء الله بالإسلام، فذهب بالسُّجودَ وجاء بالمصافحة.

وأكثرهم على أنّه وضعُ الجبهةِ على الأرض، وهو المتعارفُ المتفاهمُ عند إطلاقه.

وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: سجدوا لله شكرًا له على ما أنعمَ عليهم بالاجتماع^(١).

والأظهرُ والأشهرُ أنّه كان ليوسف؛ لأنَّ الرُّؤيا كانت على ذلك؛ قال: ﴿رَأَيْنُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وكان ذلك تحيةَ الملوك، إلى أن نُسِخَ في زمنِ نبينا عليه الصلاة والسلام.

وفي الآية دليلٌ على أنّه لا بأسَ بإمساك السرير والجلوس عليه إذا لم يكن للتّعظيم والمباهاة، وإنّما كان للانتفاع والارتفاع^(٢) والارتفاق، وإمساك النَّاسِ على

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢٥٩).

(٢) «والارتفاع» من (أ).

حدود الآداب إذا نظروا إليه بعين المكانة والمنزلة والجاه، فيسهل على الوجه تنفيذ أسباب المعاملة.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأَبَّتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: عبارة رؤيائي.

وقال عكرمة: تفسير رؤيائي.

وقال مقاتل بن حيان: تحقيق رؤيائي^(١).

وقال طاوس: تصديق رؤيائي.

أي: التي قصصتها عليك.

﴿قَدْ جَعَلَهَا رِيَّ حَقًّا﴾: بأن أسجدكم لي^(٢) في اليقظة كما رأيته^(٣) في المنام.

ومنهم من قال: سجد له إخوته دون أبويه، وهذا لا يستقيم؛ لأن الرؤيا كانت على سجود الكل؛ قال تعالى خبراً عن يوسف: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَايُهُمْ لِي سَجْدِينَ﴾ [يوسف: ٤] فعلى ذلك تأويلها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾: وقال كثير:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٌ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ ثَقَلَتْ^(٤)
وحروف الأدوات تتناوب.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠ / ٢٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥ / ١٤٩٤) عن ابن زيد.

(٢) «لي» ليس في (ف).

(٣) في (أ): «أرانيه».

(٤) انظر «ديوانه» (ص: ٨٠)، و«معاني القرآن» للفرأ (١ / ٤٤١)، و«الشعر والشعراء» (١ / ٥٠٦).

وقيل: هو على حقيقته؛ أي: أحسنَ إلى أهل الزَّمان بي، حيثُ ملَّكني، ونفع النَّاسَ بحسْنِ تدبيري.

وقوله: ﴿إِذَا أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾: فقال يعقوبُ: أَو كُنْتَ فِي السِّجْنِ؟ قَالَ: لَا أَشْكُو السِّجْنَ، وَلَكِنِّي أَشْكُرُ الْخَلَاصَ مِنَ السِّجْنِ.

وقالوا: لم يذكرِ الْخَلَاصَ مِنَ الْبُئْرِ؛ قيل: لَأَنَّ مَدَّةَ ذَلِكَ كَانَتْ قَصِيرَةً، وَمَدَّةَ تِلْكَ كَانَتْ طَوِيلَةً، وَلَأَنَّ الْبُئْرَ كَانَ بِفَعْلٍ إِخْوَتَهُ فَلَمْ يَرْضَ بِذِكْرِ ذَلِكَ بِحَضْرَتِهِمْ لِئَلَّا يَخْجَلُوا، وَكَانَ السِّجْنُ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ فَلَمْ يَبَالِ بِذِكْرِ فَعْلِهِمْ.

وقيل: كَانَ إِيقَاعُهُمْ إِيَّاهُ فِي الْبُئْرِ لِحَسَدٍ مِنْهُمْ^(١)، فَلَمْ يَخَفْ أَنْ يَكُونَ عَقُوبَةً لَهُ، وَالسِّجْنُ كَانَ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣]، فَخَافَ أَنْ يَكُونَ مَعَاقِبَةً لَهُ أَوْ مَعَاتِبَةً، فَعَدَّ الْخَلَاصَ مِنْهُ غَنِيمَةً عَظِيمَةً.

قوله تعالى ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾: أي: مِنَ الْبَادِيَةِ الَّتِي يَبْدُو فِيهَا مَنْ كَانَ دَخَلَهَا. وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بَادِينَ بِأَرْضِ كِنْعَانَ، وَهِيَ بَادِيَةٌ بِلَادِ فِلَسْطِينَ.

وقيل: قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ مَوَاشٍ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَلْقَى الْحَسَدَ فِي قُلُوبِ أَخَوْتِهِ^(٢). وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: أَغْرَى الشَّيْطَانُ^(٣).

(١) فِي (ف): «لِحَسَدٍ مِنْهُمْ فَلَمْ يَذْكُرْهُ وَذَكَرَهُ لِلْسِّجْنِ».

(٢) ذَكَرَهُ الْمَوَارِدِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣ / ٨٤)، وَالْوَاهِدِيُّ فِي «الْبَسِيطِ» (١٢ / ٢٥٣).

(٣) لَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ عَنْ مُقَاتِلٍ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ فِي «غَرِيبِ الْقُرْآنِ» (١ / ٣١٩): نَزَعَ: أَفْسَدَ وَحَمَلَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ.

وقال عطاء: حَرَّشَ الشَّيْطَانُ^(١). والتَّحْرِيشُ^(٢): التَّهْيِيجُ.

وقال عكرمة: أَفْسَدَ^(٣).

وهو حقيقة لغة، أضاف إليه تمهيداً لعذر الأخوة.

وأصل الفساد يكون من وسوسة الشيطان^(٤)، ثم يقبله الإنسان؛ فيقع فيه، أو يمتنع منه بالاجتهاد والاستعاذة بالله فيسلم منه.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾: أي: لطف الله لي بهذه النعم، إنه لطيفٌ لِمَا يَشَاءُ؛ أي: يوصل إلى الشيء في سهولة وحسن موقع.

وقيل: أي: عالم بدقائق الأمور وحقائقها وسرّها وعلنيها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾: بنا وبأحوالنا ﴿الْحَكِيمُ﴾: فيما أجرى بيننا.

وقيل: أي: ﴿الْعَلِيمُ﴾ بسرائر عباده. وقيل: بمصالح عباده ﴿الْحَكِيمُ﴾: يضع كل شيء موضعه، ويفعله لوقته.

وقيل: أي: ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما فعلوا ﴿الْحَكِيمُ﴾ بما فعل بنا.

وفي بعض التفاسير المقبولة: أن يوسف لما جمع الله بينه وبين أبويه وإخوته أخذ بيد أبيه، وجعل يعرض عليه الخزائن، فعرض عليه بخزائن^(٥) الذهب والفضة

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣ / ٨٤) عن ابن قتيبة.

(٢) في النسخ: «والتحرش»، والصواب المثبت.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠ / ٦٤٦) عن قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ

نَزَعٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]

(٤) في (أ): «وسوسته» بدل من «وسوسة الشيطان».

(٥) في (ر) و(ف): «خزانة».

والحليّ والحلّ والأسلحة، حتّى أدخله خزانة القراطيس، فرأى يعقوب فيها شيئاً كثيراً، فقال: يا بُنَيَّ، ما أعقَكَ لأبيك، كان عندكَ كلُّ هذا من القراطيس، وكنتَ مِنِّي على ثمانية مراحلٍ أربعين سنةً، فما الذي منعَكَ من مكاتبتني؟ قال: أمرني جبريلُ بهذا، قال: أفلا تسأله؟ قال: يا أَبَتِ، أنتَ أشدُّ^(١) انبساطاً إليه مِنِّي.

فجاءه جبريلُ، فسأله يعقوبُ: أأنتَ نهيتَ ابني عن مكاتبتني؟ قال: نعم. قال: وَلِمَ؟ قال: لأنَّ اللهَ أمرني بذلك. قال: أفلا تسأله؟ قال: نعم.

فمضى، وسألَ اللهَ تعالى، فقال: قلْ لعبدي يعقوب: أنسيتَ يومَ قلتَ: ﴿لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣]، فهلَا خفتَني يا يعقوبُ.

قال وهبٌ: فلبثَ يوسفُ معه إخوته من يومٍ وردوا عليه مصرَ إلى يومٍ مات أبوه أربعاً وعشرين سنة، في أغبط الغبطة، وأسرَّ السرور، ولا يأتي عليه يومٌ وليلةٌ إلَّا واللهُ تعالى يحدثُ له فيه غبطةً هي أفضلُ ممَّا قبلها، ورجاءٌ هو أفضلُ ممَّا قبله، وعافيةٌ هي أوسعُ ممَّا قبلها، قد جمعَ اللهُ إلفتهم، وأقرَّ عيونهم، ودحرَ الشَّيطانَ عنهم، فلبثوا بذلك، لا يُقدَّرُ قدرُ إحسانِ اللهِ إليهم ونعمته التي أتمَّها عليهم.

فلَمَّا حضرَ يعقوبَ الوفاةَ جمعَ ولده وولدَ ولده، فأوصاهم، وعهدَ إليهم، وقال: ﴿يَبْنَئِ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، و: ﴿قَالَ لِيْنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ﴾ الآية [البقرة: ١٣٣].

وقال: يا بُنَيَّ، احفظوا عني خصلتين: ما انتصرتُ من مظلمةٍ^(٢) بقولٍ ولا فعلٍ، ولا رأيتُ من أحدٍ حسنةً إلَّا أفشيتها، ولا رأيتُ من أحدٍ سيئةً إلَّا كتمتها.

(١) في (ر): «أكثر».

(٢) في (أ): «ظالم».

وقال له بنوه: يا أبانا، إِنَّا نخافُ أَنْ يحقِّدَ علينا يوسفُ بما صنَعنا به بعدَكَ، فاستوهِبْ لنا ذلكَ منه، وأوصِهِ بنا.

قال يعقوبُ: يوسفُ يا بنيّ، هبْ لي فعلةَ إخوانِكَ بك، ولا تحقدها عليهم، فقال يوسفُ: يا أبتاه، قد عفوتُ عنهم، ووهبتُهُم لك.

وأوصى يعقوبُ يوسفَ إذا هو ماتَ أَنْ يحملَ جسدَه حتَّى يُقبرَ معَ أبويه إبراهيمَ وإسحاقَ في الأرضِ المقدَّسة، فحملَه يوسفُ على عجلةٍ، وفعلَ الَّذي أمرُه به، ورجعَ إلى مصرَ.

قال وهبٌ: ويُقال: إِنَّه ماتَ هو وأخوه عيصُ في يومٍ واحدٍ، وقُبرا في موضعٍ واحدٍ، وكان عُمرُهُما مئةَ سنةٍ وأربعاً^(١) وأربعين سنة.

(١٠١) - ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

فلَمَّا جمعَ اللهُ سبحانه ليوسفَ شمله، وأقرَّ عينه، وأتمَّ له أمورَ رؤياه، تمنى الموتَ، ودعا ربَّه، وذلكَ قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾: الأظهرُ أَنَّهُ مُلْكُ مصرَ.

وقيل: هو مُلْكُ الجَمال^(٢).

وقيل: هو مُلْكُ النَّسَبِ، فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم؛ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

(١) «وأربعاً» ليس في (أ).

(٢) في (أ): «الكمال».

وقيل: هو مُلْكُ القلوبِ، فكانَ يحِبُّه الحاضرُ بالنَّظرِ، والغائبُ بالخبرِ.
 وقيل: هو مُلْكُ الاحترامِ، فقدْ نَفَرَتِ الهَوَامُّ كُلُّهَا حِينَ أُلْقِيَ فِي البئرِ احترامًا له.
 وقيل: هو مُلْكُ القِيَمَةِ، حينَ بَلَغَتْ قِيَمَتُهُ يَوْمَ دَخُولِهِ مِصرَ وعرضِهِ فِي السُّوقِ
 لِلشَّرَاءِ أَضْعَافَ أَضْعَافٍ زِيَّةَ نَفْسِهِ مِنْ كُلِّ مَالٍ خَطِيرٍ.
 وقيل: هو مُلْكُ النَّفْسِ حِينَ ^(١) اسْتَعَصَمَ فَلَمْ يُجِبْ امْرَأَةَ العَزِيزِ.
 وقيل: هو مُلْكُ الهِمَّةِ حِينَ ^(٢) اخْتَارَ السَّجْنَ عَلَى العِصْيَانِ.
 وقيل: هو مُلْكُ النُّبُوَّةِ فِي ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ عَمْرِهِ.
 وقيل: هو مُلْكُ الهَيْبَةِ حَتَّى هَابَتْهُ زَلِيخَا وَذَلَّتْ لَهُ وَانْقَادَتْ، مَعَ أَنَّهَا ظَاهِرٌ حَالِهَا
 أَنَّهَا مَلِكَةٌ.

وقيل: هو مُلْكُ الإِخْوَةِ، مَلَكَهُمْ وَذَلُّوا لَهُ، ثُمَّ مَنَّ عَلَيْهِمْ.
 وقيل: هو مُلْكُ الجُودِ، فَمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا أَجُودَ مِنْ يُوْسُفَ ^(٣) فِي سَنَةِ القَحْطِ.
 وقيل: هو مُلْكُ الشَّفَقَةِ، قَدْ كَانَ يَجُوعُ ^(٤) حَتَّى لَا يَنْسَى الجَائِعَ.
 وقيل: هو مُلْكُ العَدْلِ، فَقَدْ سَوَّى بَيْنَ أَهْلِ وَلايَتِهِ وَالْغُرَبَاءِ كُلِّهِمْ فِي سَنَةِ الجَدْبِ.
 وقيل: هو مُلْكُ القَمِيصِ، أَعَادَ بِهِ بَصَرَ أَبِيهِ، وَكَانَ كُلُّ جَمِيعِ قِصَّتِهِ فِي ثَلَاثَةِ مِنْ
 الْقُمُصِ: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]، ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾
 [يوسف: ٢٧]، ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ [يوسف: ٩٣].

(١) فِي (أ): «حَتَّى».

(٢) فِي (أ): «حَتَّى».

(٣) فِي (أ): «مِنْهُ».

(٤) فِي (أ): «يَجُوعُ أَكْلَهُمْ».

وقيل: هو مُلْكُ الْوَصَالِ، فَقَدْ وَجَدَ وَصَالَ أَبُوهُ وَإِخْوَتَهُ وَكُلَّ قَرَابَاتِهِ بَعْدَ ثَمَانِينَ سَنَةً مِنْ غَيْرِ أَنْ نَقَصَ مِنْهُمْ وَاحِدًا.

وقيل: هو مُلْكُ الْعِبْرَةِ، فَقَدْ قَالَ: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي فَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

وقيل: هو مُلْكُ السُّؤَالِ، وَهُوَ سُؤَالُ الْوَفَاءِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ مِنْ غَيْرِهِ فِي مِثْلِ حَالِهِ.

ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾: (مِنْ) لِلتَّبَعِيضِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَلِكًا كُلَّ الدُّنْيَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾؛ أَي: تَعْبِيرَ الرُّؤْيَا، وَقِيلَ فِيهِ أَقَاوِيلُ أُخْرَى قَدَّمْنَاهَا فِي أَوَّلِ السُّورَةِ.

وقوله تعالى: ﴿فَاطْرَأَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أَي: يَا خَالِقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، مُبْتَدَأًا^(١) خَلَقَهُمَا.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: أَي: مُتَوَلِّيٌّ أُمُورِي، وَكَافِي مَعَاشِي وَمَعَادِي.

وَالْوَلِيُّ فِي الْقُرْآنِ لِعَشْرَةِ مَعَانٍ:

- لِلرَّبِّ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنْكَ دَوْلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤].

- وَلِلْإِلَهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [العنكبوت: ٤١]؛ أَي: آلِهَةً.

- وَلِلْوَلَدِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥].

(١) فِي (أ): «مبتدئ»، وفي (ر) و(ف): «مبتدأ». والصواب المثبت.

- وللقريب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ [البقرة: ١٠٧].
- وللصاحب^(١) قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ نَحْدِلَهُ. وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].
- وللقائم؛ قال تعالى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].
- وللمتولي المصالح؛ قال تعالى: ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ﴾ [يوسف: ١٠١].
- وللموالي في الكفر؛ قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١].
- وللموالي في الإسلام؛ قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].
- وللنصيح؛ قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ [النساء: ١٤٤].
- وقال القشيري رحمه الله: أنت الذي تتولاني^(٢) في دنيائي بعرفانك، وفي عقباي^(٣) بغفرانك، فليس لي في الدارين غيرك^(٤).
- وقوله تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾: أي: أمتني على الإسلام.
- قيل: لَمَّا انتظمت أسبابه واطردت أحواله اشتاق إلى ربه.
- وقيل: لَمَّا رأى أمره على الكمال، علم أنه أشرف على الزوال، سأل سعادة الانتقال، قال قائلهم:

(١) «وما لكم من دون الله من ولي، وللصاحب» ليس في (ف).

(٢) في (أ): «مولاي»، وليست في (ر) و(ف).

(٣) في (أ): «تحصيلي».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢١٠)، ولفظه: الذي يتولّى في الدنيا والآخرة بعرفانه أنت فليس لي غيرك في الدارين.

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ دَنَا^(١) نَقْصُهُ تَوَقَّعَ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ^(٢)

وقيل: هذا سؤال التَّوَقُّي على الإسلام للحال.

وقيل: هو سؤال الخَتْم على الإسلام متى كان.

وحكي عن الأستاذ أبي على الدِّقَّاق أَنَّهُ قَالَ: قَالَ يَوْسُفُ لِيَعْقُوبَ: عَلِمْتَ أَنَّا نَلْتَقِي فِي الْآخِرَةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَلَمْ يَكُنْ كُلُّ ذَلِكَ الْبُكَاءِ؟ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّ هُنَاكَ طَرِيقَيْنِ خَفْتُ أَنْ تَسْلُكَ طَرِيقًا وَأَسْلُكَ طَرِيقًا، فَقَالَ يَوْسُفُ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿تَوَقَّيْ مُسْلِمًا﴾^(٣).

وقيل: لَمَّا جَاءَ الْبَشِيرُ وَبَشَّرَ يَعْقُوبَ بِيُوسُفَ قَالَ: عَلَى أَيِّ دِينٍ تَرَكْتَهُ؟ قَالَ: عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: الْآنَ طَابَ قَلْبِي.

وقال الشيخ أبو الحسن محمد بن يحيى البشاغري في «كتاب عصمة الأنبياء»: إِنَّ مَنْ كَمَلَتْ لَهُ حَالَتُهُ، وَصَفَتْ لَهُ سِرِيرَتُهُ، لَاحَتْ لَهُ مَعْرِفَةُ إِقْرَارِ الْأَشْيَاءِ عَلَى هَيْئَتِهَا، وَكُشِفَ لَهُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى عِظَمَةِ اللَّهِ وَسُلْطَانِهِ، ثُمَّ إِلَى نَفْسِهِ فِي جَوْهَرِهَا وَبُنْيَتِهَا^(٤)، فَلَا يَتْرَكَ شَرْطَ^(٥) الْعِبُودِيَّةِ فِي مَقَامِهِ وَإِنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، بَلْ يَقُومُ بِوَفَاءِ الشُّكْرِ لِلنِّعَمِ، لَا لِلْإِعْجَابِ بِالنَّفْسِ وَالْأَمْرِ عَلَى حَالِهَا.

والثَّانِي: أَنَّ يَوْسُفَ دَعَا بِهِ لِيَقْتَدِيَ قَوْمُهُ بِهِ، وَمِنْ بَعْدِهِ مَنْ لَيْسَ يَأْمَنُ عَلَى خَتْمِهِ،

(١) فِي (أ): «بَدَا».

(٢) الْبَيْتُ نَسَبَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَمَا فِي «الْكَشْكُول» لِلْعَامِلِيِّ (٢ / ٨٩)، وَلِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ. كَمَا فِي «الدَّرُ الْفَرِيد» لِلْمُسْتَعْصِمِيِّ (٢ / ٣٩٥)، وَذَكَرَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَصَادِرِ بِلَا نِسْبَةٍ.

(٣) انْظُرْ: «لَطَائِفُ الْإِشَارَات» لِلْقَشِيرِيِّ (٢ / ٢١١).

(٤) فِي (أ) وَ(ر): «وَنَيْتِهَا».

(٥) فِي (ف): «فَلَا يَزِلُّ بِشَرْطٍ».

فلا يترك الدعاء امتثالاً به؛ لأنَّ ظواهر الأنبياء كانتَ لنظرِ الأممِ إليهم؛ ليعلموا موضعَ الشُّكرِ من موضعِ الاستغفارِ.

والثَّالثُ: معنى الإسلامِ من مثله يحتملُ الاسترسالَ، فأحبُّ إدامةَ العصمةِ عليه باستعمالِ الخلقِ الحسنِ إلى آخرِ عمرِه حسبَ ما جرى في مختلفِ الأحوالِ التي جرتَ عليه من المحنِ والنَّعمِ؛ إذ الإسلامُ قد يكونُ عبارةً عن العقدِ فهو الدِّينُ، وعن^(١) التسليمِ وهو صفوُ الحالِ.

وقوله تعالى: ﴿وَالْحَقِّقِي بِالصَّالِحِينَ﴾: هذه الكلمة في القرآن لمعانٍ:

- منها المؤمنُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢].
- ومنها العملُ المرضيُّ؛ قال تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [البقرة: ٦٢].
- ومنها المطيعُ؛ قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].
- ومنها التَّائبُ؛ قال تعالى: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩].
- ومنها الأمينُ؛ قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]؛ أي: يؤدِّي الأمانةَ.
- ومنها الولدُ السَّويُّ الأعضاء؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَالِحًا﴾ [الأعراف: ١٩٠].
- ومنها الرَّفِيقُ المنصفُ؛ قال تعالى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧].
- ومنها الرَّفِيعُ المنزلةُ؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

(١) في (أ): «العقد وهو الدين وهو».

- ومنها أنه اسم للأنبياء لكمال حالهم واستجماع خلال الخير فيهم؛ قال تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٦].

قيل: وأراد به هنا: وألحقني بآبائي الأنبياء في الجنة؛ إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وقيل: أراد به: ألحقني في الدنيا بدرجات الصالحين، المستكملين للمصالح، المنزهين عن الفساد.

وفي ذلك سنة^(١) لكل مسلم أن يدعو بهذا الدعاء، وهو الختم على الإسلام والإلحاق بالصالحين؛ لأن مع الصالحين الأمن والسكون والغبطة والخبور.

قال وهب: فلما حضرت يوسف الوفاة أوصى إخوته بمثل ما أوصى به أبوه يعقوب^(٢)؛ أن يحملوه إلى الأرض المقدسة فيدفنوه مع آبائه، فحمل ودُفن مع آبائه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مات يوسف في أهل مصر ودُفن بها، فلما بعث الله موسى بن عمران عليه السلام تولى إخراج شخصه من مصر، فانطلق به حتى دفنه عند قبر أبيه^(٣).

(١) في (أ): «تنبيه».

(٢) «يعقوب» ليس في (ف).

(٣) في (أ): «قرائبه» بدل: «قبر أبيه». والخبر ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣/ ٨٦)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٠٣) إلى ابن عبد الحكم.

ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٧٢٣)، والحاكم في «المستدرک» (٣٥٢٣) مرفوعاً من حديث أبي موسى رضي الله عنه، قال: أتى النبي ﷺ أعرابياً فأكرمه، فقال له: «اثننا»، فأتاه، فقال له رسول الله ﷺ: «سل حاجتك»، قال: ناقة نركبها، وأعنز يحلبها أهلي، فقال رسول الله ﷺ: «أعجزتم أن تكونوا مثل عجز بني إسرائيل؟ قالوا: يا رسول الله، وما عجز بني إسرائيل، قال: «إن موسى عليه السلام لما سار ببني إسرائيل من مصر، ضلوا الطريق، فقال: ما هذا؟، فقال علماءهم: إن يوسف عليه السلام، لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا، =

قال وهبٌ: ودخل يعقوبُ وأولاده مصرَ، وهم اثنان وسبعون إنسانًا ما بين رجل وامرأة، وخرجَ منهم الَّذِينَ خرجوا مع موسى من مقاتلتهم ستُّ مئة ألف وخمس مئة وبضعةٌ وسبعون رجلًا سوى الذرية، وكانت الذرية ألف ألف ومئتي ألف سوى المقاتل.

وعاش يوسفٌ بعد موت أبيه نيفًا^(١) وعشرين سنة، ومات وهو ابن عشرين ومئة سنة، وكان أوَّلَ نبيٍّ من بني إسرائيل.

قال وهبٌ: ثم استخلفَ من بعده يهوذا، ثم روبيل، ثم لاوي، ثم شمعون، ثم بحر، ثم زبالون، ثم يشجر، ثم دان، ثم نفتالي، ثم حاذ، ثم آشير.

وولِدَ ليوسفَ ابنان: إفرائيم بن يوسف، ومنشا بن يوسف، فولد لإفرائيم^(٢) نون بن إفرائيم، وولد لنون يوشع بن نون، وهو فتى موسى، وولد لمنشا بن يوسف: موسى بن منشا، وأهل التَّوراة يقولون: هو الَّذي طلب [العالمَ ليتعلَّم منه حتى أدركه، والعالمُ هو الذي] خرقَ^(٣) السفينة، وقتل الغلام.

وقال ابن عباس: هو موسى بن عمران بن فاهت بن لاوي بن يعقوب^(٤).

= قال: فمن يعلم موضع قبره؟ قال: عجوز من بني إسرائيل، فبعث إليها فأتته، فقال: دليني على قبر يوسف، قالت: حتى تعطيني حكمي، قال: وما حكمك؟ قالت: أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك، فأوحى الله إليه: أن أعطيها حكمها، فانطلقت بهم إلى بحيرة موضع مستنقع ماء، فقالت: أنضبوا هذا الماء، فأنضبوه، فقالت: احتفروا، فاحتفروا، فاستخرجوا عظام يوسف، فلما أفلوها إلى الأرض، وإذا الطريق مثل ضوء النهار.

(١) في (أ): «ثلاثًا».

(٢) في (ف) و(أ): «لأفرائيم».

(٣) في جميع النسخ: «هو الذي طلب الخضر وخرق»، والمثبت من «تفسير القرطبي» (١١/٤٦٥).

(٤) رواه البخاري في «صحيحه» (٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠)، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن =

وكان بين دخول يوسف مصر إلى يوم خروج موسى أربع مئة عام، وأوصى موسى أن يحمل شخصه ويدفن بيت المقدس، وأوصى يوسف كذلك. وقال وهب: يُقال: إن الله لم ينزل كتاباً إلا ذكر فيه قصة يوسف تامة كما هي في القرآن، لا تزيد ولا تنقص.

(١٠٢) - ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾: أي: هذا من الأخبار التي يغيب علمها عن العباد، فلا يقف عليها إلا من علمه الله تعالى، فنحن نعلمك ونُوحِي^(١) إليك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾: أي: لدى إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾؛ أي: أحكموا الرأي والتدبير على طرحه في البئر ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بيوسف؛ أي: يحتالون على أن يفرقوا بينه وبين أبيه يعقوب، ليخلو لهم وجه أبيهم، فتعلم قصتهم بمشاهدتك إياهم وحضورك أمرهم، ولكن الله منَّ عليك بتعريف قصتهم، ولم يكن يفعل ذلك بك وهو يريد أن يخذلك وينصر أعداءك عليك، بل ينصرك ويُعلي شأنك كما فعل بيوسف وإخوته، فاسكن إلى هذا، وليهن عليك إعراض قومك عنك، فإن^(٢) أكثرهم لا يؤمنون.

= عباس: إن نوحاً البكالي يزعم: أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل، إنما هو موسى آخر، فقال: كذب عدو الله» وذكر حديث موسى عليه السلام والخضر.

(١) في (أ): «ونوحيه».

(٢) في (أ): «بل».

(١٠٣) - ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وهو قوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾: أي: لا يؤمنون وإن اشتدَّ حرصك على إيمانهم؛ لأنَّ هذا من أفعالي لا يقدر عليه آخرُ غيري^(١)، نظيره قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

والحرصُ: طلبُ أمرٍ باجتهادٍ في إصابته.

وقيل: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ من أهل مكة.

وقال الإمام أبو منصور: هي فيهم وفي غيرهم أيضًا^(٢).

(١٠٤) - ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾: يقول: لستَ تطمعُ في أموالهم، ولا ﴿تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على تبليغ القرآن - فقد سبق^(٣) ذكره في قوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ - شيئاً فينسبونك إلى الاستيكالِ فعلَ الطَّالِبِينَ العلَّوِّ في الأرض والمال، ولا أنت أيضًا رسولٌ بهذا القرآن إليهم وحدهم، بل القرآنُ ﴿ذِكْرٌ﴾؛ أي: القرآنُ تذكيرٌ^(٤) وموعظةٌ لجميع العالمين إلى قيام الساعة، ويتضمنُ ما بهم الحاجةُ إلى معرفته من أمر دينهم يتذكرون به ما ينسونه.

وقيل: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾؛ أي: شرفٌ لمن اتبعه من العالمين.

(١) في (ر) و(ف): «لأنَّ هذا من الله فلا يقدر عليه أحد غيره».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٩٤).

(٣) في (ر) و(ف): «تبين».

(٤) في (أ) و(ف): «تذكر».

(١٠٥) - ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾: أي: وكم من دلالة على وحدانية الله تعالى في السماوات والأرض. قال الضحاك: آيات السماوات: الشمس والقمر والنجوم^(١)، وآيات الأرض: ديار الأمم الهالكة وخرابها؛ قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ لَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْأَيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٨].

وقيل: آيات الأرض: الجبال والبحار والأنهار والأشجار. ووجه الاعتبار بالآيات: التَّفَكُّرُ فيما يقتضي من أن مدبراً دبرها قادراً عليها عالمًا بها لا يشبهها. وقوله تعالى: ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: غافلون لا يعتبرون بها، ولا يتفكرون فيها، ولا يتعظون بما قال الأولون. وقال القشيري رحمه الله: الآيات ظاهرة، والبراهين باهرة، وكل جزء من المخلوقات شاهد على أنه إله واحد، ولكن من غمض عينه لم يستمتع بضوء نهاره، وكذلك من قصر في نظره واعتباره لم يحظ بعرفانه واستبصاره^(٢).

(١٠٦) - ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩ / ٣٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥ / ١٦٢٤)، لكن في تفسير

قوله تعالى: ﴿مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ﴾ [الأنعام: ٧٥].

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢ / ٢١٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾: هذا تعديدٌ لقبائح أولئك المشركين، وتبديدٌ لإيمانهم بالقرآن.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد أنهم حين سُئِلُوا: مَنْ خَلَقَكُمْ؟ وَمَنْ يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً؟ ليقولنَّ الله، فهذا إيمانهم، ثم هم يعبدون الأوثان، ويقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، و: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فهذا شركهم^(١).

وقال مجاهدٌ: في التَّلْبِيَةِ: يقولون: لبيك لا شريك لك، إِلَّا شريكٌ هو لك، تملكه وما ملك^(٢).

وقال عطاءٌ: هذا في الدعاء، وذلك أن الكفار نسوا ربهم في الرِّخَاءِ، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾ الآية [يونس: ١٢]^(٣).

وقال الحسنُ: هم أهل الكتاب، معهم شركٌ وإيمان^(٤).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل: وما يؤمن أكثرهم بالله أَلَسْتُمْهُمْ إِلَّا وَهُمْ مشركون بقلوبهم.

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٣٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢٢٠٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٣٧٦) عن الضحاك، وروى مسلم (١١٨٥) تلييتهم هذه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢٦٣).

(٤) ذكره الجصاص في «أحكام القرآن» (٣ / ٢٣١)، وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧ / ٢٢٠٧) عن الحسن أنه قال في هذه الآية: «ذاك المنافق يعمل إذا عمل رياء للناس، وهو مشرك بعمله ذاك».

ويحتمل: وما يؤمن أكثرهم بالله في النعمة أنها من الله إلا وهم مشركون في الشُّكر له^(١).

وقال القشيري: الشُّرك نوعان: جليٌّ وخفيٌّ، فالجليُّ أن يتَّخذَ من دون الله تعالى معبودًا، والخفيُّ أن يتَّخذَ بقلبه عند حوائجه من دونه مقصودًا. وقيل: شركُ العارفين أن يتَّخذوا من دونه مشهودًا أو يطالعوا سواه موجودًا^(٢).

(١٠٧) - ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: هذا وعيدٌ لهم أُخرجَ مخرجَ التَّعَجُّبِ؛ أي: عجبًا من غفلتهم^(٣)، أما يخافون أن تفجأهم عقوبةٌ من الله تغشاهم، وتفسيره: تجلّلهم، ومعناه: تعمّهم، كما جاءت من قبلهم من الأمم العاصية، أو تأتِيهم القيامة فجأة لا علم لهم بإتيانها.

(١٠٨) - ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾: أي: طريقي التي أسلكها، أبتغي بها الجنة في الآخرة.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٩٦).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢١٢).

(٣) في (أ): «عقلهم».

وقوله تعالى: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾: هو بيان السَّبِيل؛ أي: أدعو إلى الله وحده، دون الشركاء والأنداد التي يجعلها المشركون.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾: أي: على بيانٍ وحيَّةٍ، أنا وكلُّ مَنْ آمَنَ بي، لا على تقليدٍ وإلفٍ عادةٍ.

﴿وَسُبِّحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: واعترض في خلال هذا: ﴿وَسُبِّحَنَ اللَّهُ﴾ على معنى: أدعو إلى الله وحده، وسبحانه؛ أي: تنزيهاً له عن أن يكون معه إلهٌ غيره، نصبٌ على المصدر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾؛ أي: دعوتي^(١).

وقال الضَّحَّاك: أي: دعواي^(٢).

وقال مقاتل: يعني: ديني^(٣).

(١٠٩) - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾: أعلم الله نبيّه حاجةَ المشركين فيما قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] ونحو ذلك، فقال: وما بعثنا بالنبوة من قبلك إلا رجلاً لا ملائكة، وكانوا من أهل القرى لا من سگان

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٢٠٩ / ٧).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٦٣ / ٥).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢ / ٢٥٣)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ٢٦٣).

السَّمَاءِ، فكذا أنت، فلا يهولنك قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] ونحو ذلك؛ فإنهم يجهلون سبيل النبوات.

ولا عذر لهم في تكذيبك وإن كنت بشراً، كما لم يكن للذين كانوا من قبلك في تكذيب رسلهم، بل كان عاقبتهم البوار والدمار.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾: أي: ولدار الحياة الآخرة، أو لدار النشأة الآخرة خيرٌ ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشُّرَكَ والمعاصي.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أي: أفما لهؤلاء المشركين عقولٌ يتدبرون بها هذه الحُجَج والمواعظ، فينجوا من الهلاك.

وقيل: معنى ﴿أَهْلِ الْقُرَى﴾: أهل الأمصار دون البوادي؛ لأنهم أعلم وأحلم^(١). وقال الحسن: لم يبعث الله نبياً من أهل البادية قط، ولا من الجن، ولا من النساء^(٢).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: إنما بُعِثَ الرُّسُلُ مِنَ الْأَمْصَارِ لَا مِنَ الْبَوَادِي؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْأَمْصَارِ لَهُمْ اخْتِلَاطٌ بِأَصْنَافِ النَّاسِ وَتَجَارِبٌ، فَهُمْ أَعْقَلُ وَأَعْلَمُ، وَأَهْلُ الْبَوَادِي لَهُمْ اخْتِلَاطٌ بِالْبَهَائِمِ فَهُمْ عَنِ الْعِلْمِ أَبْعَدُ.

ولأن الرُّسُلَ لَهُمْ أَعْلَامٌ تَتَقَدَّمُ عَلَى وَقْتِ الرِّسَالَةِ، تَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَظْهَرَ^(٣) ذَلِكَ

(١) في (ف): «وأحكم».

(٢) ذكره الجصاص في «أحكام القرآن» (٣/ ٢٣٢)، والماوردي في «تفسيره» (٣/ ٨٨)، والواحدي في «البيسط» (١٢/ ٢٦٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٥).

(٣) في (ر) و(ف): «إلى تظهير».

للخلق؛ ليكون ذلك أسرع إلى الإجابة لهم، فإذا كانوا من أهل البوادي لا يظهر ذلك للخلق.

والثالث: أنه يراد من الرسالة إظهارها للخلق في الآفاق من الأمصار، وهي الأمكنة التي ينتابها الناس في التجارات وأنواع الحاجات من الأطراف، وأما البوادي فالبوادي ليس يدخلها ولا ينتابها إلا الشاذ من الناس، ولا تقضى فيها الحوائج، فلا تظهر في الخلق الرسالة وما يراد بها^(١).

(١١٠) - ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ﴾: أي: وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً مثلك يبلغون الرسالة ويوضحون الدلالة، حتى إذا استيأس هؤلاء الرسل من إيمان قومهم. كذا فسّره عائشة رضي الله عنها^(٢) وفتادة وجماعة^(٣)، وذلك يكون بظهور العناد^(٤) أو بإخبار الله تعالى.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٢٩٨).

(٢) رواه البخاري (٣٣٨٩). ولفظه: عن عروة أنه سأل عائشة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ: أرأيت قوله: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِّبوا﴾ أو كُذِّبوا؟ قالت: «بل كَذَّبهم قومهم»، فقلت: والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم، وما هو بالظن، فقالت: «يا عروة لقد استيقنوا بذلك»، قلت: فلعلها: أو كُذِّبوا، قالت: «معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها، وأما هذه الآية، قالت: هم أتباع الرسل، الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، وطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، حتى إذا استيأست ممن كذبهم من قومهم، وظنوا أن أتباعهم كذبوهم، جاءهم نصر الله».

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٤٥)، والطبري في «تفسيره» (١٣ / ٣٩٧).

(٤) في (أ): «الفساد»، وفي (ف): «العباد».

وقوله تعالى: ﴿وَزَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾: قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتخفيف، والباقون بالتشديد^(١).

وللتشديد وجهان:

أحدهما: وزن الرُّسُل - أي: أيقنوا - أنَّ الأمم كذبوهم تكديبا لا يؤمنون بعده، وهو قول الحسن وجماعة^(٢)، والظنُّ يكون بمعنى اليقين، كما قال الشاعر:

فقلتُ لهم ظنُّوا بألفي مُدَجِّجٍ سَرَاتُهُمْ فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ^(٣)
والثاني: وزن الرُّسُل حقيقة الظنِّ دون اليقين أنَّ مَنْ آمَنَ بهم كذبوهم أيضًا حين تأخر النصرُ عنهم. وهو قول عائشة^(٤) وقتادة.

وتقدير الآية: حتَّى إذا قنط المرسلون عن إيمان مَنْ كذبهم إلى الآن، وظنُّوا^(٥) أيضًا أنَّ الذين صدَّقوهم وآمنوا بهم ثمَّ امتدَّ بهم البلاء وتأخر الفرج والرجاء كذبوهم أيضًا = أتاهاهم^(٦) نصرنا.

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٥١)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٠).

(٢) رواه عن الحسن الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٣٩٧).

(٣) البيت لدريد بن الصمة. انظر: «ديوانه» (ص: ٤٧)، و«الأصمعيات» (ص: ١٠٧)، و«جمهرة أشعار العرب» (ص: ١٨٠)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (١١ / ٣٠١). قال البغدادي: المدجج بفتح الجيم وكسرها: الكامل السلاح، وقيل: بالكسر للفارس وبالفتح: الفرس، وإنهم كانوا يدرعون الخيل. و(سراتهم) بالفتح: أشرفهم، مبتدأ و(بالفارسي) خبره، والباء بمعنى في. والدرع الفارسي يصنع بفارس. والمسرد: المُحكَّم النسيج، وقيل: هو الدَّقِيق الثقب.

(٤) رواه البخاري، وقد تقدم قريبا.

(٥) في (أ): «أن قنطوا» بدل: «الآن وظنوا».

(٦) في (ف): «جاءهم».

وقراءة التَّخْفِيف لها وجهان أيضًا:

وظنَّ القومُ أنَّهم - أي: القوم - كُذِّبُوا؛ أي: كَذَّبَهُمُ الرُّسُلُ فيما أخبروهم به من نصرِ الله لهم وإهلاكِ أعدائهم، وهو قولُ ابنِ عَبَّاسٍ وابنِ مسعودٍ وسعيد بن جبير ومجاهدٍ وابنِ زيدٍ والضَّحَّاك^(١).

وقريبٌ من هذا الوجه قولُ بعضهم: وظنَّ القومُ ﴿أَنَّهُمْ﴾؛ أي: الرُّسُلُ ﴿كُذِّبُوا﴾ بالتَّخْفِيفِ؛ أي: كَذَّبَهُم مِّنْ أَخْبَرَهُم مِّنِ الْمَلَائِكَةِ ونحوهم عن الله في وعد النَّصرِ على الكُفَّار ونحو ذلك.

ووجهٌ آخر: وظنَّ الرُّسُلُ - أي: أيقنوا - ﴿أَنَّهُمْ﴾؛ أي: الرُّسُلُ ﴿كُذِّبُوا﴾: كَذَّبَهُم مِّنْ وَعَدَهُم مِّنْ قَوْمِهِمْ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِمْ، ويكونُ الكَذْبُ في معنى إخلاف الوعد، كما يُسمَّى إنجازُ الوعدِ صدقًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾: يقول: لم نكن نعاجلُ أممَ الرُّسُلِ بالانتقامِ منهم على تكذيبِهِمْ، بل كنَّا نمهلُهُم حتَّى إذا وقع اليأسُ وضاقَتِ الأحوالُ أتاهم نصرُنا.

وقوله تعالى: ﴿فَنَجَّى مَن نَّشَاءُ﴾: قرأ عاصم وابن عامر: ﴿فَنَجَّى﴾ بنونٍ واحدةٍ وتشديدِ الجيمِ وفتح الياءِ على ما لم يُسمَّ فاعله، من نجاه ينجيه تنجيةً؛ أي: خلَّصه.

وقرأ أبو عمرو في روايةٍ: ﴿فَنَجَّى﴾ بنونٍ واحدةٍ وتسكينِ الجيمِ على

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٣٨٣ - ٣٩٠).

حذف إحدى النونين^(١)، كحذف إحدى التائين كقوله: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ شَبَهُ عَلَيْنَا﴾^(٢) [البقرة: ٧٠].

وقرأ الباقون: ﴿فَنُنَجِّي﴾ بنونين على الاستقبال^(٣)؛ أي: فننجي الأنبياء وأتباعهم.

﴿وَلَا يَرُدُّ بَأْسَنَا﴾: أي: عذابنا ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: الكافرين.

(١١١) - ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.
وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أي: في قصص يوسف وإخوته وأبيه.

(١) لعله أراد ما ذكره ابن مجاهد في «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٢) بقوله: (وروى نصر بن علي عن أبيه عن أبي عمرو: ﴿فَتُجَيَّ مِنْ شَاءٍ﴾ يدغم)، قال ابن مجاهد: (وهذا غلط في قوله: «يدغم» ليس هذا موضعاً يدغم فيه، إنما أراد أنها محذوفة النون الثانية في الكتاب وهي في اللفظ بنونين؛ الأولى متحركة والثانية ساكنة، ولا يجوز إدغام المتحرك في الساكن؛ لأن النون الثانية ساكنة، والساكن لا يدغم فيه متحرك، وكذلك النون لا تدغم في الجيم، فمن قال: يدغم، فهو غلط، ولكنها حذفت من الكتاب؛ أعنى النون الثانية لأنها ساكنة تخرج من الأنف فحذفت من الكتاب، وهي في اللفظ مثبتة). وهي خلاف المشهور عن أبي عمرو.

(٢) يعني: بضم الهاء، نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤)، و«البحر» (١٨٥/٢).

(٣) هي قراءة الكسائي وحزمة وابن كثير وأبي عمرو ونافع. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٢)، و«التيسير» (ص: ١٣٠).

وقيل: في قصص الأنبياء كلهم عبرة؛ أي: دلالة يُعبر^(١) بها إلى البُغية لأولي العقول الخالصة، إذا كان ذلك حقاً من الله، فيحقُّ على العقلاء الاعتبارُ به.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾: أي: لم يكن خبراً يُخْتَلَق حتى ينبغي للعقلاء أن يرفضوه ويعرضوا عنه ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: بل كان تصديقاً للتوراة والإنجيل والكتب المنزلة قبله. قاله الحسن ومجاهد^(٢).

وإنما قال: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لأنَّه قد وُجِدَ، فصار^(٣) كأنَّه حاضر له.

وقيل: لأنَّه قريبٌ منه كقُرْبِ ما كان بين يدي الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾: أي: وتبييناً لكلِّ شيءٍ ممَّا بالنَّاس حاجةٌ إليه في دينهم.

﴿وَهُدًى﴾ إلى الحقِّ والصِّراطِ المستقيم ﴿وَرَحْمَةً﴾ من الله ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: رحمٌ بها المؤمنين.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وفي هذه القصة تصبيرُ رسولِ الله ﷺ على أذى قريشٍ، يقول: إِنَّ إخوة يوسف مع موافقتهم إِيَّاه في الدِّين والنَّسب عملوا بيوسفَ ما عملوا من الكيدِ والمكرِ، فصبرَ على ذلك، فأنتَ مع قومِكَ وهم مخالفون لك في الدِّين أحرى أن تصبرَ على أذاهم^(٤).

وقال الإمام البشاعريُّ: ففيه دليلٌ على صدقِ محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام؛

(١) في (ف): «يعتبر».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٤٠٣) عن قتادة. وذكره الواحدي في «البيسط» (١٢ / ٢٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وقاتدة.

(٣) في (ر) و(ف): «نصاً».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦ / ٣٠٠).

حيث قصَّ قصَّةَ يوسفَ وغيرها على حسب ما يجدها أهل الكتب في كتبهم من غير زيادة ولا نقصان، مع معرفتهم أنَّه لم يَخْتَلَفْ إلى أحدٍ يتعلَّم منه، ولا نظر في الكتب فتلقَّاه، فما هو إلَّا عن الوحي، ولا وحي إلَّا إلى الرُّسل.

وقال بعض المحقِّقين: ثمَّ العبرُ في هذه القصَّة ما حُمِّل يوسف على صغره من المحنِّ من جهة إخوته: مِنَ الطَّرْحِ في البئر، والبيع بالثمن البَخْس، وما ابْتُلِيَ به مِنَ الاسترقاق والحبس الطَّويل من غير جُرم ولا استحقاق، فالعبرةُ به أنَّ الله يفعل ما يشاء، لا اعتراض لأحدٍ عليه.

ثمَّ صبرُ يوسفَ على هذه المحنِّ كلِّها إلى أنْ خُتِمَ له بالملك والعلوِّ دليلٌ على أنَّه لا يخسر أحدٌ على الصَّبْر عند جريان المقادير عليه.

ثمَّ ما فيه من التَّنبيه على أنَّ مَنْ قَدَرَ على إعزاز يوسف بعد إلقائه في الحبِّ، وإعلائه بعد حبسه في السَّجن، وتمليكه مصر بعد أن كان لبعض أهلها في حُكْم العبد، ثمَّ جمعَ بينه وبين أبويه وإخوته على ما أحبَّ بعد المدة الطويلة = لقادرٌ أنْ يُعِزَّ مُحَمَّدًا ﷺ ويُعَلِّي كلمته وينصره على مَنْ عاداه من قومه.

ثمَّ ما امتُحِنَ به أبوه من الوجد بفقدِه إلى أنْ ابْيَضَّت عيناه من البكاء عليه، إلى أنْ جمعَ اللهُ شمله وردَّ عليه ابنه سلوةً للمُمتَحنين، وإطماخٌ لهم في تبديل الحال، وتعريض المحنة للزوال.

ثمَّ فيما جرى على يوسف من جهة إخوته الَّذِينَ هم أولى النَّاس بالشفقة عليه والدَّب عنه ما ابْتُلِيَ^(١) رسولُ الله ﷺ في عداوة قومه وأقاربه له.

ثمَّ فيما فعله يوسفُ في السَّجن من دعاءِ الفَتَيْنِ إلى الله تعالى، وإقامة الحجَّة

(١) في (أ): «ما يبلي».

عليهما للتَّوْحِيدِ، وعلى بُطْلَانِ الشُّرْكِ = ما يُوجِبُ على رسول الله ﷺ سلوكَ طريقته في الصَّبْرِ على الدُّعَاءِ إلى الله، والقيام به في كلِّ وقتٍ ممكنٍ، وقد فعلَ ذلك رسولُ الله ﷺ وأكثر منه.

ثمَّ ما كان من يوسف من بَسْطِ العَدْلِ في مُلكِهِ عبرةٌ للملوكِ، وفي المنِّ والإحسانِ إلى الرِّعيَّةِ؛ لأنَّ يوسفَ لَمَّا ملكَهم أعتَقَهم كلَّهم.

ثم ما فيه من العِبْرَةِ لأربابِ التَّقْوَى؛ فإنَّ يوسفَ لَمَّا تركَ هواه، رَقَّاه الله إلى ما رَقَّاه.

ومنها: العِبْرَةُ لأهلِ الهوى في اتِّباعِ الهوى من شِدَّةِ البلاءِ، كما مرَّةَ العزيزِ لَمَّا تَبَعَتْ هواها لَقِيَتْ ما لَقِيَتْ مِنَ الضَّرِّ.

ومنها: العِبْرَةُ للمماليك في حِفْظِ حُرْمَةِ السَّادَةِ^(١)، كيوسفَ لَمَّا حَفِظَ حُرْمَةَ العزيزِ في زليخا مَلِكَ مُلْكِ العزيزِ، وصارَتْ زليخا امرأته حلالاً.

ومنها: العَفْوُ عند القدرة، كيوسفَ حين تجاوز عن إخوته.

وغير ذلك من الإشاراتِ الَّتِي سَبَقَتْ^(٢) في هذه النُّسخة وفي غيرها لأهل العلم والحكمة.

وقال بعضُ الواعظين: كان الله تعالى خَلِيلُ يُسْمَى إبراهيمَ، فأعطاهُ وَلَدًا يُسْمَى إسحاقَ، ونافلةً يُسْمَى يعقوبَ، فوُلِدَ ليعقوبَ أولادٌ، وَخَصَّ اللهُ بعضَ أولادِهِ بِكمالِ وجمالِ ولطفٍ وهو يوسفُ، فأثَرَهُ أبوه بحُبِّهِ على إخوته، فاحتالوا حتَّى غَيَّبُوهُ عنه وطرحوه في البئرِ، ثم باعوه بالثَّمَنِ البَخْسِ اليسيرِ، فقاسى يوسفُ شِدائِدَ الرِّقِّ،

(١) في (أ): «السيادة».

(٢) في (أ) و(ر): «من إشارات سبقت».

وَابْتُلِيََتْ بِهِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ بَلِيَّةَ الْعَشَقِ، فَرَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ بِعَصْمَةِ الْحَقِّ، وَبَدَأَ لَهُمْ حَبْسُهُ فِي السَّجْنِ فَطَالَ ذَلِكَ، ثُمَّ بَعْدَ بَضْعِ سَنِينَ زَالَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَفْضَى بِهِ عِلْمَ التَّعْبِيرِ إِلَى مُلْكِ مِصْرَ وَالْجُلُوسِ عَلَى السَّرِيرِ، ثُمَّ جَاءَ إِخْوَتُهُ مَرَّاتٍ وَامْتَارُوا مِنْهُ كَرَّاتٍ، ثُمَّ جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَ يَعْقُوبَ وَيُوسُفَ، وَزَالَ التَّأْسِي وَالتَّأْسَفُ، وَجُمِعَ الشَّمْلُ، وَبَسَطَ يُوسُفُ عَلَى إِخْوَتِهِ الْفَضْلَ، فَتَنَعَّمُوا أَيَّامًا وَشُهُورًا وَأَعْوَامًا، ثُمَّ مَاتُوا وَبَانُوا، وَكَانَتْهُمْ مَا كَانُوا، وَلَا بِلَاءُ يَعْقُوبَ وَلَا بَكَاءُ، وَلَا إِخْوَةٌ وَلَا جَفَاءٌ، وَلَا سَجْنٌ وَلَا سَجَانٌ، وَلَا عَزِيزٌ وَلَا رِيَّانٌ، وَلَا يُوسُفُ وَلَا أَصْحَابٌ، وَلَا خَوْلٌ^(١) وَلَا أَحْبَابٌ، وَلَا مَمْلَكَةٌ وَلَا أَسْبَابٌ، وَلَا أُمَرَاءُ وَلَا حُجَّابٌ، وَهَذِهِ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ.

وَقِيلَ: هَذِهِ الْقِصَّةُ مَرَاةَ كُلِّ مُؤْمِنٍ؛ كَانَ لِيُوسُفَ جَمَالُ الظَّاهِرِ فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ زَلِيخَا، وَلِلْمُؤْمِنِ جَمَالُ الْبَاطِنِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ الْمَوْلَى.

وَكَانَ لِيُوسُفَ حُسْنُ الصُّورَةِ فَاشْتَرَاهُ الْعَزِيزُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ [يُوسُفَ: ٢١]، وَلِلْمُؤْمِنِ حُسْنُ السَّيْرِ فَاشْتَرَاهُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التَّوْبَةِ: ١١١].

وَلَمَّا اشْتَرَاهُ الْعَزِيزُ أَدْخَلَهُ دَارَ زَلِيخَا، وَلَمَّا اشْتَرَى اللَّهُ الْمُؤْمِنَ أَدْخَلَهُ الدُّنْيَا.

فَأَوْقَعَتْ زَلِيخَا يُوسُفَ فِي التُّهْمَةِ، وَأَوْقَعَ الشَّيْطَانُ الْمُؤْمِنَ فِي الْمَعْصِيَةِ.

فَنُقِلَ يُوسُفُ إِلَى السَّجْنِ، وَالْمُؤْمِنُ إِلَى الْقَبْرِ، فَسُئِلَ يُوسُفُ فِي السَّجْنِ عَنْ تَأْوِيلِ الرُّؤْيَا، وَسُئِلَ الْمُؤْمِنُ فِي الْقَبْرِ عَنْ اللَّهِ وَعَنِ الرَّسُولِ وَالْهُدَى.

فَأَجَابَ يُوسُفُ عَلَى الصَّوَابِ فَأَكْرَمَهُ الرِّيَّانُ، وَيَجِيبُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الصَّوَابِ فَيَكْرُمُهُ الدِّيَّانُ.

(١) فِي (أ): «حَوْل».

ووصل يوسفُ إلى ملكِ مصرَ، والمؤمنُ يصلُ إلى ملكِ الجنَّةِ.

وقيل ليوسفَ: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، ويقال للمؤمن: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥١].

وختَمَ قصَّةَ يوسفَ بقوله: ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، ويقال للمؤمن: ﴿لِيُمِثِّلَ هَذَا لَعَلَّ الْمُتَعَمِّلِينَ﴾ [الصافات: ٦١].
